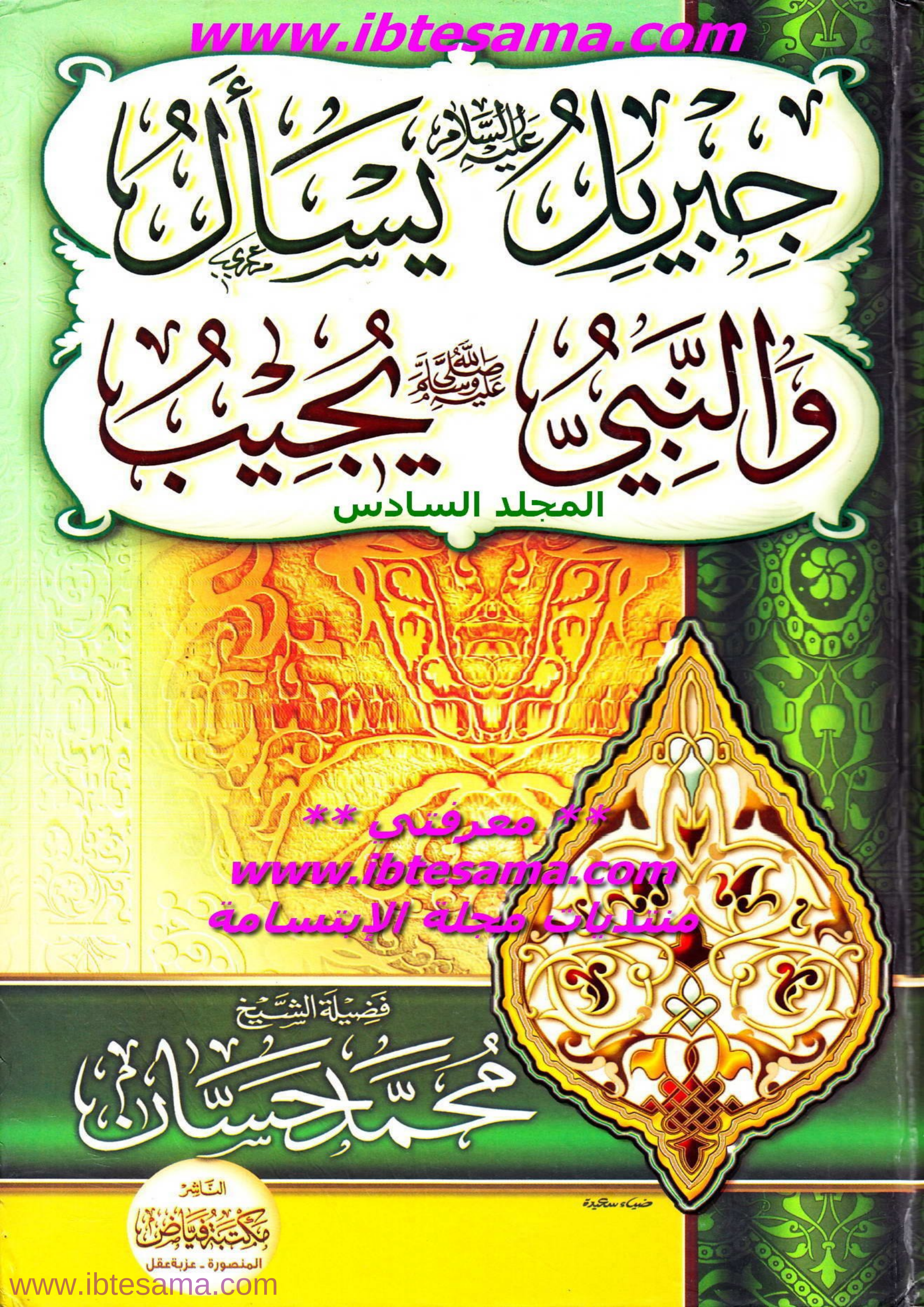


www.ibtesama.com
جبريل عليه السلام يسأل
والنبي صلى الله عليه وسلم يجيب
المجلد السادس
** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة
فضيلة الشيخ
محمد حسان
الناشر
مكتبة فياض
المنصورة - عزبة عقل
www.ibtesama.com

جبريل عليه السلام يسأل
والنبي صلى الله عليه وسلم يجيب

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠٩/٨٦٠٣

مكتبة
فياض للتجارة والتوزيع

المنصورة: شارع عبد الهادي - عزبة عقل

ت: ٠٥٠ / ٢٢٦٧٣٩٨

جبريل عليه السلام يسأل والنبي صلى الله عليه وسلم يجيب

تأليف

فضيلة الشيخ

مُحَمَّد بن حَسَّان

المجلد السادس

مكتبة

فياض للتجارة والتوزيع

ما هي الغاية من العبادة ؟

الأصل في العبادات أنها تؤدى امتثالًا لأمر الله تبارك وتعالى ، وأداءً لحقه - جَلَّ وعَلاَ - على خلقه وعباده ؛ فلقد تعرفنا على السبب الأول من أسباب عبادتنا لربِّنا - جَلَّ وعَلاَ - ألا وهو (العبادة حق لله على عباده) وليس من اللازم أبدًا أن يكون لهذه العبادات ثمراتٌ ومنافع في الحياة الدنيا من أجل أن يتعبد بها الإنسان لربِّه تبارك وتعالى ، ولستُ بذلك أريد أن أنفي الثمرات في الدنيا عن العبادات ، إنما أودُّ أن أقول : حتى ولو جهل الإنسان الحكمة والثمرة من وراء العبادة ؛ فإنه يلزمه أن يعبد الله تبارك وتعالى ؛ فالعبادة تُؤَدَّى في الأصل ؛ امتثالًا لأمره ، واجتنابًا لنهيه ، ووقوفًا عند حدوده سبحانه وتعالى ؛ فالأَصْلُ أنها ابتلاءٌ لعبودية الإنسان لربه ؛ فما معنى أن يتخلَّى الإنسان عن عبادة الله إن لم يدرك سرَّ العبادة أو الحكمة من ورائها ؟! فالعبدُ عبدٌ والربُّ ربٌّ ، وما أسعد وأروح للإنسان أن يعرف قَدْرَ نفسه بعد أن يعرف قَدْر ربِّه تبارك وتعالى ، ولو كان الإنسان لا يتعبَّد إلا بما يوافق عقله وهواه ، وإلا بما يعرف به الحكمة تفصيلاً ، فإن عجز عن إدراك السرِّ والحكمة لعبادةٍ من العبادات أعرض ونأى بجانبه ، لكان العبد في هذه الحالة عَبْدَ عقلِهِ وهواه ، لا عبدًا لسيده ومولاه !!

فمثلاً ؛ إذا قال النَّبيُّ ﷺ حينما أخذ الذهب والحرير يومًا وقال[1] : « هَذَانِ حِلٌّ لِإِنَاثِ أُمَّتِي حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِهَا »؛فلو أن رجلًا من المسلمين لم يفهم سرَّ

(١) أخرجه أحمد (١/ ٩٦) ،والنسائي ، كتاب « الزينة » ، باب تحريم الذهب على الرِّجال (٨/ ١٦٠ـ ١٦١) ، وابن ماجه ، كتاب «اللباس» باب لبس الحرير والذهب للنساء (٣٥٩٥) ، وصحَّحهُ الألباني في « صحيح ابن ماجه » (٣٥٩٥) ، و « الإرواء » (٢٧٧) .

التحريم أو الحكمة وراء تحريم الذهب ، وقال : لَنْ أمتنع عن لُبْسِ الذَّهَب إلاَّ إذا عرفت الحكمة من وراء ذلك ! لكان بعيدًا عن العبودية ؛ فالعبوديَة له تبارك وتعالى شعارُها الإيمانُ بالغيب ؛ بل إنَّ أول صفةٍ من صفاتِ المؤمنين ذكرها الله تبارك وتعالى في أول سورة البقرة أنهم يؤمنون بالغيب ؛ فقال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة:١ـ٣] ، فحسب المؤمن أن يعلم على سبيل الإجمال أن الله تبارك وتعالى غنيٌّ عن كلِّ خلقه ، لا تنفعه طاعةُ الطائعين ، ولا تضرُّه معصيةُ الجاحدين المذنبين ؛ قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾[فاطر:١٥ـ١٧] .

وقال تعالى: ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل:٤٠] . وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[آل عمران:٩٧] ؛ فالله غنيٌّ عن عباده ، وإن تعبدهم بشيء ؛ فإنها يسعدهم في الدنيا والآخرة ، ويعود عليهم بكلِّ خير ، كما ذكرت في أسباب العبادة ؛ فالعبادة هي غذاءٌ لأرواحنا ، وسبيلُ حريتنا وعزتنا ، ونعبده طلبًا لمرضاته سبحانه وتعالى ، وهي برهانٌ على أننا نخشى عقاب الله سبحانه وتعالى ؛ فكم أخفى الله سبحانه وتعالى من أسرار خلقه عن خلقه وعباده ، إذ لا يُعْلم أسرار الكون إلا في الوقت الذي يريده الله بالقدْرِ الذي يريده ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[البقرة:٢٥٥] ، كذلك أخفى الله ﷻ أسرار بعض العبادات عن

الخلق ، والمسلم يكون دائرًا دائمًا في فَلَكِ العبودية ، وشعاره مع كلِّ أمر ، ونهي ، وحدٍّ ، سواء فَهِم الحكمة من ورائه أولم يفهمها ؛﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥] .

انظر إلى الحج مثلًا ـ كركنٍ من أركان هذا الدين ـ يقول فيه عمر بن الخطاب ﷺ وهو يُقَبِّل الحجر الأسود : « والله إني أعلم أنك حجر لا تضرُّ ولا تنفع » ... هذا هو التقديم العقليُّ ، ولكنه قال بعدها : « وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ »[1] . تغليبٌ للعبودية لله تبارك وتعالى على منطق العقل ؛ فالله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ يأمرك أن تطوف بالبيت الحرام ، والإسلام يُشرِّع لك أن تُقبِّل الحجر الأسود ، وفي منًى يشرع لك أن ترمي حجرًا بحجر .. إلى غير ذلك ؛ فالمؤمن دائرٌ في فلك العبودية لله سبحانه وتعالى ، فلا تَقُلْ : لماذا كان صوم رمضان ثلاثين يومًا ؟ لماذا لم يكن أربعين يومًا ؟ لماذا لم يأمرنا الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ بصيام نصف الشهر مثلاً ؟ لماذا لم يأمرنا الله تبارك وتعالى بصيام عشرين يومًا من رمضان ؟ لماذا جعل الله صلاة المغرب ثلاث ركعات ولم يجعلها أربع ركعات ؟ ولماذا جعل صلاة العشاء ضِعْف صلاة الصبح مثلاً ؟! فالمؤمنُ دائرٌ في فلك العبودية لربِّ البرية تبارك وتعالى ... لذلك لا ينبغي أن تسأل المؤمنة : لماذا ألبسُ الحجاب ؟ لماذا لا أخرج بالزِّي الذي أرتضيه لنفسي !! ما دمتُ قد أسلمت لله ، وأثبتُّ العبودية لله تبارك وتعالى ؟!! فشعار المؤمنين الصادقين على الدوام:﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥] . .

قال الإمام الغزاليُّ ـ رحمه الله وغفر لنا وله ـ في كتابه «المنقذ من الضلال»[2] :

---

(١) سبق تخريجه قريبًا ، وهو في « صحيح البخاري» (١٥٩٧) ، ومسلم (١٢٧٠) .

(٢) انظر : « المنقذ من الضلال » (١٧ بتصرف) .

« إن العبادات لصحة قلب الإنسان كالأدوية لصحة بدنه ، وليس كلُّ إنسان يعرف خواص الدواء وسر تركيبه إلا الطبيب أو العالم الذي اختص بمعرفته.. وكلُّ مريض يقلد الطبيب فيما يصف له من دواء ولا يناقشه فيه ؛ فكذلك بان لي على الضرورة أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء ، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها التقليد؛ تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل »،

قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى:٥٢] ؛ فرسولُ الله ﷺ صاحب أشرف وأطهر وأتقى وأزكى عقل ، لم يعرف شيئًا عن الكتاب ولا الإيمان بعقله الفذِّ المفريد ،وإنما عرف كلَّ ذلك بعدما أوحى إليه ربُّه تبارك وتعالى ؛ فكذلك الإنسان : لا ينبغي له البتة أن يقدِّم عقله ليجعل من عقله إلهًا أو حاكمًا على سرِّ العبادات ؛ بل يجبُ عليه أن يقلِّد الأنبياء ، بمعنى : أن يأخذ هذا من الأنبياء ؛ لأن الأنبياء ما عرفوا سِرَّ هذه العبادات بعقولهم ، وإنما بوحْيٍ من ربهم تبارك وتعالى ؛ قال الغزاليُّ : « بل يجب أن نقلِّد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة ، لا ببضاعة العقل ،وكما أن اختلاف الأدوية في المقدار والوزن والنوع لا يخلو من سِرٍّ ؛ فكذلك العبادات التي هي أدوية داء القلوب مركَّبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار ، ولا تخلو أيضًا عن سِرٍّ من الأسرار ، ولا يطلع على هذه الأسرار إلا الأنبياء بنور النبوة ، ومن زعم أنه يصل إلى هذه الأسرار بعيدًا عن الأنبياء ؛ فقد تحامق وتجاهل جدًّا ، إذا أراد أن يستنبط الحكمة من هذه العبادات ، أو ظن أنها ذُكِرت على الاتفاق لا من سرٍّ إلهيٍّ فيها » .

إذًا هذه العبادات لها حِكَمٌ أطْلع الله عباده على بعضها ، وحجب عن عباده البعض الآخر ؛ فإذا قام العبد ليقف على سرِّ كلِّ عبادة ، وعلى الحكمة من ورائها ، ولا يتعبد لله إلا إذا وقف عليها ؛ فهو من أحمق الخلق ، ومن أجهل الناس ؛ لأنه لا يستطيع أبدًا أن يصل إلى سرِّ كلِّ عبادةٍ وإلى الحكمة من ورائها عن طريق العقل ؛ بل يتوصل إلى ذلك عن طريق نور النبوة من خلالِ أنبياء الله ورسله ـ عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه .

يقول الشاطبيُّ ﷺ[1] : « إن للعبادة مقصدًا أصليًا ، ومقاصد تابعة » .

فالمقصد الأصلي للعبادة هو : التوجُّه إلى الله الواحد الأحد ، والإقرار له تبارك وتعالى بالعبودية ، وإفراده بالقصد والنية ، ويتبع هذا المقصد الأول مقاصد أخرى كثيرة بشرط أن تكون المقاصد التالية لهذا المقصد الأول تابعةً له.

فمثلاً : المقصد الأول للصلاة : أن تثبت عبوديتك لله تبارك وتعالى ، ولا حرج بعد ذلك أن تريد بهذه الصلاة راحةَ قلبك ؛ كما في حديث النبيِّ ﷺ : « أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلاَلُ »[2] «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ»[3] ، وكذلك لا حرج أن تقضي بها حاجةً من حوائج الدنيا ؛ بصلاة قضاء الحاجة[4] ، أو بصلاة الاستخارة[5] ، أو بصلاة الليل ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ

---

(١) انظر : « الموافقات » (٢/ ١٠٠، ٣٩٦ـ ٣٩٩) ، (٣/ ١٥٦) ط دار المعرفة .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٤) ، وأبو داود ، كتاب « الأدب » ، باب في صلاة العتمة (٤٩٨٥، ٤٩٨٦) ، وصحَّحه الألباني في « صحيح الجامع » (٧٨٩٢) .

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨) ، والنسائي ، كتاب « عشرة النساء » ، باب حب النساء (٧/ ٦١) ، وصحَّحه الذهبيُّ في « الميزان» (٢/ ١٧٧) ، وابن القيم في « زاد المعاد » (١/ ١٥٠) ، وابن حجر في « التلخيص » (٣/ ١١٦) ، والألبانيُّ في « صحيح النسائي » (٣٦٨٠) .

(٤) كما في «سنن الترمذي» ، كتاب «الدعوات» (٣٥٧٨) ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٢٧٩) .

(٥) كما في «صحيح البخاري» ، كتاب «الدعوات» ، باب الدعاء عند الاستخارة (٦٣٨٢) عن جابر .

فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[الإسراء:٧٩] ، وقال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ ، وَقُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ » (١).

لابد أن تَتْبعَ كلُّ هذه المقاصدُ المقصدَ الأول للعبادة في الصلاة ، ألا وهو : إفراد الله وحده بالعبودية ، وإخلاص النية لله تبارك وتعالى .

فالمقصِدُ الأول : هو التوجه إلى الله الواحد الأحد بالعبادة ؛ امتثالًا لأمره ، واجتنابًا لنهيه ، ووقوفًا عند حدِّه ، حتى ولو لم أعرف الحكمة أو السرَّ من وراء هذه العبادة ؛ لأن هناك دعوة خبيثة يغني فسادها عن إفسادها ، ويغني بطلانها عن إبطالها .. هذه الدعوى تقول : إن القصد من وراء العبادة هو تزكية النفس ، وتربية الضمير ، واستقامة الخُلُق . وقالوا : إذا استطاع الإنسان أن يُزَكِّي نفسه ، ويربِّي ضميره ، ويُقَوِّمَ خُلُقَهُ ، بأي أسلوبٍ آخر ؛ كالتربية الروحية أو البدنية أو غير ذلك ، إذا استطاع بأيِّ وسيلة أخرى غير العبادة أن يصل إلى هذا المقصد ؛ فليس في حاجة إلى عبادة الله !!

وهذا معتقد كثير من المتصوفة الذين يقولون: القصد هو الله تعالى ؛ فهل يحتاج منا إلى صلاة؟! وهل يحتاج منا حجًا أوصدقة أو ذكرًا؟ هكذا قالوا !! لأن الهدف من وراء هذا ـ عند هؤلاء ـ تزكية النفس ، وتربية الضمائر ، واستقامة الأخلاق ، وصلاح النفوس !

وبكل أسف يتولَّى الضَّرْب على هذا الوتر الخبيث الآسن العفن الآن كثيرٌ

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ،كتاب « الدعوات » ، باب في دعاء النبي ﷺ (٣٥٤٩) عن بلال . قال الترمذيُّ : « وقد روى هذا الحديث معاويةُ بن صالح عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ ا.هـ وهو في « صحيح ابن خزيمة » (١١٣٥) ، وصحَّحه الألباني في « صحيح الجامع » (٤٠٧٩) .

ممن تحللَّوا من الأوامر والنواهي ، وراحوا يعبدون المادة !!، فنحن نعيش الآن عصرًا طغت فيه الماديات والشهوات ؛ فكثيرٌ من هؤلاء الذين شقَّ عليهم أن يمتثلوا الأمر ، وأن يجتنبوا النهي ، وأن يقفوا عند الحدِّ يدندنون الآن على هذا الوتر للتخلِّي عن العبادة ، أو إن شِئْتَ فقل : للتحرر من قيود العبادة !! زاعمين أن هذه وسائل وليست غايات !! قالوا : والغاية التي يريدها الله مِنَّا بدون الوصول أو بدون هذه الوسائل التي هي العبادات قد انتهينا إليها !! وهذه دعوة ماكرة خبيثة وباطلة ؛ فالعبادة ـ كما ذكرتُ ـ مطلوبةٌ لذاتها ، وغاية في نفسها ؛ بل هي الغاية التي خلق الله من أجلها الخلق ، ومن أجلها خلق السموات والأرض ، والجنة والنار ، وأنزل كلَّ الكتب ، وأرسل كلَّ الرسل ، ومن أجلها جُرِّدت السيوفُ للجهاد ، ومن أجلها انقسم الناس إلى فريقين : فريق في الجنة وفريق في السعير ؛ قال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] ، إنها آيةٌ موجزةٌ بليغةٌ مختصرةٌ بديعةٌ تبين أن الغاية هي العبادة .

فظهرت الآن جماعاتُ عبدة الشيطان ، وجماعاتُ التهذيب النفسي! بعيدًا عن العبادات ، وجماعاتٌ كثيرةٌ تظهر في العالم الإسلامي ـ وفي العالم كلِّه ـ تدعو إلى التخلي عن الدين وعن العبادة ، بدعوى أن العبادات وسيلة لغاية ألا وهي الوصول إلى تهذيب النفوس وتربية الضمائر والأخلاق ، فإذا كنا نستطيع أن نتحصَّل على ذلك بعيدًا عن العبادات ، فلسنا في حاجة إليها ؛ لأنها وسائل وليست غايات !!

فلابد للأمة أن تَعِي خَطَر هذه الدعاوى الخبيثة المجرمة الماكرة ؛ فإظهار العبودية لله تبارك وتعالى بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، والوقوف عند حدوده ؛ كلُّ هذا هو الأصل الأول الذي من أجْلِه فرض الله على خلقه العبادة ،

ليتوجَّه الخلق إلى الله تبارك وتعالى ، وليفردوه وحده بالصلاة والصيام والزكاة والحج والاستغفار .. إلى غير ذلك.

إنه التزامٌ بأحكام الحلال والحرام .. حتى إصلاح النفس ، واستقامة الضمير ، واستقامة الأخلاق ؛ كلُّ هذه الأشياء ثمراتٌ لازمةٌ للعبادة الحق . فلو صلَّيت لله أو أدَّيت الحج أو صُمْت رمضان .. إلى آخره ؛ لتوصَّلْتَ حتمًا إلى الثمرات اللازمة من وراءِ هذا التعبد الحقِّ .. هذه الثمرات هي التقوى، وهي استقامة الضمير، وانشراح الصدر، وجلب الرزق ، وتيسير الله لأمورك ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٢١] ، نداء عامٌّ لكلِّ البشر؛ الغاية منه تحقيق التقوى ، أما النداء الخاصُّ لأهل الإيمان ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:١٨٣] .

فالتقوى هي الغاية من العبادة ، وليست التقوى مجردَ كلمةٍ ، ولكنها دينٌ ومنهجٌ ؛ فما هي التقوى ؟التقوى في اللغة هي : الاسم من اتقى ، والمصدر الاتقاء ، وكلاهما ـ الاسم والمصدر ـ مأخوذٌ من مادة «وقى» .

والوقاية هي: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره [١]، فتقوى العبد لربِّه أن يجعل العبد بينه وبين سخط الله وغضبه وعذابه وقاية تحفظه وتمنعه ، وذلك بفعل الطاعات ، واجتناب المعاصي [٢].

فالمقصدُ الأول من العبادة : (امتثال الأمر ،واجتناب النهي) .

فطالما جاءك النهيُ عن الله ورسوله لا تَسَلْ عن الحكمة ، إنما وجب عليك الطاعة .

(١) «المفردات» (٥٤٥) ط التوفيقية ، و«لسان العرب» (١٥/ ٣٧٧ـ ٣٧٩) .

(٢) راجع «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢٨٧، ٢٨٨ الحديث الثامن عشر) .

إذا علمتَ أنَّ رسولك ﷺ قد أخبر بأن لبس الذهب للرجال حرام [١] ؛ فلا تقل : لِمَ هو حرام ؟ وإنما إذا أردت السؤال : فَسَلْ عن صحة الحديث ، فإن صحَّ قلتَ : «سمعنا وأطعنا» . لا تُعْمل العقل ، وتقول : لابد أن أعرف الحكمة !!! فهذا ليس من شأن المؤمنين الصادقين ؛ بل هو خروج عن العبودية لربِّ العالمين !!

وأقول للأخت المسلمة : ارتدي الحجاب ؛ فلا ينبغي لها أن تقول : اقنعني بالحجاب ؛ لأنني سأقولُ لها وسأسألها : هل أنتِ مسلمة ؟ فستجيب بنعم ، وتنطق بالشهادتين ؛ فأقول : طالما أنت أيتها الأخت مسلمة ، فلا ينبغي لكِ أن تسألي هذا السؤال : اقنعني بالحجاب ! ولكن من الضروري أن تقولي : هل أمرني الله بالحجاب ؟ فإن كان الجواب بنعم ، فسلي عن الدليل من القرآن والسنة على ذلك ؛ فحينئذٍ إذا سَمِعت المسلمةُ الدليل وجَبَ عليها أن تقول : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥] .

أما المنافق ؛ فهو الذي يصدُّ ويغمز ويهمز ؛ كما قال الشاعر:

إنْ قُلْتَ قال الله قال رسوله ... همزوك همز المنكِر المتغالِ
أو قلْتَ قال الصحابة والأولو تبع ... لهم في القول والأعمال
أو قلْتَ قال الشافعي وأحمد ... وأبو حنيفة والإمام الغالِ
صدُّوا عن وحي الإله ودينه ... واحتالوا على حرام الله بالإحلال
يا أُمَّة لعبت بدين نبيها ... كتلاعب الصبيان في الأوحال
حاشا رسولُ الله ينطق بالهوى ... تلك حكومةُ الضُّلَّال

(١) وقد تقدَّم الحديث في ذلك قريبًا .

أيها المسلم : لا تفلسف النصَّ ، ولا تتفذلك بالعقل ! لا تقل : نحن أصبحنا في عصر الانترنت ،وفي عصر أتوبيس الفضاء «ديسكفري» ، وفي عصر الذرة !! وفي عصر الحضارة والرقي ! وتأتي لتردَّ مثلاً حديث رسول الله ﷺ : « إِذَا وَلَغَ الْكَلْبُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْسِلْهُ سَبْعًا »[1].

وفي رواية : « طُهُورُ إِنَاءِ أَحَدِكُمْ إِذَا وَلَغَ فِيهِ الْكَلْبُ ، أَنْ يَغْسِلَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ أُولاَهُنَّ بِالتُّرَابِ »[2].

فلا تقل : ما الذي يجعلني أن أغسل الإناء بالتراب ، وقد وَصَلْنَا إلى أرقى ما وصل إليه العلم من وسائل المنظفات الحديثة ؛ فهل هذا الذي تقولونه إلا التخلُّف والرجعية ، ونبذ للحضارة والمدنية ؟!! إنها الفذلكة العقلية التي تورد موارد الهلكة والردى واستحقاق الهاوية . وذلك حين أنكر العقلُ الحديثَ الصحيح أو أنكر العبادة ، فخرج بذلك عن دائرة وفلك العبودية ، ودائرة الطاعة لسيِّد البشرية ﷺ . وتزداد المصيبة حين يأتي البحثُ العلمي من دولة أوربية يثبتُ صحة ما أخبر به الصادق ﷺ وساعتها يصدق هؤلاء !! يقول بروفيسور « آلسون » وهو من أشهر علماء الطفيليات يقول: أثبتت التجارب والأبحاث أن الكَلْب يفرز مع اللعاب مجموعةً من الطفيليات والجراثيم بأعدادٍ هائلة في الإناء الذي ولغ فيه تسبب أكثر من خمسين مرضًا . فلما قمنا بتنظيف هذا الإناء بالمنظفات الحديثة ، وجدنا أثر الميكروب والجراثيم ما زالت بالإناء ، فلما جرَّبنا هذا الكلام الذي وصل إلينا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الوضوء» ، باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان (١٧٢) ، ومسلم كتاب الطهارة ، باب حكم ولوغ الكلب (٢٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب « الطهارة » ، باب حكم ولوغ الكلب (٢٧٩/ ٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

من محمد بن عبد الله ﷺ وغسلنا الإناء مرةً واحدةً بالتراب ، لم نجد بالإناء أثرًا للجراثيم على الإطلاق» ؛ حينئذٍ ترى هؤلاء يقبلون شهادات هؤلاء القوم على الفور ، ويقولون : سمعنا وأطعنا ، لكن إذا جاءهم هذا عن رسول الله ﷺ أعملوا عقولهم ، وتوقَّفوا وتوجَّسوا ريبة وخذلانًا !! وهم مَنْ هم ؟! إنهم أصحاب شهادات الدكتوراه ! والفلسفة !!

وكذلك يأتي هؤلاء ليشكِّكوا في حديث النبيِّ ﷺ : « إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ ، فَلْيَغْمِسْهُ ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ ؛ فَإِنَّ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءً وَالأُخْرَى شِفَاءً »(1).

وأنا أقولُ : لا حرج عليك إذا عافت نفسُك شُرْبَ السائل الذي سقطت فيه الذبابة أن تتركه ولا تشربه ؛ فنحن لا نوجب عليك ذلك ، ولا إثم عليك .

لكن يُسربلك الإثم سربالًا مِنْ رأسك إلى قدمك إن فعلت ذلك تكذيبًا منك للصادق رسول الله ﷺ . لقد قُدِّم للنبيِّ ﷺ لحمُ الضبِّ ؛ فلم يأكله ، فسأله أصحابه : أَحَرَامٌ هُوَ يَا رَسُولَ الله ؟ فَقَالَ : « لاَ آكُلُه ولاَ أُحَرِّمُهُ » ، وفي روايةٍ : « كُلُوا ؛ فَإِنَّهُ حَلاَلٌ ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مِنْ طَعَامِي ».

وفي لفظٍ : « لَا ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي ، فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ »(2).

فلا حرج عليك أن تمتنع عن شرب هذا السائل الذي سقط فيه الذباب ، لكن في الوقْتِ نفسهِ تُصَدِّق الصادق الذي أخبرك بذلك ، وإن كنت لا تعلم الحكمة ؛ فكيف والحكمة قد بيَّنها لك رسول الله ﷺ هنا ؟!

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « بدء الخلق » ، باب إذا وقع الذباب في إناء أحدكم (٣٣٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الذبائح والصيد » ، باب الضب (٥٥٣٦، ٥٥٣٧) ، ومسلم ، كتاب « الصيد والذبائح » ، باب إباحة الضب (١٩٤٣، ١٩٤٤، ١٩٤٦) ، من حديث ابن عمر ، ومعه حديث ابن عباس .

ومع ذلك جاء عالمٌ ألماني « بريفلد » في جامعة « هال» بألمانيا ،مع فريق علمي ، فوجدوا أنَّ الذبابة تحمل على جسدها ـ لاسيما على منطقة البطن ـ مجموعة هائلة من الميكروبات والجراثيم ، وفي نفس الوقت تحمل نوعًا من أنواع الفطريات سماها هذا العالم « أميوزا موسكي » وتوصَّلوا أن جرامًا واحدًا من هذه الفطريات كفيل بحماية ٢٠٠٠ لترًا من اللبن من الجراثيم .

والغريب أن هذا الفريق من الأطباء أثبت أن الذبابة لا تفرز هذا الفطر الذي يقضي على الجراثيم إلا إذا غمست الذبابة كلُّها في السائل ! وصدق المصطفى ﷺ ـ بأبي وأمي وروحي ـ الذي لا ينطق عن الهوى ؛ فالقضية أيها المسلمون،بل وأيها المتشككون وحيٌ ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم:٣ـ٥] .

إذًا ؛ الأَصْلُ أن تدور في فلك العبودية ؛ سواء علمت الحكمة أم لم تعلمها ؛ سواء وقفت على السرِّ من العبادة والعبودية أم لم تقف عليها ؛ فالمؤمن عابدٌ مذعنٌ ممتثلٌ للأمر ، مجتنبٌ للنهي ؛ هذه هي الغاية ، والله سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضرُّه معصية المذنبين ، ولا ينقص ملكَهُ كُفْرُ الكافرين ، ولا إلحاد الملحدين ؛ كما في الحديث القدسي عن ربِّ العزة سبحانه وتعالى قال: « يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ . يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ،

ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ الله ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ »[(١)].

فالتقوى هي غاية العبادات ؛ لأن التقوى منهجٌ ودين ، والدين هو التقوى ؛ فهو امتثال الأمر، واجتناب النهي ؛ ولذلك لما جاء سائل إلى أبي هريرة ﷺ قال : يا أبا هريرة ، ما التقوى؟ فقال أبو هريرة: « هل مشيت على طريق فيه شوك ؟ قال له : نعم ، قال : وماذا فعلت ؟ قال السائل : كنت إذا رأيتُ الشوك عدلت عنه ـ أي : ابتعدت عنه ـ فقال أبو هريرة : ذلك التقوى »[(٢)]. وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز ؛ فقال[(٣)]:

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى

واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

يقولُ عمر بن عبد العزيز ـ رحمة الله عليه : « ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن تقوى الله أداء ما افترض الله وترك ما حرم الله »[(٤)] ؛ فليس مجرد أني أقول لك : اتق الله ! فتقول : اللهم اجعلنا من المتقين ، فتكون هكذا من المحققين للتقوى ! كلّا .

وطلق بن حبيب يُعرِّف التقوى تعريفًا جميلًا ؛ فيقول : « التقوى : هي أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على

---

(١) أخرجه مسلم ،كتاب « البر والصلة » ، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ .

(٢) « جامع العلوم والحكم »(ص٢٩٠) ط دار ابن رجب ، الحديث الثامن عشر ، وعزاه السيوطيُّ في « الدر » في (تفسير البقرة :٢) لابن أبي الدنيا في كتاب « التقوى » .

(٣) أخرجه البيهقيُّ في « الشعب » ، فصل في محقرات الذنوب (٧٠٥١) ، وانظر «تفسير ابن كثير» لسورة البقرة (٢) .

(٤) « جامع العلوم والحكم »(٢٨٩) .

نور من الله تخاف عقاب الله »[(١)].

من أجل ذلك أوصى الله ﷻ الأولين والآخرين من خلقه بالتقوى ؛ لأنها الغاية من وراء العبادات ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[النساء:١٣١] ، وقال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[النساء:١] .

ومن أجْل ذلك أيضًا أوصى النبيُّ ﷺ جميع أُمته بالتقوى ؛ ففي « سنن أبي داود والترمذي »[(٢)] بسندٍ صحيح من حديث الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه قال : وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ، وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ؛ فَقُلْنَا : كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : « أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله ﷻ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي ، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٍ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ » .

ولما سأل أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ أن يوصيه بشيء ؛ فقال له ﷺ : « أُوصِيكَ بِتَقْوَى الله ﷻ ؛ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ ... » .

وفي لفظٍ : « أُوصِيكَ بِتَقْوَى الله ﷻ ؛ فَإِنَّهُ جِمَاعُ كُلِّ خَير » . والحديث في « مسند أحمد » بسندٍ حسنٍ لغيره[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١١/ ٢٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٦٤) .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب « السنة » باب في لزوم السنة (٤٦٠٧) ، والترمذي ، كتاب « العلم » ، ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٢٦٧٦) ، وابن ماجه في « المقدمة » (٤٣) ، وصحَّحه الألباني في « صحيح الجامع » (٢٥٤٩) .

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٨٢) ، وللحديث شواهدُ ؛ صحَّحه بها الألبانيُّ في « الصحيحة » (٥٥٥) ، =

وفي « مسند أحمد »[1] بسندٍ حسنٍ أن النَّبِيَّ ﷺ أوصى معاذ بن جبل ﵁ ؛ فقال : «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ ».

من أجل ذلك أيضًا كانت التقوى وصية السلف الصالح لبعضهم البعض ؛ فكان الصِّدِّيق يقول في خطبته : « أما بَعْد ؛ فإني أوصيكم بتقوى الله ﷿ »[2] .

وأوصى بها عمرُ بنُ الخطاب ولَدَه عبد الله بن عمر ﭭ فقال : « أوصيك بتقوى الله ؛ فإنه من اتقاه وقاه ، ومن أقرضه جزاه ، ومن شكره زاده ؛ فاجعل التقوى نصب عينيك ، وجلاء قلبك»[3] .

وأوصى بها عمر بن عبد العزيز أحد إخوانه ؛ فقال : « أما بعد ؛ فإني أوصيك بتقوى الله التي لا يقبل غيرها ، ولا يرحم إلا أهلها ، ولا يثيبُ إلا عليها ؛ فإن العاملين بها قليل ، وإنَّ الواعظين بها كثير ، جعلنا الله وإياك من المتقين »[4] .

وأوصى بها ابنُ السماك ـ ذالكم العالم الزاهد الواعظ الرباني ـ أوصى بها أحد إخوانه ؛ فقال : « أما بعد : فإني أوصيك بتقوى الله ﷿ الذي هو نجيُّك

= ولفظة : « فإنها جماعُ كلِّ خير » عزاها السيوطي في « الدر المنثور » (في تفسير الحجرات ١٣) لابن الضريس في «فضائل القرآن» ،وهو فيه برقم (٦٦) ، وأخرجه أيضًا الطبراني في «الصغير» (٩٤٦) ، وأبو يعلى (٩٦٥) ،وفي سنده ليث بن أبي سليم . انظر: « مجمع الزوائد » (٤/ ٢١٥) و (١٠/ ٣٠١) وهي صحيحةٌ بالشواهد ؛ كما في « الزهد » للبيهقي (٨٩٣) ، وانظر « الصحيحة » (١٧٣٠) .

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٨،٢٣٦) ، والترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في معاشرة الناس (١٩٨٧)، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع »(٩٧) ، و«الصحيحة» (١٣٧٣) .

(٢) « جامع العلوم والحكم »(٢٩١، ٢٩٢) .

(٣) « جامع العلوم والحكم »(٢٩٢) .

(٤) المصدر السابق (ص ٢٩٢) .

في سريرتك ، ورقيبك في علانيتك ؛ فاجعل الله من بالك على كلِّ حالك في ليلك ونهارك ، وخَفْ بقدر قربه منك ، وقدرته عليك ، واعلم أنك بعينه سبحانه لا تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ، ولا من ملكه إلى ملك غيره ، فليعظم منه خوفك ، وليكثر منه وجلك ، والسلام »[1] ؛ أسأل الله أن يرزقنا وإياكم التقوى .

أيُّها الأحبةُ : هذه هي الغاية من العبادة ، وهذا هو المقام الأول من مقامات الإحسان ، وأسأل الله ﷻ أن يعيننا على المقام الثاني ، وهو : قَوْلُه ﷺ : « فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » وسترى في هذا المقام كلامًا عجيبًا من أعجب ما قاله ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ وغيره ممن رزقهم الله ﷻ هذا المقام ـ إن شاء الله ـ وأعجبُ أشدَّ العجب حينما يتكلَّم ابن القيم في هذا الباب من منطلق التذكرة ، لا من منطلق أنه حصَّل هذا المقام لنفسه ؛ فقلت لنفسي : فإن كان ابن القيم يقول هذا ؛ فماذا نقول نحن ؟!

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يستر علينا وعليكم في الدنيا والآخرة ، وأن يرزقنا وإياكم الإحسان ، ومن أول مقامات الإحسان:

*****

(١) المصدر السابق (ص٢٩٤) .

مقام اليقظة

لقد عرَّف النبيُّ ﷺ الإحسانَ بقوله : « أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ».

قال النوويُّ ـ رحمه الله تعالى ـ في تعليقه على « صحيح مسلم »[1]: « هذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ ؛ لأنَّا لو قدَّرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئًا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت ، واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به ؛ فقال ﷺ : اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان ، فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه ، فلا يقدم العبد على تقصيرٍ في هذا الحال ؛ للاطلاع عليه . وهذا المعنى موجود (مع عدم رؤية العبد) فينبغي أن يعمل بمقتضاه ؛ فمقصود الكلام : الحث على الإخلاص في العبادة ، ومراقبة العبد ربَّه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك » .

فمقام الإحسان يكون بهذين الأصلين العظيمين الكريمين :

الأول : أن تعبد الله كأنك تراه .

الثاني : فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

فالإحسان بهذه الكيفية ، متضمنٌ لجميع مقامات الإيمان ؛ فكلُّ مقامات الإيمان داخلة في مقام الإحسان ، وكلُّ مراتب الدين يشتمل عليها مقام الإحسان ، وجميع المنازل بين إياك نعبد وإياك نستعين متضمنة في مقام الإحسان ، ومندرجة تحته .

---

(١) « شرح مسلم » للنووي (١/ ١٣٧، ١٣٨) مكتبة الصفا .

قال ابنُ القيِّم[1] : « ومن المقامات ما يكون جامعًا لمقامَيْن ، ومنها ما يكون جامعًا لأكثر من مقام ، ومنها ما يندرجُ فيه جميع المقامات ؛ فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه» ؛ كمقام الإحسان ومقام الشكر .

ثم قال ابن القيِّم : « فالتوبة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف ، إذ لا يتصور وجود مقام التوبة بلا مقام المحاسبة والخوف ، و « التوكل » على الله جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا ، إذ لا يتصور أبدًا أن يوجد مقام التوكل على الله بلا مقام التفويض والاستعانة والرضا به سبحانه وتعالى ، و«مقام الرجاء» جامع لمقامي الخوف والإرادة » .

إذ لا يتصور أبدًا أن يوجد مقام الرجاء أو أن يرتقي المسلم إلى مرتبة الرجاء بلا خوف من الله وبلا إرادة ؛ فليس الرجاء كما يتصور بعض الناس حين يذنب ويعصي ويتجرأ على الله ، ثم يقول : إنَّ الله كريم . هذا حقٌّ لا شكَّ فيه . لكن لمن ؟ قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٦]

ثم قال ابن القيِّم : «و«مقام الخوف» جامع لمقام الرجاء والإرادة و«الإخبات » لله تبارك وتعالى جامع لمقام المحبة والذل والخضوع لله و«مقام الزهد» جامع لمقام الرغبة والرهبة . إذ لا يكون زاهدًا من لم يرغب فيما يرجو نفعه ، ويرهب مما يخاف ضرره في الدنيا والآخرة ، و«مقام المحبة» جامع لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة ؛ فالمحبة معنًى يلتئم من هذه الأربعة ، وبها تحققها ، و«مقام الخشية» جامع لمقام المعرفة بالله ، والمعرفة بحق عبوديته ؛ فمتى عرف الله ، وعرف حقَّهُ خافه واشتدت خشيته له سبحانه ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى

---

(١) « مدارج السالكين » (١/ ١٥٢)، (باب ترتيب المقامات) بتصرف.

ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[فاطر:٢٨] ؛ فالعلماء بالله وبأمره هم أهل خشيته ؛ قال النبيُّ ﷺ: « أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللهِ ، وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً »[١].

و«مقام الهيبة » من الله جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم ، و«مقام الحياء » جامع لمقام المعرفة والمراقبة ، و« مقام الصدق » جامع لمقام الإخلاص والعزم ، فباجتماعهما يصحُّ له مقام الصدق ، و«مقام المراقبة » جامع لمقام المعرفة بالله مع الخشية منه ؛ فبحسبهما يصحُّ مقام المراقبة » انتهى .

أما مقام الإحسان ؛ فهو جامعٌ لكلِّ مقامات الإيمان ولمراتب الدين ؛ لذلك كان الإحسان أرفعها وأعلاها ؛ فهو لبُّ الإيمان ، وروحه وكماله ؛ فجميع منازل الدين وجميع منازل السائرين بين إياك نعبد وإياك نستعين داخلة في مقام الإحسان .. كمنزلة المحاسبة ، والتوبة ، والإنابة ، والتفويض ، والتوكل ، والخشية ، والرضا ، والصبر ، والإخلاص ، والأدب ، واليقين .. إلى آخر هذه المنازل التي سنقف معها إن شاء الله تعالى في ما يأتي .

وأول هذه المنازل من منازل العبودية : «اليقظة» ثم «الفكرة» ثم «البصيرة» ثم «العزم» ؛ هذه أول المنازل في مقام الإحسان بشطريه أو بأصلَيْه : « أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ». وسيتضح هذا في الشقِّ الثاني وأنا أتحدث في منزلة المراقبة عند قول نبينا ﷺ :.« فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ».

قال ابنُ القيم ـ رحمه الله تعالى [٢]: « أولُ المنازل : اليقظة ، وهي : انزعاج القلب من روعة الانتباه من رَقْدة الغافلين».

فتلك أولُ مرحلةٍ وما أروعها والله من يقظة ! وما أعظم قدرها وخطرها !

---

(١) تقدم .

(٢) «المدارج» (١/ ١٣٨) بتصرف .

وما أشد إعانتها للمسلم في سلوكه لهذه المنازل بين إياك نعبد وإياك نستعين ! ليحقق مقام الإحسان لرب العالمين ؛ فمن أحسَّ بهذه المنزلة فقد أحسَّ والله بالفلاح ، وإلا فهو في سكرات الغفلة مع الغافلين ؛ فإذا انتبه وانتفض وتيقظ شمَّر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى ، وإلى أوطانه التي سُبِيَ منها .

فحيَّ على جنَّات عدن فإنها منازلك الأولى . وفيها المخيَّم
ولكننا سبْيُ العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلَّم ؟

فأخذ في أُهبه السفر . وكانت هذه هي البداية للسعادة في الدارين ، فالعبد قبل وصول داعي الفلاح إليه ليوقظه من غفلته وليوقظه من نومته ، قلْبُه نائم قبل داعي الفلاح وفي غفلة مع الغافلين ؛ فإذا صاح به الناصح ، وأسمعه داعي النجاح ، وأذن به مؤذن الرحمن : حي على الفلاح ؛ فأول مراتب هذا النائم : اليقظة ، والانتباه من النوم ، وأن يقوم لله تبارك وتعالى هذه القومة التي قال الله فيها : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ [سبأ :٤٦] ؛ فالقومةُ لله تبارك وتعالى هي اليقظة من سنة الغفلة ، والنهوض من ورطة الفترة[١] .

فإذا نهض الإنسان من ورطة الغفلة بفضل الله ، ثم بفضل هذا النور الذي حمله إليه أهل الدعوة بعد الأنبياء والرسل أوجب له هذا أن يلاحظ نعم الله الباطنة والظاهرة ، وكلَّما دقق ببصره ونظره في هذه النعم من حوله استيقظ وشاهد عظمتها وكثرتها ، فيأس من عدِّها ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٤] ، ووقف على حدِّها ، وخرج قلبه لمشاهدتها ولمشاهدة منن الله وفضل الله عليه من غير

(١) قاله الهرويُّ ؛ كما في «المدارج» (١/ ١٣٩) وما بعده من كلام ابن القيم ، بتصرف .

استحقاق ومن غير استجلابٍ لها بثمنٍ ، وتيقن لها المسلم حينئذٍ أنه مقصر في حق الله تبارك وتعالى لرؤيته نعم المنعم مع عجزه عن شكرها ، وأداء حقها ، والوفاء بها لربه سبحانه وتعالى ! هذا النظر يوجبُ على العبد أن يداوم على الاستغفار ، وأن يحقق قول النبيِّ المختار ﷺ[1]: « أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي » . أبوء لك بنعمتك عليَّ : رؤية النعم ، وأبوء بذنبي : هو التقصير في شكر صاحب النعم ، ثم يقول : « فاغْفِرْ لِي ، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ ». وعلم حينئذ أن هذا الاستغفار حقيقٌ بأن يكون سيدَ الاستغفار ، وعلم حينئذٍ من خلال هذا النظر: « أَنَّ الله لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ »[2]. وعلم كذلك أن العبد دائمًا سائرٌ بين مطالعة المنة ومشاهدة التقصير ، وهذا هو الذي يتولد منه الحياء . هذا اللحظ وهذا النظر يؤدي بالمؤمن الصادق الذي يريد أن يحقق مقام الإحسان يؤدي به إلى أن يطالع جنايته ، وإلى أن يقف على خطر معاصيه ،وأن يُشَمِّر حينئذٍ عن ساعدِ الجِدِّ ، وأن يتسلَّح بالهمة العالية ؛ ليتدارك ما فات ، وليتخلص من رق العبودية للذنوب والمعاصي والشهوات والملذات ، وليطلب النجاة من هذه الفتن والشبهات ؛ فهو ينظر إلى ما سلف منه من الإساءة ، ويعلم أنه على خطرٍ عظيم ، وبأنه مشرف على الهلاك ، بمؤاخذة صاحب الحقِّ له تبارك وتعالى ، ولقد ذمَّ الله تبارك وتعالى من نسي ما تُقَدِّم يداه ، وكلُّنا ينسى ما تُقَدِّم يداه ! ـ إلا من رحم ربي ـ قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الدعوات » ، باب فضل الاستغفار (٦٣٠٦) .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب «السنة» بابٌ في القدر ، (٤٦٩٩) ، وابن ماجه كتاب «السنة» (٧٧) ، باب في القدر . وصحَّحه العلامة الألبانيُّ في « صحيح ابن ماجه » (١/ ١٩) .

بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ ﴾ [الكهف:٥٧] ، أي : من المعاصي والذنوب والتقصير . وحينئذٍ حينما يقفُ العبد بين يَدَي ربِّه القدير ، ليعرض الله ﷻ عليه كتابه الذي سُجِّل فيه كلُّ شيءٍ . ﴿ عِندَ رَبِّي فِي كِتَـٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه:٥٢] ؛ هذه الصحيفة لا تغادر بلية كتمتها ، ولا مخبأةً أسررتها ؛ فكَمْ من معصيةٍ قد كنتَ نسيتها ذكَّرك الله إياها ! وكَمْ من مصيبة قد كنت أخفيتها أظهرها الله لك وأبداها ! فيا حَسْرةَ قلبك وقتْها على ما فرطّت في دنياك من طاعةِ مَوْلاك .

قال ﷻ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٌ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] ؛ فإذا طالع العبدُ جنايته وذنوبَهُ وتقصيره شمَّر عن سَاعِد الجدِّ لاستدراكِ ما فات ولطلب التمحيص ، وهو : أن يجتهد العبد ليخلِّص إيمانه ومعرفته من خُبْث الجناية والذنب والتقصير في حق الله سبحانه وتعالى ؛ كتمحيص الذهب والفضة من كلِّ ما يَعْلَقُ بهما من شوائب ، إذ لا يمكن للعبد أبدًا أن يدخل الجنة إلا بعد هذا التمحيص ؛ فليس في الجنة ذرة خبث ، فإنها طيِّبةٌ ، لا يدخلها إلا طيب ؛ ولهذا تقول لهم الملائكة : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر:٧٣] ، وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل:٣٢] ؛ فلا يدخل العبد الجنة إلا إذا حقق مقام الإحسان .. إلا إذا عبد الله تبارك وتعالى خالصًا له ، فإن لم يكن يرى ربه ؛ فليداوم على العبادة ، وهو على يقينٍ أن الله ﷻ يراه ، هذا التمحيص يكون للعبد في دار الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار القرار ؛ ليطهر في الدنيا بأربعة أشياء : أولها : التوبة .

ثانيًا : الاستغفار. ثالثًا: الحسنات الماحية . رابعًا : المصائب والبلايا التي تصيب العبد في هذه الحياة .. كل هذا يُمَحِّصُ به العبد في الدنيا ، وهذا تفصيلٌ لذلك :

التوبة كفارة ؛ فالتائب من الذنب ـ بصدقٍ ـ كمن لا ذنب له ؛ قال تعالى في صفة عباد الرحمن : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[الفرقان:٦٨ـ٧٠] .

وفي « صحيح مسلم »[1] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بِكُمْ ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ ».

وفي « الصحيحين »[2] من حديث عمر بن الخطاب ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال حينما رأى امرأةً فِي السَّبْيِ ـ أي : في الأسرى ـ تبحثُ عن ولدها ، فلمَّا رأت المراةُ ولَدها ، أَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا ، فَأَرْضَعَتْهُ ؛ فَقَالَ ﷺ : « أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟! ». قَالُوا : لاَ يَا رَسُولَ الله ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ ؛ فَقَالَ : « لله أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا ».

ثم الاستغفار ؛ فالاستغفار يمحِّص العبد ، ويطهره من الذنب ـ كما

---

(١) أخرجه مسلم ،كتاب « التوبة » ، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة (٢٧٤٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الأدب» ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٩٩٩) ، ومسلم ، كتاب « التوبة » ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٤) .

ذكرت الآن دليلاً من كلام النبيِّ ﷺ ـ فالاستغفار أمان للموحدين في الأرض ، وأمان للمذنبين من أمثالي ؛ فإذا أذنب العبدُ ، واستغفر الله ، وجد الله غفورًا رحيمًا .

بك أستجير ومن يجير سواك ... فأجر ضعيفًا يحتمي بحماك

إني ضعيف أستعين على قويٍّ ... ذنبي ومعصيتي ببعض قواك

أذنبت يا ربي وقادتني ذنوب ... ما لها من غافر إلاَّك

دنياي غرتني وعفوك شدَّني ... ما حيلتي في هذه أو ذاك

لو أن قلبي شك لم يك مؤمنًا ... بكريم عفوك ما عصى وغواك

ربَّاه قلبٌ تائب ناجاك

أتردُّه وتردُّ صادق توبتي حاشاك ... ترفضُ تائبًا حاشاك

فليرض عنِّي الناس أو فليسخطوا ... أنا لم أعُد أسعى لغير رضاك

فمهما كان الذنب ؛ فقمت في سواد الليل ، واستغفرت الله ، وتضرعت إليه ، غفر الله ﷻ لك ما كان منك من ذنب ، وإن عَظُم ، ما دُمْتَ توحِّد الله وتؤمن برسول الله ﷺ وتعترف لله ببشرِيَّتك وضَعْفك وعَجْزِك .

ثم بعد التوبة والاستغفار : عَمَلُ الحسنات الماحية ؛ فلقد قال النبيُّ ﷺ لمعاذ ابن جبل ـ كما في « سنن الترمذي » بسندٍ حسن لغيره ـ[1]: « يَا مُعَاذُ ، اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ »؛ فإذا زلَّتَ نفسك فنظرت نظرة محرمة سيئة ، فأتبع هذه السيئة بحسنة لتمحوها .. ما هذه الحسنة التي تمحو السيئة؟ استغفار للعزيز الغفار ، أو صلاة لله تبارك وتعالى ؛ فلقد أتى رجلٌ رسول الله ﷺ ليشكو له أنه أصاب قُبْلة

---

(١) تقدم قريبًا .

من امرأة في الحرام ! فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ ، قَالَ : وَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ ، فَصَلَّى مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَلَمَّا قَضَى الصَّلاَةَ ؛ قَالَ : يَا رَسُولَ الله ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا ، فَأَقِمْ فِيَّ كِتَابَ الله ؛ فَقَالَ ﷺ : « هَلْ حَضَرْتَ الصَّلاَةَ مَعَنَا؟». قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : «قَدْ غُفِرَ لَكَ» [1]. وفي روايةٍ في « الصَّحِيحَيْنِ » [2] عن ابن مسعود قال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، إِنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ ، وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا ــ وفي روايةٍ : فَذَكَرَ أَنَّهُ أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ ؛ إِمَّا قُبْلَةً ، أَوْ مَسًّا بِيَدٍ ، أَوْ شَيْئًا ــ قال الرَّجُلُ : فَأَنَا هَذَا ، فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ ؛ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : لَقَدْ سَتَرَكَ الله لَوْ سَتَرْتَ نَفْسَكَ . قَالَ : فَلَمْ يَرُدَّ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا ؛ فَقَامَ الرَّجُلُ فَانْطَلَقَ ، فَأَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً دَعَاهُ ، وَتَلاَ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةَ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود:١١٤] .

ما أحلمه وما أرحمه ! وما أعظمه ! وما أكرمه ! وما أعلمه بضعفنا وفقرنا وعجزنا !! اللهم استر عيبنا ، ولا تهتك سترنا ، ولا تفضح أمرنا ؛ برحمتك يا أرحم الراحمين .

فالتوبة تمحِّص ، والاستغفار يمحِّص ، وعمل الحسنات يُمَحِّص ، وكذلك المصائب والبلايا تمحص ؛ قال ﷺ : « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الحدود » ، باب إذا أقرّ ولم يبين هل للإمام أن يستر عليه (٦٨٢٣)، ومسلم ، كتاب « التوبة » ، باب قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤] ، (٢٧٦٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «مواقيت الصلاة » ، باب الصلاة كفارة (٥٢٦) ، ومسلم ، كتاب « التوبة » (٢٧٦٣) واللفظ له .

وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ »(١) .

وقال ﷺ : « مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ ، وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا ، إِلاَّ كَفَّرَ الله بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ »(٢) ، فالمصائب والبلايا تكفر الخطايا ؛ فالهم الذي يصيبك ، والغم الذي يحطم قلبك ، والحزن الذي يعصر كبدك ، والألم الذي يملأ فؤادك ، والواقع الذي تحياه وتتألم له ، وشوكة في قدمك ، وصداع في رأسك ، وألم في ضرسك ، ومرض في بدنك ، إن صبرت ، يغفر الله بكلِّ هذه الآلام والمصائب ذنوبك وخطاياك .

فمرحلةُ التمحيص في الدنيا بالتوبة ، والاستغفار ، وعمل الصالحات ، وعمل الحسنات ، والمصائب والبلايا المكفرة ؛ إن مُحِّص العبدُ بهذه الأربعة ، وخلَّصته من كلِّ الذنوب ؛ فهذا فضل الله عليه ، وهو من الذين قال الله ﷻ فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠ـ ٣٢] ، لكن إن لم تفِ هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه من الذنب ؛ فقد لا تُمحِّصُ التوبةُ ولا تُطَهِّر العبد ، إن لم تكن صادقة ، وليست نصوحًا ، فلم تتحقق شروط التوبة ؛

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « الزهد والرَّقاق » ، باب المؤمن أمره كلُّه خير (٢٩٩٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « المرضى » ، باب ما جاء في كفارة المرض (٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) ، ومسلم ، كتاب « البر والصلة والآداب » ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها (٢٥٧٣) .

كالإقلاع عن الذنب ، والندم على الذنب ، والعزم على عدم العود ، والإكثار من العمل الصالح ، وردُّ الحق لأهله إذا كان الذنب متعلقًا بحقٍّ من حقوق العباد على تفصيل قد بينتُه قبل ذلك ؛ فقد لا تكون التوبةُ ممحصةً ، وقد لا يكون الاستغفارُ ممحصًا ولا مطهرًا ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ؛ كاستغفار من يستغفر وكأس الخمر في يده ! وكاستغفار من يستغفر وهو في طريقه إلى الزنا ! فهذا استغفار الكذابين !! فرق بين من يستغفر بصدق وبكاء وخوف وندم ، وبين مَنْ يردد لسانُه كلمةَ الاستغفار باستهتار . كذلك ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه ، ولكن الخائف من يترك ما يخاف أن يعاقبه الله عليه؛ هذا هو الخوف الحقيقي . أما أن تبكي ثم بعدها تتجرأ على الله ، وتتجرأ على خلق الله بغيبةٍ ، أو نميمةٍ ، أو قذفٍ ، أو بهتانٍ ، أو ظلمٍ ، أو أكلٍ للحرام ، أو تعدٍّ على حقوق العباد ؛ فهذا بكاء الكذابين !! وقد تكون الحسنات ممحصة وصحيحة وخالصة ، لكن من حيث كمها أقل من السيئات ، ونحن متفقون على أن الحسنات إن زادت ـ ولو بحسنة ـ على السيئات نجونا بإذن الله ؛ قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧] ؛ فمثقال ذرَّةٍ من الحسنات تنجيك إذا زادت عن السيئات ، أما من زادت سيئاته بذرَّة شرٍّ على حسناته هلك ، والعياذ بالله ! وهنا تأتي المرحلة الثالثة من مراحل التمحيص ـ بعد مرحلة البرزخ ـ وهي إن تساوت الحسنات مع السيئات ؛ فجمهور المفسرين على أن هذا العبد من أهل الأعراف[1] في موضع بين الجنة والنار؛ كما قال تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ ﴾

(١) والأعراف : هو الشيء المشرف المرتفع ؛ فقيل : هو السور الذي يكون بين الجنة والنار ، يحبس عليه ناسٌ من أهل الذنوب بين الجنة والنار ، انظر : « تفسير ابن كثير » (لسورة الأعراف:٤٦) .

[الأعراف:٤٦] ، يعني : يعرفون أهل الفريقين من الجنة والنار؛ كما قال تعالى : ﴿ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [الأعراف:٤٦] ، يعني : لم يدخل أهل الأعراف الجنة ، وهم يطمعون في دخولها ! هذه هي الحالة الأولى .

أما الحالة الثانية ؛ فكما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:٤٧] ، ينظرون ناحية أهل الجنة يقولون : سلام عليكم ، ثم يتجهون لناحية أهل النار ـ والعياذ بالله ـ يتضرعون إلى الله ؛ قائلين: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ [الأعراف:٤٨] ، وهذا تقريعٌ من أهل الأعراف للمشركين من أهل النار ﴿ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : لا ينفعكم كثرتكم ، ولا جموعكم من عذاب الله ؛ فأين مراكزكم ومناصبكم وأموالكم وكبركم ؟!! [١] ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾[الأعراف:٤٩] ؛ إذن فالحسنات قد لا تمحِّص ، سواء من ناحية العدد ، أو من ناحية الكيف ، وقد لا تكفر وتمحص المصائب ؛ فقد تكون المصائب والبلايا أقلَّ من الذنوب والمعاصى ؛ إما لعظيم الجناية ، فيكون ذنبه أكبر ، وإما لضعف المصيبة نفسها ؛ فإن لم تمحص هذه الطاعةُ العبدَ في الدنيا يمُحَّص في البرزخ بثلاثة أشياء .

وحياة البرزخ التي قال الله فيها : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠٠] ، هذه الحياة البرزخية لا يعرف حقيقتها ملك مقرب ، ولا

---

(١) انظر : « أضواء البيان » (٢/ ٢٧٠) للعلامة الشنقيطي رحمه الله .

نبيٌّ مرسل ، فلا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى.

الأمر الأول : «صلاة أهل الإيمان صلاة الجنازة عليه لاستغفارهم له ، وشفاعتهم فيه ؛ فإن مات العبد ولم يمحص ؛ فإن صلاة الجنازة من أهل الإيمان تمحِّصه .

روى مسلمٌ في «صحيحه»[1] عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً ، لاَ يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا إِلاَّ شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ ».

وروى مسلم[2] من حديث عائشة ﵂ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً ، كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ ، إِلاَّ شُفِّعُوا فِيهِ» ؛ فصلاة الجنازة فيها استغفار ، ودعاء ، وطلب شفاعة من الله للعبد ؛ ففي الدعاء الجميل للميت : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ»[3] وهذا هو السبب في جواز النعي المشروع لإخبار أهل الصلاح والدين ليحرصوا على صلاة الجنازة عليه .

الأمر الثاني : يمحَّصُ بفتنة القبر ، والقبر من أعظم الفتن .. بالله عليك هل فكَّرتَ في القبر لحظة أنِ انقطعَ التيارُ الكهربائيُّ ليلةً من الليالي وأنت في بيتك ، فرأيت نفسك تعيشُ في ظلام دامِسٍ حالِك ، ثم اشتَّد الحرُّ عليك ، فكدتَ أن تغرق في عرقك ؟ ألم تفكر في تلك اللحظة في ضيق القبر وظلمته وأنت في غرفتك؟ وأنت على سريرك ، وعلى فراشك ؟ ومع ذلك تشعر بالاختناق والضيق والحرارة ؟ ربما تشعر بالخوف والفزع والوحشة ؛ فما ظنك

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « الجنائز » ، باب من صلَّى عليه مائة شُفِّعوا فيه (٩٤٨) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب « الجنائز » ، باب من صلَّى عليه مائة شُفِّعوا فيه (٩٤٧) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب « الجنائز » ، باب الدعاء للميت في الصلاة (٩٦٣) عن عوف بن مالك .

بالقبر؟! انظر إليه، وتذكَّر مالك فيه؛ لذلك كان عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ـ رضوان الله عليه ـ كلَّما نظر إلى القبر بَكَى حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ؛ فَقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ فَلاَ تَبْكِي، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟! فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ؛ فَإِنْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ». قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلاَّ وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ»[1].

وفي حديث الاحتضار:

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ[2]: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَـمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ؛ فَقَالَ: «اسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ الله وَرِضْوَانٍ».

قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِيِّ السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ».

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٦٣)، والترمذيُّ، كتاب الزهد (باب :٥) (٢٣٠٨)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى (٤٢٦٧)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢/ ٢٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨)، وأبو داود، كتاب «السنة»، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (٤٧٥٣)، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» (١٥٦ـ١٥٩).

قَالَ : « فَيَصْعَدُونَ بِهَا ، فَلاَ يَمُرُّونَ ـ يَعْنِي بِهَا ـ عَلَى مَلأٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِلاَّ قَالُوا : مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ ؟! فَيَقُولُونَ : فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا ، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَيَقُولُ الله ﷻ : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى » .

قَالَ : « فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ ، فَيُجْلِسَانِهِ ، فَيَقُولاَنَ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّيَ الله ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : دِينِيَ الإِسْلاَمُ ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هُوَ رَسُولُ الله ﷺ ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : وَمَا عِلْمُكَ ؟ فَيَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ الله ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ : أَنْ صَدَقَ عَبْدِي ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ » .

قَالَ : « فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا ، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ » .

قَالَ : « وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ ، حَسَنُ الثِّيَابِ ، طَيِّبُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ ، فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ ، فَيَقُولُ : رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي ».

قَالَ : « وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلاَئِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ

الْخَبِيثَةُ ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ » .

قَالَ : « فَتَفَرَّقَ فِي جَسَدِهِ ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السُّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا ، فَلاَ يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلأٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِلاَّ قَالُوا : مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ ؟! فَيَقُولُونَ : فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ ، فَلاَ يُفْتَحُ لَهُ » ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف:٤٠] ؛ فَيَقُولُ اللهُ ﷻ : « اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحاً ». ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج:٣١] ، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ ، فَيُجْلِسَانِهِ ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَأَفْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا ، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ ، قَبِيحُ الثِّيَابِ ، مُنْتِنُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ ، فَيَقُولُ: رَبِّ لاَ تُقِمِ السَّاعَةَ».

فالساعةُ آتيةٌ لا ريب فيها .. لأنه إن رأى هذا في القبر لا شك أنَّ ما سيراه في الآخرة أشد ؛ نسأل الله أن يستر[١] في الدنيا والآخرة ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

إذن ؛ يمحَّص العبد بصلاة أهل الإيمان عليه في صلاة الجنازة ، وكذلك إذا انتقل إلى عالم البرزخ ؛ لأنه بمجرد أن يموت الإنسان ينتقل إلى عالم البرزخ ثم يمحص بفتنة القبر ، أو يمحص في البرزخ بما يصل إليه - بفضل الله - جَلَّ وَعَلاَ - من إخوانه المسلمين من دعواتٍ متقبلة ، ومن صدقات متقبلة .

واعلم أن ولدك غرسك ؛ فإن ربيته على الصلاح ، سترى ثمرته في الدنيا والبرزخ والآخرة ؛ ففي « صحيح مسلم » [1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ : إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » .

فالصدقة الجارية إن تقبلها الله ﷻ فيصل ثوابُها إليه في البرزخ ، فيمحَّص بها ، ويطهَّر من الذنب ، ودعوةُ ولدٍ صالح تمحِّص وتطهِّر من الذنب ، وعلمٌ ورَّثَه من تعليم أو تصنيف ؛ فيمحص بهِ ، ويطهر من الذنب ، فإن لم تطهره التوبة ، والاستغفار ، والعمل الصالح ، والمصائب ، والبلايا ، ودعوات إخوانه في صلاة الجنازة ، وفتنة القبر ، وما يصل إليه بعد ذلك من عمل متقبل ، لابد بعد ذلك أن يمحَّص وأن يطهر ؛ فتكون النار طهرةً له ، وتمحيصًا لخبثه ، ويكون مكثه فيها على حسب كثرة خبثه وذنوبه ، وقلَّته ، أو شدته ، وضعفه ، وتراكمه ؛ فإذا خرج خبثه وصُفِّي تمامًا ، وطُهِّر وصار خالصًا طيِّبًا ، بفضل الله ، ثم بفضل شفاعة الشافعين ؛ كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفيه [2] أنه ﷺ حينما سئل عن

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « الوصية » : باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب «الإيمان» ، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣) واللفظ له. ورواه البخاريُّ أيضًا ، كتاب « التوحيد » باب قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] ، (٧٤٣٩) .

الصراط ، قِيلَ : يَا رَسُولَ الله ، وَمَا الْجِسْرُ ؟ قَالَ : « دَحْضٌ مَزِلَّةٌ [١] ، فِيهِ خَطَاطِيفُ [٢]، وَكَلالِيبُ [٣]، وَحَسَكٌ [٤]، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ ، وَكَالْبَرْقِ ، وَكَالرِّيحِ ، وَكَالطَّيْرِ ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ » .

قال النوويُّ في « شرح مسلم » [٥]: « معناه أنهم ثلاثة أقسام : قسم يَسْلَم فلا يناله شيء أصلًا ،وقسم يخدش ، ثم يرسل ، فيخلص ، وقسم يكردس ، ويلقى فيسقط في جهنم » قال القاضي : وأما مكدوس ؛ فهو بالسين المهملة . كذا لأكثر الرواة . وبالمعجمة للعُذْري ، ومعنى الكدش : السوق ، وبالمهملة : كون الأشياء بعضها على بعض .. ويحتمل أن يكون معناه : المكسور الظهر والفقار ،وقد يكون مكردس بمعنى مكدوس .

وفي هذه الجملة تفصيل صور الناجين في السرعة والسلامة ، ثم مَنْ يصيبه الخَدشُ ، وتسفعه النار ، ثم الموبق فيها ، والمكردَس المُلْقَى في قعرها ، نعوذ بالله منها » [٦].

ثم قال النبيُّ ﷺ: « فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لله

---

(١)أي : ذلق تزل فيه الأقدام . (« إكمال المعلم » للقاضي ١/ ٥٥١) .

(٢)جمع خُطَّاف .

(٣)جمع كَلُّوب ؛ قال النوويُّ : بفتح الكاف ، وضم اللام المشددة ، وهو حديدة معطوفة الرأس يعلق فيها اللحم ، وترسل في التنور ... ويقال لها أيضًا : كُلاب . (« شرح مسلم » ٣/ ٢١) .

(٤)حَسَكُ السَّعدان ، قال في « اللسان » ـ مادة حسك : « والحسك من الحديد ، ما يعمل على مثاله وهو من آلات العسكر » قال النووي : « وهو شوك صلب من حديد » («شرح مسلم» ٣/ ٢٤) .

(٥)« شرح مسلم » (٣/ ٢٥) .

(٦)« إكمال المعلم » (١/ ٥٥٣) .

فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ للهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِنَّ إِخْوَانَنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ ، فَيُقَالُ لَهُمْ : أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ » ولماذا تُركوا ؟ لأنَّ الحسنات أقل من السيئات ، وإنهم لم يمحَّصوا لا في الدنيا ولا في البرزخ ؛ فيقول الله ﷻ للمؤمنين : اذهبوا فأخرجوا من النار من عرفتم ، فينطلقون فيخْرجون أقوامًا من النار ممن يعرفون ؛ فهذا تطهير الصنف الأول الذي مكث فترةً تناسبه . والصنف الثاني : مكث فترة تناسبه .

وهكذا « فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ ، فَيَقُولُ : ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا ، لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا ، ثُمَّ يَقُولُ : ارْجِعُوا ، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا ، لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا ، ثُمَّ يَقُولُ : ارْجِعُوا ، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ[1] فَأَخْرِجُوهُ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا ، لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا» .

فَيَقُولُ الله ﷻ : « شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ[2] ؛ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ ، قَدْ عَادُوا حُمَمًا[3] ، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ : نَهَرُ الْحَيَاةِ ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ ، أَلاَ تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ أَوْ إِلَى

---

(١) في رواية البخاريّ : « مِنْ إِيمَانٍ »

(٢) ولا يعرف مقدار القبضة إلا ملك الملوك ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وكل ما دار ببالك ، فالله بخلاف ذلك ؛ قال سبحانه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] .

(٣) في رواية : « قد امتحشوا » أي : تحولوا إلى فحم من شدة النار . وكلمة « امتحشوا » رويت بفتح التاء والحاء ، قال النوويُّ : هكذا هو في الروايات . قال القاضي : ورواه بعض شيوخنا : بضم التاء وكسر الحاء » (النووي ٣/ ٢٢) ، و « إكمال المعلم » (١/ ٥٥٤) .

الشَّجَرِ ، مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ »؛ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالْبَادِيَةِ ، قَالَ : « فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ ، هَؤُلاَءِ عُتَقَاءُ الله الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ الله الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ ، ثُمَّ يَقُولُ : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ ، فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا ، أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَيَقُولُ : لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا ، فَيَقُولُونَ : يَا رَبَّنَا ، أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا ؟ فَيَقُولُ : رِضَايَ فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا ».

ولذلك في رواية عجيبة جدًّا ورقيقة ويحلو لي أن أكثر منها هنا وهنالك ؛ ففي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في « مسنده » والبيهقي في « البعث » وجوَّد سنده الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » وصححه شيخنا الألباني في «الصحيحة» [1] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ :« سَأَلْتُ رَبِّيَ عز وجل ، فَوَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ». وفي رواية : « ثُمَّ يُحْثِي رَبِّيَ ثَلاثَ حَثَيَاتٍ » فكبر عمر ؛ فقال النبيُّ ﷺ في آخر الرواية : « وإِنَّ السَّبْعَينَ أَلْفًا يُشَفِّعُهُم الله فِي آبائِهِمْ وأُمَّهاتِهِم وَعَشَائِرهم ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي أَدْنَى الحَثَوَاتِ الأَواخِرِ » [2] ؛ فلا يكون هناك أحد في النار

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٩) ، والبيهقي في « البعث » (٦٦٠) ،وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١١/ ٤١٨) : «وسنده جيد» ،وانظر «الصحيحة» (١٩٠٩) و«ظلال الجنة» (٥٨٨) ، و«صحيح الجامع» (٧١١١) .

(٢) عند ابن حبان في « الصحيح » (٧٢٤٧) ، والطبراني في « الكبير » (١٧/ ١٢٧) وجوَّد سنده الحافظ في «الفتح» (١١/ ٤١٨) ،وقال : « وأخرجه الحافظ الضياء ،وقال : « لا أعلم له علة » ، قلت : علته الاختلاف في سنده ...» إلخ كلام الحافظ .

وللحديث شاهدٌ عند الترمذي ، كتاب « صفة القيامة » ، باب (١٢) (حديث ٢٤٣٧) ،وابن حبان (٧٢٤٦) من حديث أبي أمامة . وصحَّحه الشيخ شعيب الأرناؤوط ؛ بل وصححه كذلك العلامة الألباني ؛ كما تقدم في المصادر في الرواية الأولى .

من أمة الحبيب المختار ممن وحَّدوا العزيز الغفار رغم أنف من استهواه الشيطان ، فأنكر شفاعة الرحيم الرحمن وحبيبنا العدنان ؛ بل وعباد الرحمان !!

فكما سبق ؛ إن لم يُمحَّص العبدُ في البرزخ ؛ مُحِّص بين يدي ربِّه ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ في الموقف يوم القيامة أو في ساحة العرض على الله تبارك وتعالى في أرض المحشر ، في العرصات بأربعة أشياء :

أولًا: تمحيصُهُ بشدة أهوال هذا اليوم ، فأهوالُه عظيمة ، وكرباتهُ شديدة ! ويكفي أن تقرأ سورة التكوير ، وسورة الانفطار ، وصدر سورة الانشقاق ؛ لتقف على هَوْل هذا اليوم العظيم .

وتدبر معي قول الله تعالى في صدر سورة الحج : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج:١، ٢] .

وتدبر معي قوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾

[التكوير:١ـ١٤]

وتدبر قوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار:١ـ٥] ، وتدبر قوله تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ

لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ [الواقعة:١ـ٧]، وتدبر أيضًا قوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:١ـ٨].

ولله درُّ القائل:

مثِّلْ لنفسك أيها المغرورُ ... يوم القيامة والسماء تمورُ
إذ كُوِّرت شمس النهار وأدنيتْ ... حتَّى على رأس العباد تسيرُ
وإذا النجومُ تساقطت وتناثرت ... وتبدَّلت بعد الضياء كدورُ
وإذا الجحيم تسعرت نيرانها ... فلها على أهل الذنوب زفيرُ
وإذا العشار تعطلَّت وتخربت ... خلتِ الدِّيارُ فما بها معمورُ
وإذا الجبال تقلعت بأصولها ... فرأيتها مثل السحاب تسيرُ
وإذا الوحوش لدى القيامة أحشرت ... وتقول للأملاك أين نسيرُ
وإذا الصحائف نُشِّرت وتطايرت ... وتهتكت للعالمين ستورُ
وإذا الجليل طوى السما بيمينه ... طيَّ السِّجلِّ كتابه المنشورُ
وإذا الجنان تزخرفت وتطيبت ... لفتىً على طول البلاء صبورُ
وإذا الجنينُ بأمه متعلِّقٌ ... خوفَ الحساب وقلبه مذعورُ
هذا بلا جُرْم يخاف لهوله ... كيف المصرُّ على الذُّنوب دُهورُ(١)

***

تذكَّر وقوفك يوم العرض عريانًا ... مستوحشًا قلق الأحشاء حيرانًا

---

(١) انظر: «التذكرة» للقرطبي (٢٤٤، ٢٤٥) ط دار الكتب.

والنـار تلهـب مـن غـيظ ومـن حنـق | على العصاة وربُّ العرش غضـبانًا
إقـرأ كتابـك يـا عَبْـدُ عـلى مهـلٍ | فهـل تـرى فيـه حرفًا غير ما كـان
فلـمَّا قـرأتَ ولَمْ تنكـر قراءتـه | وأقررت إقرار من عرف الأشياء عرفانًا
نـادى الجليـل خـذوه يـا ملائكتـي | وامضـوا بعبدٍ عصى للنـار عطشـانًا
المشركـون غـدًا في النـار يلتهبـوا | والموحـدون بـدار الخلـد سُـكَّانًا[1]

فأهوالُ يوم القيامة يشيب لها الولـدان، وتسقط المرأة الحامـلُ حملها مـن فزع القيامة وأهوالها! وهذا من باب التمحيص للعباد المؤمنين.

ثم شدة الموقف! هل فكَّرت في الموقف بين الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ؟! كيف يكون حالك إذا وقفْتَ أمام قاضٍ من قضاة الدنيا في ساحة محكمة من محاكم الأرض؟ كيف يكون حال المرء إذا وقف أمام مسئولٍ من العبيد في هذه الدنيا؟ فهل فكرت في لحظةٍ ستقفُ فيها عاريًا كما ولدتك أمُّك بين يدي الله ـ جَلَّ وَعَلاَ: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١١١]؛ فشدَّةُ الموقف بين يدي الله لا

(١) المصدر السابق (ص ٢٥١).

يستطيعُ بليغٌ على وجْهِ الأرض أن يُعَبِّر عنها مهما آتاه الله من بلاغةٍ وفصاحةٍ وبيان وتبيان .

فكِّر في هذه الآيات التي سيقت آنفًا ؛ بل كُنْ على يقين أن شدة الموقف ستجعل كلَّ رسولٍ ونبيٍّ يقول : « نَفْسِي نَفْسِي » [1] إلا الحبيب النبيّ ﷺ .

ثم يأتي دَوْرُ الشفاعةِ ؛ فالملائكة تشفع ،والأنبياء يشفعون ،والمؤمنون يشفعون كذلك.

ثم يأتي بعد ذلك عفو ربِّ العالمين ﷻ .

تدبروا معي هذا الحديث الرقراق ؛ كما في « الصَّحِيحَيْنِ » [2] من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « يُدْنَى الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ ﷻ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ ؛ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ ؛ فَيَقُولُ :هَلْ تَعْرِفُ؟ (أي من الذنوب والمعاصي ؛ فكلُّ صغيرة وكبيرة مسطرة في كتاب عند ربي لا يضل ربي ولا ينسى ، فكم من مصيبة كنا قد أخفيناها فأظهرها الله لنا وأبداها ، وكم من معصيةٍ كنا قد نسيناها ذكَّرنا الله إياها) فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ (يقر المؤمن بذنبه) فَيَقُولُ الله ﷻ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ ، وَأَمَّا الْكُفَّار وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادِي بِهِمْ عَلَى رُؤُوس الْخَلَائِق : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى الله» .

فالمؤمن يُمَحَّص في يوم القيامة بالأهوال ، وشدة الموقف ، وبشفاعة الشافعين ، ويأتي بعد ذلك عفو ربِّ العالمين ﷻ ؛ فإن لم تمحصه كلُّ هذه

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «التفسير» ، سورة بني إسرائيل ، باب ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: ٣] ، (حديث٤٧١٢) ، ومسلم ، كتاب«الإيمان» ، باب أدنى أهل الجنة منزلة (١٩٤) ، من حديث أبي هريرة ـ في حديث الشفاعة الطويل .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «التفسير» ، باب سورة هود (٤٦٨٥) ، ومسلم ،كتاب « التوبة » ، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٨) .

الأشياء، مُحِّص بالنار ـ أعاذنا الله وإياكم من حرها ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم:٧١، ٧٢] ؛ ويمحَّصُ المرء في النار على حسب خبثه وذنوبه ؛ فإن طُهِّر بغمسةٍ خرج ، وإن طهر بأكثر من ذلك خرج ، إذ لا يعلم الوقت الذي يطهر فيه العبد من كلِّ ذنوبه وخبثه إلا ربُّه تبارك وتعالى ؛ فإن طهرته النار ،ومحَّصَته ،وخرج خبثه ، وصُفِّي صلبه وجسده ، وصار خالصًا طيبا ، أُخرج من النار ، وأدخل الجنة ، فيصب عليهم من ماءٍ ، من نهر في الجنة ، يقال له نهر الحياة ، فتنبت أجسامهم ، كما تنبت الحِبَّة في حميل السيل ، ويدخلون كاللؤلؤ بعد ما كانوا فحمًا ، في أعناقهم الخواتيم ، فيعرفهم أهل الجنة في الجنة ، فيقولون : هؤلاء عتقاء الرحمن من النار ، أدخلهم الله الجنة بغير عملٍ عملوه ، وبغير خير قدَّموه[(١)] ؛ نسأل الله أن يُحَرِّمنا جميعًا على النار ؛ إنه هو العزيز الغفار .

ثالثًا : من مراتب اليقظة[(٢)] :

الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام ، والعاقل الذي انتبه من سنةِ الغفلة ، ونفض عن كاهله غبار الغافلين ، هو الذي يعرفُ شرفَ زمانهِ ، وقَدْرَ أيامه ، فيقف مع أيامه ؛ ليعرف الزيادة والنقصان منها ، فيتدارك العاقل ما فاته من العمر ، ويلتفت إلى البقية الباقية من عمره ، وهي بقيةٌ لا ثمن لها البتة ، فيبخل بساعاته وبأوقاته ؛ بل وبأنفاسه في ذهابها ضياعًا في غير ما يقربه إلى الله تعالى .

(١) كما تقدَّم تخريج هذا في حديث الشفاعة في «الصحيحين» (البخاري: ٧٤٣٩ ، ومسلم:١٨٣).
(٢) «المدارج» (١/ ١٦١) .

فالعاقل هو الذي يقول لك : خُذْ كلَّ ما أملك من حطام الدنيا ، لكن لا تأخذ دقيقة من وقتي ، فهذا الوقت هو رأس المال ، وهذه الأنفاس هي رأس مالك ؛ إِنْ تنفست نفسًا في غير مرضاة الله ، وفي غير قربى إلى الله ؛ فأنت مغبون ! فإن وظَّفتَ هذه الأنفاس وهذه الأوقات وهذه الأزمان في القرب إلى الرحمن ، وفي طاعته ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ فهنيئًا لك .

وفي «صحيح البخاري»[1] من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ ».

فمَنْ وظَّف الصحة والفراغ في رضا الله ؛ فهو المغبوط ، ومن ضيَّع الصحة والفراغ ، ووظفها في غير مرضاة الله ؛ فهو المغبون الخاسر الذي لم يعرف شرف زمانه ، ولا فضل أيامه ، أمَّا العاقلُ اللبيبُ فيتدارك ما فاته في بقية عمره ، التي لا ثمن لها ، ويبخل بساعاته ـ بل بأنفاسه ـ عن ذهابها ضياعًا في غير ما يُقرِّبه إلى الله .

يقولُ ابنُ القيم: «فكلُّ نَفَسٍ يخرج في غير ما يقرِّب إلى الله ؛ فهو حسرة على العبد في الدنيا والآخرة !! » .

ولشرف الزمان أقسم الله به ، والله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ لا يقسم بشيء إلا ليبين قدره وشرفه . والله سبحانه له أن يقسم بأيِّ شيءٍ من خلقه ، ولا يجوز البتة للمخلوق أن يقسم إلا بخالقه .

تدبر مَعِي ـ أيُّها الحبيب ـ لتقف على شرف الزمان ، وعلى قدر الأيام بالزيادة والنقصان ؛ قال الله تعالى مبينًا شرف هذا الزمان : ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ [الفجر:١، ٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١، ٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى: ١، ٢] ، وقال

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الرقاق» ، باب الصحة والفراغ (٦٤١٢) .

تعالى :﴿ وَٱلْعَصْرِ﴾ ، والراجح من أقوال المفسرين أن المراد به الدهر ، وقيل: هو عمر الإنسان [١] ؛ فالليل والنهار خلقهما الله ﴿ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان:٦٢] ؛ فالليل والنهار من أعظم النعم ، والوقت من أعظم النعم ، لكنَّ كثيرًا من الناس لا يُقدرون هذه النعمة حقَّ قَدْرها ! فضلًا عن شكرها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

انظر إلى القَتَلَةِ الحقيقيين ! الذين يَقْتُلون الأوقات !! أستغفر الله ؛ بل يَقْتلون أنفسهم ، ويقتلون أعمارهم ! والعمر رأس المال ؛ فإن قتل الإنسان رأس ماله ، أو قتل عمره ، قتل نفسه !!

انظر إلى هؤلاء القَتَّالين أو القتلة الحقيقيين على المقاهي ، وبين ملاعب الكرة ، وأمام الشاشات والأفلام ، وعلى النواصي والطرقات ، يتسكَّعُون في الشوارع ؛ بل إذا سألت أحدهم : ماذا تصنع بالسُّلَّم والثعبان ؟! ماذا تصنع بالشطرنج ؟! ماذا تصنع بكذا وكذا ؟! يقول لك : أضيع الوقت ! وإن صدق لقال : أضيع عمري !!

ورحم الله من قال :

إذا مَرَّ بِي يَوْمٌ ولَمْ أقتبس هُدًى ولم أستفد علمًا فما ذلك من عمري [٢]

كان السلف ـ رحمة الله عليهم ـ من أحرص الخلق على الأوقات والأزمان .

قال أحد السلف : « ما ندمتُ على شيءٍ كندمي على يومٍ غربت شمسه ،

---

(١) راجع «أضواء البيان ـ التتمة » (٩/ ٤٩١ـ٤٩٣) .

وقال الطبري في «تفسيره»: «والصواب من القول في ذلك : أن يُقال : إن ربنا أقسم بالعصر (والعصر) اسم للدهر ، وهو العشي والليل والنهار..».

(٢) في «جامع بيان العلم » (١/ ٦١) :

إذا مضى يومٌ ولم أصطنع يدًا ولم أقتبس علمًا فما هو من عمري

نقص فيه عمري ولم يزد فيه عملي » كيف ذلك ؟ اسمع للقمان وهو يقول لولده : « أيْ بنيَّ ! إنك من يوم أن نزلْتَ إلى الدنيا استدبرت الدنيا واستقبلت الآخرة ، وأنت إلى دارٍ تُقْبل عليها ، أقرب مِنْ دارٍ تبتعد عنها» [1]، فما دُمْتَ في السير ؛ فأنت أقرب إلى النقطة التي تريد من النقطة التي تبتعد عنها ، وإن كنت قريبًا منها .

وتدبَّرْ هذا الكلام النفيسَ ، يقول الحسنُ البصري رحمه الله [2]: « ما من يوم ينشقُّ فجره ، إلاَّ وينادي بلسان الحال . يا ابن آدم ، أنا يومٌ جديد ، وعلى عملك شهيد ، فاغتنمني فإنِّي لا أعود إلى يوم القيامة » ؛ فالبدار البدار !!

دع عنك ما قد فات في زمن الصبا ... واذكر ذنوبك وابكها يا مذنب

لم ينسه الملكان حين نسيته ... بل أثبتاه وأنت لاهٍ تلعب

والروح منك وديعةٌ أودعتها ... ستردُّها بالرغم منك وتسلب

وغرور دنياك التي تسعى لها ... دار حقيقتها متاع يذهب

الليل فاعلم والنهار كلاهما ... أنفاسنا فيهما تُعدُّ وتُحْسَبُ

اللهم أحسن لنا الخاتمة يا رب العالمين .

*****

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٧٣) ، وابن المبارك في «الزهد » (٣٤٧) زوائد المروزي ، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٠) ، وابن عساكر (٣٢/ ٣) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « الليالي والأيام »(٢٤) .

الفكرة والبصيرة

فإذا استحكمت يقظته أوجبت له الفكرة .

والفكرة هي: المنزلة الثانية من المنازل على طريق الإحسان بعد اليقظة [(١)].

قال العلامة ابن القيم : « والفكرة فكرتان : فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة ، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة» .

أما التي تتعلق بالعلم والمعرفة ؛ فهي فكرةٌ تميز بين الحق والباطل ، والحلال والحرام،والسنة والبدعة ، والثابت والمنفي ، فيثبت الوحدانية لله ، ويفرد الله وحده بهذا الحق ؛ فأصل الفكر أن يبحث عن التوحيد؛عن غاية خلقه ووجوده . فإذا استيقظ وانتبه ؛ سيسألُ نفسه : مَنْ خَلَقَني ؟ ولماذا خُلقت ؟ وما المصير ؟ فسيبحث عن الغاية ؛ فيعرف الإله الحق ، فيفرق بين الإله الحق والآلهةِ الباطلة ، المكذوبة المدعاة ؛ فيفرد إلهه الحق بالوحدانية ، والتأله ،والاستعانة ،والخشية ، والإنابة ، والتفويض .. وغير ذلك من أعمال العبودية ، ويكْفُر بالأنداد ، والأرباب ، والآلهة ، والطواغيت المكذوبة المدعاة ؛ حينئذٍ يكون العبد بذلك قد صحَّتْ فكرته .

ثم الفكرة الأخرى ، وهي : التي تتعلق بالطلب والإرادة ؛ فهي التي تميز له على الطريق بين النافع والضار ، فيأخذ ما ينفعه ، ويترك ما يضره على طول الطريق في الدنيا ؛ بل ولا يبقى ضرره في الآخرة .

فإن صحَّت فكرتُهُ أوجبت له البصيرة ، وهذه هي المنزلة الثالثة ؛ فما هي البصيرة ؟ هي : نورٌ يقذفه الله ﷻ في قلب من يشاء من عباده .

---

(١) «المدارج» (١/ ١٣٨ـ ١٦٤) .

قال العلامة ابن القيم[١] : « إن صحَّت يقظته أوجبت له الفكرة ،وإن صحت فكرته ، أوجبت له البصيرة ، وهي نورٌ في القلب ؛ فيبصر العبد بهذا النور الوعد والوعيد ، والجنة والنار ، وما أعد الله في الجنة لأوليائه ، وما أعد الله في النار لأعدائه » .

أيها المستبصر: اعلم بأن الحجة قد تكون دامغةً ، وبليغة لا يهتدي بها كثيرٌ من الخلق ؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى لم يقذف في قلبه نور البصيرة ، ليبصر بها الأمر والنهي ، والثواب والعقاب ؛ لأن البصيرة لها مراتب ؛ سأبينها الآن .

قال ابن القيم : « فإذا صحت فكرته ، أوجبت له البصيرة .. فأبصر الناس ، وقد خرجوا من قبورهم مُهْطعين لدعوة الحق ، وقد نزلت ملائكة السموات فأحاطت بهم ، وقد جاء الله ، وقد نصب كرسيه ؛ لفصل القضاء، وقد أشرقت الأرض بنوره ، ووضع الكتاب ، وجيء بالنبيين والشهداء، ونُصب الميزان ، وتطايرت الصحف ، واجتمعت الخصوم ، وتعلَّقَ كلُّ غريم بغريمه ، ولاح الحوض وأكوابه عن كَثَب ، وكثر العطاش ، وقلَّ الوارد ، ونصب الجسر للعبور ، ولُزَّ الناس إليه ،وقُسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه . والنار يَحْطِم بعضها بعضًا تحته ، والمتساقطون فيها أضعافُ أضعاف الناجين .

فينفتح في قلبه عينٌ يرى بها كل ذلك بنور البصيرة ، ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الحق يرى به الآخرة ودوامها ، والدنيا وسرعة انقضائها .

فالبصيرةُ نورٌ يقذفه الله في القلب ؛ ليرى به العبد حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهده رأى العين » ا.هـ .

---

(١) «المدارج» (١/ ١٣٨، ١٣٩) بتصرف يسير.

فستبصر بهذه البصيرة التي نوَّر الله بها قلبك نور كلِّ ما أخبر به الرسول ﷺ ؛ لأنك صدَّقت الله ورسوله ، فستصل بذلك إلى مرتبة تصديق النبي ﷺ أكثر من تصديقك لما تراه عينك ! فلو أخبرنا رسولُ الله ﷺ بأمرٍ ؛ فإن نور الله بصيرتي وبصيرتك صدَّقْنَا هذا الأمر ، وأَخَذْنا به ؛ تصديقًا يفوق تصديقنا لهذا الأمر إن رأيناه بأعيننا نحنُ ! لأنَّ بصري وبصرك قد يزيغ وقد يطغى !! فكَمْ مِن أشياء لَمْ نَرَهَا على حقيقتها ؛ فأنت ـ مثلًا ـ تمشي على الطريق ؛ فإذا نظرت من بعيد كأنك تلمح ماء ، وإذا مشيت بسيارتك تجد نفسك ترى سرابًا تلو السراب ! وهكذا فأنت تنظر إلى أشياء في كثير من المواطن ، فتراها على غير حقيقتها ـ أقصد الأشياء المادية الملموسة المحسوسة ؛ فما ظنك بالأشياء المعنوية ؟ فالأمر فيها أوسع وأخطر ؛ فقد يزيغ بصري ويطغى ! لكن رسول الله ﷺ ، يقول ربُّه في حقِّه : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم:١٧] ؛ فرؤيةُ النبيِّ ﷺ لي أعظم من رؤيتي لنفسي . والإنسان لا يشعر بحلاوة هذا التصديق إلا بنور البصيرة الذي يقذفه الله في قلبه ؛ فيتعامل مع كلِّ ما أخبر به رسوله ، وكأنما يراه رأى العين ـ أَوَلَمْ يَقُلْ حَنْظَلَةُ ـ الذي نوَّر الله بصيرته ـ للصديق ﷺ : يا أَبَا بَكْر ، نَافَقَ حَنْظَلَةُ ! قَالَ : « وَمَا ذَاكَ؟ » قَالَ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَيُذَكِّرُنَا بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، حَتَّى وَكَأَنَّنَا نَرَاهُمَا رَأْيَ العَيْنِ[1] . يا إلهي ! نعم لقد وصلوا إلى هذه المرتبة بنور البصيرة ، كأنَّ أحدهم إذا ذُكِّر بالجنة والنار ،كأنه يرى الجنة وما في ذلك من نعيم ، وكأنه يرى النار وما فيها من عذاب أليم !!

وكان أحدُهم إذا وقف خلفَ النبيِّ ﷺ يستمع منه آيات النعيم يشعر أنه لو مَدَّ يده لالتقط عنقودًا من هذا النعيم ، وإذا قرأ النبيُّ ﷺ آيات العذاب

(١) سبق وهو في «صحيح مسلم» في سياق طويل .

والجحيم لاضطرب أحدهم خلفه، وكأن النار ستُقْبل عليه بلهبها ولفحها !! عايشوا كأنهم رأوا الجنة والنار رأي العين . أما المصطفى ﷺ فلقد رآهما ليلة الإسراء والمعراج ـ بدون كاف التشبيه ـ ورآهما في الدنيا ! رأي عين [(١)] .

ثم قال ابن القيم : « والبصيرةُ على ثلاث درجات . من استكملها ، فقد استكمل البصيرة : بصيرة في الأسماء والصفات ، وبصيرة في الأمر والنهي ، وبصيرة في الوعد والوعيد .

أما المرتبة الأولى من البصيرة ؛ فهي: بصيرة في الأسماء والصفات ، ومعناها: ألا يتأثر إيمانك بشبهةٍ تعارض ما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله ﷺ . وعقْدُ هذا : أن يشهد قَلْبُك الربَّ تبارك وتعالى مستويًا على عرشه ، متكلمًا بأمره ونهيه ، موصوفًا بصفات الكمال ، منعوتًا بنعوت الجلال ، منزهًا عن العيوب والنقائص والمثال ؛ فهو كما وصف نفسه في كتابه ، وفوق ما يصفه به خلقه ، حيٌّ لا يموت ، قيومٌ لا ينام ، عليمٌ لا يخفى عليه مقدار ذرة في السموات ولا في الأرض ، بصيرٌ يرى دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء ، سميعٌ يسمع ضجيج الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات ، تمت كلماته صِدْقًا وعدلًا ، وجلَّتْ صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبهًا ومثلًا . وتعالَتْ ذاته أن تشبه شيئًا من الذوات أصلًا. ووسعت الخليقة أفعالُه عدلًا وحكمةً ورحمةً وإحسانًا وفضلًا . له الخلقُ والأمر . له النعمةُ والفضل . له الملكُ والحمد . وله الثناءُ والمجد . أولٌ ليس قبله شيء . وآخر ليس بعده شيء . وظاهر ليس فوقه شيء . باطنٌ ليس دونه شيء . أسماؤه كلُّها مدْحٌ وحمدٌ وثناءٌ وتمجيدٌ . ولذلك كانت حسنى ، وصفاته كلُّها صفات كمال ، ونعوته كلُّها نعوت جلال ، وأفعاله

---

(١) سبق .

كلُّها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل .

كلُّ شيءٍ من مخلوقاته دالٌّ عليه ، ومرشدٌ لمن رآه بعين البصيرة إليه . لم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً ، ولا ترك الإنسان سُدًى عاطلاً ؛ بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته ،وأسبغ عليهم نعمه ليتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته ، تعرف إلى عباده بأنواع التعرفات ، وصرف لهم الآيات ، ونوَّع لهم الدلالات ، ودعاهم إلى محبته من جميع الأبواب ، ومدَّ بينه وبينهم من عهده أقوى الأسباب ؛ فأتم عليهم نعمه السابغة ، وأقام عليهم حجته البالغة ، أفاض عليهم النعمة ، وكتب على نفسه الرحمة ، وضمَّن الكتاب الذي كتبه :«أنَّ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ»[(١)] . هذه هي البصيرة في الأسماء والصفات[(٢)] : أن تؤمن بما وصف الله به نفسه ، وأن تؤمن بما وصفه به أعرف الخلق ﷺ. لا تُؤَوِّل ولا تعطل ولا تكيف ! فهذا من عمى البصيرة .

وأن يشهد قلبك الربُّ تبارك وتعالى مستويًا على عرشه ؛ استواءً يليق بكماله وجلاله ؛ فكلُّ ما دار ببالك ، فالله بخلاف ذلك ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ؛ فلا ندَّ له ، ولا كُفء له ، ولا شبيه له ، ولا مثيل له ، ولا والد له ، ولا ولد له ، ولا زوج له ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل:٧٤] ، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠] ، ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] .

وفي «صحيح مسلم»[(٣)] من حديث أبي موسى الأشعري أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ الله لاَ يَنَامُ ، وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ

(١) كما سبق في «الصحيحين» (البخاري ٣١٩٤، ومسلم٢٧٥١) .

(٢) بتصرف من «المدارج»(١/ ١٣٩، ١٤٠) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب «الإيمان» ، باب في قوله ﷺ : « إن الله لا ينام » (١٧٩) .

عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » .

وفي « الصَّحِيحَيْنِ »[1] من حديث عبد الله بن مسعود قَالَ : جَاءَ حَبْرٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَوْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، إِنَّ الله تَعَالَى يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِصْبَعٍ ، [انظروا إلى عظمة الحق وجلاله وقدرته وكماله وقوته] .وَيُمْسِكُ الأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ ، وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ ، أَنَا الْمَلِكُ ، فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ الْحَبْرُ تَصْدِيقًا لَهُ ، وَفِي لفظٍ : « فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧] ، جَلَّ جلالُ الله ؛ فالبصيرة في الأسماء : أن تبصر بقلبك ربك مستويًا على عرشه ؛ استواءً يليق بكماله وجلاله ؛ استوى كما أخبر ، وعلى الوجه الذي أراد ، وبالمعنى الذي قال ؛ استواءً منزهًا عن الحلول والانتقال ، فلا العرش يحمله ، ولا الكرسيُّ يُسْنِدُه ؛ بل العرشُ وحملته ، والكرسيُّ وعظمته ، الكلُّ محمول بقدرته ، مقهورٌ بجلال قبضته ؛ فالاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . هذا هو نور البصيرة بالأسماء والصفات ؛ فلستَ أعرَفَ بالله مِنَ الله .

أما المرتبة الثانية من مراتب البصيرة ؛ فهي البصيرة في الأمر والنهي . وهي كما قال ابن القيم[2]: « تجريده ـ أي : الأمر والنهي ـ عن المعارضة

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «التوحيد» ، باب قول الله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص:٧٥] ، (٧٤١٤، ٧٤١٥) ، ومسلم ، كتاب «صفة القيامة والجنة والنار» (٢٧٨٦) .

(٢) «المدارج» (١/ ١٤١ بتصرف) .

بتأويلٍ ، أو تقليدٍ ، أو هوى ؛ فلا يقومُ بقلبِ مَنْ رزقه الله البصيرة شبهةٌ تعارض العلم بأمر الله ونهيه ، ولا تقومُ بقلبه شهوةٌ تمنع من تنفيذ أمر الله واجتناب نهيه ، ولا تقليدٌ يريحه عن بذل الجهد في تلقي الأحكام من مشكاة النصوص » ؛ ربما ترى إنسانًا أعمى الله بصره ، ثم تراه يتأول لعدم صلاته، ويحتج بقول الله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] ؛ هذا أعمى البصر والبصيرةِ يتكلفُ في تأويل آيات الله بغير حق !! إن سألته : لماذا لا تحجُّ وأنت قادر ؟ لماذا تترك امرأتك وبناتك متبرجات ؟ لماذا تأكل الربا ؟ لماذا لا تخرج الزكاة ؟ تراه في كلِّ هذا يقول : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] ، وبقول الله يحتج : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨] ، ويردِّد : «ما يحتاجه البيت يحرم على الجامع» !! فهذا العبد لم يرزق بصيرة ، ولكن من رزقه الله البصيرة إن أمر ائتمر، وإن نُهي انتهى ، وإن حدَّ الله الحدَّ وقف عند حدِّه ، وشعاره مع كلِّ أمرٍ ، ومع كلِّ نهيٍ ؛ سمعٌ بلا تردد ، وطاعةٌ بلا انحراف ؛ يقول قولة السابقين : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥] ، هذا هو المؤمن الذي رزقه الله نور البصيرة ؛ فكما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦] ؛ فالمؤمن لا يردُّ الأمر والنهي بتأويلٍ ولا بهوًى ، والهوى ملكٌ ظلومٌ جهولٌ غشومٌ يحول بينك وبين امتثال الأمر واجتناب النهي ؛ لذا حذَّر الله نبيًّا كريمًا من أنبيائه من الهوى ؛ فقال تعالى : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ

شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦] ؛ فالهوى إله يُعْبد ، فيحول بينك وبين أمر الله ونهيه ؛ قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[الجاثية:٢٣] ، تراه يقول لك : الخمر مشروب روحيٌّ !!

ويقول : خنازير اليوم تُربّى تحت الرعاية الصحية والطبية !!

ويقول : الربا فوائد بنكية !!

ويقول : التبرج تطور وتحرر ومدنية وحرية !!

صدُّوا عن وحي الإله ودينه ... واحتالوا على حرام الله بالإحلال

يا أمة لعبت بدين نبيها ... كتلاعب الصبيان بالأوحال

حاشا رسول الله يحكم بالهوى ... تلك حكومة الضلال

والتقليد داءٌ عضال !!

قال ابن القيم في موضع آخر ـ وهو من أنفس ما قال [(١)]: « وما عَارَضَ الكفارُ الرسلَ إلاَّ بالعادات المستقرة الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين » ؛ فأكبر عدوٍّ للرسل وأتباع الرسل العادات والتقليد ! أو لم يكفر أهل مكة بمثل هذا التقليد الأعمى الخبيث الضار؟! ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف:٢٢] ، على هذا الكفر ، ونحن على هذه الآثار ؛ آثار الآباء والأجداد مهتدون مقتفون مقتدون !! حتى وإن خالفت ما جاء به الرسل ؛ إنه خطر التقليد ! رجل فاضل يريد أن يزوج ابنته ؛ فتراه يصنع عرسًا شيطانيًّا خبيثًا !! لماذا وأنت رجلٌ تصلي وتحج بيت الله ؟! فيجيب : ماذا نصنع يا شيخ ! هذه عادة الناس وعادة البلد !! انظر إلى هذا التقليد الخبيث في كلِّ شيءٍ ؛ فالتقليد

(١) «المدارج» (١/ ١٤٦) ، ط الكتاب العربي.

لغير أهل الفضل والحق والإيمان ، يحول بينك وبين أوامر ونواهي الرحمن . ومن نور الله بصيرته لا يقلِّدُ الشيطان ولا يقلد أتباع الشيطان ؛ بل يمتثل الأمر ويجتنب النهي ، وإن خالف هذا الأمر وهذا النهي ما عليه القوم من عادات وتقاليد ؛ فهذه هي العبودية لله تعالى .

أما المرتبة الثالثة من مراتب البصيرة ؛ فهي البصيرة في الوعد والوعيد ، وهي : « أن تشهد قيام الله على كلِّ نفس بما كسبت في الخير والشر ، عاجلاً وآجلاً ، في دار العمل ودار الجزاء ، وهذا موجب إلهية الله وربوبيته ، وعدله ، وحكمته»[1] ؛ فالله تبارك وتعالى ما خلق الخلق سُدىً ولا هملاً ؛ بل خلقهم لغاية ، ثم بعد ذلك يوقفهم بين يديه للسؤال والحساب . ووالله لو كانت القضية ستنتهي بالموت لكان الخطب يسيرًا ، لكن بعد الحياة موت ،وبعد الموت بعث ، وبعد البعث جزاء : جنة أو ونار ؛ فشهادة العقل بالجزاء في الآخرة ، كشهادة العقل لله بالوحدانية تمامًا ، أعني : أنَّ الإيمان بالجزاء وبالوعد والوعيد ؛ بوعد الله لأهل النعيم ووعيده لأهل الجحيم . الإيمان به يقدِّمُهُ العقل ويؤمن به العقل الصحيح ، حتى قبل أن يصل به إلى صريح النقل وصحيحه ؛ فالعقلُ الصحيحُ يثبت لله تبارك وتعالى الوعد والوعيد قبل أن يهتدي إلى نصوص الوحي القرآني والنبوي ؛ لأن الميعاد مخلوق معلوم بالعقل لأيِّ صاحب عقل سليم ، وإنما نهتدي بعد ذلك إلى تفاصيل الوعد والوعيد وبحقائق الوحي الرباني والنبوي ، ولذلك يجعل الله إنكار الجزاء وإنكار البعث كفرًا ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِى

(١) «المدارج» (١/ ١٤١) .

أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الرعد:٥] ، وفي الآية قولان [١]:

القول الأول : عجبًا ! ينكرون البعث وقد خلقوا من تراب ولم يكونوا شيئًا .

القول الثاني : إن تعجب من شركهم مع الله غيره وعدم انقيادهم وتوحيدهم له وحده لا شريك له ؛ فإنكارهم للبعث أعجب . والآيات في ذلك كثيرة ؛ فلقد أنكر الله إنكارًا شديدًا على من أنكر البعث في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [البقرة:٢٥٨، ٢٥٩] ، والقول المشهور ؛ كما قال الحافظ ابن كثير [٢] : أن هذا المار هو عزير ؛ مَرَّ على بيت المقدس بعدما دمَّره بختنصر البابلي . قال ابن كثير : « وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس ، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها » . وصحَّ هذا عن قتادة [٣] ، مرَّ العزير على هذه القرية فوجدها خرابًا في خراب!! ﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ [البقرة:٢٥٩] ؛ فنظر إلى الشمس فرآها مائلة إلى الغروب ؛ فظن أنها شمس اليوم الذي نام فيه فـ:﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل

---

(١) «تفسير الطبري» (٧/ ٣٣٩ الرعد:٥) ، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ١٠٧) ، و«المدارج» (١/ ١٤٢) .

(٢) «تفسير ابن كثير» (لسورة البقرة:٢٥٩) (٢/ ٤٥٣) ؛ قال ابن جرير : «ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه » (٣/ ٣١ تفسير الطبري) .

(٣) أخرجه الطبري في«تفسير» (٥٩٠٢) بسندٍ حسن عن قتادة .

لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ﴾ وهنا سؤال: كيف أعرف هذه المسألة ؟ والجواب: عليك أن تنظر إلى وجه المقارنة الثابت وإلى وجه المقارنة المتغير ؛ فلابد للمقارنة من هذين الوجهين ؛ فقال الله تعالى : ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡ ﴾ أي : لم يتغير لونه ولا طعمه ولا ريحه ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ الحمار صار رميمًا!﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تصور أن الحمار الذي تفرقت أجزاؤه ونخرت عظامه ، وتقطعت أوصاله ، أعادهُ الله جَلَّ وعلا ، ورُكّبت عظامُه وكُسيت باللحم ، وأمر الله الملك فنفخ في هذا الهيكل ؛ فنهق الحمار بإذنه تعالى !! ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [البقرة:٢٦٠] ، أي : اذبح واخلط العظم واللحم والريش ، واجعل على كلِّ جبل كومة من هذا الخليط ، ﴿ ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗا ﴾ ولم يقل: يأتينك طيرانًا ﴿ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

مثلٌ ثالثٌ في سورة يس : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥ ﴾[يس:٧٨] .

أخرج الطبريُّ وابن أبي حاتم والحاكم [(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال :

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٢٩٢٤٣) عن سعيد بن جبير ، فذكره ، ولم يذكر ابن عباس ، لكن وصلَهُ الحاكم (٢/ ٤٢٩) ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ـ كما في ابن كثير ـ (١١/ ٣٨٣) (ط أولاد الشيخ) ، قال الحاكم : «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، لم يخرجاه». وصحَّحه العلامة الوادعي في « أسباب النزول » (١٧٤) ط ابن تيمية .

جَاءَ العَاصُ بْنُ وَائِلٍ إِلى رسُولِ الله ﷺ بِعَظْمٍ حَائِلٍ فَفَتَّهُ ؛ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! أَيَبْعَثُ الله هَذَا بَعْدَمَا أَرَمَ ؟ قَالَ : « نَعَمْ يَبْعَثُ الله هَذَا ، ثُمَّ يُمِيتُكَ ، ثُمَّ يُحْيِيكَ ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ » . قَالَ : فَنَزَلَتِ الآيَاتُ مِنْ آخِرِ يس : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس:٧٨-٨٣] .

فالبصيرة في الوعد والوعيد : أن تؤمن بأن الله تبارك وتعالى سيبعث خلقه ليكافئ أولياءه في دار النعيم ، وليعاقب أعداءه في دار الجحيم .

هذه البصيرة تُنبتُ في أرض القلب الفراسة الصادقة [(١)] .

قال ابن القيم : « والبصيرة نورٌ يقذفه الله في القلب ، يفرق به العبد بين الحق والباطل ، والصادق والكاذب ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر:٧٥] ، قال مجاهد [(٢)] : « ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ للمتفرسين » . أي : لأصحاب الفراسة . وفي «سنن الترمذي» [(٣)] -

---

(١) «المدارج» (١/ ١٤٥) .

(٢) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٢١٢٤٠) وثمَّ آثار أخر في الباب .

(٣) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب «تفسير القرآن» ، باب : ومن سورة الحجر (٣١٢٧) ؛ وقال : « هذا حديثٌ غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه ، وقد روي عن بعض أهل العلم » . والطبريُّ في =

والحديث ضعيف الإسناد ؛ ففيه عطية العوفي - من حديث أبي سعيد الخدري أن الحبيب النبيَّ ﷺ قَالَ : « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله ﷻ ». وقد ضعَّفه شيخنا الألباني في «السلسلة الضعيفة» .وإن كان هو نفسه رحمه الله حسَّنَ لفظًا يقاربُه ؛ ألا وهو : « إِنَّ للهِ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ » أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» ، والطبرانيُّ في«الأوسط» وغيرهما [1]من حديث أنس ؛ فعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة .

والفراسة لأهل المعرفة بالله متصلة بنور الوحي مع نور الإيمان ؛ كما قال العلامة ابن القيم [2]: « وأما فراسة الصادقين ، العارفين بالله وأمره : فإن همتهم لَمَّا تعلقت بمحبة الله ، ومعرفته وعبوديته ، ودعوة الخلْق إليه على بصيرة . كانت فراستهم متصلة بالله ، متعلقة بنور الوحْي ، مع نور الإيمان ، فميَّزت بين ما يحبه الله وما يبغضه : من الأعيان ، والأقوال ، والأعمال . وميزت بين الخبيث والطيب ، والمحق والمبطل ، والصادق ، والكاذب ، وعرفت مقادير استعداد السالكين إلى الله ، فحملت كلَّ إنسان على قدْر استعداده ، علمًا وإرادة وعملًا » .

ففراسة هؤلاء الصادقين العارفين بأمر الله ونهيه دائمًا حائمة حول كشف طريق رسول الله ﷺ، وتعريفها ، وتخليصها من بين سائر الطرق ، وبين كشف عيوب النفس ، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين .

- «التفسير»(٢١٢٤٩) ، وابن أبي حاتم في «تفسيره»ـ كما في ابن كثير (٨/ ٢٧٠) سورة الحجر . وللحديث شواهد عن ابن عمر وأبي هريرة وأبي أمامة وثوبان ؛ لكن كلُّها ضعيفة ، لذا ضعَّفه العلامة الألبانيُّ في «الضعيفة» (١٨٢١) .

(١) أخرجه الطبريُّ (٢١٢٥٢) ، والطبراني في«الأوسط»(٢٩٥٦) ، والبزار ؛ كما في « مختصر الزوائد» (٢٣٠٢) وحسَّن إسناده الهيثمي والسخاوي والألبانيُّ في «الصحيحة» (١٦٩٣) ثم قال : « .. الحديث المشهور يؤيده : « اتقوا فراسة المؤمن ..» وهو وإن كان ضعيف الإسناد من جميع طرقه ، كما بينته في«الضعيفة » (١٨٢١) فلا أقل من أن يصلح شاهدًا لهذا ، ولا عكس ؛ فتأمَّل » .

(٢) «المدارج» (١/ ١٤٧).

فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة ، وأنفعه للعبد في معاشه ومعاده .

أيها الأحبة : وهكذا ؛ فإن العبد إذا استحكمت يقظته أوجبت له الفكرة ، وإذا صحَّت فكرته أوجبت له البصيرة ، فإذا انتبه وأبصر أجمع القصد والنية على سفر الهجرة إلى رب البرية ، وإعداد الزاد ليوم المعاد ، فإذا استحكم قصده صار عزمًا . وهذه هي المنزلة الرابعة : يقظة ، ثم فكر ، ثم بصيرة ، ثم عزم .

وهو ما سيأتي الكلام عنه في المبحث الآتي .

*****

منزلة العزم

والعزمُ هو : القصْدُ الجازم المتصل بالفعل المقرون بالتوكل على الله ؛ قال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩] ، والعزمُ نوعان : الأول : العزم على الدخول في الطريق إلى الله ـ وهذه هي البداية . والنوع الثاني : العزم في حال السير في الطريق إلى الله تبارك وتعالى . وبهذه المنزلة يحتاج السائر إلى الله إلى أن يتعرف دومًا على ما به وما عليه ، ليأخذ ما له ، وليؤدي ما عليه . وهذا هو مقام المحاسبة ، وهو قبل مقام التوبة في المرتبة [(١)].

هذه المنازل هي كالأساس للبنيان بالنسبة لسائر المنازل أو بالنسبة لسائر مقامات الإيمان ومراتب الدين ، لكن لابد أن نؤصل منذ البداية أن ترتيب المقامات [(٢)] ليس معناه أن العبد يقطع مقامًا من المقامات ، ثم ينتقل منه تمامًا إلى غيره من المقامات الأخرى من مقامات الدين ومراتب الإيمان ؛ كمنازل السير الحسِّيِّ ؛ كمن ينتقل من المنصورة إلى القاهرة ، ومن القاهرة إلى الإسكندرية ، فإن وصل إلى القاهرة ، فقدْ فارق المنصورة تمامًا . أقول : هذا الترتيب ليس مرادًا في مقامات الدين !! كَلَّا ، وإنما إذا انتقل العبد من مقام إلى مقام ، فليس معناه أنه يترك المقام الأول تمامًا لينتقل منه إلى مقام آخر !! ألا ترى أن العبد يجب عليه أن يكون يقظًا في كلِّ المقامات ؛ فمقام اليقظة مقام مُصاحبٌ لكلِّ مقامات الدين ، وكذلك مقام البصيرة ، والإرادة ، والعزم ، والتفكر والتدبر ، والصبر ، والتوبة .. فكلُّ هذه المقامات : لابد ، وأن تكون

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٤٩ بتصرف).

(٢) بتصرفٍ من «المدارج» (١/ ١٤٩) وانظر ما بعدها (١/ ١٨٩و..) .

ملازمةً للعبد في مقامات أخرى . يعني : مقام التوبة لابد أن يكون ملازمًا للعبد من أول مقام يسلكه إلى أن يرتقي إلى آخر المقامات من مقامات الإحسان ؛ فالتوبة أول الأمر ، وآخر الأمر ، ووسط الأمر ؛ بل وفي كل لحظةٍ لابد أن يكون العبد منيبًا إلى الله .ألا ترى أن سيد المحسنين وإمام النبيين كان يتوب كلَّ يوم مائة مرة[1] .

فالعبد لا يفارق المقام الذي منَّ الله ﷻ به عليه ؛ بل يصحبه معه إلى كلِّ مقامات الدين ، ومراتب الإيمان ؛ فهذه المراتب الأولى هي كالأساس للبنيان ، وعليها مدار السفر إلى الله تعالى .

فإن المقيم الذي يريد السفر لا يتأتى منه السفر حتى يستيقظ من غفلته عن السفر .. لابد أن يستيقظ ابتداءً ويفكِّر في أنه كيف غفل عن السفر طوال هذه السنوات ، ثم بعد ذلك يتبصر في أمر سفره ؛ فأولاً : يفكر في أهبة السفر وفي إعداد الزاد للسفر ، ثم بعد ذلك يتبصر في أمر سفره ، وما هو الخطر الذي يمكن أن يواجهه في السفر؟ وما الذي ينشده من منفعة ومصلحة ؟ ثم بعد ذلك يعزم على السفر ؛ فلابد من هذه المنازل ؛ فإذا أجمع العبد القصد ، وصار هذا القصدُ عزمًا ، وبدأ السفرُ ـ فعلًا ـ إلى الله تعالى ، انتقل العبد إلى منزلة المحاسبة ، وهي : التمييز بين ماله وما عليه ؛ فيستصحب ـ في هذا السفر الذي لا رجعة فيه ولا عودة منه بعد ذلك إلى دار الفناء ـ ما له ، ويؤدي ما عليه ؛ لأنه مسافرٌ سفر مَنْ لا يعود إلى الدنيا ؛ فإذا عرف ما له وما عليه أخذ في أداء ما عليه والخروج منه ، وهو «التوبة» .

ولنبدأ بمقام المحاسبة ثم نردف ذلك بالحديث عن «التوبة» وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «الذكر والدعاء» ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٢٧٠٢).

منزلة المحاسبة

وهذه المنزلة ـ منزلة المحاسبة ـ قد أمر الله ﷻ بها عباده السائرين إليه ؛ فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر:١٨] ؛ فأمر الله سبحانه وتعالى العبد المؤمن أن ينظر ما قدم لغد ، ماذا قدَّم ليومٍ سيقف فيه بين يدي الله عاريًا من كلِّ جاه ! ومن كلِّ منصب ! بل ومن كلِّ ثياب ؟للسؤال عن القليل والكثير ، والصغير والكبير؛ قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧، ٨] ، وقال سبحانه : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] ؛ فماذا قدَّمتَ ليومٍ ستُعْرَضُ فيه على الله تعالى ؟ لينظر كلُّ عبدٍ مؤمنٍ إلى ما قدمه لغد ؟ وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك ، والنظر هل يَصْلُح ما قدَّمه أن يلقى الله ﷻ به أو لا يصلح ؟ سَلْ نفسك الآن .. سلي نفسك الآن ـ أيتها المسلمة ـ وأنا أسأل نفسي قبلكم ؛ فأسأل الله ﷻ أن يرزقني وإياكم الإخلاص في القول والعمل ، والسر والعلن ، وأن ينفعنا بما نقول وبما نسمع ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

انظر هَلْ يصلح ما قَدَّمتَ إلى هذه اللحظة أن تلقى به ربَّكَ ؟ ماذا لو أتاك الليلةَ ملكُ الموتِ ؟ وكلُّنا من الجائز جدًّا أن يأتيه الليلةَ ملَكُ الموتِ ؛ بل الآن ؛ بل أنت تخرج النَّفَسَ ولا تضمن أن تستردَّهُ مرَّةً أخرى ، وتدخل النفس ولا تضمن أن تخرجه ثانية ! والله لا يضمنها أحدٌ على وجه الأرض !!

فإن الأنفاس محسوبة ، والساعات والأيام معدودة ، والأيام تمر ، والشهور تجري وراءها ، تسحب معها السنين ، وتجر خلفها الأعمار ، وتُطوى حياة جيل بعد جيل ، وبعدها سيقف الجميع ـ حتمًا ـ بين يدي الملك الجليل ، للسؤال عن القليل والكثير ، والصغير والكبير .

آهٍ من ذلّ الوقوف بين يديه ! قال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه:١٠٥ـ١١١] ، هل يصلح ما قدّمت إلى الآن أنْ تقدُمَ به على سيِّدك ومولاك ؟ سؤال أكرِّره وأرجو أن نردده على أنفسنا في بيوتنا ودورنا وطرقنا وأسفارنا وعلى مضاجعنا ووقت طعامنا وشرابنا ؛ قال عمر ﷺ[1]: « حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا ، وَزِنُوهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا ، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ ، يَوْمَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَة » ؛ فإنما يخفُّ الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا .

وبدايةُ المحاسبة : أن تقايس بين نعمة الله ﷻ عليك وبين جنايتك وتقصيرك ، وجرأتك عليه في الليل والنهار .. كلُّنا يتجرأ على الله في خلواته ـ إلا من رحم ربي ـ ينظر العبد هل غابت عنه أعين الناس ليبارز مَنْ يعلمُ السر وأخفى بالمعصية ؟ وهو يعلم أنه يعصي ربه وهو مطلع عليه !!

---

(١) تقدَّم .

ورحم الله من قال :

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قُلْ عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفى عليه يغيب

قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة:٧] ؛ كم من مرَّةٍ أرْخَيْتَ الستائر ، وغلَّقت النوافذ والأبواب ؛ لتختفي عن أعين البشر ، ممن لا يملكون لك ضرًّا ولا نفعًا ؛ لتبارز ربَّ البشر بالمعصية ، وأنت تعلم أنك تعصيه !! كم من مرَّةٍ سترك على معصيته ، ولا تتردد بعد ذلك ، ولا تستحي أن تبارزه مرة أخرى بالمعصية ويستر !! فقايس بين نعم الله عليك وبين جنايتك وتقصيرك في حقه وجرأتك على حدوده .. هذه أول خطوة على طريق المحاسبة ، وهذه هي المقايسة الأولى في منزلة المحاسبة : المقايسة بين نعم الله علينا التي لا تعدُّ ولا تُحصَى . وأشرف نعم الله علينا هي نعمة الإيمان بالرحيم الرحمن ونعمة الإيمان بمحمدٍ ﷺ .

ومما زادني فخرًا وتيهًا وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك : يا عبادي وأن أرسلت أحمد لي نبيًّا

فإنك إن قايست بين نعم الله عليك وبين جنايتك وتقصيرك وجرأتك عليه سبحانه وتعالى ؛ فحينئذٍ سيظهر لك التفاوتُ ، وستعلم يقينًا أنه ليس إلا عفوه وستره أو الهلاك والعطب والخسران والخذلان في الدنيا والآخرة !! لو عرض أيُّ إنسانٍ منا عمله على نعم الله تبارك وتعالى ، وقايسنا ، ووقف

كلٍّ واحدٍ منا على حجم جنايته ، وعلى حجم تقصيره ، ومع ذلك يرى ربَّهُ يسْتُره ، سيعلم حينئذٍ أنَّ ما فيه مِنْ فضلٍ ، ونعمةٍ ، وخير ، وعلم ، وعبادة ، وصحة ، وعافية ، وزوجة ، وولد .. إلى آخره ، إنما هو مَحْضُ فضل الله عليه ، وستر الله عليه ، وعفو الله عليه ، وكرم الله عليه .. ولولا ذلك لفضحنا في الدنيا ، ولهلكنا في الآخرة !! قال أحَدُ السلف : « يا رب ، لا أدري على أي النعمتين أشكرك : على ستر جميل - لستُ أهلاً له - سترتني به ، أوْ على ثناءٍ جميل - لستُ أهلاً له - نشرتَهُ لي بين الناس » .. ترى الناس يتحدثون عنك ؛ بل ويثنون عليك ، وأنت تعلم من نفسك أنه محض ستر الله عليك ؛ فلو كشف الله ستره عنك لحظة لافتضحت ــ وربِّ الكعبة ــ فلا تغتر بعمل ، ولا بعلمٍ ، ولا بدعوةٍ ، ولا بعبادةٍ ، والله لا نملك إلا ستره ، وعفوه ، وفضله ، وكرمه ، وجوده ، ورحمته .. بهذه المقايسة بين نعم الله علينا وجنايتنا وتقصيرنا في حق ربِّنا علينا سيتبين لنا حتمًا أنَّ الربَّ ربٌّ ، وأن العبدَ عبدٌ . وبهذه المقايسة أيضًا ستقف حتمًا على حقيقة النفس ، وصفاتها ، وعيوبها ، وستقف أيضًا على عظمة الله ﷻ ، وتفرُّدِ الربِّ سبحانه ، بالكمال ، والإنعام ، والإحسان ، والإفضال ، والإكرام ، وستعلم أنَّ كلَّ نعمةٍ منه سبحانه فَضْلٌ ، وأن كل نقمة منه سبحانه عَدْلٌ .. فلا ينزل البلاء إلا بذنب ، ولا يرفع البلاء إلا بالتوبة .

وأنت قبل هذه المقايسة والمحاسبة جاهل تمامًا بنفسك : بحقيقتها ، وعيوبها ، وتقصيرها ؛ فإن قايست ونظرت إلى فضل الله عليك ، ونعم الله عليك ، ووقفت على قَدْر جنايتك ، وجرأتك ، وتقصيرك في حَقِّه سبحانه وتعالى ؛ حينئذٍ سيظهر لك أن نفسك منبعُ كلِّ شر ، وأساسُ كلِّ نقص ،

وأنه لولا فضل الله ورحمته بتزكيته لهذه النفس ما زكت أبدًا ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم:٣٢] ، ولولا هُداه تعالى ما اهتدت هذه النفس ، ولولا إرشاده وتوفيقه ما وصلت النفس الجاهلة الظالمة إلى خيرٍ البتة[(١)].

فنفسي جاهلة ظالمة ناقصة لا تهتدي أبدًا إلى خير إلاَّ إن هداها الله ، ولا تُوفَّق أبدًا إلى فَضْلٍ إلاَّ إن وفقها الله ، ولا ترشد أبدًا إلى نعمةٍ وصلاح إلا إذا أرشدها الله ، وهذا هو المراد بقَوْلِ : « لا حَوْلَ ولا قُوَّة إلا بالله » ؛ فالنفس كما أنه ليس لها من ذاتها وجود ـ يعني : لم توجد النفس نفسها ، فهي مخلوقة بأمر الله تعالى ـ فكذلك ليس لها من ذاتها كمال الوجود ؛ بل ليس لها من ذاتها إلا العدم ـ عدم الذات وعدم الكمال أيضًا ـ فهناك إن وقفت على هذه الحقائق مع أول خطوة للمقايسة في منزلة المحاسبة ، ستعرف ربك بالكمال التام ؛ وستعرف نفسك بالنقص التام ، والجهل التام ، والفقر التام ؛ فمَنْ عرف ربَّهُ بالغِنَى المطلق عَرَف نفْسَهُ بالفقر المطلق ؛ حينها تقول النفس ـ حقًّا : « أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي »[(٢)].

أما حُسْنُ الظنِّ بالنفس ؛ فإنه يمنع من كمال التفتيش ، ويُلَبِّس على العبد ، فيرى المساوئ محاسن ، والعيوب كمالاً !!

ولا يُسيءُ الظنَّ بنفسه إلا من عرفها ، ومن أحسن ظنه بنفسه ؛ فهو من أجهل الناس بنفسه[(٣)] ؛ فهذا الذي يرى نفسه ، ويعجب بها ، ويمتلئ

---

(١) «المدارج» (١/ ١٩٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الدعوات» ، باب أفضل الاستغفار (٦٣٠٦) ؛ وهو جزءٌ من حديث سيد الاستغفار .

(٣) « المدارج » (١/ ١٦٩) ط التوفيقية .

غرورًا ؛ فإنَّ نور الخير بعيدٌ عنه ، فلا يُرْزق - مثلاً - بنور العلم .

قال الشاطبيُّ رحمه الله في كتابه «الموافقات» [(١)] : « وأنفع الطرق لتحصيل العلم طريقان : الأول : المشافهة ، وهو أن يجلس طالب العلم بين يدي شيخه ومعلمه ، (فإن الله تعالى يفتح على طالب العلم بين يدي شيخه ومعلمه بما لا يفتح به عليه دونه .. لا تتكبر ولا تعكف في مكتبتك بدعوى أنك قد ارتقيت إلى مرتبة أصبحت فيها أعلى من مستوى الجلوس بين أيدي العلماء المتحققين بالعلم الشرعي .. ومن كان شيخه كتابه غلب خطؤُه صوابه). الطريق الثاني - والكلام للشاطبي : مطالعة كتب المصنفين من أهل العلم المتحققين بالعلم الشرعي بشرطين : الأول : أن يكون فاهمًا لمصطلحات أهل العلم . والثاني : أن يبدأ بالمتقدمين من أهل العلم ؛ فهم أعرف وأقصد بالعلم من غيرهم » ولِمَ لا ؟! وقد زكَّى الرسول ﷺ القرون الثلاثة الأولى ؛ فقال : « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » [(٢)] ؛ فلابد من نور العلم قبل أن تتكلم ، ولا بد أن تتعلم قبل أن تعمل ؛ لقد ترجم البخاريُّ في «صحيحه» [(٣)] في كتاب العلم بابًا بعنوان : « باب العلم قبل القول والعمل » واستدل بقول الله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩] ، ويأتي بعد ذلك الأمر بالعمل ؛ فيقول سبحانه : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد:١٩] ؛ قال الحافظ ابن حجر [(٤)] : قال ابن المنير : « فبدأ بالعلم قبل القول والعمل ؛ لأن العلم

---

(١) «الموافقات»(١/ ٩٦) ، ط المعرفة بتصرف .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الشهادات » ، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢٦٥٢) ، ومسلم ، كتاب « فضائل الصحابة » ، باب (٥٢) (٢٥٣٣) .

(٣) («الفتح» ١/ ١٩٢) ، (باب : ١٠) .

(٤) («الفتح» ١/ ١٩٣ بتصرف) .

هو المصحح للنية التي يصحُّ بها كلُّ قول وكلُّ عمل » وفي «صحيح البخاري ومسلم»[(١)] من حديث معاوية ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » ؛ فمهما كان عملك ـ إن كنت طبيبًا أو مهندسًا أو أستاذًا في الجامعة أو موظفًا ـ لا عذر لك بين يدي الله إن لم تجعل من وقتك وقتًا لتتعلم فيه عن الله ورسوله ﷺ ؛ فأنت تقضي الأسبوع كلَّهُ في عملٍ للدنيا لا تتأخر عن وظيفتك ، ولا تتأخر عن عيادتك ، ولا عن مصنعك ، ومتجرك ، ولا تتأخر عن مدرستك ؛ هكذا تقضي الأسبوع كلَّه للدنيا !! فاجعل يومًا من أيام الأسبوع ـ ولا أقول يومًا كاملاً ـ بل اجعل ساعتين في الأسبوع لتجلس في مجلس علم لتسمع عن الله وعن رسول الله ﷺ ؛ فوربِّ الكعبة لا عذر لك بين يدي الله إن ضيعت ذلك ؛ لأن الذي فرض عليك الصلاة هو الذي فرض عليك طلب العلم ؛ قال النبيُّ ﷺ : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ »[(٢)] ؛ فلقد فرض عليك أن تتعلم كيف تعبد الله ، وفرض عليك أن تتعلم الولاء والبراء ، وفرض عليك أن تتعلم حقيقة التوحيد ، وفرض عليك أن تتعلم كيف تصلي ، وكيف تتطهر ، وكيف تزكِّي إن كنت صاحب مال ، وكيف تحجُّ إن كنت صاحب قدرة على الحج واستطاعة .. هذه فروضُ أعيان ، وليست فروضًا على الكفاية (ومعنى فروض الأعيان أي : يجب على كلِّ مسلم بعينه وكذلك كل مسلمة ، إذ إن المسلمة تندرج تحت الحديث باتفاق ، ما لم يأت دليل خاص يخصُّ الرجال أو يخص النساء) .

إذن نور الحكمة هو : العلم .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «العلم» ، باب (١٣) (٧١) ، ومسلم ، كتاب «الزكاة» ، باب النهي عن المسألة (١٠٣٧) .

(٢) سبق تخريجه .

أخي الحبيب : لن تستطيع أن تميز بين الحلال والحرام .. إلا بالعلم بين السنة والبدعة ، وبين المحكم والمتشابه .. وبين سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين ، ولن تستطيع أن تبصر الأعمال ، وتقف على الراجح منها والمرجوح ، وعلى المردود منها والمقبول إلا بالعلم ، وكلَّما كان حظك بالعلم أقوى كان نور العلم في قلبك وصَدْرِك أعلى ، وكان تفريقك للحق والباطل ، والخير والشر ، والسنة والبدعة أشدَّ ، وكان وقوفك على حجم الحسنات والسيئات أتم . وأنا قلتُ : إن المقايسة بالحسنات والسيئات تشقُّ على الناس .. تشقُّ على من ليس له نور الحكمة ، وعلى من لم يبصر عيوب نفسه ، وعلى من لم يتهم نفسه ، سيشق عليه أن يقف على حجم الحسنات والسيئات ؛ فسوء الظن بالنفس يحتاج إليه أيُّ عبدٍ ، وليس هناك مخلوق على وجه الأرض إلا وهو يحتاج يقينًا أن يسيء الظنَّ بنفسه ؛ ففتش في نفسك لماذا أنت مغرور ؟! ولماذا أنت معجب بنفسك ؟! ولماذا أنت مخدوع بِعِلْمك وعملك ؟! فلابد من سوء الظن بالنفس ؛ لأن حسن الظن بها سيمنعك من أن تفتش عن عيوبها ! فإنك إن شعرت بكمال نفسك فلن تفتش عن عيوبها !! فلابد لكلِّ أحدٍ مهما علا كعبه ، واغتر بعلمه وعمله ، أن يتهم نفسه ، وأن يسيئ الظن بها ، ليفتش عن عيوبها ، وعن نقائصها ، وعن رذائلها ؛ فإن النفس ــ وربِّ الكعبة ـ كلُّها عيوب ، وكلُّها نقائص ، وكلُّها عورات ،وكلُّها رذائل ، ولولا ستر الله لافتضح أمرها ، وبان شأنها ؛ حينئذٍ إذا اتهم العبد نفسه سيقف على حسناتها وعيوبها ، أما إذا لم يتَّهم هذه النفس ؛ فسيرى المساوئ محاسن ، والعيوب كمالاً .

فعين الرضا عن كلِّ عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المساويا

فلا يسيء الظن بنفسه إلا من عرف نفسه بالنقص ، والعيب ، والرذائل ،

والعورات، والمساوئ، ومن أحسن الظن بنفسه؛ فهو من أجهل الخلق.

إن أعرف الخلق بربه هو المصطفى ﷺ، ومع ذلك: روى البُخَارِيُّ[(١)] أنه لما مات عثمان بن مظعون وهو ممن شهد بدرًا، وأول من لُقِّب بالسلف الصالح[(٢)] لما مات هذا الودود العملاق بكت امرأةٌ من الأنصار يُقَالُ لها أم العلاء، وقالت: رَحْمَةُ الله عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ ـ تقصد عثمان بن مظعون ـ ثم قالت: شَهَادَتِي عَلَيْكَ لقد أَكْرَمَكَ الله! فَمَاذَا قَالَ الصَّادِق الذي لاَ يَنْطِقُ عَنِ الهوى؟ قال لأمِّ العلاء: «وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ الله قَدْ أَكْرَمَهُ» قَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله؛ فَمَنْ يُكْرِمه الله؟ أي: إن لَمْ يُكْرِمِ الله عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَالله إِنِّي لأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ» ثم قال: «والله لاَ أَدْرِي ـ وَأَنَا رَسُولُ الله ـ مَا يُفْعَلُ بِي».

وهذه الصديقة بنت الصديق ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ الحصان الرزان، المبرأة من السماء، حبيبة رسول الله ﷺ؛ عائشة: يأتيها سائل ـ وفي سند الرواية ضعف[(٣)] ـ فيقول يا أم المؤمنين: أرأيت قول الله جَلَّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢]، الآية؛ فقالت

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب «الجنائز»، باب الدخول على الميت بعد الموت (١٢٤٣) وانظر أطرافه هناك.

(٢) راجع ترجمته في «السير» للذهبي (١/ ١٥٣ـ١٦٠)، و«الحلية» لأبي نعيم (١/ ١٠٢ـ١٠٦).

(٣) الحديث أخرجه الطيالسي (١٥٩٢)، والحاكم (٢/ ٤٢٦)، وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بضعف الصلت، والطبراني في «الأوسط» (٦٠٩٠) وقال الطبراني: «لم يرو هذا الحديث عن عقبة بن صهبان إلا أبو شعيب الصلت بن دينار، تفرد به معتمر»، وعزاه في «الدر المنثور» إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه، قال الهيثميُّ في «المجمع» (٧/ ٢١٦): «رواه الطبرانيُّ في «الأوسط» وفيه الصلت بن دينار وهو متروك»، وضعفه البوصيريُّ في «إتحاف الخيرة» (٦/ ٨٦).

عائشة : « يا بنيَّ أما السابق إلى الخيرات ؛ فقومٌ سبقوا مع رسول الله ﷺ وشهد لهم بالجنة ، وأما المقتصد ؛ فمن اتَّبع أثرَهُ من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه ؛ فمِثْلي ومِثْلُكم » .

فأدخلَتْ نفسها معنا ، ونحن من أظلم الناس ، ومن أظلم الخلق لأنفسنا ؛ قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى [1]: « المقايسة الثانية بين الحسنات والسيئات تتطلب نور الحكمة ، وسوء الظن بالنفس ، وكذلك تتطلب التمييز بين النعمة والفتنة » أي : بين النعمة التي هي نعمة ، وبين النعمة التي هي فتنة . وهنا خيطٌ دقيق جدًّا ؛ وهو : إذا مَنَّ الله عليك بنعمة كنعمة العلم ؛ فكيف تعرف أن هذه النعمة نعمة وليست فتنة ؟ والجوابُ : إنْ ورَّثك هذا العلم خشية الله ، وقرَّبك من الله ؛ فهو نعمة . وإن ورَّثك هذا العلمُ العجب ، والغرور ، والتكبر على الخلق ، والجرأة على المعصية ، واستغلال العلم ، واستغلال المكانة العلمية في ظلم العباد ، أو أكل أموال العباد بالباطل ، أو انتهاك أعراضهم ، وحرماتهم ؛ فاعلم أن هذا العلم إنما هو فتنة مِنَ الله عليك !!

فالتمييز بين النعمة والفتنة : أنَّ النعمة الحقيقية التي تقربك من الله ، وتُعان بها على تحصيل السعادة في الدنيا والآخرة ، أما النعمة التي هي من جنس الفتنة ؛ فهي استدراجٌ من الله ؛ فكم من مُسْتَدرجٍ بنعم الله عليه وهو لا يدري ! وكم من مفتونٍ بثناء الناس عليه وهو لا يدري ! وكم من مغرورٍ بشكر الناس له وهو لا يدري ! وكم من مغرور بستر الله عليه وهو لا يدري !! كم من الناس قَدْ خُدِع ! يرى النعم تتوالى ، ويرى الناس يثنون عليه ، ويرى ربه ـ تعالى ـ يقضي له حوائجه ، فيتوهم أنها علامة رضا ! لا ؛ فإن الضابط لذلك: أنه إن قربتك النعمة من الله وجمعت قلبك عليه ؛ وزادتك طاعة على

---

(١) «المدارج»(١/ ١٩٠، ١٩١ بتصرف) .

طاعة؛ فهي علامة رضى، وإن أبعدتك النعمة عن الله، وفرَّقت جمعك، وشتَّتت قلبك؛ فهي علامة سخطٍ واستدراج من الله لك! .

كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده» والبيهقي في «الشعب» بسندٍ حسَّنه الحافظ العراقي، وصحَّحهُ شيخُنا الألباني في «السلسلة الصحيحة» [(١)] من حديث عقبة بن عامر ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ ﷻ يُعْطِي العَبْدَ مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ مِنَ اللهِ ﷻ» ثم تلا النبيُّ ﷺ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٤، ٤٥].

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» [(٢)] عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن الحبيب النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ...» ولكن ليس إهمالًا ولا نسيانًا، وإنما هو من باب الإمهال؛ فالله لا يهمل ولا ينسى «حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ». وَقَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْلَ رَبِّهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

قال ابنُ القيم رحمه الله [(٣)]: «فإن العبد بين مِنَّةٍ مِنَ الله عليه، وبين حجة منه

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، والطبريُّ في «تفسيره» (١٣٢٤٣)، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٤٠)، وصحَّحه العلامة الألبانيُّ في «الصحيحة» (٤١٣) لغيره، ونقل تحسين الحافظ العراقي في تخريج «الإحياء».

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب «التفسير»، باب (٥) (٤٦٨٦)، ومسلم، كتاب «البر الصلة»، باب تحريم الظلم (٢٥٨٣).

(٣) «المدارج» (١/ ١٩٢) بتصرف يسير.

عليه [١]، ولا ينفك العبد عنهما ؛ قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[آل عمران:١٦٤] ، وقال تعالى : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾[الحجرات:١٧] ، وقال تعالى : ﴿ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾[إبراهيم:١١] ، وقال تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ﴾ [الأنعام:١٤٩] .. وكلُّ قوةٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ صحبها تنفيذ لمرضاته سبحانه وأوامره ؛ فهي مِنَّة ونعمة من الله على عبده ، وإلاَّ فهي حجة » .

والقوة الباطنة ؛ كقوة إيمان وقوة توكلٍ وقوة رجاءٍ ، وقوة ظاهرة ؛ كأن تتطهر وتذهب إلى المسجد تعين صانعًا .. تسعى على أرملة أو على مسكين .. تطلب العلم ... إلى آخره .

وكل حالٍ صَحِبَهُ تأثير في نصرة دين الله ، والدعوة إليه ؛ فهو مِنَّةٌ منه سبحانه على العبد وإلا فهو حجة !!

وكلُّ مالٍ اقترن به إنفاق في سبيل الله وطاعته لا لطلب الجزاء ولا الشكور ؛ فهو مِنَّةٌ من الله على العبد ، وإلا فهو حجة .

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الربُّ من عبده ؛ فهو منةٌ عليه ، وإلا فهو حجة ، وكلُّ قبول في الناس ، وتعظيم ومحبة للعبد ، اتصل به خضوع للرب ، وذلٌّ وانكسار ، ومعرفة بعيب النفس ، واتصل به بذل النصيحة للخلق ؛ فهو منة من الله على العبد ، وإلا فهو حجة .

وكلُّ بصيرة ، وموعظة ،وتذكير ،وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد اتصل به عبرة ، ومزيد في العلم والعقل والعمل ، ومعرفة في الإيمان ؛ فهي منة من الله على العبد ، وإلا فهي حجة .

(١)فتكون حينئذٍ النعمة : مِنَّةٌ أو حُجَّةٌ !

وكلُّ حالٍ مع الله تعالى ، أو مقامٍ اتصل به السير إلى الله ، وإيثار مراده على مراد العبد ؛ فهو مِنَّةٌ من الله ، وإن صحبه الوقوف عنده ، والرضا به ، وإيثار مقتضاه من لذة النفس به ، وطمأنينتها إليه ، وركونها إليه ؛ فهو حجة من الله عليه .

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر ؛ ليميز بين مواقع المنن والمحن ، والحجج والنعم ؛ فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم [1] .

إذا داومت المقايسة بين الحسنات والسيئات .. بين نعم الله عليك وتقصيرك وجرأتك عليه ، فتحَتْ لك هذه المقايسات على طريق المحاسبة بابًا عظيمًا من أبواب التمييز بين ما لك وما عليك [2] ؛ من وجوب العبودية ، والتزام الطاعة ، واجتناب المعصية ، وبين مَا لَكَ عند الله ؛ فالذي لك : هو المباح الشرعي في الدنيا ، وفي الآخرة جنات ونهر ؛ فعليك حق ، ولك حق ، فأدِّ ما عليك ، يؤتك الله ما لك ؛ أدِّ الحقوق التي عليك يؤتك الله حقوقك .
ولابد من التمييز - على طريق السفر إلى الله ، بين ما لك وما عليك ، وإعطاء كلِّ ذي حق حقه ؛ فكثيرٌ من الناس يجهل هذا التمييز ، وقد يتصور أنه عبد عابد لله ؛ فهو يترك ما له بدعوى أنه يترك ذلك تقربًا إلى الله وهو جاهل ، ويؤدي ما عليه ؛ فكثير من الناس يجعل كثيرًا مما عليه من الحق من قسم ما له ، فيتحير بين فعله وتركه . وإن فعله رأى أنه فضل قام به ، وليس حقًّا واجبًا عليه أداؤه ! لأنه لا يميز بين ما له وما عليه .

وكثيرٌ من الناس أيضًا يرى كثيرًا مما له فعله وتركه من قسم ما عليه فِعْلُهُ أو تركه ، يعني : يظن أنه يتعبد إلى الله تبارك وتعالى بترك ما أحلَّ له الشرع

---

(١) «المدارج» (١/ ١٩٢، ١٩٣).

(٢) «المدارج» (١/ ١٩٣) (الركن الثاني من أركان المحاسبة) بتصرف .

أن يفعله ؛ فهو يترك ما له بدعوى أنه يتقرب إلى الله بذلك الترك!!

كتركِ كثيرٍ من المباحات ، ويظنُّ ذلك حقًّا عليه ؛ كمن : يتعبد بترك الزواج ؛ أو يتعبد بالزهد عن أكل اللحم أو أكل الفاكهة ، أو لُبْس الثياب الطيبة ، ويرى ـ لجهله ـ أن ذلك مما عليه ، فيوجب على نفسه تركها ، أو يرى تركه من أقرب القربات ، وأجل الطاعات ، وقد أنكر النبيُّ ﷺ ذلك ؛ ففي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] من حديث أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : « جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا عَنْهَا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا[2] ؛ فَقَالُوا : وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ ؟ وَقَدْ غَفَرَ الله لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا ، وَقَالَ الآخَرُ : وَأَمَّا أَنَا فَأَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ[3] وَقَالَ الثَّالِثُ : أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا »

وللوهلة الأولى قد تظن أن هؤلاء قد أحسنوا غاية الإحسان ؛ فأحدهم يقول : سأصلي الليل كلَّه لله ـ أي : كل ليلة ـ والآخر يقول : سأصوم الدهر كلَّه ولن أفطر أبدًا ، والثالث يقول : سأعتزل النساء تمامًا ولن أتزوج أبدًا ، لأتفرغ للتبتل والتعبد والتضرع !!! قد تقول : ومَنْ كهؤلاء الذين تجرَّدُوا ، وتركوا الدنيا ، وفرَّغوا قلوبهم ، وأعمالهم ، وأوقاتهم لله سبحانه وتعالى ! لكن انظر إلى التقرير النبوي الخطير ! قال النبيُّ ﷺ : « أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَا وَالله إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لله ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، وَلَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ[4] ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » ؛ يا له

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «النكاح» ، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣) ، ومسلم ، كتاب «النكاح» ، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ، ووجد مؤنة (١٤٠١) .

(٢) أي : استقلوها .

(٣) وفي رواية : «لا آكل اللحم» .

(٤) وفي رواية : «لكني أصلي وأنام» .

من حكم ـ والله ـ خطير ! فهذا جهلٌ بشرع الله ورسوله ؛ فهو يتصور أنه بترك ما أحل الشرعُ له ؛ يتقرب إلى الله ، وهو يجهل بأنه بهذا الترك يبتعد عن الله وعن هدي رسول الله ﷺ ؛ فالإفراط يعادل تمامًا التفريط ، وخيّر الأمور الوسط ، والوسط العدل . لقد تبرأ ﷺ ممن تصور أن فعله أكمل من فعله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن حرصه على الخير أشد من حرصه ﷺ على الخير !! فالنبيُّ ﷺ صلَّى ونام ، وصام وأفطر ، وتزوج النساء ، ثم بعد ذلك يُقَرِّر أَن مَنْ رغب عن سنته ؛ فهو برئ منه .

فهذا الإنسان يتصور أنه يتعبد لله بترك ما أباحه الله له ، وبترك ما أحله الشرع له ؛ فهذا لم يميز بين ما له وما عليه !

ومن تمام هذا التميز [(١)] : أن يعلم العبد كلَّ طاعة رضيها من نفسه ؛ فهي عليه ، وكل معصية عيَّر أخاه بها ، فهي إليه ؛ فرضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه ، وجهله بحقوق العبودية ، وعدم عمله بما يستحقه الرب ﷻ ، ويليق أن يعامل به.

وحاصِلُ ذلك : أن جهله بنفسه ، وصفاتها ، وعيوبها ، وآفاتها ، وعيوب عمله ، وجهله بربه ،وحقوقه ، وما ينبغي أن يعامل به ، يتولد بهذا الجهل بعيوب النفس والجهل بحقوق الرب ؛ يتولد منهما رضاه بطاعته ، وإحسان ظنه بها .

أقول : فالجهل بعيوب نفسك ، وبحقوق ربك ، يتولد منهما : الرضا عن النفس ، ويتولد من هذين الجهلين : الكبر والغرور بالطاعة ، والعجب بالنفس ؛ هذه آفاتٌ هي أكبر عند الله من كثير من الكبائر الظاهرة ، مثل

---

(١) «المدارج» (١/ ١٩٤ الركن الثالث) بتصرف .

الزنا وشرب الخمر ! لأنه كما يقول ابن القيم في موضع آخر من فوائده القيمة [١]: « رب طاعة أدخلت صاحبها النار ، ورب معصية أدخلت صاحبها الجنة » أمر عجيب !

تدبر معي كيف أدخلت هذه الطاعة صاحبها النار ؟ ربما كان صاحب هذه الطاعة يمتن بها على الله ، وعلى الخلق ، حتى أهلكته ! إنه العُجب ، والغرور ، والكبر على الله ، وعلى الخلق .. إنه الامتنان على الله وعلى الخلق بالطاعات .. هذا الامتنان ، وهذا العجب ، وهذا الغرور ، وهذا الكبر يحرم هذا العبد من دخول الجنة ؛ إذ أن النبيَّ ﷺ قال :« لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » [٢]. ثم مَنِ الذي تفضَّل عليك بهذه الطاعة ؟ ومن الذي وفقك إليها ؟ ومن الذي أعانك عليها ؟ ومن الذي يأجرك عليها ؟ نسيتَ كلَّ ذلك ! ونسبت الفضل لنفسك ! فأتيت معجبًا مغرورًا بطاعتك ممتنًا بها على الله وعلى الخلق ؛ قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧] ، وربَّ معصية أدخلت صاحبها الجنة .. وقع في المعصية ؛ فظلَّ طوال حياته بعد المعصية منكسر القلب ، خاشع الطرف ، ذليلاً بين يدي ربه ، يستغفر الله في الليل والنهار ، حتى أدخلته هذه المعصية ـ بما تبعها من صدق توبة ـ جنة العزيز الغفار .

فالرضا بالطاعة من الحمق والجهل ! اتَّهِمْ نفسك على طول الخط ، لا ينبغي أن ترضى عن نفسك أبدًا ؛ لأنك إن رضيت عن نفسك جهلت

---

(١) «المدارج» (١/ ٢٩٩) بتصرف ، (ط الكتاب العربي) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب « الإيمان » ، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

عيوبها ، وجهلت حقوق ربك عليك ، والرضا عن النفس من الجهل ، والحمق ، ومن رعونات النفس . وأربابُ العزائم ، والبصائر ، وأصحابُ الهمم العالية أشد ما يكونون استغفارًا بعد كلِّ طاعة ؛ فها أنت في صلاتك في طاعة ! لكنَّ أول كلمةٍ تقولها بعد فراغك من الصلاة : « أستغفر الله » مع أنك كنت في طاعة ولم تكن في معصية ، وهذا الاستغفار الأصْلُ أنه عقب الذنوب والمعاصي ، لكن انظر إلى تعليم النبيِّ ﷺ لنا ؛ روى مسلمٌ في «صحيحه»[(١)] من حديث عائشة ﵂ قالت : « كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا سَلَّمَ مِنَ الصَّلاةِ اسْتَغْفَرَ ثَلاَثًا ... » ، ثم يقول : «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ وَمِنْكَ السَّلاَمُ تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ**» ؛ فالعبد يستغفر الله بعد طاعة عظيمة ؛ فأصحابُ العزائم ، وأولو الهمم العالية ، أشد ما يكونون استغفارًا لله بعد الطاعات ؛ لشهودهم تقصيرهم في حق الله ؛ فرسولُ الله ﷺ يصلِّي ويسلِّم ويستغفر ؛ لأنه يرى أنه ما أدى لله حقه في هذه الطاعة كما ينبغي لجلال وجهه ، وعظيم سلطانه . ومن ثَمَّ ، فبعد الطاعة مباشرةً يستغفر الله على ما بدر منه من تقصير ؛ فهَيَّا اعرض هذا الأمر على حالك وعلى أحوال المسلمين ؛ كم من المسلمين بعد الصلاة لا يدري هَلْ قرأ التشهد قائمًا أم قرأ الفاتحة جالسًا ؟! أخي كم من الثواني والدقائق يكون قلبك حاضرًا في الصلاة ؟! سلْ نفسك هذا السؤال ؛ نسأل الله أن يرحم ضعفنا جميعًا ، فيقف أحدنا في الصلاة ؛ فإذا تدبر سَرَحَ وفكَّر ، وشرد فكْرُه وذهنه في كلِّ واد ؛ في الوظيفة تارة .. في الزوجة تارة .. في الأولاد تارة .. في الأموال تارة .. وفي الجار تارة .. وفي رعونات النفس وشهواتها تارة ، فيشتت القلب والذهن .

---

(١) كما عند مسلم ، كتاب « المساجد ومواضع الصلاة » ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٥٩١) عن ثوبان وبرقم (٥٩٢) عن عائشة .

فأصحاب العزائم يستغفرون الله بعد كلِّ طاعة ، ولقد أمر الله حجاج بيته الحرام بعد أن وقفوا يومًا كاملًا على عرفات أعظم يومٍ عند الله ؛ فهو يوم يباهي الله به ملائكته في السموات [1]، ويوم يتنزل الله فيه بكماله وجلاله ليقول لملائكته : انظروا عبادي قد أتوني شعثًا غبرًا [2] ، أناس تجردوا من كل شيء ، ووقفوا يتضرعون إلى الله طوال اليوم ، وبعد ذلك يأمرهم الله بعد انتهاء وقت عرفات أن يستغفروا رب الأرض والسموات ؛ فيقول تعالى : ﴿ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة:١٩٨، ١٩٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴾ قال الحسن [3] : « مدُّوا الصلاة إلى السحر ، ثم جلسوا يستغفرون الله ـ جَلَّ وَعَلاَ » جلس هؤلاء بالأسحار يستغفرون العزيز الغفار ، وقد أمر الله نبيه ﷺ في آخر سورة نزلت عليه بعد ما أدى ما عليه ؛ حين قال الله ﷻ له في أول أيام الرسالة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ ﴾ [المدثر:١، ٢] ؛ فقام بأبي وأمي ونفسي وروحي ، والله ما عرف طعم الراحة قط ، أدى ما عليه ؛ حتى تقطعت نفسه حسرات على كلِّ من لم يسلم ؛ فنزل عليه قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف:٦] ، انظر إلى حال النبيِّ ﷺ ؛ فلقد

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « الحج » ، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (١٣٤٨)عن عائشة .

(٢) كما عند أحمد (٢/ ٣٠٥) ، وابن حبان (٣٨٥٢) ، وابن خزيمة (٢٨٣٩) ، والحاكم (١/ ٤٦٥) عن أبي هريرة . وصححه العلامة الألباني كما في « التعليق على ابن خزيمة » .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا ، في كتاب «التهجد وقيام الليل» (٢٩٩) ، وأحمد في «الزهد» (٢٦٣) ، وابن المبارك في «الزهد»(١٢٠٨ زيادات المروزي).

أدى ما عليه ـ ورب الكعبة ـ كاملًا لله سبحانه وتعالى ؛ فهو أول عبد عرفته الأرض قد حقق العبودية بأعلى درجاتها لرب البرية ؛ فاستحق أن ينال عند ربه هذه المكانة المرضية ، فأنا أؤكد وأكرر أنه لا يعرف قدْرَ النبيِّ إلا الربُّ العلي . تدبر ماذا قال الله للمصطفى ﷺ ، بعدما أتم له الدين ، وأتم عليه النعمة ، وأعزَّه ونصره : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر:١-٣] ؛ فيأمر الله عبده المصطفى وحبيبه المجتبى أن يستغفر ربه سبحانه وتعالى بعد ما أدى ما عليه لله ـ جَلَّ وَعَلاَ . هذا شأن من عرف الله ، وما ينبغي لله ، وما يليق بجلاله ـ تدبر هذه الكلمات ـ لأنك لو عرفت قَدْرَ نفسك بعد معرفتك لِقَدِر ربك ، ستعلم علم اليقين أنه لو سجد العبد طوال حياته ، والله ما أدى شكر نعمة واحدة أنعمها الله عليه ؛ فما بالك ونعم الله لا تعدُّ ولا تحصى ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٤] ؛ قال بعض الصالحين : « متى رضِيتَ نَفْسَك وعملك لله ؛ فاعلم أنه غير راض به » بخلاف العبد الخائف من الله ؛ فإنه يعمل العمل ويخاف ألا يقبل منه ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ ﴾ [المؤمنون:٦٠] ، ومع ذلك ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ قَالَتْ عَائِشَةَ : يَا رَسُولَ الله ، أَهُوَ الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ ؟ قَالَ : « لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَخْشَى أَنْ لاَ يُتَقَبَّلَ مِنْهُ »[1] .

فالمؤمن الصادق يتهم نفسه في كلِّ عمل ، وفي كلِّ قول ، وبعد كلِّ قول

---

(١) سبق ؛ وقد صححه العلامة الألباني في «صحيح الترمذي»(٢٥٣٧) (٣/ ٧٩) ؛ وراجع «مسند أحمد» (٢٥٢٦٣ بتحقيق الشيخ شعيب) ، و «العلل» للدارقطني (١١/ ١٩٣) .

وعملٍ ، ويتضرع إلى الله أن يتقبل منه هذا العمل ، وأن يجعله صالحًا خالصًا ، فلا يغتر بعمل ، ولا يمتن بعمل ، ولا يعجب بعمل ؛ هذا هو شأن من عرف جلال الله ، وقدره ، وعرف نفسه ، ووقف على آفاتها ، وجهلها ، ونقصها ، متهمًا لنفسه على طول الخط ، يشعر بالتقصير في حق ربه بعد كلِّ قول وبعد كلِّ فعل .

قال : « متى رضِيتَ نفْسَك وعملك لله ، فاعلم أنه غير راضٍ عنك ، ومن عرف أن نفسه مأوى كلِّ عيب وشرٍّ ، وعمله عُرضة لكلِّ آفة ونقص ، فكيف يرضى لله نفسه وعمله ؟! » . أي : كيف يرضى عن نفسه وعمله لله سبحانه وتعالى ؟! ولله درُّ القائل : « من تحقق بالعبودية نظر لأفعاله بعين الرياء ، وأحواله بعين الدعوى ، وأقواله بعين الافتراء ، وكلَّما عظم المطلوب في قلبك صغرت نفسك عندك ، وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله » إذا عظم هذا المطلوب في نظرك تضاءلت كل قيمة تبذلها في الدنيا لتصل إليه وتحصله ، أليس كذلك ؟ بلى وربِّ الكعبة .

تصور لو أنك أردت مكانة في الدنيا ، فستبذل من أجل الوصول إلى هذه المكانة أغلى ما تملك ، فنحن نسمع عن رجلٍ ينفق خمسة ملايين في الدعاية الانتخابية ليحصل على كرسيٍ في مجلس الشعب ! بل ونسمع من ينفق عشرة ملايين !! من أجل أن يحصل على مطلوبٍ يراه يستحق أن يبذل له كل ما تقدم ! فهل فكَّرتَ في هذا المطلوب لتقف على قيمة وقدر ما تقدم له ؟! إن المطلوب الذي ننشده ونطلبه هو النظر إلى وجه الله في جنات ونهر .

بالله عليك ! ما قيمة ما تقدمه أمام هذا المطلوب إذا عظم هذا المطلوب في قلبك ؟ إنك تحتقر كلَّ قيمة لتصل بها إلى هذا المطلوب ؛ أسأل الله أن يبلغنا هذه المنزلة ، وهذه المرتبة ، وألا يحرمنا من النظر إلى وجهه الكريم برحمته وفضله ، وإن قصرت أعمالنا ، فنحن أهلٌ لكل عيب وتقصير ونقص ؛ نسأل الله أن يجبر كَسْرنا ، وأن يغفر ذنبنا ، وأن يستر عيبنا ، وأن يفك أسرنا ، وأن يختم

بالباقيات الصالحات أعمالنا ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

كلَّما شاهدت ـ حبيبي في الله ـ حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية ، وعرفت الله ، وعرفت النفس ، تبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق ، ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته ، وإنما كن على يقين أن الله ﷻ إنما يقبل مِنَّا أعمالنا بكرمه وجوده وفضله ، إذا عرفتَ كُلَّ هذا وقفت بين يديه في كل طاعة منكس الرأس ، خاشع الطرف ، منكسر القلب ، بلا كبر ، ولا عجب ، ولا غرور ؛ فإن المعجب بنفسه ، وإن المغرور بعمله ، لا يرفع له عمل إلى الله سبحانه وتعالى ، واعلم أن أنين المذنبين التائبين ، أحبُّ إلى الله من زجَل المسبحين المغرورين .. آهات المذنب المتململ ، كتململ العصفور المبلل بماء المطر في يوم شديد البرودة ؛ فآهات هذا المذنب أحب إلى الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ والله لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ؛ كما في الحديث القدسي : « يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلاَّ كما يَنْقصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ ، يَا عِبَادي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا ، فَلْيَحْمَدِ الله ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ » [١].

إذن ؛ أنين المذنبين التائبين أحبُّ إلى الله من زَجَل المسبحين المغرورين بالتسبيح ، المغرورين بالعمل .. المعجبين بالطاعة ، الذين يَمْتَنُّون بأقوالهم

(١) سبق ؛ والحديث رواه مسلم .

وأعمالهم على الله ، أو على الخلق ؛ فلله في أهل طاعته ومعصيته أسرارٌ لا يعلمها إلا هو ، ولا يطالعها إلا أهل البصائر ممن وفقهم الله ﷻ ونوَّر بصائرهم بنور العلم الموروث عن النبيِّ ﷺ ، تدبَّرَ هذا الحديث : قال ﷺ كما في « الصَّحِيحَيْنِ »[1] من حديث أبي هريرة ﷺ : « إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَقِمْ عَلَيْهَا الحَدَّ وَلاَ يُثَرِّبْ » .. أي : ولا يُعَيِّب ، من باب قول يوسف ﷺ لإخوانه : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٩٢] ، نعم .. لا يعير ؛ فإن الميزان بيد الله والحكم له سبحانه .. السوط الذي ضُرب به من أقيم عليه الحد بيد مقلب القلوب ﷻ ، والقصد : أن يقيم الحد دون تعيير ولا تثريب ؛ فلا يأمن كرات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله[2] ؛ فإن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَانَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَانَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ »[3] وفي رواية[4] : « وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ أَوْ ذِرَاعَيْنِ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا... » الحديث. اللهم ارزقنا حسن الخاتمة .

فلا يأمن كَرَّات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله ؛ قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «البيوع» ، باب بيع العبد الزاني (٢١٥٢) ، ومسلم ، كتاب «الحدود» ، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى (١٧٠٣) .

(٢) «المدارج»(١/ ١٩٥-١٩٧) بتصرف .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب «القدر» ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٥١) .

(٤) عند البخاري ، كتاب «القدر» (٦٥٩٤) ، ومسلم ، كتاب «القدر» ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه .... (٢٦٤٣).

مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩] ، لا يأمن مكر الله إلا مغرور خاسر في الدنيا والآخرة ؛ لذا كان المصطفى ﷺ يكثر من هذا القسم : « لا ، وَمُقَلِّب القُلوب »[1] ويقول الله لأعلم الخلق به ، ولأعرف وأقرب الخلق إليه وسيلة : ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٧٤] .

فالله هو الذي ثبَّت قلْبَ المصطفى ﷺ؛ فإذا كان قلب المصطفى ﷺ يحتاج إلى تثبيت من الله ! فماذا أقول عن نفسي ؟ وماذا نقول نحن جميعًا عن أنفسنا ؟! فالتثبيت من الله ، والتوفيق من الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ما أطعنا الله إلا بفضله ، وما أعاننا الله على الطاعة إلا بكرمه ، وما أثابنا الله على الطاعة إلا بجوده ، ولولا أن ثبتنا الله لهلكنا ، ولولا أن سترنا الله لافتضحنا ؛ فلا تعير أخاك ولا تعيري أختك ؛ فإن رأيت أخاك على معصية فاسجد لله شكرًا أن وفقك ومنعك عنها ، وحال بينك وبين الوقوع فيها ، وأنت أخي الناصح تقدَّم لأخيك فانصحه من منطلق هذه الرحمة ، ومن منطلق هذا الحب ، وسل الله له الهداية ، كما رزقك الهداية والتوفيق .

هؤلاء هم أصحاب القلوب الكبيرة ؛ فلا تظهر الشماتة لأخيك ، فيعافيه الله ، ويرحمه ، ويبتليك ؛ فقد ينظر الأخ إلى أخيه إن وقع في معصية نظرةَ انتقامٍ يريد أن يتشفى منه ، ويريد أن يذبحه ، ويريد أن يفضحه ، وأن يهتك له كل ستر ، وأن يظهر له كلَّ عيب ، مع أنه أخوه ، سائر معه على الدرب ، إن زلَّ يريد أن يفضحه في كلِّ صغيرة وكبيرة ، وينسى ما وقع فيه هو وطهره الله منه ، إنما هو محض فضل الله عليه ؛ فالتوفيق من الله والسداد منه تعالى . وهذا هو

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الأيمان والنذور» ، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ(٦٦٢٨) .

المراد بـ (لا حول ولا قوة إلا بالله) .

وفي «صحيح مسلم» [(١)] من حديث عَبْدَ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عز وجل كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ » ؛ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « اللَّهُمَّ ! يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ ».

والخوف من سوء الخاتمة ـ أيها الأخوة ـ والله الذي لا إله غيره مزَّق قلوب الصادقين العارفين بجلال الله وقدره ، أخافهم الخوف من سوء الخاتمة ، لأنهم يعلمون أن الله خلق فريقين : فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير ؛ كان مالك بن دينار يقوم الليل يبكي ويناجي ربه ، ويقول : « يا رب يا رب ، لقد علمت ساكن الجنة من ساكن النار، ففي أي الدارين مالك بن دينار» [(٢)]... يا الله ! والله يعلم الآن مَنْ هو مِنَّا مِنْ أهل الجنة ، وَمَنْ هُوَ مِنْ أهل النار !! وهو سبحانه عَدْل ، وما ربك بظلام للعبيد ، فلا تَنْسَ علم الله فيك ، ولا تَنْسَ قدر الله السابق بك ، فقدر الله السابق أخافَ الصادقين ،ومزَّق قلوب العارفين ؛ قال تعالى: ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧] ، ووالله لَوْ عَذَّب ربُّ العالمين أَهْلَ أرضه وأهل سماواته لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، وإن أدخلهم جميعًا الجنة ، فبفضله ورحمته، لا بعملهم ، اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك.

واعلم ـ أخي ـ أن الناس صنفان :

صنف: قد انتصر على نفسه ، وقهرها ، وجعلها مطية إلى كلِّ خير وطاعة .

وصنف : قد قهرته نفسه ،وغلبته ، وجعلته نفسه مطية إلى كلِّ شهوة ،

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «القدر» ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء (٢٦٥٤) .

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٨٩٨) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٨٣) ط دار الكتاب ، وانظر : «جامع العلوم والحكم» (الحديث الرابع/ ص١٧٤ ط الرسالة) .

وإلى كل معصية ؛ قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٧-١٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات:٣٧-٤١] .

ولقد وصف الله النفس في القرآن بثلاث صفات : النفس المطمئنة ، والنفس اللوامة ، والنفس الأمارة بالسوء . وهي النفس التي تأزُّ صاحبها دومًا إلى المعصية وإلى الشهوات أزًا : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٣] ؛ فهي آمرة بكلِّ شر ، أمَّارة بكلِّ سوء ، وتحول بينك وبين كلِّ طاعة ؛ فإن ألجمتها بلجام التقوى ، وفطمتها عن المعاصي بفطام التذلل والتقرب إليه ، انتقلت النفسُ من مرتبة الأمارة إلى مرتبة اللوامة .. صارت النفس بعد هذا التوبيخ والتقريع نفسًا لوامة تلومك على فعل الخير ، وتلومك على فعل الشر ، لماذا فعلت الشر ؟ لماذا وقعت في المعصية ؟ لماذا ضيَّعْتَ مجلس العلم ؟ لماذا فرَّطت في صلاة الفجر ؟ لماذا ضيَّعت قيام الليل ؟ لماذا لم تنفق في سبيل الله ؟ لماذا أكلت من الحرام ؟ لماذا لم تجمع من الحلال ؟ تلومك في الخير لِمَ لَمْ تُكْثِر منه ؟ وتلومك في الشر لِمَ فعلته ؟ فإذن تصير النفس بعد هذا الفطام وبعد هذا اللجام نفسًا لوامة .

والنفس اللوامة : نفس مؤمنة زكية نقية ، أقسم بها ربُّ البرية ، ولا يقسم الله بشيء إلا ليلفت أنظارنا بقدْرِه وقيمته ؛ قال تعالى : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة:١، ٢] ؛ فإذا ارتقيت بالنفس اللوامة ، فوصلت إلى حال لم تعد تسعد منه إلا في طاعة الله ، ولَمْ تَعُدْ تشعر بالأنس إلا مع الله ، صارت نفسًا مطمئنة . وهي النفس التي تطمئن وتأنس لطاعة الله ، وتشعر

بالوحشة إذا كانت بعيدة عن الله ﷻ ؛ قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر:٢٧ـ ٣٠] .

وهذه هي المحاسبة ، وتلك المنزلة العالية ، فلا يكون العبد تقيًّا إلا إذا حاسب نفسه ؛ قال ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى : « لا يكون العبد تقيًّا حتى يحاسب نفسه محاسبة الشريك الشحيح »[١]. توضيح ذلك ، أن يكون هناك اثنان شركاء في التجارة ، أحدهما : شحيح يحاسب شريكه محاسبة دقيقة !! فلا يكون العبد تقيًّا إلاَّ إذا حاسب نفسه محاسبة الشريك الشحيح .

فلا يصل العبد إلى مرتبة التقوى إلا إذا حاسب نفسه هذه المحاسبة الدقيقة ؛ قال الحسن البصريُّ[٢]: « إن المؤمن قوَّام على نفسه ، يحاسب نفسه لله ﷻ ، وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة » .

والمحاسبة نوعان[٣]: محاسبة قبل القول والعمل ، ومحاسبة بعد القول والعمل ، أما الأولى ؛ فتقتضي منك أن تسأل نفسك سؤالين : الأول : سؤال عن الإخلاص ، والثاني : عن المتابعة ؛ فتسأل نفسك لمن أعمل ؟ لمن أتكلم ؟ لمن أسكت ؟ لماذا أتيتُ ؟ ولماذا خرجت ؟ ولماذا دخلت ؟ ولماذا أحببت ؟ ولماذا أبغضت ؟ ولماذا أعطيت ؟ ولماذا منعت ؟ لمن .. سؤال عن الإخلاص ! لمن

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٢٧١) ط الرشد ، وأبو نعيم (٤/ ٨٩) ،وانظر : «ضعيف الترمذي» (٤٣٦) ، و«البداية والنهاية »(٩/ ٣١٧) ط المعارف ، و«كنز العمال» (٨٥٠١) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٢٠٩) ، وابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس»(١٧) والمزى في «تهذيب الكمال» (٣١/ ٥٣١) وغيرهم .

(٣) «المدارج» (١/ ١٨٩) .

تعمل ؟ تعمل من أجل الشهرة ، ولا تبتغي بهذا كلّه ربك سبحانه وتعالى ؟
السؤال الثاني : كيف أتكلَّم؟ كيف أعمل؟ كيف أجلس؟ كيف أقوم؟ كيف أنام؟
كيف أحب ؟ كيف أبغض ؟ كيف أعطي ؟ كيف أمنع ؟ سؤال عن المتابعة .

ثم محاسبة بعد القول وبعد العمل ، هل تكلَّمت وأنت تبتغي بقولك وعملك وجه الله ، وأديت العمل على منهج رسول الله ﷺ ؟ فتحاسب نفسك هل في هذا العمل نقصٌ أم لا ؟

وقد علمنا أن المؤمن يتهم نفسه دومًا ؛ فهو يحاسب نفسه بعد كلِّ قول وعمل ، ويتهم نفسه دومًا بعد كلِّ قول وعمل بالتقصير ، فيزداد همَّة ، ويزداد نشاطًا ، ويزداد عملاً وقربًا من الله سبحانه وتعالى .

فالمؤمن يرى نفسه دائمًا على الغفلة فيذِّكرها .. يرى نفسه بعيدًا عن الله فيحث نفسه على القرب من الله تبارك وتعالى ، ولقد دخل حماد بن سلمة [(١)] على سفيان الثورى ـ إمام الحديث والزهد والورع ـ وقد نام على فراش الموت ، فيقول له حماد : أبشر ببشرى الله لك يا أبا عبد الله ، فيقول له سفيان : أسألك بالله يا حماد أتظن أن مثلي ينجو من النار ؟ » هذا حال المؤمنين الذين يعرفون قدر الله وجلاله ، ويعرفون قدر أنفسهم ، ويقفون على عيوبها ، وآفاتها ،ونقصها .

قف مع نفسك ـ أخي الحبيب ـ وقفي مع نفسِكِ ـ أختي الفاضلة ـ قف مع نفسك ـ أيها المسلم ـ وأغلق عليك باب غرفتك ، واجلس ساعة أو نصف ساعة ، حتى وإن اتهمت في البيت بالجنون ؛ فلا حرج . وقل لنفسك : يا نفس ما لي بضاعة إلا العمر ؛ فرأس مالي هو العمر ، وهي الأيام ؛ فإن ضاع العمر ؛ فلقد ضاعت الأيام ، وضاعت البضاعة ! يا نفس هذا اليوم

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٨٥) ، و«صيد الخاطر» (٣١٥) .

الجديد الذي تعيشين فيه قد أمهلني الله فيه ، وأبقى لي أجلي ، ولو توفَّاني يا نفس لتمنيت الرجعة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون:٩٩، ١٠٠] ؛ فقوله : ﴿ لَعَلِّىٓ ﴾ لم يتيقن! إن كان سيعمل أو لا يعمل !! ومع ذلك يتمنى الرجعة ؛ فيأتي الجواب : ﴿ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ ﴾ [المؤمنون:١٠٠] ؛ أي: لا وزن لها ولا قيمة .. لا يسمعها الله ولا يجيبها !!

يا نفس لقد أمهلني الله ؛ فإياك أن تضيعي هذا اليوم ، فإن الأنفاس تعدُّ وتحسب والأيام معدودة !! ويحك يا نفس إن كنتِ قد تجرَّأتِ على معصية وأنت معتقدة أن الله لا يراك !! فما أعظم كفرك به ، وإن كنت قد تجرأت على معصية الله مع علمك يقينًا أنه يراك فما أقل حياءك منه .

يا نفس ، كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ! يا نفس : إن الموت موعدك ، والقبر بيتك ، والتراب فراشك ، والدود أنيسك !!

ويحك يا نفس ! أما تنظرين إلى أهل القبور ، كانوا كثيرًا ، وجمعوا كثيرًا ، فأصبح جمعهم بورًا ، وبنيانهم قبورًا وأملهم غرورًا ، ويحك يا نفس أما لك إليهم نظرة ؟ أما لك فيهم عبرة ؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ هيهات هيهات ، ساء ـ ورب الكعبة ـ ما تتوهمين .

ويحك يا نفس أما تخافين من سوء الخاتمة ؟ أما تخافين من سكرات الموت وآلامه ؟ أما تخافين من عذاب القبر ووحشته ؟ ألا تخافين من الفضيحة يوم حشر الناس إلى الله حفاة عراة غرلاً ؟ أما تخافين من العرض على الله ؟ أما تخافين من السؤال ودقته ؟ والصراط وحدته ؟ أما تخافين من النار والأغلال والأهوال ؟!!

ويحك يا نفس أترغبين عن جنات النعيم والنظر إلى وجه الرب الكريم ؟

ويحك يا نفس اعملي قبل أن لا تعملي ، وحاسبي نفسك الآن قبل أن تحاسبي ؛ فإن الوقوف بين يديه ـ تعالى ـ طويل ؛ قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] .

أيها العبد :

دع عنك ما قد فات في زمن الصبا	واذكر ذنوبك وابكها يا مذنب
لم ينسه الملكان حين نسيته	بل أثبتاه وأنت لاهٍ تلعب
والروح منك وديعة أودعتها	ستردُّها بالرغم منك وتسلب
وغرور دنياك التي تسعى لها	دار حقيقتها متاع يذهب
الليل فاعلم والنهار كلاهما	أنفاسنا فيهما تعد وتحسب

فإذا حقق الإنسان مقام المحاسبة انتقل بعد ذلك إلى مقام التوبة ، وهذا ما نتعرف عليه في الفصل القادم إن شاء الله تعالى .

*****

منزلة التوبة

فإذا صحَّ مقام المحاسبة ، ونزل العبد في هذه المنزلة أشرف منها على مقام التوبة ؛ لأنه بالمحاسبة قد تميز ماله مما عليه ، فليجمع العبد بعد ذلك همته وعزمه على النزول فيه والتشمير إليه إلى المهات ؛ لأن منزل التوبة هو أول المنازل وأوسطها وآخرها ؛ فلا يزال العبد في منزلة التوبة إلى أن يلقى الله ﷻ ؛ فإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به ، واستصحبه معه ، ونزل به ؛ فالتوبة هي بداية العبد ونهايته ، وحاجته إلى التوبة ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية والنهاية ضرورية .

فالتوبة ؛ كما يقول ابن القيم [(١)] رحمه الله : « هي حقيقة دين الإسلام ، والدين كلُّه داخل في مسمى التوبة » ... إلى أن قال : « فالتوبة هيَ : الرجوع عن كلِّ ما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى كلِّ ما يحبه الله ظاهرًا وباطنًا ، ويدخل في مُسَمَّاها الإسلام والإيمان والإحسان ، ولهذا كانت غايةَ كلِّ مؤمن ، وبداية الأمر وخاتمته ، وهي الغاية التي وُجِد لأجلها الخلق والأمر » .

لماذا ؟ لأنه لا يحقق العبودية لله تعالى إلا من حقق مقام التوبة ؛ فالعبودية هي : ترك كلِّ ما حرم الله ﷻ إلى الإذعان والإقرار لله بكلِّ ما أمر أن تذعن به له سبحانه ؛ فتفرد الله ﷻ بالعبودية والوحدانية ، وأن تكفر بكلِّ الأنداد والأرباب والآلهة والطواغيت من دون الله ؛ قال سبحانه : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

يقول ابنُ القيم [(٢)] رحمه الله : « وأكثر الناس لا يعرفون قَدْر التوبة ولا

---

(١) « مدارج السالكين » (١/ ٣٠٦) .

(٢) المصدر السابق .

حقيقتها فضلًا عن القيام بها علمًا وعملًا وحالًا » .

وقد تضافرت أدلة القرآن والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة على الدوام ؛ لأن الإنسان لا ينفك عن معصية ظاهرة أو باطنة ، ومن ثَمَّ وجب على كلِّ سالك إلى الله ﷻ أن يكون دائمًا تائبًا إلى الله جَلَّ وعلا ؛ قال سبحانه : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٣١] ، وقال جَلَّ وعلا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [التحريم:٨] ، لاحِظْ أن الأمر لمن حقق الإيمان ، فلم يقل الله : يا أيها الذين أذنبوا ، أو يا أيها العاصون ، أو يا أيها المقصرون ، بل قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ [التحريم:٨] ، وقال جَلَّ وعلا : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات:١١] .

وفي « صحيح مسلم »[1] من حديث الأغر المزني ﷺ أنه ﷺ قال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى الله ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ » .

إذا كان هذا حال نبينا ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ومع ذلك يتوب إلى الله في اليوم مائة مرة ؛ فكَمْ نحتاج نحن إلى مرات من التوبة ؟ إننا في حاجةٍ إلى ملايين المرات .

وفي « صحيح البخاري »[2] عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال : « وَالله إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً » .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٢٧٠٢ / ٤٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب الدعوات ، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٦٣٠٧) .

وفي « مسند » أحمد « وسنن » الترمذي وابن ماجه وغيرهم [(١)] من حديث أنس ﷺ أنه ﷺ قال : « كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ » .

وفي «صحيح مسلم» [(٢)] عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » .

وفي «الصحيحين» [(٣)] عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ ، يَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ » .

ومعتقدنا أن الله ﷺ ينزلُ كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا ؛ تنزلًا يليق بكماله وجلاله ؛ فلا تعطل ، ولا تشبه ، ولا تمثل ، ولا تُحرف ، فكلُّ ما دار ببالك ، فالله بخلاف ذلك ؛ فنحن نؤمن بربٍّ ينزل كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا ، وهو مستوٍ على عرشه لا يخلو منه عرشه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] .

وقال سبحانه : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ ﴾ [النحل:٧٤] .

وقال جَلَّ وعلا : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣] .

---

(١) أخرجه أحمد في « مسنده » (٣/ ١٩٨) والترمذيُّ كتاب صفة القيامة (٢٤٩٩) وقال : « حديث غريب » ، وابن ماجة كتاب الزهد باب ذكر التوبة (٤٢٥١) ، وابن حبان (٦١٣) ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » (٤٥١٥) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب التوبة باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة (٢٧٥٩) .

(٣) أخرجه البخاريُّ أبواب التهجد باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (١١٤٥) ، ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (٧٥٨) .

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلم [(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « يَقُولُ الله تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » .

فَمَنْ أَعْظَمُ مِنَ الله ؟ وَمَنْ أَكْرَمُ مِنَ الله ؟ وَمَنْ أَحْلَمُ مِنَ الله ؟ لا أحد ؛ ففي الحديث الذي رواه الترمذي [(٢)] من حديث أنس أن النبيَّ ﷺ قال : « قَالَ الله : يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً » .

واعلم أن كلَّ فلاح ونجاح في الدنيا والآخرة إنما سببه التوبة ، ولو لم يكن في فضل التوبة إلا أنها سبب محبة الرب للعبد لكفى !!

مَنْ أنا ؟ ومَنْ أنت ؟ لنكون أهلًا لمحبة ملك الملوك وجبار السماوات والأرض ؟ تدبر قول ربك : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢].

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران:٢٨] (٧٤٠٥) ، ومسلم كتاب الذكر والدعاء باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (٢٦٧٥/ ١٩) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ كتاب الدعوات (٣٥٤٠) وقال : « حديث حسن غريب » ، وقد تقدَّم ، وله شاهد عند مسلم ببعضه كتاب الذكر والدعاء (٢٦٨٧) وفيه : « وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَة لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا ، لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً » .

وفي « صحيح البخاريّ »[١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : قال الله تعالى : « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ » .

ومن فضائل التوبة كذلك: أنها سبب لنور القلب ومحو أثر الذنب ؛ ففي الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه على شرط مسلم وأقر الحاكمَ الذهبيُّ ، وكذلك صحَّحه الألبانيُّ[٢] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الرقاق ، باب التواضع (٦٥٠١) . أقول: فالوليُّ هو المؤمنُ التقيُّ ، وليس كما يفهم بعض الناس أن الولي هو الذي لا يصلِّي ، وهو الذي يتبول على خلق الله ! وهو الذي يقول : إنه يصلي كلَّ فرضٍ في الكعبة ، وأمام الناس منفلتٌ من التكاليف والأوامر الشرعية ! هل هو عند رب البرية أفضل من سيد البشرية ؟ ومع ذلك لم يرفع الله ﷻ التكاليف عن حبيبه محمد ﷺ ؛ فلقد قال الله له : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩] ، يعني : الموت ؛ فأنا أعجب لهؤلاء الذين يزعم أحدهم أن فلانًا من الأولياء ، ولا يصلي ، ولا يصوم ، ولا يمتثل الأمر ولا يجتنب النهي ، ولا يمتنع عن مصافحة النساء والنظر إليهن ؛ بل يلتمسن منه البركة ؛ فهذا ضلال ؛ قال الشافعي : « إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي على سطح الماء وهو غير ملتزم بشرع رب الأرض والسماء ؛ فاعلموا بأنه وليٌّ من أولياء الشيطان ، وليس وليًّا من أولياء الرحمن » ؛ فأولياء الرحمن بنصِّ القرآن هم المؤمنون المتقون : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٢، ٦٣] . راجع «تفسير ابن كثير» (١/ ١١٢) [البقرة آية ٣٤] بمعناه، و«شرح العقيدة الطحاوية» (٥٠٢) ، و«معارج القبول» (٢/ ٤٣٨) .

(٢) أخرجه الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، سورة المطففين (٣٣٣٤) ، وقال: «حديث حسن صحيح» ، وابن ماجه كتاب الزهد باب ذكر الذنوب (٤٢٤٤) ، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٥) ، (٢/ ٥٦٢) ، والبيهقي في «الشعب» (٧٢٠٣) ، والنسائي في «الكبرى» (١١٦٥٨) ، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٦٩ ، ٣١٤١) ، و«صحيح سنن الترمذي وابن ماجه» .

أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ » .

لأن الفتن تعرض على القلب ؛ كما في « صحيح مسلم »[1] من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ » .

فالفتن تعرض على القلب ؛ فيتأثر بها إن أشربها وحينئذٍ تترك في القلب نكتة سوداء ، ثم تعرض فتنة أخرى ، فيتشربها القلب ، فتزيد بقعة السواد ، وتعرض فتنة ثالثة ورابعة ، وهكذا فيتشربها القلب فتزيد بقعة السواد ، فإن لم يتب العبد إلى الله ﷻ يزيد السواد ، وربما يصل إلى درجة الران ، فيحجب هذا الرانُ صاحبَ القلب عن الرحيم الرحمن ؛ يقول النبيُّ ﷺ[2] : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ ؛ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ - أي ترك الذنب والمعصية - وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ - أي طهر قلبه وزال السواد منه - فَإِنْ زَادَ - أي من المعاصي والذنوب - زَادَتْ - أي زادت نكتة السواد - قال ﷺ : فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ ﷻ فِي كِتَابِهِ :﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٤، ١٥] » .

كيف ينزع العبد ثوب الإيمان بالمعصية ؛ قال ﷺ ؛ كما في « الصحيحين »[3]

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا (١٤٤) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه البخاريُّ كتاب الحدود باب إثم الزناة (٦٨١٠) وانظر (٢٤٧٥) ، ومسلم كتاب الإيمان باب نقصان الإيمان بالمعاصي (٥٧) .

من حديث أبي هريرة ﷺ : « لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَسْرِقُ السارق حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَشْرَبُ الخمر حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ » .

قال أبو هريرة ﷺ [(١)] : « أي : إذا أذنب العبد خلع الإيمان من رأسه ، فيكون عليه هكذا وقال بكفه ، فإن نزع وتاب رجع إليه الإيمان » .

وقال عكرمة : قلت لابن عباس : كيف يُنزع الإيمان منه ؟ قال : «هكذا ، وشبَّك بين أصابعه ، ثم أخرجها ، فإن تاب عاد إليه هكذا وشبك بين أصابعه »[(٢)] .

وفي لفظٍ[(٣)] قال : «يُنزع منه نور الإيمان في الزِّنى» .

وروى الطبريُّ في « تهذيب الآثار » وابن عساكر في « التاريخ » بإسنادٍ منقطع[(٤)] عن عبد الله بن رواحة ﷺ أنه كان يقول : « إن مثل الإيمان مثل قميصك ، بينما أنت وقد نزعته إذ لبسته ، وبينما أنت قد لبسته إذ نزعته » .

فالإيمان ؛ كما سبق قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعمل بالجوارح والأركان ؛ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ؛ كما هو اعتقاد أهل السنة والجماعة ؛ أسأل الله أن يزيد الإيمان في قلوبنا .

والتوبة كذلك : سبب للحياة الكريمة الطيبة في الدنيا والآخرة ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾

---

(١) أخرجه المروزيُّ في « تعظيم قدر الصلاة » (٥٣٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب الحدود باب إثم الزناة (٦٨٠٩) .

(٣) أخرجه البخاريُّ تعليقًا بصيغة الجزم كتاب الحدود باب الزنى ، وشرب الخمر . قبل حديث (٦٧٢٢) ووصـ[illegible]ـن أبي شيبة في « الإيمان » (٩٤، ٩٥) وحسَّنه الألباني هناك .

(٤) أخرجه الطبري [illegible] تهذيب الآثار » (٩٦٦) ، وابن عساكر في « تاريخه » (٢٨ / ١١١، ١١٢) .

مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح:١٠-١٣].

وأيضًا من أعظم فضائلُ التوبة : أن الله ﷻ يفرح بتوبة عبده إليه ، ولا نشبه صفة الفرح لله بصفة الفرح عند المخلوقين ؛ ففرح الله يليق بكماله وجلاله سبحانه وتعالى؛ قال ﷺ : «لله أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ، حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاَةٍ ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً ، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا ، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ »[1] .

ففرح الله بتوبة التائب إليه أعظم من فَرْحةِ هذا العبد بعودة راحلته إليه .

قال ابن القيم رحمه الله [2] : « ولولا أن التوبة هي اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان لم يكن الربُّ تبارك وتعالى لِيَفْرح بتوبة عبده حين يتوب إليه هذا الفرح العظيم ؛ فجميع ما يتكلَّم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها » .

وبالجملة ؛ فإن الله علَّق الفلاح على التوبة ؛ فلا سبيل لنيل الخيرات في الدنيا والآخرة إلا بالتوبة إلى ربِّ الأرض والسماوات ؛ قال تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٣١] .

وأوَّلُ معاني التوبة : الاعتصام بالله جَلَّ وعلا ، وإلا فوربِّ الكعبة إنه

---

(١) أخرجه البخاريُّ مختصرًا كتاب الدعوات باب التوبة (٦٣٠٩) ، ومسلم كتاب التوبة باب الحض على التوبة والفرح بها (٢٧٤٧) واللفظ له من حديث أنس رضي الله عنه ، ورواه البخاريُّ (٦٣٠٨) ، ومسلم (٢٧٤٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ورواه مسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه (٢٧٤٥) وعن البراء بن عازب رضي الله عنه (٢٧٤٦) .

(٢) « مدارج السالكين » (١/ ٣٠٧) .

الخذلان والخسران في الدنيا والآخرة إن لم يعصمك ربُّك وإن لم تعتصم به ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج:٧٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٠١] هذا هو صراطُ التائبين ؛ صراط المَرْضِيِّ عنهم من رب العالمين ؛ فنحن ندعو الله ونتضرع إليه كلَّ يوم عشرات المرات أن يهدينا هذا الصراط في قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦، ٧] ؛ فمن كَمُلَتْ عصمتُه بالله لم يخذله الله أبدًا ؛ فمتى اعتصمتم بالله تولَّاكُمْ ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان ، وهما العدُوَّان اللذان لم يفارقا العبد ، وعداوتهما أضرُّ من عداوة العدو الخارجي ؛ لأن العدو الخارجيَّ أنت تعرفه وتعرف قدراته وتُعِدُّ له العدة بحسبها ، أما نفسك الأمارة والشيطان والهوى والدنيا ؛ فهذه أعداء لابد من أن يفطن العبد السالك إلى ربه بخطرها :

إنِّي ابتُلِيتُ بأربعٍ ... ما سُلِّطوا عليَّ إلا لشقوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلُّهم أعدائي

فلا خلاصَ لك إلا إن اعتصمت بالله سبحانه وتعالى ؛ فالله هو الوليُّ وهو المولى لأهل الإيمان ؛ قال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [محمد:١١] ، ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ ، والعبد أحوج إلى عصمة الله ونصرته له تبارك وتعالى ، وإلاَّ والله لخسر الدنيا والآخرة ؛ فما خَلَّى الله بينك وبين الوقوع في الذنب إلا بعد أن خذلك بتخلِّيه عنك ، وَخلَّى بينك وبين نفسك ، ولو عصمك ووفقك وحال بينك وبين نفسك ما وقعت في الذنب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

لقد أجمع أهل العلم أن الخذلان يقع حينما يَكِلُ الله العبد لنفسه ؛ فلولا ستر الله علينا لخذلنا ، ولو وكلنا الله إلى أنفسنا طرفة عين لهلكنا !! فلحظاتُ الضعف التي يقع فيها أيُّ بشر ، هي لحظات يُخَلِّي الله فيها بيننا وبين أنفسنا الأمارة بالسوء ؛ فيظهر العبد على حقيقته من نقص وعيب وفضائح ؛ نسأل الله أن يستر علينا في الدنيا والآخرة .

واتفق أهلُ العلم كذلك على أن التوفيق كلَّ التوفيق أن يعصمك الله ﷻ ، وألا يكلك إلى نفسك طرفة عين ، واعلم أن العبد الذي يفرح بالمعصية ؛ لتحقيقه شهواته ورغباته ونزواته ـ دليلٌ على حبه ورغبته في المعصية ، ودليل على جهله بسوء عاقبة المعصية في الدنيا والآخرة ، وأخطر من ذلك أن فرحه بالمعصية دليلٌ على جهله بقدر من عصاه ، وفرح العبد بالمعصية أشدُّ ضررًا من الوقوع في المعصية ذاتها ؛ فالمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدًا ؛ بل لا يباشر المؤمن المعصية إلا والحزنُ يمزِّق قَلْبه ، ولكن سُكْرُ الشهوة وضعف البشرية يحجبه كلُّ ذلك عن الشعور به ؛ فمتى خلا قلبه من هذا الحزن على المعصية واشتدت فرحته وغبطته بالمعصية فليتَّهِم إيمانه ، وليَبْكِ على موت قلبه ؛ بل المؤمن ـ وهذه علامة من علامات الإيمان ـ إذا أذنب تراه محترقًا باكيًا متذللًا متضرعًا خائفًا وجِلًا ، مُنكَّس الرأس بين يدي ربِّه ، لا يرى في قلبه فرحًا ؛ بل هو يعترف لربه أنه ما زلَّ إلا في لحظة ضَعْف ، وإلا في لحظة سُكْر الشهوة ، وإلا لبشريته الضعيفة ؛ فإن تذكر وتاب وأناب تراه منكسرًا بين يدي الله ، خائفًا وجلًا مضطربًا ، لا يشعر البتة بفرح ولا بغبطة ولا بسرور لارتكابه الذنب ولوقوعه في المعصية ؛ فإن لم يجد العبد في قلبه هذا فليعلم أنه يحمل قلبًا ميتًا وهو لا يدري ، وهذه لطيفة قَلَّ من يلتفت إليها أو ينتبه لها ، وهي موضعٌ مخوِّف ؛ لأن العبد قد يهلك بحبه للمعصية وغبطته

بها ! لماذا ؟ لأن العبد اشتدت فرحته بالمعصية مع غفلته عن التوبة إلى الحد الذي يشعر بنشوة إذا ظفر بذنب أو معصية ؛ فهذا العبد ستدفعه هذه النشوة وهذه الغبطة وهذا السرور إلى الوقوع في الإصرار على المعصية ؛ لأنه فرح بها ؛ فلم تُؤْلِم قلبه ولم تُحرِّك جوارحه ؛ فهو مستقر على المعصية ، لا يرى عيب نفسه ، ولا يرى فيها نقصًا ، فيصرُّ عليها ، ولا يجد في قلبه من الهم والاحتراق ما يحركه إلى التوبة . وهذا الاستقرار هو الاستقرار على المخالفة والعزم على المعاودة ، وذلك ذنبٌ آخر لعلَّه أعظم من الذنب الأول بكثير !! وهناك من يسأل : أفعل الذنب وأتوب ، ثم أرجع لفعله وارتكابه وأتوب ، ثم أرجع مرة ثالثة ورابعة .. وهكذا ؛ فلماذا هذا التكرار ؟!! والجواب: لأن العبد ربما ما تاب إلى الله ﷻ توبةً صادقةً ؛ فأصعب شيء على أهل الصدق التوبة ؛ ففرحك بالذنب سيوقعك في الإصرار عليه ، وهذا من عقوبة الذنب

لأن الوقوع في الذنب يوجب ذنبًا أكبر من الذنب الأول ... وهكذا ؛ فالإصرار على المعصية معصيةٌ ، ونحن لا نكفر بالإصرار ، لكن الإصرار على المعصية معصية قد تصل إلى حد الكبيرة ، لكن استحلال المعصية كفر ؛ ففرق بين الإصرار والاستحلال ؛ كأن يقول رجلٌ مثلًا : الخمر حرام ؛ لكنني أستحلُّه ؛ فهذا الاستحلال كفر أكبر ، أمَّا أن يقول : الخمر حرام ؛ لكنني لا أقدر على تركه ؛ فهذا لا يكفر ، ولا يخرج من الملة بالإجماع ؛ وكثيرًا ما كان يؤتى برجلٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ يُقال له : «حمار» ليقام عليه الحد من شرب الخمر ؛ فلمَّا سبه أحد الصحابة أنكر النبيُّ ﷺ ، وقال[1] : « لَا تَلْعَنُوهُ ؛ فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحدود ، باب ما يكون من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة(٦٧٨٠) وفي لفظ أبي هريرة رضي الله عنه (٦٧٨١) « لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ » .

فشتان بين الإصرار وبين الاستحلال ، وقد لا يكون العبدُ مصرًّا بارتكابه للذنب مرة بعد مرة ؛ بل قد يقع في الذنب ويتوب توبةً صحيحة ، وبعد ذلك يضعف فيقع في ذات الذنب ، ويتوب توبة صحيحة ، وهكذا ... وهذا هو الذي قال فيه النبيُّ ﷺ ؛ كما في « الصحيحين »[1] من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ فيما يحكي عن ربه ﷻ قال : « أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا ؛ فَقَالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ؛ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ ؛ فَقَالَ : أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ؛ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ ؛ فَقَالَ : أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ؛ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا ، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ؛ اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ » .

فإذا آمن العبد بأن الله سبحانه وتعالى يراه ، ومع ذلك فهو مقيم على معصيته مجاهرًا بها ؛ فما أقل حياءَ العبد من الله !

أما إذا اعتقد أن الله لا يراه فقد كفر كفرًا أكبر يخرجه من الملة ؛ فالجهر بالذنب ذنبٌ أعظم ؛ فالعبد دائر بين أمرين بين قلة الحياء من الله سبحانه وبين الكفر والانسلاخ من الدين ؛ إذا اعتقد أن الله لا يراه ، ولا يطلع عليه ، وهو مقيم على معصيته !! فعلى العبد أن يعلم أن التوبة إلى الله تبارك وتعالى أمر شاقٌّ جدًّا يحتاج إلى مجاهدة وصبر ويقظة تامة للتخلُّص من الأعداء الذين يحولون بينه وبين التوبة ؛ كالشيطان ، والهوى ، والدنيا ، والنفس الأمارة بالسوء !!

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح:١٥] (٧٥٠٧) ومسلم ، كتاب التوبة ، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة (٢٧٥٨) .

قال ابن القيم رحمه الله[(١)]: «وشرائط التوبة ثلاثة: الندم والإقلاع والاعتذار؛ فحقيقةُ التوبة هي: الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على ألا يعاوده في المستقبل، والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة؛ فإنه في ذلك الوقت يندم ويقلع ويعزم؛ فحينئذٍ يرجع إلى العبودية التي خُلِقَ لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة، ولما كان متوقفًا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له؛ فأما الندم؛ فإنه لا تتحقق التوبة إلا به؛ إذ مَنْ لم يندم على القبيح؛ فذلك دليلٌ على رضاه به، وإصراره عليه».

فالندم هو ركن التوبة الأعظم كما وفي «مسند أحمد» وفي «سنن ابن ماجه» بسندٍ صحيح[(٢)] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ».

يقول ابن القيم: «وأما الإقلاع؛ فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب»؛ فلابد من الإقلاع عن الذنوب بعد الندم على وقوعك فيها فيما مضى، «وأما الاعتذار؛ فهو الاعتذار إلى الله سبحانه بإظهار الضعف والمسكنة وأن العبد قد وقع لضعف نفسه، وضعف بشريته، وغلبة هواه وانتصار الشيطان عليه»؛ لا أن يحتج العبد بالوقوع في المعصية بقدر الله كما سأبين، فالاعتذار أن يعتذر العبد بخطئه وتقصيره وجهله ونقصه وعيبه، وأن يسأل ربه سبحانه وتعالى أن يتوب عليه ليتوب إليه، وأن يغفر له ذنبه، وأن يستر عليه عيبه، فليعترف العبد ويقول: يا رب والله ما وقعت في الذنب «استهانةً

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٢، ١٨٣) بتصرف.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة (٤٢٥٢)، وأحمد (١/ ٣٧٦، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٣٣)، وابن حبان (٦١٢)، والحاكم (٤/ ٢٧١)، والطيالسي (٣٨١)، والحميدي (١٠٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٠٢).

مني بحقك ، ولا جهلًا به ، ولا إنكارًا لاطلاعك علي ، ولا استهانةً بوعيدك ، وإنما كان من غلبة الهوى وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة ، وطمعًا في مغفرتك ، واتكالًا على عفوك ، وحسن ظني بك ، ورجاءً لكرمك ، وطمعًا في سعة حلمك ورحمتك ، وغرَّني بك الغرور ، وغرتني النفس الأمارة بالسوء ، وسترك المرخي عليَّ ، وأعانني جهلي ، ولا سبيل إلى الاعتصام لي إلا بك ، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك ، ونحو هذا من الكلام الذي يُظهر فيه العبد ذُله وانكساره بين يدي الله تبارك وتعالى ؛ فهذا من تمام التوبة ، وإنما يسلُك هذا العقلاء من أولي الألباب من المتذللين إلى رب العالمين ؛ فالله جلَّ وعلا يحب من عبده أن يتذلل إليه ، وأن يتضرع إليه ، وأن يُلحَّ عليه ، وأن يكثر سؤاله »[1] .

أما حقائق التوبة ؛ فهي تعظيم الجناية ، واتهام التوبة ، والغيرة لله ، والغضب له إذا خُولِفتْ أوامره .

*****

(١) هذا كلام ابن القيم بتصرف يسير .

حقائق التوبة

وأولُ حقيقةٍ من حقائق التوبة : «تعظيم الجناية» ، ومعناه : أن العبد إذا استهان بذنبه وجنايته لن يندم عليه ؛ أما إن عظَّم جنايته ، وعظَّم من خالف أمره ؛ أسرع إلى التوبة ، وحقَّق الندم ، وعلى قدر تعظيم الجناية يكون الندم على فعلها ، ولا يمكن للعبد أن يعظم جنايته إلا بثلاثة أشياء ؛ الأول : تعظيم الأمر ، الثاني : تعظيم الآمر ، الثالث : التصديقَ بالجزاء ؛ فقد يرتكب الإنسان كبيرةً من الكبائر ، ويشعر أن ذبابة صغيرة تقف على أنفه ، فهو يذهبها بيده هكذا فتطير ؛ فالمنافق ـ والعياذ بالله ـ لا يرى الذنب وإن كبُر شيئًا ، أما المؤمن ؛ فإنه يرى الذنب وإن صغُر كالجبل يحمله على كتفيه [(١)] !! لأن المؤمن يُعظم الأمر ، ويعظم الآمر ، ويصدق بالجزاء ؛ فلو جاءك الأمر في أيِّ شيء من أشياء الدنيا من رئيسك المباشر لن يكون تعظيمك لهذا الأمر كتعظيمك إذا جاءك من رئيس القطاع أو رئيس مجلس الإدارة ؛ فتعظيم الأمر من تعظيم الآمر ، فتصور أن الذي يأمر وينهى هو الله ورسوله ؛ فقف على قدر هذا الأمر ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[الحشر:٧] ؛ فتعظيم الآمر من أعظم الأسباب التي رحم الله بها الأمة ، وهذا هو الفارق بين ما كان عليه السلف وبين ما كان عليه الخلف ؛ لأن السلف كانوا يعظمون الأمر

---

(١) كما عند البخاريِّ ، كتاب الدعوات ، باب التوبة (٦٣٠٨) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذبابٍ مرَّ على أنفه ، فقال به هكذا » قال أبو شهاب ـ أحد الرواة : «بيده فوق أنفه» أي : هشّهُ بلا مبالاة .

والآمر ، ولكن الخلف إلا من رحم ربك صاروا لا يعظمون الأمر ؛ لأن قَدْرَ الآمر في قلوبهم وجلاله قلَّ !! فصارت النظرة إلى الأمر عادية أفعل أو لا أفعل ! لكن انظر إلى حال السلف ؛ كما في « صحيح مسلم » [1] عن أبي هريرة ﷺ قال : لَـمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٨٤] ، قَالَ : فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ ، فَأَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ ؛ فَقَالُوا : أَيْ رَسُولَ الله ! كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ ، الصَّلاَةَ ، وَالصِّيَامَ ، وَالْجِهَادَ ، وَالصَّدَقَةَ ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلاَ نُطِيقُهَا ؛ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ؛ بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » ، قَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ ؛ فَأَنْزَلَ الله فِي إِثْرِهَا : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥] ؛ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا الله تَعَالَى ؛ فَأَنْزَلَ الله ﷻ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ ﴾ [البقرة:٢٨٦] ، قَالَ : نَعَمْ ، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ ﴾ [البقرة:٢٨٦] ، قَالَ : نَعَمْ ، ﴿ رَبَّنَا وَلَا

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أنه سبحانه لا يكلّف إلا ما يطاق (١٢٥) .

تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾[البقرة:٢٨٦] ، قَالَ : نَعَمْ ، ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة:٢٨٦] ، قَالَ : نَعَمْ » .

انظر إلى درجة التعظيم للأمر والآمر ؛ فالمنهج هو المنهج ؛ لكن قَلَّتْ في قلوبنا عظمةُ ربِّنا ؛ قال سبحانه : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الزمر:٦٧] ؛ فلن تُعظم ذنبك وجنايتك إلا إذا عظَّمت الأمر ، وتعظيمك للأمر لن يكون إلا إن عظَّمت الآمر ، ثم بعد ذلك تصدق بالجزاء ؛ بمعنى : أن الله يأمرك فإن فعلت منحك من الأجر ما يتوافق مع فضله وجوده وكرمه ، وإن لم تفعل عاقبك وعذبك وحاسبك ؛ فالمؤمن مصدق بالجزاء ، لذلك فهو يمتثل الأمر ، ويجتنب النهي ، ويقف عند الحد ؛ قال تعالى : ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[غافر:١-٣] ، وفي « **الصحيحين** »[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « **قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ : « أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ : مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ** » . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير سورة السجدة ، باب قوله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، [السجدة: ١٧] (٤٧٧٩، ٤٧٨٠) ، ومسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤) .

أَعْيُنٍ﴾[السجدة:١٧] .

وفي «**الصحيحين**» [١] من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « **إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ** » .

فالمؤمن مُصدِّق بالثواب والعقاب

الحقيقة الثانية من حقائق التوبة هي : « اتهام النفس » ، وهذا معناه : اتهام التوبة ، أي : أنك ما تبت إلى الله تبارك وتعالى بعد الذنب توبة ترضيه ؛ فإنك لو شعرت أنك تبت إلى الله توبة صالحة ناصحةً حقيقيةً ؛ فهذه بداية الخطر ؛ لأنك سترضى عن نفسك ، والرضا عن النفس علامة شؤم في الدنيا ، وعلامة شقاء في الآخرة ؛ بل يجب على المؤمن أن يكون مُتَّهِمًا لتوبته ؛ فإنه لا يتهم توبته إلا إذا وقف على قدر الله وجلاله ، وعلى عيوب نفسه وآفاتها .

قال ابن القيم رحمه الله [٢] : « فلأن التوبة حقٌّ عليه ، ولا يتيقن العبد أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه الذي ينبغي له أن يؤديه عليه ؛ فيخاف أنه ما وفَّاها حقها ، وأنها لم تقبل منه ، وأنه لم يبذل جهده في صحتها ، وأنها توبةُ عِلَّة ، وهو لم يشعر بها ؛ كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس » ؛ كأن يموت لأحدٍ ولدٌ مثلًا أو يُهْدَم بيته ، فيصرخ ويبكي ، ويضع التراب على رأسه ، ويلطم خده ، ويشق جيبه ، ويدعو بدعوى الجاهلية ؛ بل وربما يُسْخِط ربَّه سبحانه وتعالى ، ويتهم قدره ؛ فإذا شعر بعد كُلِّ ذلك بالملل والتعب ، وذهب إليه بعضُ الأفاضل ليقول له : يا أخي اتق الله واصبر ، يقول : أنا

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار (٦٥٦١ ، ٦٥٦٢) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب أهون أهل النار عذابًا (٢١٣)

(٢) « مدارج السالكين » (١/ ١٨٥) .

صابر وماذا بيدي أن أعمل ؟! فهذه « توبة أرباب الإفلاس ، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس ، أو أنه تاب محافظةً على حاله ، فتاب للحال لا خوفًا لذي العظمة والجلال ، أو أنه تاب طلبًا للراحة من الكد في تحصيل الذنب ، أو تاب خشية وخوفًا على عرضه من المذلة أو اتقاء ما يخافه على عرضِهِ وماله ومنصبه ، أو لضعف داعي المعصية في قلبه ، وخمود نار شهوته ، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق ، أو نحو ذلك من العلل التي تقدح في كون التوبة خوفًا من الله جَلَّ جلاله وتعظيمًا له ولحرماته ، وإجلالًا له ، وخشية من سقوط المنزلة عنده عن البعد والطرد عنه ، والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة ؛ فهذه التوبة لونٌ ، وتوبة أصحاب العلل لونٌ آخر »[1] ، أي : من تاب حُبًّا لله ، وإجلالًا له ، وخوفًا منه، وخوفًا من الطرد عن جلاله يوم القيامة ؛ فهذه توبة الصادقين المخلصين ؛ لكن من تاب خوفًا من علة ؛ على جاهه ، خوفًا على منزلته ، أو من تاب ؛ لأنه ليس فيه أمر الشهوة مثلًا ؛ لكنه ما نزل التوبة خوفًا من الله تعالى ، بمعنى أنه لو كان يملك من القدرة على المعصية لفعلها ؛ فهذه التوبة لون !! وهذه التوبة لأصحاب الصدق والبصائر لونٌ آخر .

ومن اتهام التوبة أيضًا : «ضعف العزيمة» ، بمعني: أن تتهم توبتك لضعف عزيمتك ، ويلتفت قلبك بعد التوبة إلى الذنب ، فإن تذكَّرت الذنب هيجك ؛ فكم من الناس تاب إلى الله من معصيته ، لكنه جلس يومًا فتذكر هذه المعصية ، وتذكَّر هذا اليوم الذي كان فيه ؛ فيهيجه الذنب ، ويتمنَّى من داخل نفسه أنه لو عاد إلى هذا الذنب وإن لم يصرح بلسانه ؛ فمن اتهام التوبة :

---

(١) من كلمات ابن القيم « المصدر السابق » وما سيأتي كذلك بتصرف .

ضعف العزيمة ، والحنين إلى الذنب المرة بعد الأخرى ؛ فهو يتذكر حلاوة مُوَاقعةِ الذنب ، فيتنفس نفسًا عميقًا ، وربما هاجت نفسه ، واشتاق قلبه ؛ لمعاودة الذنب والرجوع إليه .

ومن اتهام التوبة أيضًا : «طمأنينة العبد» ، ووثُوقه من نفسه بأنه قد تاب إلى الله ، حتى كأنه قد أُعطِي منشورًا بالأمان من عذاب الله سبحانه !!

ومن علامات اتهام التوبة : « جمود العين ، واستمرار الغفلة ، وألا يَسْتحدث بعد التوبة أعمالًا صالحة لم تكن له قبل الخطيئة والوقوع في الذنب » ؛ فإن خلوت وتضرعت إلى الله سبحانه وتعالى ، ووجدت عينك جامدة لا تعرف طريقًا إلى البكاء من خشيته ؛ فاتهم نفسك ، وحقق الخشية ؛ فالخشية من الله ليست كلمة ؛ فعلى قدر الخوف من الله في القلب تكون الدمعة ، لاسيما إن كنت خاليًا ؛ قال عبد الله بن مسعود ﷺ [1] : « اطلب قلبك في ثلاثة مواطن : عند سماع القرآن ، وعند الخلوة ، وفي مجالس الذكر ـ أي مجالس العلم ؛ فإن لم تجد قلبك في هذه المواطن ؛ فسل الله أن يمنَّ عليك بقلب ؛ فإنه لا قلب لك » .

فإذا ذاق العبد طعم الخشية ، وطعم الخوف ؛ رقت الجوارح كلُّها ، وبكت العين ، واقشعر البدن ، وذلك في الخلوة ، وهذه علامة صدق أيضًا ؛ كما في «سنن الترمذي» عن ابن عباس ﷺ أنه ﷺ قال : « عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله ...» الحديث [2] ؛ فالبكاء ثمرة الخشية ،

---

(١) « الفوائد » لابن القيم (١٤٨) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب فضائل الجهاد ، باب فضل الحرس في سبيل الله (١٦٣٩) ، وأبو يعلي (٧/ ٣٠٧) والبيهقي في « الشعب » (١/ ٤٨٨) ، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٢٢) ، و«صحيح الجامع» (٤١١٢) .

وأعرف الخلق بربه هو المصطفى ﷺ ؛ كما في «الصحيحين»[(١)] عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال : « فوالله إِنِّي لأَعْلَمُهُمْ بالله ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً » .

وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم بسندٍ صحيح[(٢)] عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال : « رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي ، وَلِصَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المِرْجَلِ » يعني : من البكاء .

بل كان يبكي ﷺ إذا قُرِئ عليه القرآن ؛ كما في « الصحيحين »[(٣)] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ : « اقْرَأْ عَلَيَّ » ، قُلْتُ : آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنزِلَ ؟ قَالَ : « فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » ؛ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[النساء:٤١] ، قَالَ : « أَمْسِكْ » ؛ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ .

وفي لفظٍ : « فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ » .

فعلى قدر الخشية يكون البكاء ؛ ولذلك أقولُ : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه ، ثم بعد ذلك يتجرأ على معصية الله ، ولكن الخائف من يترك ما يخاف أن يحاسبه الله عليه .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب من لم يواجه الناس بالعتاب (٦١٠١) ، ومسلم ، كتاب الفضائل باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته (٢٣٥٦) .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب البكاء في الصلاة (٩٠٤) ، والترمذيُّ في « الشمائل » (٣٢٢) ، والنسائي في كتاب السهو ، باب البكاء في الصلاة (١٢١٤) ، وأحمد (٤/ ٢٥ ، ٢٦) ، وابن خزيمة (٢/ ٥٣) ، وابن حبان (٢/ ٤٣٩) ، وعبد بن حميد في « المنتخب » (٥١٤) ، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٤٤) و (٣٣٢٩) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل القرآن ، باب البكاء عند قراءة القرآن (٥٠٥٥) ، وكتاب التفسير ، باب « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ... » (٤٥٨٢) ، ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظه للاستماع ، والبكاء عند القراءة والتدبر (٨٠٠) .

ولكن كيف تبكي عَيْنُك ؟ والجواب أن تجتهد في تحقيق الخوف والخشية من الله ؛ فإذا ذاق قلبك طعم الخشية والخوف وجدتَ البكاء من الخشية سهلًا وميسورًا جدًّا ؛ قُمْ بالليل ، وتضرع إلى الله ، وابك بين يديه ؛ فوالله ستشعر بلذة البكاء وحلاوته .

فمن علامات اتهام التوبة : «جمودُ العين» وطمأنينة العبد بأنه قد أُعطِيَ عهد أمانٍ بأن الله سبحانه وتعالى قد تاب عليه توبة لا يسخط عليه بعدها أبدًا ؛ فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات ؛ منها : أن يكون العبد بعد التوبة خيرًا مما كان قبل التوبة ؛ فالتائب تراه منكسر القلب ، خاشع الطرف ، خائفًا من الله سبحانه ، ترى عليه ذلة وكسرة قد لا يستطيع أهل البلاغة أن يعبروا عنها ؛ فهي كسرة خاصة لا يذوق طعمها ، ولا يعرف حلاوتها إلا من صدق في توبته ، وقُبِلَتْ وصحَّت إنابته .

ومن علامات التوبة المقبولة : أن لا يزال الخوف مصاحبًا للتائب ، وألا يأمن مكر الله طرفة عين حتى يلقاه ؛ قال سبحانه : ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩] ، ولذلك كان الصادق ﷺ يقول [(١)] : «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» .

وفي « صحيح مسلم » [(٢)] من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ ! يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ » .

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب القدر ، باب إن القلوب بين أصبعي الرحمن (٢١٤٠) ، وابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب دعاء رسول الله ﷺ (٣٨٣٤) ، وأحمد (٣/ ١١٢) ، والحاكم (١/ ٥٢٦) ، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٩١) ، و«صحيح سنن الترمذي» من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء (٢٦٥٤) .

وكان ﷺ يقول [(١)]: « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ » .

فالأمن من مكر الله علامة خسران ، ولقد سئل الإمام أحمد ؛ فقيل له : يا إمام متى يجد العبدُ طعمَ الراحة ؛ فقال الإمام [(٢)]: « عند أول قدم يضعها في الجنة » .

ولله درُّ القائل :

أحـــزان قلبـــي لا تـــزول ... حتـــى أُبشر بـــالقبول

وأرى كتـــابي بـــاليمين ... وتقـــرَّ عينـــي بالرســـول

فالمؤمن تراه دائمًا خائفًا وجِلًا ؛ فخوفه مستمرٌّ إلى أن يسمع قول المَلَك حين يقبض روحه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت:٣٠، ٣١] ؛ حينئذٍ يسعد سعادةً لا يرى شقاءً بعدها أبدًا ؛ فقد روى أحمد في «مسنده» وابن ماجه في «سننه» بسندٍ صحيح [(٣)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : «المَيِّتُ تَحْضُرُهُ المَلَائِكَةُ - أي : عند الموت - فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ ، قَالُوا : اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ ! كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ ، اخْرُجِي حَمِيدَةً ، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب القدر ، باب العمل بالخواتيم (٦٦٠٧) .

(٢) أخرجه ابن أبي يعلى في « طبقات الحنابلة » (١/ ٢٩١) ، وروي من وجهٍ آخر عند أبي نعيم في « حلية الأولياء » (١٠/ ١٣٢) وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ١٣) .

(٣) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٦٢) ، وقال البوصيري في «الزوائد» : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » ، وأحمد في «المسند» (٢/ ٣٦٤) ، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٤٢) ، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٦٨) .

ولا ريب ولا شك أن الخوف الشديد يكون من العقوبة العظيمة ؛ فلو أن أحدنا ذهب إلى بيته ، ووجد امرأته تسلِّمه ورقة من مُحضر ، تقول له الورقة : إنك مطلوب للنيابة غدًا ! والله لن ينام ، ولن يطرف النومُ عينيه ، وسيظلُّ طوال الليل يفكر في جنايته التي طُلب بسببها للوقوف أمام قاضٍ من قضاة الدنيا ؛ فهل فكَّرت في جناية ستقف بها أمام ملك الملوك جَلَّ جلالُه ؟! يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم ؟ إن فكَّرت في هذه الجناية في لحظة وقوفك بين يدي الله ؛ لن أقول في جناية بل في جنايات ؛ بل في ذنوب ؛ بل في معاصٍ ربما نسيتها أو تناسيتها ، ولكن ربِّي جَلَّ وعلا : ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾[طه:٥٢] ؛ فكم من مصيبة كنت نسيتها فذكَّرك الله إياها ، وكم من معصية كنت أخفيتها أظهرها الله لك وأبداها ؛ فيا حسرة قلبك وقتها وأنت واقفٌ بين يدي ربك سبحانه على ما فرطت في دنياك في طاعة مولاك : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴾[الحاقة:٢٠ ـ ٣٧] ؛ فالخوفُ الشديدُ يقطع القلب ، ولذلك تجد الإنسان جريئًا على الله ؛ لأنه لا يعرف للخوف

طريقًا ولا سبيلًا ؛ فما تجرأ الزاني على الزنا إلا لعدم خوفه ، وما تجرأ آكل الحرام على أكل الحرام إلا لعدم خوفه ، وما تجرأ السارق على السرقة وهو يعلم أن الله يسمعه ويراه إلا لعدم خوفه من سيده ومولاه ؛ فكلَّما ازداد الخوف من الله كلَّما تمزق وتقطع القلبُ حسرات على التفريط والتقصير في حق الله جَلَّ جلاله ، وهذه حقيقة التوبة ؛ لأن القلب حينما يتقطع حسرة على ما فات ؛ فهذا دليل الندم ، والندم توبة ؛ كما قال ﷺ[1] . فالندم هو ركن التوبة الأعظم .

وفي «سنن» البيهقي و«صحيح » ابن حبان وغيرهما بسندٍ صححه شيخنا الألبانيُّ بمجموع طرقه[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : قال الله تعالى في الحديث القدسي : « وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ : إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

إما أن تخاف الله في الدنيا فتؤمَّنُ يوم القيامة ، وإما أن تعيش جريئًا على الله في الدنيا لا تعرف للخوف سبيلًا ؛ فسترى أشكال وألوان الخوف كلَّها في الآخرة .

فمن لم يتقطع قلبه حسرات على ما فرط في جنب ربِّ الأرض والسماوات حتمًا سيتقطع قلبه في الآخرة إذا حُقَّت الحقائق وعاين ثواب المطيعين ، وعقاب المذنبين العاصين !!

ومن موجبات التوبة الصحيحة المقبولة : كسرةٌ خاصةٌ تحصُل للقلب ، ولا تكون إلا بعد الذنب والتوبةِ الصادقة منه ؛ فتجد التائب المخْلِصَ مكسورًا ، منكسر القلب ، خاشع الطرف ، ذليل النفس ، لا ترى فيه عُجْبًا ولا كبرًا ولا غرورًا ؛ لأنه يعلم تمامًا حقيقة نفسه ، ويقف تمامًا على عيوبها وآفاتها

---

(١) سبق تخريجه قريبًا .

(٢) أخرجه ابن حبان في « صحيحه » (٦٤٠) ، والبيهقي في «الشعب» (٧٧٧) ، وصحَّحه بشواهده الألباني في «الصحيحة» (٧٤٢ ، ٢٦٦٦) .

وتقصيرها ، وفي الوقت نفسه يعرف قَدْر الله وجلاله ؛ فليس شيء أحبَّ إلى الله سبحانه وتعالى من كسرة القلب وخضوعه وتذلله والإخبات إليه جلَّ شأنه ، والانطراح بين يديه والاستسلام له ، وما أحلى أن يعبر عن انكسار قلبه بين يدي ربه ؛ فيقول : أسألك بعزِّك وذلي إلا رحمتني ، وأسألك بقوتك وضعفي ، وبغناك عني وفقري إليك ؛ هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سواي كثير ، وليس لي سيدٌ سواك ، سبحانك ! لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، أسألك سؤال المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك رقبته ، ورغِم لك أنفه ، وفاضت لك عيناه ، وذلَّ لك قلبه إلا رحمتني .

ما أحلاها من كلمات حينما تصدق التوبة !!

ولله درُّ القائل:

بك أستجير ومن يجير سواك	فأجر ضعيفًا يحتمي بحماك
إني ضعيفٌ أستعين على قَويٌّ	ذنبي ومعصيتي ببعض قواك
أذنبت يا ربي وقادتني ذنوبٌ	ما لها من غافر إلاك
دنياي غرتني وعفوك شدَّني	ما حيلتي في هذه أو ذاك
لو أن قلبي شكَّ لم يك مؤمنًا	بكريم عفوك ما غوى وعصاك
يا مُنبت الأزهار عاطرة الشذى	هذا الشذى الفواح نفح شذاك
يا مجري الأنهار ما جريانها	إلا انفعالة قطرة لنداك
ربَّاه ها أنا ذا خلَّصت من الهوى	واستقبل القلبُ الخليُّ هداك
رباه قلبٌ تائبٌ ناجاك أترده وتردُّ صادق توبتي	حاشاك ترفض تائبًا حاشاك
فليرض عني الناس أو فليسخطوا	أنا لم أعُدْ أسعى لغير رضاك

فالحقيقة الثانية من حقائق التوبة : اتهام التوبة .

أما الحقيقة الثالثة فهي : الغيرة لله تبارك وتعالى عند مخالفة الناس لأوامره وعدم الاعتذار عنهم والاحتجاج لهم بالقَدَرِ ؛ لأن الله ﷻ أعظم وأحكم وأعدل من أن يحاكم صاحب عذر ؛ فلا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجْلِ ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب إزالةً لأعذار خلقه ؛ لئلا يكون لهم حجة ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء:١٥] .

وفي «صحيح مسلم»[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ** » .

فالتائب الصادق يغار إذا انتهكت حرماتُ الله ، ويغار إذا خالف الناسُ أوامر الله ؛ فهذه من حقائق التوبة الغيرة لله عند مخالفة أوامره ، وألا يحتج ولا يعتذر عن المذنبين بأن القَدَرَ هو الذي أكرههم على فعل المعاصي ، ولقد فَصَّلْتُ ذلك من قبل ؛ فالثابت أن لا عذر البتة في معصية الله ومخالفة أمره ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات:٦] ؛ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة[2] : « لَكَنُودٌ » أي : لكفور لنعم الله » ، قال الحسن[3] : « هو الذي يعد المصائب وينسى النعم » ، يعني : إذا نزلت مصيبة به يقول : ما أكثر المصائب والبلايا ، وينسى نعم الله سبحانه وتعالى التي أغرقه الله بها من

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٣) .

(٢) أخرج ذلك الطبريُّ في « تفسير سورة العاديات » (١٢/ ٦٧١) ، وانظر «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٤٣٦) .

(٣) المصدر السابق .

ناصية رأسه إلى أخمص قدميه ، ومن لحظة ميلاده إلى لحظة مماته ؛ فنحن في سربالٍ فضفاض من نعم الله سبحانه وتعالى وفضله وكرمه ؛ قال سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل:١٨] ؛ قال أبو عبيدة [١] : « ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ : هو قليل الخير » ، والأرض الكنود هي الأرض التي لا نبت فيها ، وقيل : التي لا تنبت شيئًا من المنافع .

وقال الفضيل بن عياض [٢] : « الكنود : الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءةِ الخصالَ الكثيرةَ من الإحسان » .

ولولا جَهْلُه لعَلِم أنه هو نفسه الذي قعد في طريق مصالحه لنفسه ؛ فنفسه الأمارة هي التي صدَّت الخير عنه ؛ فالإنسان الكنود هو الحجر في طريق الماء الذي به حياته ، وهو السدُّ المنيع الذي سدَّ مجرى الماء إلى بستانِ قلبه ويستغيث مع ذلك: العطش العطش ، وهو الذي وقف بنفسه في طريق الماء الذي به رِيُّ قلبه بذنوبه ومعاصيه ، وجهله بحق ربه ، وجهله بعيوب نفسه وآفاتها ، ويصرخ : العطش العطش وهو لا يدري ؛ فهو حجاب قلبه ، وسبب بعدهِ عن ربه سبحانه ، وطريق نبيه ﷺ ، ولله درُّ القائل :

ما تَبْلُغ الأعداءُ من جاهلٍ ... ما يَبلُغُ الجاهل من نفسه

فتبًّا لهذا الكنود الجاحد لنعم الله سبحانه الذي يشتكي وهو الجاني ، ويتظلم وهو الظالم ، ويَجِدُّ في الإعراض عن الله ، ويقول : طردوني وأبعدوني !! ويحتج بالقدر على معصية الله سبحانه ، ويقول : لولا أن الله قَدَّر عليَّ الزنا ما زنيتُ ، والاحتجاج بالقدر ـ كما قلنا ـ لا يكون في المعائب ؛ إنما يكون

---

(١) «تفسير البغوي» (١/ ٥٠٩) .

(٢) المصدر السابق ، وانظر «مدارج السالكين» (١/ ١٩١) وما سيأتي من كلماتٍ لابن القيم بتصرفٍ وتلخيص .

الاحتجاج بالقدر في المصائب ؛ فنحن نعتقد اعتقادًا جازمًا أن الله خالق الخير والشر ، ولكن الشر يُنسب لبني الإنسان ، لكن بالنسبة للرحمن لا يجوز أن ننسب إليه الشر أبدًا ؛ قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦] ؛ فهو شرٌّ بالنسبة لنا ، ولكن بالنسبة للخالق هو الخير كل الخير ؛ كما في دعاء النبيِّ ﷺ [١] : « والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ » ؛ فالمؤمن لا يحتج بالقدر على معصية ربه ، فها أنت تنكر على امرأتك أو على ولدك إن احتج عليك بالقدر ؛ فإذا قَصَّرت امرأتُكَ في حقك وقمت لتعاقبها ، وقالت : الله هو الذي قدر ذلك ! فلن تقبل ذلك منها ؛ فكيف تقبل أن تحتج بالقدر على معصية الله تبارك وتعالى ؟!

« هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مدى الأنفاس : أزاح عللك ، وأمكنك من التزود إلى جنته ، وبعث إليك الدليل ﷺ ، وأعطاك مؤنة السفر ، وما تتزود به ، وما تحارب به قُطَّاع الطريق عليك ؛ فأعطاك السمع والبصر والفؤاد ، وعرَّفك الخير والشر ، والنافع والضار ، وأرسل إليك رسوله ، وأنزل إليك كتابه ، ويسره للذكر والفهم والعمل ، وأعانك بمددٍ من جنده الكرام يثبتونك ويحرسونك ويحاربون عدوك ويطردونه عنك ؛ قال تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [الرعد:١١] ، وهم يكفونك مؤنته ، وأنت تأبى إلا مظاهرته عليهم ، وموالاته دونهم ؛ بل تظاهره وتواليه دون وليك الحق الذي هو أولى بك ... » ، والملائكة يريدون منك ألا تميل إلى العدو اللدود ألا وهو الشيطان ، «وأمرك الله بشكره لا لحاجته إليك ، ولكن لتنال بالشكر المزيد من فضله ؛ فجعلت كفر نعمه والاستعانة بها على

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧١) .

مساخطه:من أكبر أسباب صرف فضل الله عنك ، وأمرك الله بذكره ليذكرك بإحسانه ، فجعلت نسيانه سببًا لنسيان الله لك :﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة:٦٧] ؛ ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر:١٩] ، وأمرك بسؤاله ليعطيك فلم تسأله ؛ بل أعطاك أجلَّ العطايا من قبل أن تسأله!هل سألته الإيمان ؟ هل سألته أن تخرج من بطن أمك مؤمنًا موحدًا ؟ تشكو من يرحمك بعد ذلك إلى من لا يرحمك ، وتتظلم ممن لا يظلمك إلى من يظلمك ، وتدع من يعاديك ويظلمك ، وإن أنعم سبحانه وتعالى عليك بالصحة والعافية والمال والجاه استعنت بنعمه وفضله على معاصيه ، وا حسرتاه دعاك إلى بابه فما وقفت عليه ، ولا طرقته ؛ بل فتحه لك فما ولجته ولا دخلته» ، وا أسفاه إن دعيت إلى التوبة وما أجبت ، وا حسرتاه إن ذكِّرت بالله وإلى الإنابة إليه فما أنبت !! «أرسل إليك رسولًا يدعوك إلى دار كرامته ، فعصيت الرسول وقُلْتَ : لا أترك ما أراه لشيء سمعت به» ، أي : أنا سمعت بالجنة لكن لم أرها ؟ لكني أرى الدنيا ؛ فلا أترك ما أراه لشيء سمعت به ، ومع هذا لم يقنطك من رحمته ؛ بل أينما جئته وتبت إليه قَبِلَك ، إن أتيته ليلًا قبلك ، وإن أتيته نهارًا قبلك[(١)] ، وإن تقربت منه شبرًا تقرب منك ذراعًا ، وإن تقربت منه ذراعًا تقرب منك باعًا ، وإن مشيت إليه هرول إليك[(٢)] ، ولو لقيته بقراب الأرض خطايا ثم لقيته لا تشرك به شيئًا أتاك بقرابها مغفرة[(٣)] ، ولو بلغت ذنوبك عنان السماء

---

(١) كما في « صحيح مسلم » عن أبي موسى الأشعري ﷺ أنه ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيبسطُ يده بالنَّهارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » ، كتاب التوبة ، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة (٢٧٥٩) .

(٢) كما في « صحيح البخاري » كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى :﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران:٢٨](٧٤٠٥) ، ومسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥) .

(٣) كما في « صحيح مسلم » كتاب الذكر ، باب فضل الذكر والتقرب إلى الله تعالى (٢٦٨٧) من حديث أبي ذر ﷺ .

ثم استغفرته غفر لك[(١)] ؛ فمن أعظم منه جودًا وكرمًا ؟!

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣] ، يخلق ويُعْبد غيره ، ويرزق ويُشكَر سواه[(٢)] ! خَيْرُهُ إلى العباد نازل وشرُّهم إليه صاعد ، يتحبب إليهم بالنعم وهو الغني عنهم ، ويتبغَّضُون إليه بالمعاصي في الليل والنهار وهم أحوج شيء إليه !! بالرغم من كلِّ ذلك مَنْ أقبل إليه منهم تلَقَّاه من بعيد ، ومن أعرض عنه منهم ناداه من قريب ومن ترك الحرام من أجله أعطاه فوق المزيد ، ومن أراد رضاه أعطاه كل ما يريد ، وأَهْلُ ذكره هم أهل مجالسته ، وأَهْلُ شكره أهل زيادته ، وأَهْلُ طاعته أهل كرامته ، وأَهْلُ معصيته لا يقنطهم من رحمته ، إن تابوا إليه فهو حبيبهم ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[البقرة:٢٢٢] ، وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم ، يبتليهم بالمصائب ليطهرهم من المعائب ، يشكر اليسير من العمل ؛ فـ : «لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ »[(٣)] ، ومن شكره لليسير أنه قد أدخل بغيًّا من بغايا بني إسرائيل الجنة ؛ لأنها سقت كلبًا[(٤)] ، أيُّ عملٍ هذا وأيُّ جزاء ؟ ما قيمة هذا الجزاء وما قدر هذا

---

(١) انظر : «سنن» الترمذي ، كتاب الدعوات ، باب فضل التوبة والاستغفار (٣٥٤٠) ، وأحمد (٥/ ١٦٧) ، والدارمي (٢/ ٤١٤) ، و«الصحيحة» (١٢٧) .

(٢) ورد في هذا حديث ضعيف ؛ أخرجه البيهقيُّ في «الشعب» (٤٥٦٣) ، والطبراني في «مسند الشاميين» (٩٧٤ ، ٩٧٥) ، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٠٤٨) ، و«الضعيفة» (٢٤٧١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، وانظر «الضعيفة» رقم (٣٢٨٧) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء (٢٦٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه (٣٣٢١ ، ٣٤٦٧) ، ومسلم ، كتاب السلام ، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

العمل ؟! فإذا كانت الرحمة بالكلاب تغفر الخطايا للبغايا ؛ فكيف تصنع الرحمة بمن وحَّد رب البرايا ؟! فهو سبحانه وتعالى يشكر اليسير من العمل ، ويغفر الكثير من الزلل ، رحمته سبقت غضبه[١] ، وحلمه سبق مؤاخذته ، وعفوه سبق عقوبته ، وهو أرحم بعباده من رحمة الأم بولدها[٢] ، وفرحة الله بتوبة العبد أعظم من فرحة هذا العبد بعودة راحلته إليه[٣] ؛ فهيا ارجع إلى الرحيم ؛ فلن تجد أرحم منه ، ولا ألطف منه ، ولا أكرم منه ، ولا أفضل منه ، اطرح قلبك بذلٍّ وانكسار بين يديه ، سَلْه كلَّ شيء ؛ فوالله لن تجد الأنس إلا معه ، ولن تشعر باللذة إلا في رحابه وجنابه ، ولن تشعر بالسعادة إلا في طاعته وتقواه .

ولستُ أرى السعادة جمع مال ولكنَّ التقيَّ هو السعيد

قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤] ؛ فهيا عُد إليه فسيفرحُ بك ـ وهو الغنيُّ عنك ؛ كما قال : « يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ »[٤] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب « وكان عرشه على الماء » [هود:٧] ، (٧٤٢٢) ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٩٩٩) ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٤) من حديث عمر ﷺ .

(٣) سبق قريبًا .

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ .

فالتحقيق : أن التائب يغار إذا انتهكت محارم الله ، ولا يحتج بالقدر إذا وقع في معصية الله ؛ فمن علامات صحة التوبة وحقائقها: أن يعظم التائب حرمة ربه ؛ ففي «الصحيحين»[1] عن النعمان بن بشير ﷺ أنه ﷺ قال : « أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلَا وَإِنَّ حِمَى الله مَحَارِمُهُ » .

إن التائبين حقًّا المؤمنين بالقدر هم الذين ينتظرون سفينة الأمر الرباني ، فيركبون فيها باسم الله مجراها ومرساها ؛ فهي سفينة نوح ، وسفينة من بعده من الرسل ، مَنْ ركبها نجا ، ومن تخلَّف عنها غرق ، فركبوا سفينة الأمر بالقدر لتجري بهم على تصاريف أمواجه على حكم التسليم لمن بيده التصرف في البحار والأكوان ، فلم يلقوا إلا غفوة حتى قيل لأرض الدنيا وسمائها : يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على جُودِيِّ دار القرار ، والمتخلفون عن السفينة ـ أي عن سفينة الأمر ـ كقوم نوح أُغرِقُوا ثم أُحْرِقُوا ونُودي عليهم على رؤوس العالمين : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:٤٤] ،﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الزخرف:٧٦] ، ثم نودي بلسان الشرع والقدر تحقيقًا لتوحيده وإثباتًا لحجته وهو أعدل العادلين : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام:١٤٦] .

قال عمر لأبي عبيدة ﷺ[2] : «نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ الله إِلَى قَدَرِ الله» ، وراكب هذا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢) ، ومسلم ، كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال (١٥٩٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الطب ، باب ما يذكر في الطاعون (٥٧٢٩) ، ومسلم ، كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة (٢٢١٩) .

البحر في سفينة الأمر وظيفته مصادمة أمواج القدر بالقدر ، ومعارضتها بعضها ببعض ، وإلا هلك ؛ فهو يردُّ القدر بالقدر ؛ فالله تعالى أمرنا أن ندفع السيئة وهي من قدره بالحسنة التي هي من قدره ؛ قال النبيُّ ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه[1] : « اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » ، وهكذا فهو يَصُدُّ قدرَ الله بقدر الله ، ولو استسلم العبد لقَدَرِ الجوع مع قدرته على دفع الجوع حتى مات لمات عاصيًا لله ولرسوله ، وكذلك البرد ، والحر ، والعطش كلُّها من أقدار الله ، فقد أُمِر العبدُ بدفعها بأقدار الله أيضًا ؛ فالدافع والمدفوع والدفع أيضًا كلُّه من قدره سبحانه وتعالى ، وقد أجاب النبيُّ ﷺ عن هذا المعنى جوابًا بليغًا ؛ فقيل يا رسُولَ الله : أَرَأَيْتَ أَدْوِيَةً نَتَدَاوَى بِهَا وَرُقًى نَسْتَرْقِي بِهَا وَتُقًى نَتَّقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ الله شَيْئًا ؟ قَالَ : « هِيَ مِنْ قَدَرِ الله »[2] ، ودفع القدر بالقدر نوعان :

الأول : دفع القدر الذي قد انعقدت أسبابه ـ ولمَّا يقع ـ دفعه بأسباب أخرى من القدر تقابله ، فيمتنع وقوع هذا القدر ؛ كدفع العدو بقتاله ، ودفع الحر والبرد ونحوه .

---

(١) أخرجه الترمذيُّ،كتاب البر والصلة،باب معاشرة النساء (١٩٨٧) ، وأحمد (٥/ ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٧٧) ، والحاكم (١/ ١٢١) ، والدارمي (٢٧٩١) ، وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٩٧) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الطب ، باب الرقي والأدوية (٢٠٦٥) و (٢١٤٨) ، وابن ماجه، كتاب الطب ، باب ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء (٣٤٣٧) ، وأحمد (٣/ ٤٢١) ، والبيهقي في « الكبرى » (٩/ ٣٤٩) ، وحسَّنه الألبانيُّ في « تخريج مشكلة الفقر » (١١) ، لكن تراجع عنه فضعفه في «السنن» ، وقد أورده ابن عبد البر في « الاستيعاب » (ترجمة أبي خزامة) وعرض الخلاف فيه ثم قال : « وأبو خزامة هذا من التابعين لا من الصحابة على أن حديثه هذا مختلف فيه جدًّا » .

الأمر الثاني: دفع القدر الذي قد وقع بالفعل واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله؛ كدفع قدر المرض بالتداوي، وكذلك تدفع قدر الذنب بقدر التوبة، وقدر الإساءة بقدر الإحسان [1]، والله أعلم.

*****

(١) انظر «مدارج السالكين» (١/ ١٨٦ ـ ٢٠٠)، بتصرف في المعنى.

لطائف أسرار التوبة

قال ابن القيم رحمه الله [١] : « ولطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء :

أولها : أن ينظر العبد إلى الجناية والذنب والخطيئة التي ارتكبها في حق الله تعالى من عدة أمور : الأول : أن ينظر إلى أمر الله ونهيه ، فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة ، والإقرار على نفسه بالذنب ؛ فمتى سَتُقِرُّ لله بالذنب ؟ إلا إذا علمت أنك بالفعل قد ارتكبت ذنبًا ؛ ففي « **مصنف عبد الرازق** » وغيره بسندٍ صحيح من حديث هشام بن عروة عن أبيه أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب حدَّثه قال : « تُوفِّيَ عَبْدُ الرَّحْمَن بْنُ حَاطِبٍ ، وَأَعْتَقَ مَنْ صَلَّى مِنْ رَقِيقِهِ وَصَامَ ، وَكَانَتْ لَهُ نُوبِيَّةٌ قَدْ صَلَّتْ وَصَامَتْ ، وَهِيَ أَعْجَمِيَّةٌ لَمْ تَفْقه ، فَلَمْ يَرُعْ إِلَّا حَبَلُهَا ، وَكَانَتْ ثَيِّبًا ، فَذَهَبَ إِلَى عُمَرَ فَزِعًا ، فَحَدَّثَهُ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : لَأَنْتَ الرَّجُلُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ ، فَأَفْزَعَهُ ذَلِكَ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا ، فَسَأَلَهَا فَقَالَ : حَبِلْتِ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، مِنْ مَرْغُوشٍ بِدِرْهَمَيْنِ ، وَإِذَا هِيَ تَسْتَهِلُّ بِذَلِكَ ، لَا تَكْتُمُهُ ، فَصَادَفَ عِنْدَهُ عَلِيًّا ، وَعُثْمَانَ ، وَعَبْدَ الرَّحْمَن بْنَ عَوْفٍ ، فَقَالَ : أَشِيرُوا عَلَيَّ ! وَكَانَ عُثْمَانُ جَالِسًا فَاضْطَجَعَ ؛ فَقَالَ عَلِيٌّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ : قَدْ وَقَعَ عَلَيْهَا الْحَدُّ ، فَقَالَ : أَشِرْ عَلَيَّ يَا عُثْمَانُ ، فَقَالَ : قَدْ أَشَارَ عَلَيْكَ أَخَوَاكَ ، قَالَ : أَشِرْ عَلَيَّ أَنْتَ ، قَالَ عُثْمَان : أُرَاهَا تَسْتَهِلُّ بِهِ كَأَنَّهَا لاَ تَعْلَمُهُ ، وَلَيْسَ الْحَدُّ إِلاَّ عَلَى مَنْ عَلِمَهُ ، فَأَمَرَ بِهَا فَجُلِدَتْ مِئَةً ، ثُمَّ غَرَّبَهَا ، ثُمَّ قَالَ : صَدَقْتَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا الْحَدُّ إِلاَّ عَلَى مَنْ عَلِمَهُ » [٢] .

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٤) بتصرف .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (٧/ ٤٠٣، ٤٠٤)، الشافعي (١٤٩٥) ومن طريقه البيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٣٨) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١١٥٠) =

فلابد من معرفة الأمر والنهي ؛ فلو أن رجلًا ارتكب حرامًا وهو لا يعلم حرمته ، لقرب عهده بالإسلام أو لبعده في الصحراء ؛ فهذا لا يقام عليه الحد .

ثانيًا : أن ينظر العبد إلى الوعد والوعيد ، فيُحْدِث له هذا النظر خوفًا وخشية تَحْمِلُهُ على التوبة .

الثالث : أن ينظر العبد إلى تمكين الله له من المعصية وتخلية الله بينه وبينها ، ولو شاء سبحانه لعصم العبد من الوقوع في المعصية ، فيُحْدِث له ذلك أنواعًا من المعرفة بالله ، وبأسمائه الحسنى ، وبصفاته العلا ، وحكمته ، ورحمته ، ومغفرته ، وعفوه ، وحلمه ، وكرمه ، وتوجِبُ له هذه المعرفةُ عبوديةً لله بمقتضى هذه الأسماء ، ولا تحصل هذه العبودية بدون لوازمها البتة ، ويعلم ارتباط الخلق والأمر والنهي والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته .

فالله سبحانه وتعالى يرى العبد وهو على المعصية ، ولو شاء الله لفضحه ـ وهو يرتكبها ـ بين خلقه فصار مفضوحًا بينهم ، لكنَّ الله ﷻ يرى عبده على المعصية ويستره ، فيرتكب العبد المعصية مرة أخرى ، والله جَلَّ وعلا يراه فيحلم عليه ويستره ، فيرتكب العبد المعصية المرة المائة ، والله جَلَّ وعلا يراه فيحلم عليه ويستره ، فإذا تذكر العبد بعد ذلك ونظر تعرَّف على مقتضيات اسم الحليم ، الرحيم ، البر ، العفو ، الغفور ، إلى آخر هذه الأسماء التي لا يمكن للعبد أن يعرف لوازمها ومقتضياتها إلا في مثل هذه المواطن ؛ فإذا عرف العبد يقينًا أنه مدبَّر مقهور ، ناصيته بيد الله ، وأن أمره كلَّه بين يدي الله لا بيده ، ويعلم أنه لا عصمة إلا بعصمة الله له ، ولا توفيق له البتة في قول أو فعل إلا بتوفيق الله له وبمعونة الله له ؛ فهو ذليلٌ حقيرٌ في قبضة عزيزٍ حميد

= والأثر صحيح ؛ وراجع « التكميل لما فات تخريجه من إرواء الغليل » (١٢٦) .

سبحانه وتعالى ، ويشهد العبد أن الكمال كلَّه لله ، وأن الحمد كلَّه لله ، وأن الغنى المطلق كلَّه لله ، وأن العزة الكاملة التامة كلَّها لله ، وكُلَّما ازداد العبد معرفة بربه ؛ ازداد معرفة بنفسه ؛ فمن عرف ربَّه بالعزِّ المطلق عرف نفسه بالذل المطلق ، ومن عرف ربَّه بالغِنَى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق ، ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام ، وأن العبد أولى بالتقصير والذنب والعيب والظلم والحاجة ، وكلَّما ازداد العبد شهودًا لذُلِّهِ وعجزه وتقصيره وانكساره وفَقْرِهِ ازداد شهودًا لعزة الله وكماله وجلاله وحمده وغناه .

روى الإمام أحمد في «مسنده» وابن ماجه في «سننه» وغيرهما [1] بسنَدٍ حَسَنٍ من حديث بُسْر بن جَحَّاش القرشي أن النبيَّ ﷺ بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ ، ثُمَّ قَالَ : « قَالَ الله : ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ ! وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ ؟! » .

قال جَلَّ وعلا : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (٤/ ٢١٠) ، وابن ماجه كتاب الوصايا ، باب النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت (٢٧٠٧) ، وقال البوصيري : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » ، والحاكم (٢/ ٥٤٥) و (٤/ ٣٥٩) ، والطبراني في « الكبير » (١١٩٣ ، ١١٩٤) ، و«مسند الشاميين» (٤٦٩ ، ١٠٨٠) ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٨٦٩) ، والبيهقي في «الشعب» (٣٤٧٣) ، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٠٩٩ ، ١١٤٣) ، و«صحيح الجامع» (٨١٤٤) .

﴿بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:٩٧ ـ ١٠٠] .

فمن عرف ربَّه عرف نفسه ، ومن هذه المعاني ؛ معاني معرفة العبد للأسماء والصفات : أن يعرف ربه سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له ؛ فهل يستطيع أحدٌ أَنْ يعصي ربه دون أن يسمعه أو يراه ؟! كلاً كلاً ؛ فالله يسمع ويرى ؛ قال جَلَّ وعلا : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩] ، وقال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة:٧] ؛ فالعبد حينما ينظر إلى معاني الأسماء والصفات ؛ فيستشعر عبوديةً لا يشعر بها إلا إذا ارتكب معصيةً فستر الله عليه حال ارتكابه للمعصية ، فيعلم العبد حينئذٍ برَّه تعالى وحلمه ، ولو شاء الله لفضحه بين خلقه ، وليس هناك مخلوق معصوم إطلاقًا ؛ بعد رسول الله ﷺ ؛ ومن هذه المعاني: أن يشهد العبد حلم الله سبحانه وتعالى في إمهال عبده ، وهو يرتكب ـ كلَّ يوم ـ الذنوب والخطايا ، ولو شاء الله لعاجل العبد بالعقوبة ، ولكنه الحليم الذي لا يعجل ؛ فكم مرة ـ بالله عليك ـ أذنبتُ أنا وأذنبتَ أنت وستر الله علينا ولم يُعجِّل لنا العقوبة ؟ هل فكَّرت حين أذنبتَ ودعَوْت الله أن يستر عليك وعاهدت ألا تعود ويحلم عليك ولا يعجِّل لك العقوبة ، وبعد أيام قليلة تتجرأ عليه ، وهو يسمعك ويراك ، فتقع في نفس الذنب ، أو أكثر ، ولا يعجّل لك العقوبة ؛ فهو الحليم الذي لا

يعجل بعجلة أحد ؛ فهذا النظر يُحدِثُ للعبد في هذا الموقف معرفةَ اسمِ الحليم ، وحينها يعلم العبد أيضًا أن الله تبارك وتعالى يقبل عذر كُلِّ من اعتذر إليه في أي لحظة من ليل أو نهار .

والله لو اعتذرت إليه بذنبك من قلبك ؛ فالله يعلم السر وأخفى ، لقبل الله منك عذرك في التوِّ واللحظة إن صدقت في العودة إليه والاعتذار ، وفي «الصحيحين» (١) ـ واللفظ لمسلم ـ من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال رسولُ الله ﷺ : « لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ ﷻ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ » .

قال الله تعالى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ ﴾[النساء:١٦٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء:١٥] .

فمعرفة العبد كرمَ ربِّه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بنحو ما تقدم من الاعتذار هذه المعرفة من معاني معرفة العبد للأسماء والصفات ؛ فيشهد العبد محبة الله ، ويلهث لسانه بذكر الله وشكره ، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك ، وجازاك به ، ثم غفر لك إساءتك ، ثم لم يؤاخذك بها : أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده ، والواقع كما ذكرتُ شاهد بذلك ؛ فعبوديةُ التوبة بعد الذنب لونٌ يختلف تمامًا عن عبودية التوبة قبل الذنب ، وكما قيل : رُبَّ معصية أدخلتْ صاحبها الجنة ، ورُبَّ طاعة أدخلت صاحبها النار !!

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾[الأنعام:١٥١] ، (٤٦٣٤ ، ٤٦٣٧) ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٢٧٦٠) .

ومن هذه المعاني أيضًا : أن يشهد العبد فَضْلَ الله في مغفرته ؛ لأن المغفرة فَضْلٌ من الله ، وإلا إذا أخذك الله بمحْضِ حَقِّه كان عادلًا محمودًا سبحانه وتعالى ، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك أنت أيها العبد ؛ فيوجب ذلك شكرًا له ، ومحبة ، وإنابة إليه ؛ وفرحًا وابتهاجًا به ، ومعرفةً له باسمه «الغفار» ، فتعرف مقتضى اسم الغفار ، وتشاهد صفة المغفرة .

ومنها أيضًا : أن يكمل الربُّ سبحانه وتعالى لعبده مراتب الذُّل والخضوع والانكسار بين يديه والافتقار إليه ؛ فإن النفس فيها مضاهاة للربوبية ، كما صرح فرعون بذلك ، ولكن منهم من قَدَر فأظهر ، ومنهم من عجز فأضمر ، يعني : أخفى ما في نفسه ، وإنما يُخَلِّصها من هذه المضاهاة للربوبية ذُلُّ العبودية لربِّ البرية .

ومنها : أن يكمل الرب للعبد مراتب ذل العبودية ؛ فسبحان من أذل المواهب بالنواقص ؛ فالله سبحانه وتعالى قد يُذِل العبد صاحبَ الموهبةِ والمكانة بنقيصةٍ من النواقص ، ليظلَّ العبدُ دائمًا ذليلًا إلى ربِّه لا يشمخ أبدًا بأنفه مع سيده ؛ فكلُّ إنسان له نقيصة ، لو هتك الله ستره عنَّا لحظة لافتضحنا ليظلَّ العبدُ دائمًا في ذلٍّ لسيده حتى يظل الربُّ ربًّا والعبد عبدًا ؛ فالرب له الكمال ، والعبد له كلُّ النقص ؛ فذل العبودية أربع مراتب :

المرتبة الأولى ـ وهذه المرتبة مشتركة بين كلِّ الخلق فلا ينفك عنها مخلوق على وجه الأرض وإن كان كافرًا وهي : ذلُّ الحاجة والافتقار ؛ فأهل السماوات وأهل الأرض جميعًا محتاجون إلى الله فقراء إليه ، وهو وَحْده الغني عنهم ، وكلُّ أهل السموات والأرض يسألونه وهو لا يسأل أحدًا ؛ فالله سبحانه وتعالى هو الصمد أي : الذي يقوم بذاته سبحانه ولا يحتاج إلى أحد ،

وكلُّ المخلوقات تحتاج إليه ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر:١٥ ـ ١٧] .

المرتبة الثانية هي : مرتبةُ ذلِّ الطاعة ، وهي عبودية الاختيار ؛ فكلَّما ازددت عبودية لله باختيارك كلما ازددت عند الله رفعة ومكانة ، وهذه المرتبة خاصة بأهل الطاعة على تفاوتٍ كبيرٍ بينهم ، وعلى قدر عبودية كلِّ واحدٍ منهم لربه ، وأكثرُ الناسِ تحقيقًا لهذه المرتبة هو النبيُّ ﷺ ، ولذلك هو أعرف الخلق بربه ؛ قال ﷺ [1] : « لأنا أَعْلَمُهُمْ بالله ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً » ؛ من أجل ذلك مدحه الله بهذه الصفة في أعلى مقامات التكريم ؛ فكرَّمه بصفة العبودية في مقام الإسراء ؛ فقال سبحانه وتعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١] ، وأثنى عليه في مقام الدعوة وهو من أشرف المقامات ؛ فقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن:١٩] ، وأثنى عليه سبحانه وتعالى في مقام التحدي لأهل الكفر والشرك ؛ فقال : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٣] .

المرتبة الثالثة : ذلُّ المحبة ، وهي أعلى من الدرجة السابقة ؛ فإن المحب ذليلٌ بالذات ، وعلى قدر محبته للمحبوب يكون ذله ؛ فذلُّ النبيِّ ﷺ لربه

(١) سبق قريبًا .

أعلى من ذل كلِّ البشر ؛ فعلى قدر الحب يكون الذل ؛ فالمحبة أُسِّست على الذل للمحبوب ؛ كما قيل :

اخضع وذل لمن تحب فليس في حكم الهوى أنفٌ يشال ويقعد

المرتبة الرابعة هي : مرتبة ذل المعصية والجناية .

ولست أقصد الذل المترتب على المعصية ؛ فالمعصية في ذاتها ذلٌّ إذ لا عزة إلا في الطاعة ، والذل إنما يكون في المعصية ؛ فما الذي أخرج الأبوين الكريمين من الجنة ؟ وما الذي طرد إبليس من رحمة الله ؟ وما الذي أهلك قوم عاد ؟ وما الذي أهلك قوم ثمود ؟ إنها المعصية !! من أجل ذلك يقول النبيُّ ﷺ ؛ كما في الحديث الصحيح الذي رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي والطبرانيُّ[1] من حديث ابن عمر رضي الله عنه قال : قال النبيُّ ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ : خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِالله أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ ؛ لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ ، وَشِدَّةِ الْمُؤْنَةِ ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ الله وَعَهْدَ رَسُولِهِ ، إِلاَّ سَلَّطَ الله عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ الله وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ الله إِلاَّ جَعَلَ الله بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ » .

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب العقوبات (٤٠١٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٨٢) ، والطبرانيُّ في « الأوسط » (٤٦٧١) ، و« مسند الشاميين » (١٥٥٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٣١٤ ، ١٠٥٥٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٣٣) ، وحسَّنه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٠٦) ، و« صحيح الجامع » (٧٩٧٨) .

قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤] ؛ فالمعصية في ذاتها ذُلٌّ ؛ لكن الحديث هنا عن ذل المعصية الذي يُورِّث صاحبه الانكسار والافتقار بين يدي العزيز الغفار ؛ فيكون على وجهه ذل وانكسار إن صدق في التوبة ، وهذا هو معنى قول القائل : رُبَّ معصية أدخلتْ صاحبها الجنة ؛ لأنه بعد المعصية يظل مُقبلًا تائبًا متذللًا لله سبحانه وتعالى ؛ قال ابن القيم ـ رحمه الله [1] : « فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع : كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم ؛ إذ يذلُّ له خوفًا وخشية ، ومحبة وإنابة ، وطاعة ، وفقرًا وفاقة » ؛ فيقبل على الله سبحانه وتعالى ويظل سائرًا على الطريق حتى يلقى الله وهو في أعلى مراتب العبودية لسيده ومولاه جَلَّ في علاه .

أما اللطيفة الثانية [2] : أن يعلم العبد البصير الصادق أن نظره إلى ذنوبه وسيئاته وعيوب نفسه وتقصيرها ، كلُّ ذلك لا يُبقي له حسنة تَصْلُح أن يُقبل بها على ربه ـ جلَّ وعلا ؛ لأنه يسير بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس ، فإن كانت له بصيرة بنفسه ، وبصيرة بحقوقه تعالى عليه ، وهو صادق في طلبه لم يُبق له نظرهُ في سيئاته حسنةً ؛ فلا يلقى الله ﷻ إلا بالإفلاس المحض والفقر التام ؛ لأنه إذا فتش في عيوب نفسه وعيوب عمله ؛ عَلِم أنها لا تصلح لله تبارك وتعالى ، وأن تلك البضاعة لا تُشترى بها النجاة من عذاب الله ، فضلًا عن أن يفوز بها برضوان الله جَلَّ وعلا وثوابه ، فحينئذٍ تراه في كلِّ لحظاته وسكناته مقبلًا على الله تبارك وتعالى ، ذليلًا فقيرًا منكسر القلب بين يديه ؛ فهو يعلم يقينًا أن كلَّ ما فيه من خير ، وأن كل ما هو فيه من نعم ؛ فإنما هو محضُ فضل الله عليه ، وليس من نفسه ، فنفسه أمارة

---

(١) « مدارج السالكين » (١/ ٢٠٦ ، ٢٠٧) .

(٢) « المدارج » (١/ ٢٢١) وما بعدها ، بتصرف .

بالسوء ليست أهلًا لهذا الفضل ولا لهذا الخير ، فإن كنت في علم ؛ فهو محض فضل الله عليك ، وإن كنت على طاعة أو عبادة ؛ فهذا محض فضل الله عليك ، وهكذا تطالع المنة والنِّعم ، وتطالع عيب النفس ، وهذا العلم من أجلِّ وأرقِّ أنواع العلوم والمعارف ، ولذلك كان سيد الاستغفار أن يقول العبد وهو منكسر بين يدي الله : «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي ، فَاغْفِرْ لِي ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»[1] ، وهذا الدعاء متضمن لمحض العبودية ؛ ففيه اعتراف العبد بربوبية الله وألوهيته وحده ، واعترافه بأنه عبد ، وأن ناصيته بيد الله تعالى ، ولا مهرب له ولا ملجأ منه إلا إليه ؛ فمن خاف شيئًا هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه ؛ وفيه التزام العبد بعهد الله تبارك وتعالى الذي عهده الله على لسان رسوله ﷺ ، وهو مقيمٌ على هذا العهد بحسب استطاعته ؛ لا بحسب أداء حقه ؛ فحق الله لا يقدر عليه البشر ، وإنما هو جهد المقل ، وقدر الطاقة وفيه التصديق بوعيد الله لأهل المعصية ، وبوعد الله لأهل الطاعة ، وفيه اعتراف العبد بنعم الله عليه ، وإقراره بذنبه ، واعترافه بتقصيره في حق الله سبحانه ، وكل ما هو فيه من نعمةٍ وفضلٍ فإنما محض فضل الله عليه ، وإحسان الله له ، وكل ما فيه من ذنب وتقصير فإنما هو بسبب نفسه الأمارة بالسوء ؛ فأيُّ حسنة تبقى للبصير الصادق مع مشاهدته لهذه النعم ، ومع نظره في الوقت ذاته لعيوب وتقصير نفسه ؛ فإذًا لا تراه معجبًا ، ولا مغرورًا لا بعلم ، ولا بعبادة ، ولا بطاعة ؛ لأنه وإن عبد الله ﷻ حتى يلقاه ما أدى حق الله سبحانه وتعالى ؛ لذا فهو يقول : « أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الدعوات ، باب أفضل الاستغفار (٦٣٠٦) .

ويزداد الأمر خطرًا إذا علم العبد أن خاتمته لا يملكها ؛ فهو لا يدري بأي شيء سيختم له ، وعلى أي عمل سيموت ؛ فضلًا عن عداوة الشيطان له ، وهي عداوة أبديةٌ لا يريدُ الشيطان للعبد أن ينفك أبدًا عنها ، فهو لا يريد له الخير ، فهو يجاهد في كل العقبات ، وفي سبع عقبات على وجه الخصوص سأبينها الآن ، يريد الشيطان أن ينال العبد في أي عقبة من العقبات ؛ ليحول بينه وبين رحمة وجنة ربِّ الأرض والسموات ، كلُّ هذا يجعل الإنسان على الدوام منكسر القلب ذليلًا خائفًا وجلًا ؛ فعداوة الشيطان لك أبدية ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر:٦] .

وتدبر هذه الطائفة النبوية الكريمة من الأحاديث الشريفة ؛ ففي «مسند أحمد» و«سنن» النسائي و«مصنف» ابن أبي شيبة بسندٍ حسن [(١)] من حديث سبرة بن أبي الفاكه ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلَامِ ؛ فَقَالَ لَهُ : أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ ، قَالَ : فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ ؛ فَقَالَ : أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ ، وَإِنَّمَا مَثَلُ المُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ ، قَالَ : فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ ، قَالَ : ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ ؛ فَقَالَ : هُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقَسَّمُ الْمَالُ ، قَالَ: فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ» ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَمَاتَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ قُتِلَ كَانَ

---

(١) أخرجه النسائي ، كتاب الجهاد ، باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد (٣١٣٤) ، وأحمد (٣/ ٤٨٣) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٩٣٢٩) ، وابن حبان في «صحيحه» (٤٥٩٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٢٤٦) ، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٩٧٩) ، و«صحيح الجامع» (١٦٥٢) .

حَقًّا عَلَى الله ﷻ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ».

فالشيطان لم يترك طريقًا من طرق الخير أو سبيلًا من سبل الرشاد إلاَّ وجلس فيه لابن آدم ؛ ليحول بينه وبين طاعة الله ؛ فإن أراد المسلم أن يعفي لحيته جاءه الشيطان وقال : وما الحرج لو ظللت هكذا ؟! ثم ألا تعلم أنَّ مَنْ أعفى لحيته يتعرض للأذى ويراقَب ، وربما يحرم من العِلاوة ؛ بل وربما يُفصل من الوظيفة ؟!!

فإذا أرادت الأخت المسلمة أن تنتقب جاء الشيطان وقال : لماذا تغطين هذا الوجه الجميل ؟! ولماذا تَحْجِبين هذه النضارة عن الناس ؟ أنت ما زلت صغيرة لم تتزوجي بَعْد ! فاتركي هذا حتى يصل بك السنُّ إلى كذا وكذا ؟ ثم ألا تعلمين أنك ستتعرضين للأذى ؟ ألا تعلمين أن المجتمع يحارب النقاب ؟!!

إذا أراد المسلم أن يأتي إلى درس علمٍ لشيخ من شيوخ السنة جاءه الشيطان ليقول له: اتركْ هذه المساجد ، ودَعْك من هذه المجالس ؛ فيحول بينه وبين مجالس السنة .

إذا أراد أن يتصدق وأن ينفق منَّاه وقال له : البنات يُرِدْن الزواج ، وأنت لابد أن تضمن عيشًا كريمًا !! وهكذا ينفث الشيطان سمومه وإضلالاته في قلوب العباد ليحول بينهم وبين طاعة الله جَلَّ وعلا ؛ قال تعالى : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦٨] ؛ فهل تُصدِّق الرحمن وتُكذِّب الشيطان ، أم تصدِّق الشيطان وتكذِّب الرحمن ؟! صنفان من الناس موجودان ؛ صنفٌ صدَّق الرحمن وكذَّب الشيطان ؛ اللهم اجعلنا منهم بمنك وكرمك ، وصنفٌ

صدَّق الشيطان وكذَّب الرحمن !! ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ فالشيطان يقعد لك بالمرصاد ، ولله درُّ القائل :

إني ابتليتُ بأربع ما سلَّطوا ... علي إلا لشقوتي وعنائي

إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلُّهم أعدائي

والجوابُ : لا خلاص لك إلا بالاستعانة والاعتصام بالله جَلَّ وعلا .

قال ابنُ الجوزي رحمه الله تعالى [1] : « حكى بعض السلف أنه قال لتلميذه : ما تصنع بالشيطان إذا سوَّل لك الخطايا ؟ قال : أجاهده ، قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده ، قال : فإن عاد ، قال : أجاهده ، قال : هذا يطول ، أرأيت إن مَرَرْتَ بغنم فنبحك كَلْبُها ومنعك من العبور ما تصنع ؟ قال : أكابده وأردُّه جهدي ، قال : هذا يطول عليك ، ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك » .

وإن أردت النجاة فاستعن بالله يردُّ عنك الشيطان ؛ قال جَلَّ وعلا : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [فصلت:٣٦] .

وفي «الصحيحين» [2] من حديث صفية بنت حيي رضي الله عنها زوج النبيِّ ﷺ قالت : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مُعْتَكِفًا ، فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلاً فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ ، فَانْقَلَبْتُ فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي ، وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ، فَمَرَّ رَجُلاَنِ مِنَ الأَنْصَارِ ؛ فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ » ؛ فَقَالاَ : سُبْحَانَ الله يَا رَسُولَ الله !فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي

---

(١) « تلبيس إبليس » (١/ ٤٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الاعتكاف ، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد (٢٠٣٥ ، ٢٠٣٨ ، ٢٠٣٩) ، ومسلم ، كتاب السلام ، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة وكانت زوجته أو محرمًا له أن يقول : هذه فلانة ؛ ليدفع ظن السوء به (٢١٧٥) ، واللفظ له .

قُلُوبِكُمَا شَرًّا » .

ومن أروع ما قرأتُ من تعليقات على هذا الحديث ما عَلَّق به الشافعي الإمام طيب الله ثراه ؛ حيث قال [1] : « إنما قال لهما ذلك ؛ لأنه خاف عليهما الكفر إن ظَنَّا به التهمة ، فبادَرَ إلى إعلامهما ؛ نصيحة لهما قبل أن يقذف الشيطان في نفوسهما شيئًا يهلكان به » .

وفي « صحيح مسلم » [2] من حديث عائشة رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا لَيْلاً ، قَالَتْ : فَغِرْتُ عَلَيْهِ ؛ فَجَاءَ فَرَأَى مَا أَصْنَعُ ؛ فَقَالَ : « مَا لَكِ يَا عَائِشَةُ أَغِرْتِ » ؛ فَقُلْتُ : وَمَا لِي لاَ يَغَارُ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « أَقَدْ جَاءَكِ شَيْطَانُكِ » ، قَالَتْ : يَا رَسُولَ الله ، أَوَمَعِيَ شَيْطَانٌ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، قُلْتُ : وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، قُلْتُ : وَمَعَكَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « نَعَمْ وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَ » .

وفي روايةٍ : « وَإِيَّايَ إِلاَّ أَنَّ الله أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلاَ يَأْمُرُنِي إِلاَّ بِخَيْرٍ » [3] .

واختلف أهل العلم في قوله : «فَأَسْلَمَ» فقيل [4] : تَحَوَّل إلى الإسلام ، وقيل : استسلم لأوامر النبيِّ ﷺ فأصبح لا يأمره إلا بخير ، وقيل : أَسْلَمُ أنا من شرِّه وفتنته ، وكلٌّ جواب له أدلة .

وفي «صحيح مسلم» [5] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

---

(١) « فتح الباري » (٤/ ٣٤٢) ، وعزاه الحافظ للحاكم ، وراجع « عون المعبود » (٧/ ١٠٣) ، و« كشف المشكل من حديث الصحيحين » (١٢٧١) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه (٢٨١٥) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس (٢٨١٤) من حديث ابن مسعود .

(٤) « شرح مسلم » للنووي (٩/ ١٧٣) ، و« تحفة الأحوذي » (٤/ ٢٨٢) .

(٥) أخرجه مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس (٢٨١٣) .

« إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً - فأكبرهم فتنة أقربهم من إبليس - يَجِيءُ أَحَدُهُمْ ؛ فَيَقُولُ : فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا ، فَيَقُولُ : مَا صَنَعْتَ شَيْئًا ، قَالَ : ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ ؛ فَيَقُولُ : مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ ، قَالَ : فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ : نِعْمَ أَنْتَ » ؛ بل وفي لفظٍ قَالَ : « فَيَلْتَزِمُهُ » [1] ، يعني : يضمه إليه ؛ فانظر إلى هذا الخطر !!

فالشيطان يقعد لك على طول الطريق لكنه يرصدك رصدًا ، ويريد أن ينالك نيلًا ، ويظفر بك في عقبةٍ من سبع عقبات [2] :

العقبة الأولى : هي عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه ، وبصفات كماله ، وبما أخبرت به رسله عنه ؛ فإن ظفر الشيطان بالعبد في هذه العقبة استراح وبردت نار عداوته لهذا الذي كفر بالله وبرسله ؛ وهذه أخطر عقبة !!

فإن اقتحم العبد هذه العقبة ، ونجا منها ببصيرة الهداية ، وسَلِم معه نور الإيمان طلبه الشيطان على :

العقبة الثانية وهي : عقبة البدعة وهي : تأتي بعد الكفر ، سواء كانت هذه البدعة في الاعتقاد ، أو في التعبد ، وكلتاهما متلازمتان لا تنفك إحداهما عن الأخرى ؛ فبدعة الاعتقاد هي : أن يعتقد خلاف الحق الذي أنزله الله على رسوله ﷺ ، والبدعة الأخرى هي أن يتعبد بما لم يأذن به الله من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين التي لا يقبل الله منها شيئًا .

قال ابن القيم : «قال شيخنا : «تزوجت الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة ؛ فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة » .

فإن قطع العبد هذه العقبة ، وخلص منها بنور السنة ، واعتصم منها

---

(١) المصدر السابق .

(٢) « مدارج السالكين » (١/ ٢٢١) وما بعدها ، بتصرف .

بحقيقة المتابعة ، وما مضى عليه السلف الأخيار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان طلبه الشيطان على :

العقبة الثالثة ألا وهي : عقبة الكبائر ، وهي تأتي بعد البدعة ، والمبتدع لا يتوب من بدعته إلا إذا فتح الله عليه ، ومَنَّ عليه بالسنة ؛ لأنه متصور أنه على الحق ، بخلاف العاصي ؛ فهو يعلم أنه على معصية ، لكن المبتدع لا يعلم أنه على معصية ؛ بل ربما يجادل العالم ويناضل من أجل نصرة باطلهِ !! ولذلك قال سفيان الثوري [(١)] : « البدعة أحب إلى إبليس من المعصية » ا.هـ .

فإذا نجا العبد من هذه العقبة الثانية ألا وهي عقبة البدعة تلقفه الشيطان على هذه العقبة الثالثة ألا وهي عقبة الكبائر ؛ فإن ظفر بالعبد زيَّن له الكبيرة ، وحسنها في عينه ، وسوَّف له في التوبة ، وفتح له باب الإرجاء ، وقال له : الإيمان هو التصديق ؛ فأنت مؤمن ما دمت مصدقًا بالله ﷻ ، وهذا هو فكر المرجئة الذي دمَّر الأمة تدميرًا ؛ فلا حرج أن يفعل الإنسان ما يريد من المعاصي ، ويقول له القولة الخطيرة التي تتردد كثيرًا : « لا يضرُّ مع التوحيد ذنبٌ ؛ كما لا ينفع مع الشرك حسنة » ؛ فإذا ظفر الشيطان بالعبد في عقبة الكبائر فرح وسعد ، فإذا نجا العبد من عقبة الوقوع في الكبائر ؛ كالزنا أو الخمر أو القتل أو العقوق ، وقطع هذه العقبة بعصمة من الله له ، أو بتوبة نصوح تنجيه منها طلبه على :

العقبة الرابعة وهي : عقبة الصغائر ؛ فيقول : ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم ، أَوَ مَا عَلِمْتَ بأنها تُكَفَّرُ باجتناب الكبائر وبالحسنات ، فيظل يهوِّن عليه أمر الصغيرة حتى يصل إلى مرحلة الإصرار عليها والعياذ بالله ؛

---

(١) أخرجه اللالكائي في « شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة » (٢٣٨) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٦) ، وابن الجعد في «مسنده» (١٨٠٩) ، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (٢١).

فيكون مرتكب الكبيرة، الخائف الوجل، النادم أحسن حالًا منه عند الله سبحانه وتعالى؛ فالإصرار على الذنب أقبح من الذنب، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

وقد ضرب النبيُّ ﷺ لنا مثلًا رائعًا في خطر الصغائر على العبد؛ ففي «مسند أحمد» بسندٍ صحيح [(١)] من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلاً كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلاَةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَاداً، فَأَجَّجُوا نَاراً وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا».

فإن نجا العبد من هذه العقبة بالتحفظ والتحرز، ودوام التوبة والاستغفار، وعدم الإصرار على الصغيرة، وأتبع السيئة الحسنة ـ بقلبٍ صادقٍ ـ طلبه الشيطان على:

العقبة الخامسة، وهي: عقبة المباحات ـ التي لا حرج على فاعلها أبدًا ـ وهذه مرتبة يقف فيها الشيطان لصنف من العباد؛ فيشغله بالمباح عن الاستكثار من الطاعات والقربات، وعن الاجتهاد في التزود للمعاد، ثم يطمع الشيطان في أن يستدرج العبد بعد ذلك إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجب، فإن فرَّط الإنسان في السُّنة، وصار الأمر عليه هينًا فهو عُرضة إلى أن يفرط في الواجب أيضًا، وأقل ما ينال منه الشيطان في هذه

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٢)، والطيالسي في «مسنده» (٤٠٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠٥٠٠)، و«الأوسط» (٢٥٢٩)، والبيهقي في «الشعب» (٢٨٥) و«الكبرى» (٢٠٥٥١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٧١)، وفي «صحيح الجامع» (٢٦٨٧).

العقبة : أن يفوِّت عليه الأرباح ، والمكاسب العظيمة ، والمنازل العالية ؛ فإن نجا منه من هذه العقبة ببصيرةٍ تامة ، ونورٍ هادٍ ، ومعرفة بقدر الطاعة ، والاستكثار منها ، وقلة المقام على الميناء ، وخطر التجارة ، وكرم المشتري ـ سبحانه وتعالى ـ وقدر ما يعوض به التجار ، فبخل بأوقاته ، وضنَّ بأنفاسه أن تذهب في غير ربح وطاعة ؛ طلبه العدو على :

العقبة السادسة وهي : عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات ، فأمره بها ، حتى يشغله عن الراجح والأفضل ، وحسَّنها في عينه ، وزينها له ، وأراه ما فيها من الفضل والربح ، ليشغله بهذه الأعمال عن ما هو أفضل منها ، وأعظم كسبًا وربحًا ؛ لأنه لما عجز ـ أي : الشيطان ـ عن تخسيره أصل الثواب ، طمع في تخسيره كمال الثواب وفضله ودرجاته العالية ؛ فشغله بالمفضول عن الفاضل ، وبالمرجوح عن الراجح ، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه تبارك وتعالى ، وبالمرْضِي لله عن الأرضى له سبحانه وتعالى ، ولكن أين أصحاب هذه العقبة ؟ إنهم أفراد في العالم ، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول ؛ فإن نَجَا العبد من الشيطان لفقهه وعلمه بمراتب الأعمال ، وبمنازلها في الفضل ، ومعرفة المقدار في الأجْر ، والتمييز بين عاليها وسافلها ، ومفضولها وفاضلها ، ورئيسها ومرءوسها ، وسيدها ومسودها ؛ فإن في الأعمال والأقوال سيدًا ومسودًا ، ورئيسًا ومرءوسًا ، وذِروةً أو ذُروة ـ واللغتان صحيحتان ـ وذروة وما دونها ؛ كما في حديث سيد الاستغفار كما ذكرتُ .

أقول : إذا علم العبد ذلك ، ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم ، السائرين على جادة التوفيق ، الذين قد أنزلوا

الأعمال منازلها ، وأعطوا كُلَّ ذي حق حقه ؛ فإن نجا العبد من كلٍّ ما سبق لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى عقبة أخيرة واحدة لابد منها ، ولا ينجو منها أحد ، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه ، وأكرم الخلق عليه ، وهي عقبة : تسليط الشيطان لجنده وأوليائه على ولي الله بألوان وأنواع الأذى ، باليد واللسان والقلب ، على حسب مرتبة العبد في الخير ، والقرب من ربه ؛ فكلَّما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله ، وظاهر عليه بجنده ، وسلَّط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط ، وهذه العقبة السابعة ، ولا حيلة للعبد في التخلص منها ، فإنه كلما جدَّ في الاستقامة والدعوة إلى الله ، والقيام بأمره جدَّ العدوُّ بإغراء السفهاء به !!

وكلما ازدادت عداوة حزب الشيطان لهذا العبد ؛ فاعلم أنه قريب من ربه سبحانه وتعالى ، ومما يدلك على ذلك أن تُمعن في حجم العداوة وحجم الحرب التي أُعلنت على أشرف الخلق وعلى حبيب الحق تبارك وتعالى ؛ فمن أول لحظة : اتُّهم بالسحر ، واتهموه بالجنون ، واتهموه في شرفه ، وهو الطاهر الذي فاضت طهارته على العالمين ، واتهموه في صيانة حُرمته ، وهو القائم على صيانة كل الحرمات في أمته ، حاربوه وآذوه باليد ؛ فلقد وضعوا النجاسة على ظهره وهو ساجد[(١)] ؛ بل جاء الوقح أكفر هذه الأمة أبو جهل ؛ كما في « صحيح مسلم »[(٢)] ، وزعم الخبيث المجرم أنه سيطأ عنق النبيِّ ﷺ بنعله وهو ساجد بين يدي الله تبارك وتعالى ، ووضعوا التراب على رأسه ؛

---

(١) كما في « صحيح البخاري» كتاب الوضوء ، باب إذا أُلقي على ظهر المصلي قذرًا أو جيفة لم تفسد عليه صلاته (٢٤٠ ، ٥٢٠) ، ومسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب ما لقي النبيُّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٤) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب قوله « إن الإنسان ليطغى » (٢٧٩٧) .

بل وخططوا لاغتياله وقتله ؛ وطردوه من بيته وأهله وأرضه ، وجيَّشوا له الجيوش ـ حتى وهو في المدينة ـ ليقضوا عليه وعلى دينه ودعوته ؛ بل ووضعوا له السمَّ في الشاة ؛ ولم يتركوا سبيلًا باليد ولا باللسان إلا فعلوه مع رسول الله ﷺ وهو أقرب الخلق وأحبهم إلى الحق ؛ فكُلَّما ازداد العبدُ قربًا من الله وطاعة لمولاهُ زادت عداوة الشيطان وحزبه له ، وهذه عقبة لا ينفكُّ منها أحد ؛ بل كلُّ الأنبياء والمرسلين نالهم البشر باليد واللسان والقلب ، فإذا كان الخلق قد سبُّوا خالقهم ، ونالوا من أنبياء الله ورسله ؛ فلا ينبغي أن تطمع أن تَنالَ رضا الخلق ، هذه سنةٌ كونيةٌ قدريةٌ لا ينفك عنها بشر بحال ، جدَّ العدو في إغراء السفهاء به ؛ فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب ، وأخذ في محاربة العدو لله وبالله ؛ فعبوديته ـ أي عبوديةُ العبد في هذه المرحلة وفي هذه العقبة ـ عبودية خواص العارفين بالله .

وهي تُسمَّى عبودية المراغمة ؛ لأنه بذلك يضع أنف الشيطان في الطين ، والوحل والتراب ، ولا ينتبه إلى هذه المرتبة إلا أولو البصائر ، ولا شيء أحب إلى الله من مُراغمة وليه لعدوه ، وإغاظته له ، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى هذه العبودية في قوله سبحانه : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء:١٠٠] ؛ فسُمِّي المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغمًا يراغم به عدو الله وعدوه ، والله يحب من وليه مراغمة عدوه وإغاظته ؛ كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة:١٢٠] ، وقال تعالى في مثل رسول الله ﷺ وأتباعه :

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح:٢٩] ؛ فمغايظة الكفار غايةٌ محبوبةٌ للعزيز الغفار ؛ بل مرضية له ، وموافقته فيها من كمال العبودية ، وشرع النبيُّ ﷺ للمصلي إذا سها ونسي في صلاته أن يسجد سجدتين ، وقال النبيُّ ﷺ : « وَإِنْ كَانَ صَلَّى إِتْمَامًا لأَرْبَعٍ كَانَتَا تَرْغِيمًا لِلشَّيْطَانِ »[١].

فمن تعبد لله بمراغمة عدوه ؛ فقد أخذ من الصديقية بسهمٍ وافر ، وعلى قدر محبة العبد لربِّه ، وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة ، ولأجل هذه المراغمة حُمِدَ التبخترُ بين الصفين ، والخيلاءُ في ساحة العدو[٢] ، لأن هذه مراغمة للأعداء ، ومغايظة للكفار ، وهذا بابٌ من أبواب العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس ، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول ، وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان ، ولاحظه في الذنب ، راغمه بالتوبة النصوح ؛ فأحدثت له هذه المراغمة عبوديةً أخرى[٣] .

أما اللطيفة الثالثة : فهي أن يرى التائب قُبح ما نهى الله عنه وحُسن ما أمر الله به ، وهذه نكتة قد لا يلتفت إليها أحدٌ من التائبين إلا الصادقين ، وهو أن يعلم من نفسه يقينًا أنه كان مُفسدًا غاية الإفساد حين ارتكب ما نهى الله عنه ، وأنه كان مغبونًا غاية الغبن ، مُقصرًا غاية التقصير حينما لم يمتثل ما أمره الله به ؛ فما نهى الله عنه قبيح لذاته ، وما أمر الله به حسن لذاته ؛ قال جَلَّ وعلا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب المساجد ، باب السهو في الصلاة والسجود له (٥٧١) .

(٢) كما في « سنن النسائي » (٢٥٥٨) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (١٩٤٩٣) ، وابن حبان في « صحيحه » (٤٧٦٢) ، وسعيد بن منصور في « سننه » (٢٥٤٨) والبيهقي في « الكبرى » (١٤٥٧٨) ، وحسنه الألبانيُّ في « صحيح النسائي » .

(٣) ما تقدَّم من « مدارج السالكين » (١/ ٢٢٣ ـ ٢٢٧) للعلامة ابن القيم ، بتصرف .

﴿وَٱلْبَغْيِ﴾ [النحل:٩٠] .

وإذا تدبر العبدُ صاحبُ البصيرة هذا المعنى أقبل بهمة عالية على الاستكثار من الطاعات بصدقٍ وهمةٍ ورجولةٍ ، وعلى الهروب غاية الهرب من كلِّ ما نهى الله عنه ؛ فعباد الله من المؤمنين الصادقين هم الذين يستكثرون من الطاعات مع مراقبةٍ لها ؛ كما قال الله تعالى : ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧، ١٨] ، ولاحِظْ أن الاستغفار جاء بعد طاعةٍ من أجلِّ الطاعات ؛ فلم يقل : كانوا من الليل يذنبون وبالأسحار هم يستغفرون ، ولكنه سبحانه أخبر أنهم لا ينامون من الليل إلا قليلًا وهم بعد ذلك تراهم ركعًا سجدًا بين يدي الله ؛ فالليل أنس المحبين ، وروضة المشتاقين ، وإن لله عبادًا يراعون الظلال كما يراعي الراعي غنمه ، ويَحِنُّونَ إلى غروب الشمس كما تحنُّ الطير إلى أوكارها ، فإذا ما جنهم الليل ، واختلط الظلام ، وبسطت الفرش ، وخلا كلُّ حبيب بحبيبه ، قاموا ، فنصبوا إلى الله أقدامهم ، وافترشوا إلى الله جباههم ووجوههم ، وناجوا ربهم بقرآنه ، وتضرَّعوا إليه ، وتذلَّلوا بين يديه ، وطلبوا منه إحسانه وإنعامه ، فبين صارخ وباكي ، وبين متأوه وشاكي ، وبين قائم وقاعد ، وبين راكع وساجد ؛ فإن أول ما يمنحهم ربهم أن يقذف من نوره في قلوبهم [(١)] ؛ لذا حثَّ نبينا ﷺ على قيام الليل ؛ فقال : « عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ ، وَهُوَ قُرْبَةٌ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ » [(٢)] .

---

(١) « الإحياء » للغزالي (١/ ٣٥٨) ط المعرفة .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الدعوات ، باب في دعاء النبي ﷺ (٣٥٤٩) ، وأحمد (٦/ ١٢٥) ، وابن خزيمة (١١٣٥) ، والحاكم (١/ ٤٥١) ، والطبراني في « الكبير » (٧٤٦٦) ، و« الأوسط » (٣٢٥٣) ، وحسَّنه الألباني في « الإرواء » (٤٥٢) ، و« صحيح الجامع » (٤٠٧٩) .

قال الحسن رحمه الله في الآية السابقة [(١)]: « مدُّوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون الله »؛ فهؤلاء كانوا في عبادة وطاعة، ومع ذلك جلسوا بعدها يستغفرون الله تعالى؛ فهذه عبوديةُ من عرف ربه تبارك وتعالى.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والترمذي [(٢)] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: « تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ؛ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ والذُّنُوبَ، كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ».

فالدين كلُّه استكثار من الطاعات، وصاحبُ البصيرة لا يضيع وقته في لهوٍ أو حتى مباح؛ لأنه يريد أن يستكثر من الطاعات التي تثقل ميزانه بين يدي ربِّ الأرض والسماوات، وأحبُّ الخلق إلى الله: أعظمهم استكثارًا من الطاعات؛ فلقد روى البخاريُّ [(٣)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: « إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ ».

فهذا جزاؤه للمستكثرين من الطاعة أن يحبَّهم؛ فمن عرف الله سبحانه وتعالى وما ينبغي لعظمته من العبودية تلاشت كلُّ حسناته عنده، وصغرت

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٩٩، ٣٠٠)، وابن المبارك في « الزهد » (١٢٠٨)، وأحمد في « الزهد » (٢٦٣).

(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب الحج، باب ثواب الحج والعمرة (٨١٠)، والنسائي، كتاب مناسك الحج، باب فضل المتابعة بين الحج والعمرة (٢٦٣١)، وأحمد (١/ ٣٨٧)، وابن خزيمة في « صحيحه » (٢٥١٢)، وابن حبان في « صحيحه » (٣٦٩٣)، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٢٠٠)، و« صحيح الجامع » (٢٩٠١).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب التواضع (٦٥٠٢).

في عينيه ، ؛ فإن كنا في مجلس طاعةٍ وعلمٍ فالله هو الذي أجلسنا ، وهو الذي وجَّه قلوبنا للمجيء إلى مجلس العلم والطاعة ، وهو الذي ليَّن مفاصِلَنا ، وهو الذي قذف في قلوبنا حب الطاعة وحب مجلس العلم ، وهو الذي هيَّأ أسماعنا لنسمعه ، وأنزل علينا السكينة لنفهم وندرك ، وهو الذي يُثيبُنا على هذا ؛ فالفضل منه وإليه سبحانه وتعالى .

فكلَّما استكثر من الطاعة فتح الله ﷻ له من أبواب المعرفة به ما يحتقر به كلَّ طاعة في حق ربه ، ويستصغر بعد ذلك جميع أعماله ولو كانت بميزان الثقلين ، وإذا كثرت أعماله في عينه وعظمت في قلبه دلَّ ذلك على أن هذا العبد محجوبٌ عن الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه لم يعرف قدر ربه وعظمته وجلاله سبحانه وتعالى ؛ وبحسب معرفة العبد بربه ، ثم بحسب معرفته بنفسه يستكثر ذنوبه ، ويستعظمها لمشاهدته الحق ومستحقه ، ولمشاهدته تقصيره في القيام بحق ربه سبحانه وتعالى عليه، وإيقاعه على الوجه الذي يليق به سبحانه الموافق لما يحبه الله ويرضاه ؛ فالعبد الصادق هو الذي يتوب إلى الله من تضييع الوقت في لهوٍ أو لغو ؛ لأن هذا الوقت يفضي به إلى درك النقائص .

فصاحب البصيرة ، الحافظ لوقته ، المستكثر من الطاعات يترقى دائمًا على درجات الكمال والقرب من الكبير المتعال ، لا ينزل إلى درجات النقص ، ولا يفرط في دقيقة من عمره ، وهو مستكثر في هذه الدقيقة من الطاعات ، حتى ولو كان يأكل ، كما ذكرنا قبل ذلك أن العبودية تستوعب البدن كلَّه ، وتستوعب كلَّ مجالات الحياة إن صحَّت النية ، وكان العملُ موافقًا لسنة سيد البشرية ﷺ ؛ فهو لا يبتعد أبدًا عن الله ولا تنقص مكانته ، فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولابد ولا ثالث بينهما ، ولن تجد أبدًا في الكون ثباتًا مطلقًا ، حتى لو نظرت إلى سطح الماء فأنت ترى الماء أمام عينك في كل لحظة

هو الماء ؛ لكن الماء الذي رأته عينك في هذه اللحظة ليس هو الماء الذي رأته عينك قبل لحظة ؛ فالعبد إما متقدم وإما متأخر لا يوجد في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف البتة ، ما هي إلا مراحل تطوى أسرع طيٍّ إما إلى الجنة ، وإما إلى النار ، والعبد إما أن يسير إلى الأمام ، وإما إلى الخلف ، وإما إلى أعلى ، وإما إلى أسفل ؛ لكن لا يقف في مكانه أبدًا ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ [المدثر:٣٥ ـ ٣٧] . ولم يذكر واقفًا ؛ إذ لا منزل بين الجنة والنار ، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة ؛ فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة ؛ إن كلَّ مجدٍّ في طلب شيء لابد له من وقفة ، ولابد أن تنتابه في الطريق حالةٌ من حالات الفتور ، نعم ... فليس كلُّ طائعٍ تراه صاحبَ همةٍ عاليةٍ على طُول الطريق ، فتراه مقيمًا لليل لكن ربما تمر عليه ليلة فينام ولا يصلي الليل ، وتمرُّ عليه ليلة أخرى فلا يصلي إلا ركعة واحدة أو إلا ثلاث ركعات ، أو تراه يداوم على صيام الاثنين والخميس فيفوت يومًا ، فكلُّ مجدٍّ في طلب شيء لابد أن يعرض له وقفة وفتور ثم ينهض إلى طلبه ، وأقول : لابد من ذلك ؛ فهذه فطرة ، لكن انتبه ؛ فالواقف على الطريق للاستجمام لإعدادِ وتهيئةِ النفس لمواصلة السير على طريق الله بهذه النية وقفته لهذا سيرٌ على الطريق ، وليست خللًا ولا فتورًا .

وتدبر حالَ الصحابة ؛ كما في «صحيح مسلم» [1] من حديث حنظلة قال : لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ ، قَالَ : سُبْحَانَ الله ، مَا تَقُولُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ

(١) أخرجه مسلم ، كتاب التوبة ، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة (٢٧٥٠) .

وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ ؛ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا ؛ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ، قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ الله ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « وَمَا ذَاكَ؟ » ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .

فصاحبُ الوقفة له حالان : إما أن يقف ليجم نفسه ، ويعد للسير ؛ فهذا وقفتهُ سيرٌ ، ولا تضره الوقفة ؛ فإن : « لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ » [1] .

وإما أن يقف العبد لداعٍ دعاه من ورائه ، وجاذبٍ جذبه من خلفه ؛ فإن أجابه أخَّره ولابد ، فإن تداركه الله برحمته ، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره ، نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع ، ووثب واشتد ليلحق بالركب ، وإن استمر مع داعي التأخر ، وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة ، وإجابة داعي الهوى ، حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دركًا ، وهو بمنزلة النكسة الشديدة بعد الشفاء من المرض ؛ فإنها أخطر منه وأصعب ، وبالجملة : فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبةٍ من يدعوه وتخليصه من يد عدوه ، وإلا فهو في تأخر إلى الممات ، راجع القَهْقَري ، ناكص على عقبيه ،

---

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (٢/ ١٨٨) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا ، وله شاهدٌ من حديث أبي هريرة مرفوعًا ؛ أخرجه الترمذيُّ ، كتاب صفة القيامة (٢٤٥٣) وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٢١٥١ و ٢١٥٢) .

أو مولٍّ ظهره ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والمعصوم من عصمه الله تبارك وتعالى ؛ فالوقفة إذا كانت لداعٍ من دواعي الهوى ، ولجاذبٍ جذب العبد السائر إلى الله ﷻ من الخلف فأوقفه عن السير إلى الله سبحانه وتعالى ، أو أبعده وأغرقه في درك من الضلال ومستنقع من المعاصي والذنوب ؛ فهذا هو الخطر إن لم يعصم الله ﷻ العبد في هذه الحالة بجذبةٍ منه ليخلصه من عدوه ؛ فستراه دائمًا في تأخر حتى الممات ، حتى يرى نفسه في عسكر الموتى بين المتأخرين [1] ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة:١٠ - ١٤] .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى [2] : « والسابقون في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون يوم القيامة إلى الجنات ، والسابقون إلى الإيمان هم السابقون إلى الجنان » ؛ وعلى قدر السبق هنا يكون السبق هناك .

ثم قال : « وفوق هذا مقام آخر من التوبة أرفع وأخص ، لا يعرفه إلا المحبون الذين يستقلُّون في حقِّ محبوبهم جميع أعمالهم وأحوالهم وأقوالهم ، فلا يرونها قط إلا بعين النقص والإزراء عليها ، ويرون شأن محبوبهم أعظم ، وقدره أعلى من أن يرضوا عن نفوسهم وأعمالهم له ؛ فهم أشدُّ شيءٍ احتقارًا لها ، وإزراء بها ، وإذا غفلوا عن مراد محبوبهم منهم ، ولم يوفوه حقه ، تابوا إليه من ذلك توبة أرباب الكبائر منها ؛ فالتوبة لا تفارقهم أبدًا ، وتوبتهم لونٌ وتوبة مثلي ومثلك لونٌ آخر ، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦] ، وكلَّما ازدادوا حبًّا له سبحانه ازدادوا معرفة بحقه ، وشهودًا لتقصيرهم ، فعظمت لذلك توبتهم ،

---

(١) « مدارج السالكين » (١/ ٢٦٨) بتصرف في المعنى .

(٢) « حادي الأرواح » (١/ ٧٩) الباب السابع والعشرون .

ولذلك كان خوفهم أشد ، وإزراؤهم على أنفسهم أعظم ، وما يتوب منه هؤلاء قد يكون من كبار حسنات غيرهم من أمثالنا »[1] .

هذه منزلةٌ لا يصل إليها إلا المقربون من المؤمنين الصادقين من أصحاب الهمم العالية ؛ أسأل الله أن يجعلنا منهم بمنه وكرمه ورحمته وفضله وإن قصَّرت أعمالنا ؛ إنه على كلِّ شيء قدير .

*****

(١) « مدارج السالكين » (١/ ٢٦٩) بتصرف .

عقبات على طريق التوبة

وهذه أحكامٌ مهمةٌ متعلقةٌ بالتوبة لا غِنى للتائب عنها فضلًا عن جهلها وتجاهلها .

أول هذه الأحكام [(١)] : أن التوبة إلى الله تبارك وتعالى من الذنب فرضٌ على الفور ، ولا يجوز أن يؤخرها العبد ؛ فمتى أخرها عصى ربه معصية جديدة بتأخير التوبة ، فإن تاب من الذنب الأصلي بقيت عليه توبة أخرى ألا وهي التوبة من تأخير التوبة .

فالتوبة إلى الله بعد كلِّ ذنب صَغُر أو كبر فرضٌ على الفور ، وليس على التراخي أبدًا ؛ بل يجب على المذنب حين يذنب أن يُعَجِّل بالتوبة ؛ لأنك لا تدري متى سيأتيك ملك الموت ولكن الشيطان يظلُّ يزين للعبد التسويف حتى يجد العبد نفسه في معسكر الموتى يوم لا ينفع الندم إن شعر ساعتها بالندم ؛ قال سبحانه : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٧ - ١٠٠] ؛ فهي كلمة لا وزن لها ولا قيمة ، اللهم ارزقنا حسن الخاتمة .

قال ابن القيم : « فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبةٌ أخرى ، وهي توبته من تأخير التوبة ، وقلَّ أن تخطر هذه ببال التائب ؛ بل عنده : أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر ، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة ، ولا

---

(١) راجع «مدارج السالكين» (١/ ٢٧٢) وما بعدها ، بتصرف .

يُنَجِّي من هذا إلا توبة عامة مما يعلمه ، ولا ينفعه عدم المؤاخذة بها جهلُه إذا كان متمكنًا من العلم ؛ فإنه عاصٍ بترك العلم والعمل » أي : أن علمك بأنه ذنب لا يعذرك ما دمت قادرًا على أن تتعلم ؛ فلا عذر لمؤمن يجهل أمرًا من أمور دينه ما دام متمكنًا من العلم ومن السؤال عن أمر دينه ، وقد جعل الله ﷻ له من أهل العلم مَنْ يعلِّمونه ؛ فلا عذر لأحد أن يتخلف أو أن يتأخر ، لاسيما إن كان هذا العلم من العلم الواجب على الأعيان .

قال ابن القيم رحمه الله : « فإنه عاص بترك العلم والعمل ؛ فالمعصية في حقه أشد ، وفي «صحيح ابن حبان» [١] ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال النبيُّ ﷺ : « اتَّقُوا الشِّرْكَ، فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ » .

فقال أبو بكر رضي الله عنه : فكيف الخلاصُ منه يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا نَعْلَمُ» .

فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب ، ولا يعلمه العبد ، وفي « الصحيحين » [٢] من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ كان يدعو في صلاته ويقول : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي ، وَخَطَئِي وَعَمْدِي ، وَكُلُّ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٣) ، والطبراني في « الأوسط » (٣٤٧٩) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٦/ ٧٠) ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وحسنه لغيره الألباني في « صحيح الترغيب » (٣٦) ، وأخرجه البخاريُّ في « الأدب المفرد » (٧١٦) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٦٠و٦١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١١٢) عن معقل بن يسار عن أبي بكر رضي الله عنه ، وصحَّحه الألباني في « صحيح الجامع » (٣٧٣١) ولم نقف عليه عند ابن حبان ، والله أعلم .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الدعوات ، باب قول النبي ﷺ : «اللَّهُمَّ اغْفِر لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ» (٦٣٩٨ ، ٦٣٩٩) ، ومسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٢٤١٩) واللفظ له .

ذَلِكَ عِنْدِي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وفي الحديث الآخر أنه ﷺ قال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ وَجِلَّهُ وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ »[1] .

فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتي التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه» .

الحكم الثاني من أحكام التوبة : هل يُشترط في صحة التوبة ألا يعود التائب إلى الذنب أبدًا ؟

للعلماء قولان : الأول : إذا تاب العبد من الذنب ، ثم عاد إلى هذا الذنب مرة أخرى كانت التوبة باطلة وليست صحيحة ، ولو كان الأمر كذلك لهلكنا .

القول الثاني : وهو قول جماهير أهل العلم قالوا : ليس ذلك بشرط ، وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب ، والندم عليه ، والعزم الجازم على ألا يعود إليه ، فإذا وقع فيه مرة أخرى صار كمن ابتدأ المعصية ، ولم تُبطل هذه المعصيةُ توبته الأولى .

والفريق الثاني يحتج على ذلك بأدلة كثيرة ؛ منها : أن التائب لا يعود إليه إثم الذنب الذي تاب منه ، وأن هذا الإثم قد ارتفع بالتوبة ، وصار بمنزلة ما لم يعمله ، والمعتزلة هم الذين يقولون بإحباط الحسنات بالسيئات ، والقرآن والسنة قد دلا على أن الحسنات هي التي تحبط السيئات وتمحوها ؛ كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤] .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٣) .

وقال النبيُّ ﷺ لمعاذ رضي الله عنه : « يَا مُعَاذُ : اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ »(١) .

فلا يعود إليه إثم الذنب بعد التوبة منه ، وإنما الذي يعود إليه إثم الاستئناف للذنب ذاته أو لذنب آخر يعود إليه ، ومن أجمل الأدلة التي استدلوا بها على ذلك ؛ قالوا: لقد علَّق الله قبول التوبة بالاستغفار وعدم الإصرار، ولم يعلق قبول التوبة على عدم العودة إلى الذنب ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٥].

والإصرار : عقد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر العبد به ؛ فهذا الذي يمنع مغفرته ، بمعنى : أن رجلًا يتوب إلى الله تبارك وتعالى من ذنب ، لكنه يصر بقلبه ، ويعزم على أنه إذا ظفر بهذا الذنب مرة أخرى فعله ؛ فهذا الإصرار يبطل التوبة ! ونكتةُ المسألة : أن التوبة المتقدمة حسنة ، ومعاودة الذنب سيئة ؛ فلا تبطل معاودته للسيئة هذه الحسنة ، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات . قالوا : وهذا على أصول أهل السنة أظهر ؛ فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة لله من وجهين مختلفين ، ويكون محبوبًا لله ومبغوضًا من الله أيضًا من وجهين مختلفين ؛ بل يكون فيه إيمانٌ ونفاق ، وإيمانٌ وكفر ، ويكون إلى أحدهما أقرب منهما إلى الآخر ، فيكون من أهله ، فإن غلب الإيمان على النفاق يكون من المؤمنين ، وإن غلب النفاق على الإيمان يكون من المنافقين ، وإن غلب الشرك على التوحيد يكون من المشركين ، وإن غلب التوحيد على الشرك يكون من الموحدين ؛

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في معاشرة الناس (١٩٨٧) ، وأحمد (٥/ ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٧٧) ، والحاكم (١/ ٥٤) ، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٧) .

قال الله تعالى : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾[آل عمران:١٦٧] ، وقال الله ﷻ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[يوسف:١٠٦] .

قال ابن القيم [(١)] : « أثبت لهم الإيمان به مع مقارنة الشرك ؛ فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله ، لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله ، وإن كان مع هذا الشرك تصديق لرسله ، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل واليوم الآخر ؛ فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أهل الكبائر ، وشركهم قسمان : قسمٌ خفي ، وقسمٌ جلي ، والخفي قد يغفر ، والجلي لا يغفر إلا بالتوبة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨] ؛ فإذا ثبت هذا فمعاود الذنب مبغوض لله من جهة معاودته للذنب ، محبوب من جهة توبته وحسناته السابقة .

قال تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦] ، وإذا استغرقت سيئات العبد الحديثة حسناته القديمة وأبطلتها ، ثم تاب منها توبة نصوحًا خالصة عادت إليه حسناته كلُّها ، ولم يكن حكمه حكم المستأنف لها ؛ بل يقال له : تبت على ما أسلفتَ من خير ؛ فالحسنات التي فعلها المسلم في الإسلام أعظم من الحسنات التي فعلها الكافر في كفره ، ثم ترجع إليه أعماله في الكفر بعد إسلامه ؛ فمعلومٌ أن الكافر إن تاب إلى الله يعود إليه كلُّ عمل من أعمال الخير الذي قد فعله قبل إسلامه ؛ كما قال حكيم بن حزام ﷺ : أَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ الله أُمُورًا كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ هَلْ لِي فِيهَا مِنْ شَيْءٍ ؟

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٨٢) ، وما قبلها وما بعدها بتصرف .

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ »[1] .

وذلك لأن الإساءة المتخللة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة ، فصارت كأنها لم تكن ، فتلاقت الطاعتان واجتمعتا بفضل الله تعالى » .

قال الله ﷻ : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٧٠] .

وفي الحديث الذي رواه مسلم[2] من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا ، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ : اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ ، فَيُقَالُ : عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا ، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا ، فَيَقُولُ : نَعَمْ،لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ فَيُقَالُ لَهُ : فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً فَيَقُولُ : رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا » .

قال أبو ذر : فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَضْحِكُ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ .

وفي «الصحيحين»[3] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « يُدْنَى الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ يوم القيامة حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ: تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؛ يَقُولُ : أَعْرِفُ ، يَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ مَرَّتَيْنِ ؛ فَيَقُولُ : سَتَرْتُهَا فِي الدُّنْيَا وَأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، ثُمَّ تُطْوَى صَحِيفَةُ حَسَنَاتِهِ » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الزكاة ، باب من تصدق في الشرك ثم أسلم (١٤٣٦) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده (١٢٣) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٠) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المظالم ، باب قوله تعالى :﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:١٨] ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب قبول توبة القاتل وإن كثرت (٢٧٦٨) .

ويأتي المنافق بعد ذلك ؛ كما في «صحيح مسلم»[1] من حديث أنس عن النبيِّ ﷺ وفيه : يقولُ العبدُ لربِّ العزة : «يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ : يَقُولُ : بَلَى ، قَالَ : فَيَقُولُ : فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي ، قَالَ : فَيَقُولُ : كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ انْطِقِي ، قَالَ : فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ، قَالَ : ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ ، قَالَ : فَيَقُولُ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا ، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ» .

وهنا سؤالٌ ؛ وهو : إذا تاب العاصي وحيل بينه وبين المعصية بالعجز عنها تقبل التوبة ؟ بمعنى هل لو قُطعت يد السارق وقطع لسان القاذف إلى آخره وأراد هذا السارق أن يتوب إلى الله مع عجزه عن السرقة أصلًا ؛ فهل إذا أراد أن يتوب مع عجزه عن المعصية تصحُّ توبته ؟

والجوابُ : أن توبته تصحُّ ، وهذا هو قول أكثر أهل العلم ؛ فإن أركان التوبة مجتمعة فيه ، والمقدور له منها الندم ، والندم توبة ؛ بل هو ركن التوبة الأعظم ، فإذا تحقق ندمه على الذنب ولام نفسه عليه ؛ فهذه توبة ، وكيف لا تُقبل التوبة منه مع شدة ندمه على ذنبه الذي مضى ، وإذا كان الشرع قد نزَّل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها إن صحت نيته ، فتنزيل العاجز عن المعصية التارك لها قهرًا ـ مع نيته تركها اختيارًا لو أمكنه ـ منزلة التارك المختار إن صحت نيته أولى وأتم[2] ؛ كما في «صحيح البخاري»[3] من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أنه ﷺ قال : «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ ،

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٩) .

(٢) انظر «مدارج السالكين» (١/ ٢٣٥) ، ط الحديث بتصرف .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (٢٩٩٦) .

كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا » .

فإذا كان الرجل يعمل عملًا من أعمال الطاعة وهو صحيح ، ثم مرض ، فحَالَ مرضُه بينه وبين هذه الطاعة كتب الله ﷻ له أجر طاعته التي كان يعملها وهو صحيح ، وإذا سافر العبد وكان له عمل من أعمال الخير والطاعة ، وحال السفر بينه وبين هذا العمل كتب الله ﷻ أجر عمله الذي كان يعمله وهو مقيم .

وفي الحديث الذي رواه أحمد والترمذي [١] من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه وفيه أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ ، عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا ؛ فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً ؛ فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ : لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَلاَ يَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا ؛ فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالاً وَلاَ عِلْمًا ؛ فَهُوَ يَقُولُ : لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ ؛ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ » .

وفي « صحيح البخاري » [٢] من حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ » ، قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ ؟ قَالَ : « وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ » .

فلو أن الإنسان حيل بينه وبين المعصية قهرًا صحت توبته إن ندم على ما فعله من المعاصي والذنوب .

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الزهد ، باب مثل الدنيا مثل أربعة نفر (٢٣٢٥) ، وقال : «حديث حسن صحيح» ، وأحمد (٤/ ٢٣٠ ، ٢٣١) ، وابن ماجه في الزهد ، باب النية (٤٢٢٨) ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٦٩) ، وقد سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب (٨١) حديث رقم (٤٤٢٣) .

ومن أحكام التوبة : إذا كانت متعلقة أو متضمنة لحق آدمي ؛ فإنه يشترط للتوبة حتى تصح أن يخرج التائب من هذا الحق إما بأدائه ، وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به ؛ إن كان حقًّا ماليًّا ، أو جناية على بدنه أو بدن موروثه ؛ كما في « صحيح البخاري »[١] عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال : « مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ » .

وهذا قول الفريق الأول : بأنه يجب على من أراد أن يتوب إلى الله تبارك وتعالى من ذنب متعلق بحق عبدٍ من العباد أن يتحلله منه ، واستدلوا كذلك بما رواه مسلم في «صحيحه»[٢] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ ـ يعني يقتص ـ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ » .

وفي « مسند » الإمام أحمد بسندٍ صحيح[٣] من حديث أبي ذر ﷺ أن النبيَّ ﷺ رأى يومًا شاتين تنتطحان فقال النبيُّ ﷺ لأبي ذرٍّ : « يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ تَدْرِي فِيمَ تَنْتَطِحَانِ ؟ » . قَالَ : لاَ ؛ قَالَ النبيُّ ﷺ : « لَكِنَّ الله يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا » .

وفي « صحيح مسلم »[٤] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال لأصحابه يومًا : « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ » ، قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المظالم ، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يبين مظلمته (٢٤٤٩) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم (٢٥٨٢) .

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٢) ، والطيالسيُّ في « مسنده » (٤٨٠) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « السلسلة الصحيحة » (١٥٨٨) .

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم (٢٥٨١) .

وَلاَ مَتَاعَ ؛ فَقَالَ : « إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » .

وفي « صحيح البخاري »[1] عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه ﷺ قال : « إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ ؛ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِيَدِهِ لأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا » .

فهذا الفريق يرى أنه لابد للتائب أن يتحلل من أخيه الذي ارتكب في حقه الذنب والمعصية ، وهذا هو المعروف في مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك[2] .

قال ابن القيم[3] : « والذين اشترطوا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمي ؛ فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه .

واحتجوا بالحديث المذكور ، قالوا : ولأن في هذه الجناية حقين : حقًّا لله ، وحقًّا للآدمي ؛ فالتوبة منها بتحلل الآدمي لأجل حقه ، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه ، قالوا : ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين وليِّ الدم من نفسه ، إن شاء اقتص وإن شاء عفا ، وكذلك توبة قاطع الطريق .

والقول الآخر : أنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه ، وإنما يكفي أن يتوب هذا العبد بينه وبين الله تبارك وتعالى ، وأن يذكر أخاه

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المظالم ، باب قصاص المظالم (٢٤٤٠) .

(٢) كما في « المدارج » (١/ ٢٣٩) ط الحديث .

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٢٣٩) بتصرف .

الذي قذفه في عرضه ، واغتابه في المجلس الذي اغتابه فيه بالمدح والثناء والدعاء له ، فيبدل العبدُ التائب غيبةَ أخيه بِمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه ، ويبدل قذفه بذكر عفته وإحصانه ، وليستغفر له بقدر ما اغتابه ؛ قال ابن القيم : وهذا اختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ واحتج أصحاب هذه المقالة بأن التائب إن أعلم أخاه بأنه اغتابه ونال من عرضه وقذفه فإن ذلك يسبب مفسدةً محضة ، لا تتضمن مصلحة ، فإنه لا يزيد أخاه بهذا إلا أذى وغمًّا وحنقًا ، وقد كان الأخ مستريحًا قبل أن يسمع من أخيه ، فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله ، وأورثته ضررًا في نفسه أو بدنه ؛ كما قال القائل :

فإن الذي يؤذيك منه سماعه   وإن الذي قالوا وراءك لم يقل

وما كان هكذا لا يبيحه الشرع قط ؛ فضلًا عن أن يجعله الشرع واجبًا أو مأمورًا به .

قالوا : وربما كان إعلامه به سببًا للعداوة والحرب بينه وبين القائل ، فلا يصفو الأخ لأخيه أبدًا ، ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف .

وهذا ضدُّ مقصود الشرع من تأليف القلوب والتراحم والتعاطف .

قالوا : والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وحقوق الأبدان من وجهين :

أحدهما : « أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه، فلا يجوز إخفاؤها عنه ، فإنه محض حقه ، فيجب عليه أداؤه إليه ، بخلاف الغيبة والقذف ؛ فإنه ليس هناك شيء ينفعه يؤديه إليه إلا إضراره وتهييجه فقط » بمعنى : أن الحقوق المالية إذا رجعت إلى أصحابها تسعدهم ، وهذه جِبلَّة جُبل الناس عليها ؛

قال سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾[آل عمران:١٤] ؛ فإذا ذهبت إلى صاحب المال بماله لسعد به سعادة غامرة ؛ بل لرفعك بعد ذلك على الرءوس ، وأشار إليك على مشهدٍ ومرأى من الناس ؛ فالأمر مختلف تمامًا ، فلا يجوز لك أن تخفي هذا الحق المالي ؛ فإنه محض حق لصاحبه ، فيجب عليك أن تؤديه له ، بخلاف الغيبة والقذف ، فليس هناك شيء ينفعه تؤديه إليه إلا إضراره وتهييجه فقط ؛ قال ابن القيم : « فقياس أحدهما على الآخر من أفسد أنواع القياس » .

الوجه الثاني : أن العبد التائب إذا أعلم صاحب المال بهذا ؛ فإنه لم يهيج عليه أعصابه ، ولم يهيج غضبه ؛ بل يسعد ، بخلاف إعلامه أنه وقع في عرضه أو نال من شرفه ليلًا ونهارًا ؛ قال : « فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد ، وهذا هو الصحيح في القولين والله أعلم » ، قُلْتُ : وهذا هو الذي أدين به ربي ﷻ أيضًا .

ومن أحكام التوبة: هل يرجع العبد التائب إلى الدرجة التي كان عليها قبل ارتكابه للذنب ؟ والصحيح بأن هذا بحسب حال التائب إلى الله بعد الذنب وبعد توبته منه ، وجدّه وعزمه ، وحذره وتشميره ؛ فمن التائبين من لا يعود لدرجته التي كان عليها قط قبل الذنب ، ومن التائبين من يعود إلى مكانته التي كان عليها ؛ بل ومن التائبين من يعود بحالةٍ أعلى وأعظم من الحالة التي كان عليها ، وهذا من نفيس كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ؛ كما نقله عنه تلميذه ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ وقال [1] : « وهذا الذي ذكره

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٤٠ و ٢٤١) ، وما بعدها بتصرف .

هو فصل النزاع في هذه المسألة » ، ثم ضرب مثالين على ذلك :

الأول : رجل مسافر سائر على الطريق بأمن وطمأنينة واستقرار ؛ فهو يمشي مرة ويعدو مرة ويستريح ثالثة ، وبينما هو كذلك إذْ عرض له في سيره ظلٌّ ظليل ، وماء بارد ، ومقيل ، وروضة مزهرة ، فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن ، فنزل ليستريح وهو في هذا المكان وثب عليه عدو ، فأخذه وقيده وكتَّفه ومنعه عن السير ، وعاين الهلاك وظن أنه منقطع به ، وأنه قد حيل بينه وبين السير ؛ بل وحتى من الوجود في الحياة ، وبينما هو كذلك تتقاذفه الظنون والهموم ، إذ به يرى والده الشفيق الذي يقدر على أن يخلِّصه مما وقع فيه ، فحلَّ قيوده ، وقال له : اركب وانطلق ، واحذر هذا العدو ؛ فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد ، واعلم أنك ما دمت حاذرًا منه ، متيقظًا له ؛ فإنه لا يقدر عليك ، فإذا غفلت عنه وثب عليك مرةً أخرى ، وها أنا ذا سائر بين يديك فاتبعني على الأثر فأنا فَرَطٌ لك على الطريق ، فإذا كان هذا السائر فطنًا كيِّسًا عاقلًا لبيبًا ، حاضر الذهن والقلب والعقل ، استقبل سيره استقبالًا آخر غير استقباله الذي كان عليه قبل هذه المحنة ؛ فهل يسير ببطء ولا يسير سيرًا أطول مما كان عليه وأقوى ؟! إن كان من العقلاء يسير سيرًا أقوى وأتم ، ويشدُّ أزره ، ويتأهب لهذا العدو ، ويعد له العدة ، فإذا كان سيره الثاني أقوى وخيرًا منه كان وصوله إلى المنزل الذي يريد أسرع ، وإذا غفل عن عدوه ، وعاد إلى مثل ما كان عليه من غير زيادة ولا نقصان ولا قوة حذر ولا استعدادٍ لعاد لما تعرض إليه في المرة الأولى ، فإن أورثه ذلك توانيًا في سيره وفتورًا ، وتذكر ما كان فيه من طيب عيش ، وحسن مكان في هذا المنتجع الأول ، واستعذب ما كان فيه من ماءٍ بارد ، وظلٍّ ظليل

ونعيم ؛ فهذا بلا شك سيسير مثل سيره الأول وهو معرَّض لخطرٍ أقوى مما كان تعرض له في المرة الأولى ؛ فهذا حال التائب إلى الله تبارك وتعالى .

المثل الثاني : رجلٌ خرج من بيته إلى الصلاة يريد الصفَّ الأول ، ويريد أن يحرص على الجماعة وليس له من هدفٍ آخر في الطريق ، فعرض له رجلٌ من خلفه جبذه وأوقفه في الطريق قليلًا يريد تعويقه عن الصلاة ؛ فهذا العبد له مع هذا الرجل الذي استوقفه حالان :

الأول : أن يشتغل به حتى تفوته فضيلة صلاة الجماعة بالكلية .

الحال الثاني : أن يجذبه ، وأن يتخلَّص منه ، وأن يتفلت منه ، حتى لا تفوته فضيلة الصفِّ الأول ، وهذا عنده همة عالية وعزيمة ، وله بعد هذا التفلت ثلاثة أحوال :

الأول : أن يكون سيره بعد التفلت من أخيه الذي استوقفه وثبًا ؛ ليستدرك ما فاته بتلك الوقفة ، لكن بشرط أن لا تكون الجماعة قد أقيمت ، لأن هناك نهيًا عن الوثب والسعي إلى الصلاة [1] .

الحال الثاني : أن يعود إلى مثل سيره الذي كان عليه .

الحال الثالث : أن تورِّثه هذه الوقفة فتورًا وتهاونًا ، فيفوته فضيلة الصف الأول أو الجماعة في أول الوقت ؛ فهكذا حال التائبين السائرين إلى الله تبارك وتعالى .

ومن أحكام التوبة : هل المطيع الذي لم يعص الله سبحانه وتعالى خيرٌ من

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأذان ، باب لا يسعى إلى الصلاة وليأت بالسكينة والوقار (٦٣٦) ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعيًا (٦٠٢) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه البخاريُّ (٦٣٥) ، ومسلم (٦٠٣) عن أبي قتادة رضي الله عنه .

العاصي الذي تاب إلى الله توبة نصوحًا أم أن هذا التائب خير عند الله ﷻ وأفضل ؟ [١]

والجواب : اختلف أهل العلم في ذلك ؛ فرجَّحت طائفة منهم من لم يَعْص الله تبارك وتعالى على من عصى وتاب توبة نصوحًا ؛ واستدلوا على ذلك بأدلة :

أولًا:أن أكمل الخلق وأفضلهم ، أطوعُهم لله تبارك وتعالى ، وهذا الذي لم يعص أطوع بلا شك ؛ فيكون أفضل ممن عصى وتاب إلى الله ﷻ .

ثانيًا : أن في زمن اشتغال العاصي بالمعصية يسبقه المطيع بعدة مراحل ، فتكون درجته أعلى من درجته ، وغايته : أنه إذا تاب استقبل سيره ليلحقه ، وذاك في سيرٍ آخر ـ أي في طاعته مع الله ـ فأنّى لهذا العاصي أن يدركه ؟!!

الثالث : أن الله يمقت العاصي على معاصيه ؛ ففي مدة اشتغالِهِ بالذنوب كان حظُّه من الله المقت ، وحظُّ المطيع الرضا ؛ فالله لم يزل عن المطيع راضيًا ، ولا ريب أن هذا خير ممن كان الله راضيًا عنه ثم مقته ، ثم رضي عنه بعد ذلك ؛ فإن الرضا المستمر خيرٌ من الرضا الذي يتخلله غضب ومقت .

الرابع : أن العاصي على خطرٍ شديد ؛ لأنه يدور بين ثلاثة أشياء : أولها : الهلاك ، الثاني : النقصان ؛ تنقص درجته ومكانته بالمعصية ، الثالث : أن يعود أقوى مما كان عليه قبل الذنب ، وهذا لا يكون إلا في القليل النادر من العباد كما ذكرتُ ، ولا شك أن الأغلب هو الهلاك أو نقص درجته ، وقَلَّ من تزداد مكانته عند الله بعد التوبة من المعصية .

الخامس : أن المطيع قد أحاط على بستان طاعته حائطًا حصينًا ؛ فلا يجد

(١) « مدارج السالكين » (١/ ٢٤٢) ط الحديث بتصرف .

الأعداء إليه سبيلًا ؛ فهو دائمًا ينتقل من طاعة إلى طاعة ولا شك ، وشتان شتان بين هذا وبين العاصي الذي يقع في الذنب ثم يتوب إلى الله تعالى ، والمعصية لابد أن تؤثر أثرًا سيئًا ؛ إما هلاكًا كما ذكرت ، وإما خسرانًا وعقابًا بعد ذلك ، وإما عفو الله ﷻ ودخول الجنة ، وإما نقص درجة ، وإما خمود مصباح الإيمان في القلب ، وعمل التائب في رفع هذه الآثار والتكفير عنها ، وعمل المطيع في الزيادة ورفع الدرجات ، وشتان شتان بين الصنفين ؛ فالمقبل على الله ، المطيع له ، يسير بجملة أعماله إلى الله ، وكلَّما ازدادت طاعته وأعماله ازداد كسبه بها وعظم ، وازداد قربه من الله تبارك وتعالى ؛ فهو بمنزلة من سافر فكسب عشرة أضعاف رأس ماله ، فسافر برأس ماله الأول بربحه فكسب عشرة أضعافه أيضًا ، وهكذا حال السائر في الطاعة لله تبارك وتعالى .

الطائفة الثانية [(١)] : رجَّحتِ التائبَ الذي يَصْدُق في توبته ، ويتوب إلى الله توبة نصوحًا ، وإن لم ينكر هذا الفريق أيضًا أن المطيع أكثر حسنات من هذا التائب إلى الله تبارك وتعالى بعد الذنب ، وقالوا كلامًا نفيسًا جدًّا ؛ قالوا : إن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله ؛ فإنه سبحانه يحب التوابين ، ولو لم تكن التوبة أحبَّ الأشياء إليه ما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه ، فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذي يوجب وقوع محبوبه في التوبة بعده ، فإن للتائبين عنده محبة خاصة ؛ يوضِّحُ ذلك : أن للتوبة عند الله تبارك وتعالى منزلة ليست لغيرها من الطاعات .

ما في « الصحيحين » [(٢)] من حديث أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى

---

(١) « مدارج السالكين » (١/ ٢٤٤) بتصرف .

(٢) سبق قريبًا .

رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلاَةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا ، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ » .

ففرح الله إن تبت إليه أعظم من فرح هذا العبد بعودة راحلته إليه ، وكذلك عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار والخضوع والتذلل لله تعالى ، ما هو أحبُّ إلى الله من كثير من الأعمال الظاهرة ، وإن زادت في القدر والكمية عن عبودية التوبة ؛ فإن الذل والانكسار روحُ العبودية ، ولبُّها وَمُخُّها ، وكذلك حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره ؛ فإنه قد شارك من لم يذنب في ذلِّ الفقر والعبودية والمحبة ، وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية ، والله سبحانه وتعالى أقرب ما يكون إلى عبده عند ذُلِّه وفقره وانكسار قلبه .

كما في « صحيح مسلم »[1] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ » .

والسجود مشهد الذُّلِّ والعبودية لله ـ جلَّ وتعالى.

وفي « صحيح مسلم »[2] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا ابْنَ آدَمَ ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي ، قَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ ، يَا ابْنَ آدَمَ ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي ، قَالَ : يَا رَبِّ ، وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب فضل عيادة المريض (٢٥٦٩) .

أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي ، قَالَ : يَا رَبِّ ، كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تَسْقِهِ ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي » .

ففي الإطعام والإسقاء قال : «لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي» ، وقال عند المريض لانكساره وضعفه وفقره وذله بالمرض : «لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ» .

قال ابنُ القيم : «ففرق بينهما ؛ فإن المريض مكسور القلب ، ولو كان من كان ؛ فلابد أن يكسره المرض ، فإذا كان مؤمنًا قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده ، وهذا ـ والله أعلم ـ هو السرُّ في استجابة دعوة الثلاثة : المظلوم ، والمسافر ، والصائم ، للكسرة التي تكون في قَلْب كلّ واحدٍ منهم ».

ثم قال ﷺ[1] : «فإذا أراد الله بعبد خيرًا ألقاه في ذنب يكسره به ، ويعرفه قدره ، ويكفي به عباده شره ، وينكس به رأسه ، ويستخرج به منه داء العُجْب والكبر والمنة عليه وعلى عباده ؛ فيكون هذا الذنب أنفع لهذا العبد من طاعات كثيرة ، ويكون هذا بمنزلة شرب الدواء ليستخرج منه الداء العضال ؛ كما قيل بلسان الحال في قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه » .

وتدبَّر هذا في الحديث القدسي الذي رواه مسلم ـ والترمذي واللفظ له ـ من حديث أنس ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال : قَالَ اللهُ تَعَالَى : « يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً »[2] .

---

(١) « مدارج السالكين » (١/ ٢٩٩) .

(٢) سبق قريبًا .

فيا أيها العبد لا تعجز ؛ فمنك الدعاء ومن الله الإجابة ، ومنك الاستغفار وعلى الله المغفرة ، ومنك التوبة وعلى الله أن يبدل سيئاتك حسنات ؛ قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ [الفرقان:٧٠] ؛ فالله تبارك وتعالى ، وهو أجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، وهو البرُّ اللطيف ، المتودِّدُ إلى عباده بأنواع الإحسان وإيصاله إليهم من كلِّ طريق بكلِّ نوعٍ ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ؛ فيا أيها العاصي عُدْ إلى الله ﷻ ؛ فمحالٌ أن يرتقي أحدنا إلى مقام الإحسان إلا إذا دخل منزلة التوبة وحققها ، ووقف على أسرار لطائف التوبة وحقق هذه الأحكام التي ذكرتُ ، أسأل الله ﷻ أن يتوب علينا لنتوب إليه .

دع عنك ما قد فات في زمن الصبا	واذكر ذنوبك وابكها يا مذنب
لم ينْسَهُ الملكان حين نسيته	بل أثبتاه وأنت لاهٍ تلعب
والروح منك وديعةٌ أودعتها	ستردُّها بالرغم منك وتسلب
وغرور دنياك التي تسعى لها	دار حقيقتها متاع يذهب
الليل فاعلم والنهار كلاهما	أنفاسنا فيها تُعَدُّ وتُحسب

أسأل الله ﷻ أن يسترنا بستره ، وأن يغفر لنا بمغفرته ، وأن يعفو عنا بعفوه ، وأن يحلم علينا بجوده وكرمه وحلمه ، وأن يتقبل منا جميعًا صالح الأعمال ؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

*****

منزلة الإنابة

ومن منازل العبودية: منزلة الإنابة ، فبعد أن تحدثنا عن منزلة التوبة ؛ فمن نزل في منزلة التوبة وقام في هذا المقام الشريف نزل في جميع منازل الإسلام ؛ فإن التوبة الكاملة الصحيحة متضمنةٌ لها وهي مندرجة فيها ، وإذا ما أفردنا مقام التوبة بالحديث ؛ فإننا لا نَفْصِلُها بذلك عن مقامات الدين ؛ فإن من نزل في مقام التوكل يجب عليه أن يحقق مقام التوبة ، ومن نزل في مقام الرجاء والتفويض يجبُ عليه أن يحقق مقام التوبة كذلك ، وهكذا ؛ فلا ينفكُّ السائر إلى الله ﷻ عن مقام التوبة ومنزلتها في أي مقام آخر من مقامات الدين أو في أيِّ مرتبة أخرى من مراتب الإيمان ؛ فإذا ما استقرت قدم العبد في منزلة التوبة نزل بعد ذلك منزلة الإنابة [١] ؛ فما هي الإنابة لغةً واصطلاحًا ؟ فإنه قد يُظَنُّ أنه لا فارق بين منزلة التوبة ومنزلة الإنابة ! وسنرى فارقًا كبيرًا بينهما ، وإن كان الأصْلُ لغةً يرجع إلى التوبة [٢] .

فأقولُ : الإنابةُ لغةً ـ كما قال ابن فارس[٣] : «نوب : النون والواو والباء كلمةٌ واحدة تدلُّ على اعتياد مكان ، ورجوع إليه» ، والتأصيل اللغوي لكلمة التوبة : تاب وناب وأثاب وأناب ؛ كُلُّ ذلك بمعنى رجع ؛ فكذلك لفظة الإنابة ، أناب فلانٌ إلى الشيء ، أي : رجع إليه مرةً بعد أخرى [٤] ، وفي

---

(١) مقتبس من كلام ابن القيم في « المدارج » (١/ ٤٣٣ ط الكتاب العربي) وما سيأتي كذلك من عبارات ؛ فله رحمه الله وطيب ثراه .

(٢) قال أبو هلال العسكري في « الفروق اللغوية » (١٤٦) : « الفرق بين التوبة والإنابة : قيل : التوبة هي الندم على فعل ما سبق ، والإنابة : ترك المعاصي في المستقبل » .

(٣) « مقاييس اللغة » (٥/ ٢٩٣) ط اتحاد الكتاب العربي بتحقيق د. عبد السلام هارون .

(٤) « المفردات » للراغب (٥٠٩ ط التوفيقية) ؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية في « مجموع الفتاوى » (٨/ ٥٢٧) : « فإن الإنابة إلى الله والمتاب هو الرجوع إليه بعبادته وطاعته وطاعة رسوله...» .

كتاب الله تبارك وتعالى ـ كما سأفصل ـ ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ ﴾ [الروم:٣١] ، أي : راجعين إلى ما أمر الله به ، غير خارجين عن شيء من أمره ، وقال سبحانه : ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر:٥٤] ، أي : توبوا إليه وارجعوا .

قال الجوهري [(١)] : « أناب إلى الله ، أي : أقبل وتاب » ، وقال ابنُ الأثير [(٢)] : « الرجوع إلى الله بالتوبة يقال : أناب ينيب إنابة ؛ فهو منيب إذا أقبل ورجع » .

فالمقبل على الله ، الراجع إليه ، المقبل على أمره ، الراجع عن معاصيه ، هو : المنيب إلى الله تبارك وتعالى .

ومعنى « الإنابة » اصطلاحًا : « إخراجُ القلب من ظلمات الشبهات » .

وقيل : الإنابة : الرجوعُ مِنَ الكلِّ إلى مَنْ له الكُلُّ سبحانه وتعالى ، وقيل : الإنابة : الرجوع من الغفلة إلى الذكر ، ومن الوحشة إلى الأنس [(٣)] ؛ فما أناب إلى الله من غفل عن ذكره ، وما أناب إلى الله من لم يأنس به سبحانه وتعالى ؛ فالمنيبُ لا يغفل عن الذكر ، والمنيبُ لا يشعر بالأنس إلا مع ربه ، ولا يشعر بالوحشة مع ربه تبارك وتعالى .

وقال الكفويُّ : « الإنابة : الرجوع عن كلِّ شيء إلى الله تعالى » [(٤)] .

وقال ابن القيم [(٥)] رحمه الله : « الإنابة : الإسراع إلى مرضاة الله مع الرجوع إليه في كلِّ وقتٍ مع إخلاص العمل له » .

---

(١) « الصحاح » (١/ ٢٢٩) وانظر « لسان العرب » (١/ ٧٧٤) ط صادر .

(٢) « النهاية » لابن الأثير (٥/ ١٢٣) .

(٣) « التعريفات » للجرجاني (ص ٤٣) ط مكتبة القرآن .

(٤) « الكليَّات » لأبي البقاء الكفوي (٣٠٨) .

(٥) « المدارج » (١/ ٤٣٤) بتصرف .

وقال أيضًا [(١)] : « وأما الإنابة إليه ؛ فَأَصْلُ الإنابة محبة القلب وخضوعه وذله للمحبوب المراد ؛ فمن لا يُحِبُّ لا يمكن الإنابة إليه » ، وقال [(٢)] : « والإنابة : الرجوع إلى الله ، وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه ، وهي تتضمن المحبة والخشية ؛ فإن المنيب محبٌّ لمن أناب إليه ، خاضعٌ له خاشع ذليل ، والناس في إنابتهم على درجات متفاوتة ؛ فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي ، وهذه الإنابة مصدرها مطالعة الوعيد ، والحامل عليها العلم والخشية والحذر ، ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات ، فهو ساع فيها بجهده ، وقد حبب إليه فعل الطاعات وأنواع القربات ، وهذه الإنابة مصدرها الرجاءُ ومطالعة الوعد والثواب ومحبة الكرامة من الله ، وهؤلاء أبسط نفوسًا من أهل القسم الأول وأشرح صدورًا ، وجانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم ، وإلا فكلٌّ واحدٍ من الفريقين منيب بالأمرين جميعًا ، ولكن خوف هؤلاء اندرج في رجائهم فأنابوا بالعبادات ، ورجاءُ الأولين اندرج تحت خوفهم فكانت إنابتهم بترك المخالفات ، ومنهم المنيب إلى الله بالتضرع والدعاءِ والافتقار إليه والرغبة وسؤال الحاجات كلها منه ، ومصدر هذه الإنابة شهود الفضل والمنة والغنى والكرم والقدرة ، فأنزلوا به حوائجهم وعلَّقوا به آمالهم ؛ فإنابتهم إليه من هذه الجهة مع قيامهم بالأمر والنهي ، ولكن إنابتهم الخاصة إنما من هذه الجهة ، وأما الأعمال فلم يرزقوا فيها الإنابة الخاصة وأملهم المنيب إليه عند الشدائد والضراء فقط إنابة اضطرار لا إنابة اختيار كحال الذين قال الله في حقهم : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[الإسراء:٦٧] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ

---

(١) « الصواعق المرسلة » لابن القيم (٤/ ١٤٣٦) ط العاصمة .

(٢) « طريق الهجرتين » (ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤ ط ابن القيم) .

دَعَوُا ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت:٦٥] ، وهؤلاء كلُّهم قد تكون نفس أرواحهم ملتفتة عن الله سبحانه معرضة عنه إلى مألوف طبيعي نفساني قد حال بينها وبين إنابتها إلى معبودها وإلهها الحق ؛ فهي ملتفتة إلى غيره ، ولها إليه إنابة ما ، بحسب إيمانها به ومعرفتها له .

فأعلى أنواع الإنابات إنابة الروح بجملتها إليه لشدة المحبة الخالصة المغنية لهم عما سوى محبوبهم ومعبودهم ، وحين أنابت إليه أرواحهم لم يختلف منهم شيء عن الإنابة ؛ فإن الأعضاء كلَّها رعيتها وملكها تبع للروح ؛ فلما أنابت الروح بذاتها إليه إنابة مُحِبٍّ صادق المحبة وليس فيه عرق ولا مِفْصل إلا وفيه حب ساكن لمحبوبه ، أنابت جميع القوى والجوارح : فأناب القلب أيضًا بالمحبة والتضرع والذل والانكسار ، وأناب العقل بانفعاله لأوامر المحبوب ونواهيه ، وتسليمه لها ، وتحكيمه إياها دون غيرها ، فلم يبق فيه منازعة شبهة معترضة دونها ، وأنابت النفس بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية والأخلاق الذميمة والإرادات الفاسدة ، وانقادت لأوامره خاضعة له ، وداعية فيه ، ومؤثرة إياها على غيره ، فلم يبق فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمر ، وخرجت عن تدبيرها واختيارها تفويضًا إلى مولاها ، ورضى بقضائه ، وتسليمًا لحكمه ، وقد قيل : إن تدبير العبد لنفسه هو آخر الصفات المذمومة في النفس ، وأناب الجسد في الأعمال والقيام بها فرضها وسننها على أكمل الوجوه ، وأنابت كل جارحة وعضو إنابتها الخاصة ؛ فلم يبق من هذا العبد المنيب عرق ولا مفصل إلا وله إنابة ورجوع إلى الحبيب الحق الذي كل محبة سوى محبته عذاب على صاحبها ، وإن كانت عذبة في مباديها فإنها عذاب في عواقبها ؛ فإنابة العبد ولو ساعة من عمره هذه الإنابة الخالصة أنفع له وأعظم ثمرة من إنابة سنين كثيرة من غيره ؛ فأين إنابة هذا

من إنابة من قبله ؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ؛ بل هذه روحه منيبة أبدًا ، وإن توارى عنه شهود إنابتها باشتغال فهي كامنة فيها كُمُونَ النار في الزناد ، وأما أصحاب الإنابات المتقدمة فإن أناب أحدهم ساعة بالدعاء والذكر والابتهال ؛ فلنفسه وروحه وقلبه وعقله التفاتات عمن قد أناب إليه ؛ فهو ينيب ببعضه ساعة ثم يترك ذلك مقبلًا على دواعي نفسه وطبعه ، والله الموفق المعين ، لا رب غيره ولا إله سواه » .

وقال في كتابه الماتع القيم « الفوائد » [(١)] : « الإنابة هي : عكوفُ القلبِ على الله ﷻ كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه ، وحقيقة ذلك : عكوف القلب على محبته وذكره بالإجلال والتعظيم ، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله ﷺ » .

وعكوف البدن يكون بامتثال الأمر ، واجتناب النهي بإخلاصٍ لله وبمتابعةٍ لرسول الله ﷺ .

وقد أمرَ الله ﷻ بالإنابة في كتابه الكريم ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر:٥٤] ، وأثنى ربُّنا تبارك وتعالى على إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بصفة الإنابة ؛ فقال جَلَّ وعَلاَ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود:٧٥] ، أواه : يعني : متضرع متذلل . منيب : أي : راجع إلى الله سبحانه وتعالى ، أو عاكف بقلبه وجميع جوارحه على الله ﷻ .

وأخبر الله سبحانه أن آياته إنما يتذكر بها ويتبصر أهل الإنابة ؛ فقال سبحانه :
﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾

---

(١) « الفوائد » (١٩٦) وقال (ص ١٣) ط الكتب : « وحقيقة الإنابة : عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه » .

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق:٦ـ ٨] ، إذًا الذي يتبصر بالآيات ويتذكر بها هو الأواب المنيب إلى الله تبارك وتعالى الذي يخشى ربه ، ويخاف عذاب الآخرة ؛ قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر:١٣] ، وقال جَلَّ وعَلاَ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم:٣٠، ٣١] ، وقوله تعالى : ﴿ مُنِيبِينَ ﴾ منصوب على الحال ؛ فالمعنى : أقم وجهك يا محمد أنت ومن معك من المؤمنين منيبين إلى الله سبحانه وتعالى ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [الطلاق:١] ؛ فالأمر من الله للنبيِّ ﷺ ، لكنه أمر له وللأمة كلِّها ، ويجوز أن يكون أيضًا حالًا من المفعول ، أي يجوز أن تكون منصوبة على الحال من الضمير في قوله « أَقِمْ » أنت ومن معك من المؤمنين ، ويجوز أن تكون أيضًا حالًا من المفعول في قوله تعالى : ﴿ فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ ، أي : فطرهم منيبين إليه ؛ فطرهم على التوحيد ، أي : على فطرة الإنابة والرجوع والعودة إليه سبحانه ؛ فلو خُلُّوا وفطرهم لما عَدَلَت عن الإنابة إليه ، ولكنها تُحوَّل وتتغير عما فُطرت عليه ؛ كما قال النبيُّ ﷺ : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ؛ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ... »[1] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ، وهل يعرض على الصبي الإسلام (١٣٥٩) ، ومسلم ، كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨) .

وقال أيضًا في حقِّ نبيه داود : ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴾ [ص:٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ [ق:٣١ ـ ٣٤] ؛ فأهل الجنة الذين يقال لهم : ادخلوا الجنة بسلام هم أهل الإنابة وأهل الرجوع من المعاصي إلى الطاعات ، وهم أهل عكوف القلب والبدن على الله سبحانه وتعالى ، وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة ؛ فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ [الزمر:١٧] .

أنواع الإنابة :

والإنابة إنابتان : إنابة للربوبية ، وإنابة للألوهية [١] ؛ أما إنابة الربوبية ؛ فهي : إنابة المخلوقات كلِّها بلا استثناء ؛ فلا يخرج عنها كافرٌ أو مؤمن ولا برٌّ ولا فاجر ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم:٣٣] ، وهذا عامٌّ في حق كل داعٍ أصابه ضرٌّ كما هو الواقع ، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام ؛ بل تجامع الشرك والكفر ؛ كما قال تعالى في حق هؤلاء المشركين : ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٣، ٣٤] ؛ فهذا حالهم بعد إنابتهم إلى الله تبارك وتعالى .

فالمشرك ينيب إلى الله ، ويرجع إليه إذا مسَّه الضر ؛ فإذا مَنَّ الله عليه ونجَّاه نأى وأعرض بجانبه ؛ فالإنسان في حال الخير يعرض ويلوي صفحة

---

(١) وما زلنا مع إمامنا ابن القيم ـ عليه رحمةُ الله ـ في كتابه النفيس «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٤).

عنقه ، وحينما يمسه الشر فذو دعاءٍ عريض ؛ تراه يتضرع ويلجأ إلى الله سبحانه وتعالى ؛ كما قال : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾[الإسراء:٨٣] ، وفي الآية الأخرى : ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾[فصلت:٥١] ؛ فالإنابة إلى الربوبية لا ينفكُّ عنها مخلوق ؛ فمعنى الإنابة : الرجوع ؛ فلا شك أنه سيرجع إلى الله تبارك وتعالى شاء أم أبى ؛ كافرًا كان أو مؤمنًا .

أما الإنابة إلى الألوهية ؛ فهي إنابةُ الأنبياء والأولياء والأصفياء إنابة عبودية ومحبة ، وهي تتضمن أربعة أمور : محبته سبحانه وتعالى ، والخضوع له ـ جلَّ جلاله ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه ؛ فلا يستحقُّ اسْمَ المنيب إلا إذا اجتمعت فيه هذه الأربعة .

هذا هو العبد الأواب المنيب ؛ فالمنيب إلى الله هو المسرع إلى مرضاته ، الراجع إليه في كل وقتٍ وحين ، المتقدم إلى محابِّه .

والإنابة ثلاثة أشياء [١] : أولًا : الرجوع إلى الحق اصلاحًا كما رجع إليه اعتذارًا .

ثانيًا : والرجوع إلى الحق وفاءً كما رجع إليه عهدًا .

ثالثًا : والرجوع إلى الحق حالًا كما رجع إليه إجابة .

أولًا : « الرجوع إلى الحق إصلاحًا كما رجع إليه اعتذارًا » ، لَمَّا كان التائب قد رجع إلى الله سبحانه وتعالى بالاعتذار والإقلاع عن المعصية كان من تتمة ذلك ؛ كما قال ابن القيم : « رجوعه إليه بالاجتهاد والنصح في طاعته » ، أي :

(١) وهذا كلام صاحب المنازل ـ منازل السائرين ـ للهروي ـ غفر الله لنا وله ـ مع شرح العلامة ابن القيم في « المدارج » (١/ ٤٣٥) بتصرف .

رجوعه إلى الحق إصلاحًا بالاجتهاد في العمل الصالح ، وإصلاح ما أفسد قبل ذلك بالمعصية ؛ قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ [الفرقان:٧٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـًٔا ﴾ [مريم:٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾ [البقرة:١٦٠] ، « فلا تنفع توبة وبطالة ، فلابد من توبة وعمل صالح » ، أي : فلا تصح التوبة مع عدم إصلاحٍ لما فات ا فمن شروط التوبة : العمل الصالح بعد الإقلاع عن الذنب والندم .

قال : « تركٌ لما يَكره سبحانه وتعالى ، وفعلٌ لما يُحِبُّ سبحانه وتعالى ؛ تَخَلٍّ عن معصيته ، وتحلٍّ بطاعته » ، والمعنى أن تتزين بالطاعة ، وتتخلى عن المعصية ؛ فهنا تحليةٌ بعد التخلية في التوبة ، وكذلك في التوحيد تخليةٌ قبل التحلية ؛ تخلية بالكفر بالطاغوت ، وتحليةٌ بالتوحيد لله وحده : ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٥٦] ؛ فقدَّم الله التخلية على التحلية في التوحيد ، وقوله : الرجوع إلى الحق وفاءً كما رجع إليه عهدًا ؛ فهذا عهدٌ من الله على كلِّ مسلم إن زلَّ أن يرجع إليه للعهد الذي أخذه عليه .

قال ابنُ القيم رحمه الله : « وكذلك بالرجوع إليه بالوفاء بعهده كما رجعْتَ إليه عند أخذ العهد عليك ، فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولًا ، فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانيًا ، والدينُ كلُّه : عهدٌ ووفاء » ؛ عهدٌ مقطوعٌ عليك أن ترجع وأن تنيب إلى الله ؛ فإن زلَّت قدمك وعُدت إلى الله سبحانه لِتَفي بهذا العهد الذي أخذه عليك ؛ قال : « فإن الله سبحانه وتعالى أخذ عَهْده على جميع المكلفين بطاعته » ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ

شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٢، ١٧٣] ، إذًا هناك عهدٌ مقطوعٌ من الله على كلِّ الخلق بتوحيده وطاعته وحْدَه لا شريك له ؛ قال : « فأخذ عهْدَه على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته أو إلى الرسول بلا واسطة ؛ كما كلَّم الله موسى تكليمًا ، وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل ، وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء ؛ فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم وعلى هؤلاء بالتعلم ، ومدح الموفِّين بعهده ، وأخبرهم بما لهم عنده من الأجر العظيم ؛ فقال : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح:١٠] ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٤] ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل:٩١] ، وقال : ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ ﴾ [البقرة:١٧٧] ، وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له ، بالإخلاص والإيمان والطاعة ، وعهودهم مع الخلق ، وأخبر النبيُّ ﷺ أن من علامات النفاق : الغدر بعد العهد [(١)] .

فما أناب إلى الله ﷻ مَنْ خان عهده وغدر به ، كما أنه لم يُنِبْ إلى الله سبحانه من لم يدخل تحت عهده ؛ فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد ـ الذي قطعه

---

(١) وذلك ثابتٌ في « الصحيحين » (البخاريّ ، كتاب الإيمان ، باب علامات المنافق برقم (٣٣) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق (برقم ٥٩) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » وفي « الصحيحين » (البخاري برقم : ٣٤ ومسلم برقم ٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو أن النبيَّ ﷺ قال : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » .

الله عليك ـ ثم بالوفاء به » .

الأمر الثالث : « الرجوع إليه حالًا كما رجعت إليه إجابة » فالله سبحانه وتعالى قد دعاك للتوبة وللطاعة والإنابة فلبيت بالإجابة القولية بقولك : « لبيك وسعديك » وهذا قول الجميع ؛ فكلُّنا أجاب الله بلسانه ؛ لكن مَنْ مِنَّا أجاب الله بحاله ؟ يعني : بقلبه وعمله .

فإن خالف القولُ العملَ بُذرت بذورُ النفاق في القلوب ، ولذلك ترى كثيرًا من القلوب الآن تسمع عن الله ورسوله فلا تتأثر ؛ لأنها ما أجابت ربَّها إلا باللسان فحسب ، ولم تُجبْ ربَّها قلبًا ولا عملًا ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٢، ٣] .

قال ابنُ القيم : « فلابد من الإجابة حالًا تُصدق به المقال ؛ فإن الأحوال تصدِّق الأقوال أو تكذبها ، وكُلُّ قولٍ فلصِدْقه وكذبه شاهدٌ من حال قائله ؛ فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال ؛ فارجع إليه إجابة بالحال » .

فالحال قولُ القلبِ وعملُ القلب ، وعملُ الجوارح يُصدِّق القلب أو يكذبه ؛ اللهم ارزقنا الصدق في الأقوال والأعمال والأحوال .

قال : « وإنما يستقيم الرجوع إلى الحق إصلاحًا بثلاثة أشياء : « بالخروج من التبعات ، والتوجع للعثرات ، واستدراك الفائتات » .

والخروج من التبعات : هو بالتوبة من الذنوب التي بين العبد وبين الله ، وأداء الحقوق التي عليه للخلق ، والتوجع للعثرات يحتمل شيئين أحدهما : أن يتوجع لعثرته إذا عثر ـ في المعصية ـ ويتوجع قلب المنيب وينصدع ، وهذا دليلٌ على إنابته ـ الصادقة ـ إلى الله ، بخلاف من لم يتألم قلبه ولا ينصدع من

عثرته ؛ فإنه دليلٌ على فساد قلبه وموته » .

إن قام العبد من نومه ؛ فوجد الفجر قد فات تجد قلبه ينصدع ، ويحمل همًّا على رأسه لا يعلم حقيقته إلا الله ، ويظلُّ طوال يومه خائفًا ؛ لأنه قد أخذ بالأسباب ؛ فربما يكون قد ضبط المنبه ، وربما يكون قد سأل الله أن يوقظه ، لكنَّ ربه تصدَّق عليه وعلى بدنه بهذه الدقائق التي نام فيها ؛ فأنت لا تستيقظ إلا بقدر الله ، ولا يُضرب على أذنك إلا بقدر الله ، ولقد نام النبيُّ ﷺ يومًا عن صلاة الفجر حتى أيقظه هو وأصحابه حرُّ الشمس [١] ؛ فكُلُّ شيءٍ بتقدير ؛ لكنَّ حال المنيب يتصدع قلبه إن فاتته طاعة ، وإن زلَّ في معصية يتألم ؛ فتراه إن عاد إلى بيته بالليل وقبل أن ينام ، يحاسب نفسه ، على ما فرط في جنب الله ، ويقوم يتوضأ ويصلي ويستغفر ويندم ... وهكذا لا يترك نفسه إلا وقد عاتبها ، إن وقع في غيبة لأحدٍ إخوانه ، توجع قلبه ، وذكَّر نفسه ، وقال : يا نفس : إن جاءني ملك الموت فماذا أصنع ؟ لو مِتُّ الآن بهذه المصائب كيف ألقى الله بها ؟ ! فتصدُّع قلب المنيب دليلٌ على حياة قلبه ، وهي الدليل على صدق إنابته إلى الله تبارك وتعالى ؛ فشتان بين هذا وبين من لا يتألم قلبه ولا يتصدع لوقوعه في ذنبٍ أو معصية ؛ فإنْ دلَّ ذلك فإنما يدلُّ على فساد قلبه وموته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الثاني : أن يتوجع العبد المنيب لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر حتَّى كأنه هو

---

(١) كما في « الصحيحين » (البخاريّ ، كتاب التيمم ، باب : الصعيد الطيب وضوء المسلم يكفيه من الماء برقم ٣٤٤ ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب قضاء الصلاة الفائتة ، واستحباب تعجيل قضائها ٦٨٢ واللفظ له) من حديث عمران بن الحصين قال: « كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ ، فَسَرَيْنَا لَيْلَةً حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ ، قُبَيْلَ الصُّبْحِ ، وَقَعْنَا تِلْكَ الْوَقْعَةَ الَّتِي لاَ وَقْعَةَ عِنْدَ الْمُسَافِرِ أَحْلَى مِنْهَا ؛ فَمَا أَيْقَظَنَا إِلاَّ حَرُّ الشَّمْسِ » ، وانظر « صحيح مسلم » (٦٨٠) في قصة بلال ، و « صحيح البخاري » (٥٩٥) بنحوه .

الذي عثر بها ولا يشْمَتُ به ؛ فهذا دليل على رقة قلبه ، وصدق إنابته لربه .

مَنْ مِنَّا يتألم إن عثر أخوه كأنه هو الذي عثر ؟ ويتوجع لتوجع إخوانه ، ويتألم لألمهم ، ويحزن لحزنهم ؛ وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاريُّ ومسلم [1] عن أنس أن النبيَّ ﷺ قال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» ؛ بل ترى أحدنا إذا زل أخوه يودُّ لو أظهر عثرته وأظهر زلته ! ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ويكمل باستدراج الفائتات وهو : «استدراك ما فاته من طاعة وقربة بأمثالها أو خير منها ، ولاسيما في بقية عمره عند قرب رحيله إلى الله ؛ فبقية عمر المؤمن لا قيمة لها ، يستدرك بها ما فات ، ويحيي بها ما مات » .

قال الهرويُّ: « وإنما يستقيم الرجوع إليه عهدًا كما رجعت إليه وفاءً بثلاثة أشياء : بالخلاص من لذة الذنب ، وبترك الاستهانة بأهل الغفلة ، تخوفًا عليهم مع الرجاء لنفسك ، وبالاستقصاء في رؤية علة الخدمة» ، فعلَّق ابن القيم بقوله : « إذا صفت له الإنابة إلى ربه تخلص من الفكرة في لذة الذنب وعاد مكانها ألمًا وتوجعًا لذكره ، والفكرة فيه ؛ فما دامت لذة الفكرة فيه موجودة في قلبه ، فإنابته غير صافية » ، بمعنى : أن تجد شخصًا وقع في جريمة الزنا ؛ لكنه ـ بفضلٍ من الله ـ قد أقلع وتاب ، لكنه ما زال بعد التوبة يتذكر لذة الذنب ، وتحدِّثه نفسه بالعودة إليه ، فإنْ جاهد نفسه ، وحال بينها وبين الرجوع للذنب مرَّةً أخرى ؛ فهذه درجَةُ طاعة ؛ أسأل الله أن لا يحرمه الأجر عليها .

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه من الخير (٤٥) .

لكن شتَّان بين من يتوب إلى الله ثم تراه يتذكر مِنْ آنٍ لآخر لذة الذنب، وبين من ينيبُ إلى الله سبحانه وتعالى ، وتنقطع عنده بالمرَّة لذةُ الذنب الذي وقع فيه من قبل ؛ فالعبد إنْ صَفَتْ له الإنابة إلى ربِّه تخلَّص من الفكرة في لذة الذنب ، بل وعاد مكانها ؛ أي : مكان هذه اللذة ألمًا وتوجعًا لذكره ؛ فما دامت لذةُ الفكرة فيه موجودة في قلبه ، فإنابته غير صافية ـ إذ لم تحل بينه وبين الوقوع في المعصية ، أما إن حالت بينه وبين الوقوع في المعصية ؛ فإنه يؤجر على ذلك حتمًا ، لذلك : « فإن قيل أيُّ الحالين أعلى؟ حالُ من يجدُ لذةَ الذنب في قلبه فهو يجاهد نفسه لله ، ويتركها من خوفه ومحبته وإجلاله ، أو حالُ من ماتت لذةُ الذنب في قلبه ، وصار مكانها ألمًا وتوجعًا وطمأنينة إلى ربه ، وسكونًا إليه والتذاذًا بحبه ، وتنعمًا بذكره ؛ أيهما أكمل ؟ قيل : حالُ هذا ، أي الذي ماتت لذةُ الذنب في قلبه ؛ فحاله أكمل وأرفع ، فغاية صاحبِ المجاهدة أن يجاهد نفسه حتى يصل إلى مقام هذا ومنزلته ، ولكنه يتلوه في المنزلة والقرب » ، أي : من يجدُ اللذة في الذنب أو للذنب ، ولكنه يجاهد نفسه حتى لا تقع مرةً أخرى في ذات الذنب ؛ قال ابن القيم : « فإن قيل : فأين أجر مُجاهدة صاحب اللذة ، وتركه محابَّهُ لله ، وإيثاره رضى الله على هواه ؟ قيل : النفس لها ثلاثة أحوال : الأمر بالذنب ، ثم اللوم عليه ، والندم منه ، ثم الطمأنينة إلى ربها ، والإقبال بكليتها عليه .

وهذه الحال أعلى أحوالها وأرفعها ، وهي التي يشمر إليها المجاهد ، وما يحصل له من ثواب مجاهدته وصبره ، فهو لتشميره إلى درجة الطمأنينة إلى الله ؛ فهو بمنزلة راكب القفار ، والمهامة والأهوال ؛ ليصل إلى البيت ، فيطمئن قلبه برؤيته والطواف به ، والآخر بمنزلة من هو مشغول به طائفًا وقائمًا وراكعًا وساجدًا ، ليس له التفات إلى غيره ؛ فهذا مشغول بالغاية ، وذاك بالوسيلة ، وكلٌّ

له أجر ، ولكن بَيْن أجر الغايات وأجر الوسائل بَوْنٌ ، وما يحصل للمطمئن من الأحوال والعبودية والإيمان فوق ما يحصل لهذا المجاهد نفسه في ذات الله ، وإن كان أكثر عملًا ، فقدر عمل المطمئن المنيب بجملته وكيفيته أعظم .

وإن كان هذا المجاهد أكثر عملًا ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، فما سبق الصديقُ الصحابة بكثرةِ عمل ، وقد كان فيهم مَنْ هم أكثر صيامًا وحجًّا وقراءةً وصلاةً من أبي بكر ، لكنه سبقهم بأمرٍ آخر قام بقلبه ، حتى إن أفضل الصحابة بعد الصديق كان يسابقه ، ولا يراه إلا أمامه ، ولكن عبودية مجاهد نفسه على لذة الذنب والشهوة قد تكون أشق ، ولا يلزم من مشقتها تفضيلها في الدرجة »[1] ؛ فعمر رضي الله عنه كان يسابق الصديق ، لكنه كان لا يراهِ في كلِّ مرةٍ إلا أمامه ؛ روى الترمذيُّ[2] بسندٍ صحيح من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالاً فَقُلْتُ : الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا ، قَالَ : فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ ؟ قُلْتُ : مِثْلَهُ ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ ؛ فَقَالَ : يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ ؟ قَالَ : أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ قُلْتُ : وَاللهِ لاَ أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا » .

فما سبق الصديقُ بكثيرِ عمل ، ولكن بأمرٍ وقر في قلبه ! إنه اليقين في الله والعبودية له ؛ فصاحبُ أعلى يقين في الأمة بعد نبيها هو أبو بكر رضي الله عنه .

تدبر موقف أبي بكر وعمر في الحديبية ؛ ففي « الصحيحين »[3] من

---

(١) « المدارج » (١/ ٤٣٨) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب المناقب ، باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما (٣٦٧٥) وقال : « هذا حديثٌ حسن صحيح » وأبو داود ، كتاب الزكاة ، باب الرجل يخرج من ماله (١٦٧٨) وعبد بن حميد (١٤) ، والدارمي (١٦٦٠) ، والحاكم (١/ ٥٧٤) وصحَّحه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وحسَّنه الألباني في « المشكاة » (٦٠٢١) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجزية والموادعة ، باب (١٨) (٣١٨٢) ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب صلح الحديبية في الحديبية (١٧٨٥) .

حديث أبي وائل قال : كُنَّا بِصِفِّينَ فَقَامَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ ؛ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ ، فَإِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَلَوْ نَرَى قِتَالاً لَقَاتَلْنَا ، فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ، أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ؟ فَقَالَ : « بَلَى » ؛ فَقَالَ : أَلَيْسَ قَتْلانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلاهُمْ فِي النَّارِ ؟ قَالَ : « بَلَى » ، قَالَ : فَعَلَى مَا نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا ، أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ الله بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ؟ فَقَالَ : « ابْنَ الْخَطَّابِ ، إِنِّي رَسُولُ الله ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي الله أَبَدًا » ؛ فَانطَلَقَ عُمَرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : إِنَّهُ رَسُولُ الله ، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ الله أَبَدًا . فَنَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ ، فَقَرَأَهَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى عُمَرَ إِلَى آخِرِهَا ؛ فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ الله ، أَوَفَتْحٌ هُوَ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » .

وفي رواية[1] : فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : فَأَتَيْتُ نَبِيَّ الله ﷺ فَقُلْتُ أَلَسْتَ نَبِيَّ الله حَقًّا ؟ قَالَ : « بَلَى » ، قُلْتُ : أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟ قَالَ : « بَلَى » ، قُلْتُ : فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا ؟ قَالَ : « إِنِّي رَسُولُ الله ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي » ، قُلْتُ : أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ : « بَلَى ، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ ؟ » ، قَالَ : قُلْتُ : لاَ ، قَالَ : « فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ » ، قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ : يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ الله حَقًّا ؟ قَالَ : بَلَى ، قُلْتُ : أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟ قَالَ : بَلَى ، قُلْتُ : فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا ؟ قَالَ : أَيُّهَا الرَّجُلُ ، إِنَّهُ لَرَسُولُ الله ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ ؛ فَوَالله إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ ، قُلْتُ : أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ : بَلَى ، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ ؟ قُلْتُ : لاَ ، قَالَ : فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ » .

ولاحِظْ أن إجابات الصديق ﷺ نسخةٌ من إجابات النبيِّ ﷺ ، بالرغم

(١) في « صحيح البخاري » كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٧٣١ و ٢٧٣٢) .

من أن الصديق لم يكن وقتها جالسًا مع رسول الله ﷺ ، ومع ذلك ترى الإجابة واحدة منهما .

وترى كذلك الفارق الكبير بين الصديق والفاروق يوم مات المصطفى ﷺ ؛ ففي « صحيح البخاري » [(١)] من حديث عائشة رضي الله عنها زوج النبيِّ ﷺ ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ ، قَالَ إِسْمَاعِيلُ : يَعْنِي بِالْعَالِيَةِ ، فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ : وَالله مَا مَاتَ رَسُولُ الله ﷺ ، قَالَتْ : وَقَالَ عُمَرُ : وَالله مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ الله فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَقَبَّلَهُ قَالَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ الله الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ : أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ ؛ فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ ، فَحَمِدَ الله أَبُو بَكْرٍ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله فَإِنَّ الله حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ، وَقَالَ : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي الله الشَّاكِرِينَ﴾ قَالَ : فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ » .

بالله عليكم أيُّ يقينٍ هذا ؟! لو فتَّشت في كلِّ قواميس اللغة لن تجد كلمات رقراقة لتسعفك للتعبير عن موقف أبي بكر ، وعن يقينه ، وعن صدق توكُّلِه ، وحقيقة معرفته بربه جلَّ وعلا ؛ وما أجمل قول ابن القيم [(٢)] : « هذا هو أبو بكر الصديق الذي عاين طائر الفاقة ، يحوم حول حب الإيثار ، فألقى له

(١) أخرجه البخاريُّ في « الصحيح » ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب : قول النبيِّ ﷺ : « لو كنت متخذًا خليلًا » (٣٦٦٧) .

(٢) « الفوائد » (٧٢) ط الكتب بتصرف يسير .

الصديق حب الحب (المال) على روض الرضا ، واستلقى الصديق على فراش الفقر ـ آمنًا مطمئنًا ـ فنقل الطائر الحبَّ إلى حوصلة المضاعفة ـ وتركه هنالك ـ ثم علا على أفنان شجرة الصدق ؛ ليغرد للصديق بأغلى وأعلى فنون المدحِ ، وهو يتلو في حقه قوْل ربه : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل:١٧، ١٨] ، والأتقى هو أبو بكر الصديق ﷺ[1] .

فـ « عبودية مَنْ يجاهد نفسه على لذة الذنب والشهوة قد تكون أشقَّ ، ولا يلزم من مشقتها تفضيلها في الدرجة ؛ فأفضل الأعمال : الإيمان بالله ، والجهاد أشق منه ، وهو تاليه في الدرجة » ؛ فالجهاد في المرتبة الثانية بعد الإيمان ، فقد تكونُ عبودية من يجاهد نفسه شديدة وأشق ، لكن لا يلزم من المشقة أنها تفضل في الدرجة غيرها من الأعمال ، « ودرجة الصديقين أعلى من درجة المجاهدين والشهداء » ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩] .

الأمر الثاني من علامات الإنابة[2] : « ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم ، مع فتحك باب الرجاء لنفسك ، فترجو لنفسك الرحمة ، وتخشى على أهل الغفلة النقمة ، ولكن ارجُ لهم الرحمة ، واخش على نفسك النقمة ، فإن كنت لابد مستهينًا بهم ، ماقتًا لهم ، لانكشاف أحوالهم لك ، ورؤية ما هم عليه ؛ فكن لنفسك أشدَّ مقتًا منك لهم ، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك » .

---

(١) وقد قيل بأن هذه الآيات نزلت في أبي بكر ﷺ بعتقه من أعتق من المماليك ابتغاء وجه الله ؛ كما في « تفسير الطبري » (لسورة الليل : ١٧ ، ١٨) .

(٢) « المدارج » (١/ ٤٣٨) .

ولقد مرَّ رجلٌ من أهل الصلاح على مجموعة من أهل المعاصي ؛ فقال له جليسٌ من جلسائه : ادع الله عليهم ؛ فقال : ارفعوا أيديكم ، فرفعوا أيديهم ؛ فقال : « اللهم كما فرحتهم في الدنيا فرِّحهم في الآخرة » ؛ فقال له أحدهم ، كيف تدعو لهم ، وهم من أهل المعصية ؟ !

قال : « اعلموا بأن الله لن يفرحهم في الآخرة إلا إن وفقهم في الدنيا بطاعته ، وما ضرَّكم ذلك من شيء » ؛ فأنت تبغض المعصية ، ولكن فرق بين بغض المعصية ، وبغض الشخص نفسه ؛ لأنني لو غضبتُ منه غضبت عليه ، فأنا أرجع إلى نفسي لأقف على عيبها وتقصيرها ، فسأكون إن كنتُ من المنيبين الصادقين سأكون أشدَّ غضبًا من نفسي أكثر من غضبي على هذا الغافل ؛ لأن عيوبي أكثر وأنا أعرفها ، وأنا إن طلبتُ الرحمة لي أطلب الرحمة لأخي المسلم الغافل العاصي المذنب ؛ لأنه قد يكون أقلَّ ذنبًا مني ؛ فنحن نبغضُ المعاصي ؛ لكننا لا نغتر بطاعتنا ولا نستعلي على أهل المعاصي ؛ لأن بعض الناس إذا أراد أن يدعو غيره ؛ فلسان حاله يقول : أنا التقي وأنت الشقي ، أنا العالم وأنت الجاهل ، أنا المتبع وأنت المبتدع !! وربُّ العزة يقول : ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [النساء:٩٤] ، ما حالك قبل التوبة ؟ ما مِنَّا من أحد بلا استثناء إلا وكان على المعاصي ، وما زال على المعاصي ؛ فما هذا الغرور؟ وما هذا العُجْب؟! قال ابن القيم [(١)]: قال بعض السلف : « لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله ، ثم ترجع إلى نفسك ، فتكون لها أشدَّ مقتًا » ؛ وهذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه في دين الله ، فإن مَنْ شهد حقيقة الخلق وعَجْزهم ، بل وتقصيرهم ، بل وتفريطهم

---

(١) المصدر نفسه .

وإضاعتهم لحق الله ، وإقبالهم على غير الله ، وبيعهم حظَّهم من الله بأبخس الأثمان من هذا العاجل الفاني لم يجد بُدًّا من مقتهم .. ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره ، وكان على بصيرةٍ من ذلك كان لنفسه أشد مقتًا واستهانة ؛ فهذا هو الفقيه في دين الله تبارك وتعالى » .

روى مسلمٌ في « صحيحه »[1] من حديث أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ قال : « إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ » بالضم ، وفي لفظٍ : « فَهُوَ أَهْلَكَهُمْ » بالفتح .

قال النوويُّ[2] : « قوله ﷺ : « إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ » رُوي «أهلكهم» على وجهين مشهورين؛ رفع الكاف وفتحها ، والرفع أشهر ، ويؤيده أنه جاء في رواية رويناها في « حلية الأولياء » في ترجمة سفيان الثوري : « فهو من أهلكهم » .

قال الحميديُّ في « الجمع بين الصحيحين » : الرفع أشهر ، ومعناها : أشدهم هلاكًا ، وأما رواية الفتح ؛ فمعناها هو جعلهم هالكين ، لا لأنهم هلكوا في الحقيقة ، واتفق العلماء على أن هذا الذم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس واحتقارهم وتفضيل نفسه عليهم وتقبيح أحوالهم ؛ لأنه لا يعلم سرَّ الله في خلقه ، قالوا : فأما من قال ذلك تحزُّنًا لما يرى في نفسه من النقص في أمر الدين ، فلا بأس عليه كما قال : لا أعرف من أمة النبي ﷺ إلا أنهم يصلون جميعًا ، هكذا فسره الإمام مالك وتبعه الناس عليه ، وقال الخطابي : معناه : لا يزال الرجل يعيب الناس ويذكر مساويهم ويقول فسد

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب النهي عن قوله : هلك الناس (٢٦٢٣) .

(٢) « شرح مسلم » للنووي (١٦/ ١٧٥) ط دار إحياء التراث .

الناس وهلكوا ونحو ذلك ، فإذا فعل ذلك أهلكهم ؛ أي : أسوأ حالًا منهم بما يلحقه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم ، وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أنه خير منهم ، والله أعلم » انتهى.

فإذا نظر الإنسانُ إلى أحوال نفسه وأحوال الأمة وأحوال الناس وقال : لقد ابتعد الناسُ عن منهج الله من باب التذكير ، ومن باب حث النَّاس على العودة لأمر الله ، لا من باب العُجْب مما هو عليه ؛ فهذا هو منهج الأنبياء ، ومنهج الصالحين والعلماء ممن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في كلِّ زمانٍ وحين ؛ بل هذا شرطٌ من شروط خيرية هذه الأمة ؛ قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[آل عمران:١١٠] .

الأمر الثالث من علامات الإنابة ؛ قال رحمه الله [(١)] : « وأما الاستقصاء في رؤية علل الخدمة » ؛ معنى ذلك : أن تفتش في قولك وعملك ، لتميز ما كان منه لله وما كان منه لحظ النفس ، والله الذي لا إله غيره لو صدقت لن تجد قولًا ولا عملًا إلا وكان فيه حظ النفس أوفر إلا من رحم الله ، ولو استطاع العبد أن يخدع نفسه ـ ولو خدع أهل الأرض ـ فلن يستطيع أن يخادع ربَّ السماء والأرض ؛ قال تعالى : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[البقرة:٩، ١٠] .

فهذه تعريةٌ واضحةٌ واستقصاءٌ في رؤية علل الخدمة ؛ قال ابنُ القيم : « أي : التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس وتمييز حق الرب منها من حظ النفس ، ولعل أكثرها ـ أو كلَّها ـ تكون حظًّا لنفسك وأنت لا تشعر ، فلا

(١) أعني : صاحب المنازل ؛ كما في « المدارج » (١/ ٤٣٩) .

إله إلا الله ؛ فكم في النفوس من علل وأغراض وحظوظٍ تمنع الأعمال : أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه!! وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر ألبته ، ومع ذلك فعمله غير خالص لله ، وإن العبد ليعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقًا ، وعمله خالص لوجه الله » وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم « ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها ؛ فبين العمل وبين القلب مسافة ، وفي تلك المسافة قُطَّاعٌ تمنع وصول العمل إلى القلب ، فيكون الرجل كثير العمل وما وصل من هذا العمل إلى قلبه شيء من المحبة ، ولا من الخوف ، ولا من الرجاء ، ولا من الزهد في الدنيا ، ولا من الرغبة في الآخرة ، ولا من النور الذي يفرِّق به بين أولياء الله وأعدائه ، ولا ما يفرق به بين الحق والباطل ولا قوة في أمره ؛ فلو وصل أثر هذه الأعمال إلى قلبه لاستنار القلب وأشرق ، ورأى الحق والباطل ، وميز بين أولياء الله وأعدائه ، وأوجب له كُلُّ ذلك المزيد من الأحوال»التي تقربه من مرضاة الكبير المتعال ؛ فقد يكون العبدُ كثيرَ العمل، لكن بين العمل وبين القلب مسافة كبيرة ، وعليه قطاع طُرُق ؛ كالرياء والشهرة وحب الجاه وحب السمعة والمن ، فتحول بين وصول العمل إلى القلب ، ولا يشعر القلب بلذة العمل ، إن دخل الصلاة لا يشعر بحلاوتها ، ويخرج ليغتاب ، ويكذب ، وينظر إلى الحرام ؛ بل ربما يتصدق ويمنُّ في صدقته ! فيأتي ليخشع عندما يسمع القرآن ؛ فلا يستطيع ! لأن القلب مليءٌ بالشهوات والشبهات ؛ فلابد من تخلية القلب أولًا ؛ حتى يجد مكانًا للخشوع ؛ وهذا حالُ كثيرٍ من المسلمين ؛ أسأل الله أن يسترنا بستره الجميل في الدنيا والآخرة .

قال ابنُ القيم : « ثم بين القلب وبين الربِّ مسافة » ، والعبد « إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه ؛ فالتقوى في الحقيقة هي تقوى

القلوب لا تقوى الجوارح[١] .

قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج:٣٢] ، وقال تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج:٣٧] .

وقال النبيُّ ﷺ : « التَّقْوَى هَاهُنَا التَّقْوَى هَاهُنَا » مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ[٢] »[٣] .

ثم قال رحمه الله : « وعليها ـ أي : المسافة بين القلب والرب ـ قطاعٌ تمنع وصول العمل إليه سبحانه وتعالى ؛ من كبرٍ وإعجابٍ وإدلال ، ورؤية العمل ، ونسيان المنة ، وعلل خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب ، ومن رحمة الله تعالى : سترها على أكثر العمال ، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها ، من اليأس والقنوط والاستحسار ، وترك العمل ، وخمود العزم ، وفتور الهمة » ؛ فمن رحمة الله أن يستر على العبد كثيرًا من العلل الخفية التي تحول بين قبوله لهذا العمل ، والطبيبُ الحاذق يعلم كيف يُطبب النفوس ؛ فهو لا يُعَمِّر قصرًا ؛ ليهدم مصرًا ، وكذلك الرجوع إلى الله حالًا كما رجع إليه إجابة ؛ قال رحمه الله : « وإنما يستقيم الرجوع إليه حالًا بثلاثة أشياء : بالإياس من عملك ، وبمعاينة اضطرارك ، ورؤية بَرْقِ لطف الله بك » . أي : لا تظن أن عملك منجاة ؛ فلن يدخل الجنة أحدٌ بعمله ؛ كما في

---

(١) وإن كنت لا أقلل من شأن هذا المظهر النبوي ؛ فهناك ارتباطٌ وثيقٌ بين المظهر والجوهر أو بين الظاهر والباطن ، يجب أن يكون الأمر كذلك ، وهذا متفق عليه عند السلف .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم ظلم المسلم (٢٥٦٤) .

(٣) « الفوائد » (١٤١ و ١٤٢) لابن القيم .

« الصحيحين »[1] من حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَنْ يُنَجِّيَ أَحَداً مِنْكُمْ عَمَلُهُ » ! قالوا : وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَتِهِ » .

وفي رواية : « إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » .

والباء هنا في الحديث هي باء السببية ؛ فأنت تعمل ليكون عملك سببًا لدخول الجنة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف:٧٢] ؛ لأن الله قدَّر وشاء ألا يدخل أحدٌ الجنة إلا بعمل ؛ لكن لا يوجد عملٌ على وجْه الأرض يكافئ دخول الجنة ويكون عوضًا لذلك ! لذا ينبغي على العبد ألا يغتر بأعماله ؛ بل يعمل الطاعة وهو في الوقت نفسه يخاف ألا يُقبل منه ؛ فيقول : يا رب كما وفقتني اليوم للطاعة وفقني لها في سائر الأيام ؛ لأنك لا تدري كيف تكون الخاتمة ، والأعمال بالخواتيم ، والذي وفقك لكلِّ هذا هو الذي يستحقُّ الشكر وحْدَه سبحانه وتعالى .

وهذا هو المراد بقول ابن القيم : « أن تيأس من النجاة بعملك ، وترى النجاة إنما هي برحمته تعالى وفضله » ثم قال : « وأما معاينة الاضطرار ؛ فإنه إذا أيس من عمله بداية ، وأيس من النجاة به نهاية ، شهد العبد لربه ، وأنه مضطر إليه بذاته ؛ كما أن الله ﷻ غنيٌّ بذاته ، فإن الغِنَى وصفٌ ذاتيٌّ للرب ، والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتي للعبد ؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

والفقر لي وصف ذات لازم أبدًا ... كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣) ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦) .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾

[فاطر:١٥ ـ ١٧]

قال رحمه الله [1] : « من عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق ، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالذل التام ، والفقر نوعان : فقرٌ اضطراريٌّ ، وفقر اختياريٌّ ؛ أما الفقر الاضطراريُّ ، وهو : فقر عام للربوبية ، وهو فقر جميع المخلوقات إليه ، لا ينفك عنه كافر ولا مؤمن ، ولا برٌّ ولا فاجر ، وهذا الفقر لا يقتضي مدحًا ولا ذمًّا ولا ثوابًا ولا عقابًا .

أما الفقر الاختياريُّ وهو : فقر إلى ألوهيته ، وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين » ا.هـ .

وكلما ازداد العبد فقرًا إلى الله وذلًّا إليه زاده الله عزًّا ورفعة وكرامة ؛ فمعاينة الاضطرار إذا أيس الإنسان من عمله ورأى نفسه مضطرًا فقيرًا إلى الله تبارك وتعالى ، وعلى العبد بعد ذلك أن ينظر لُطْف الله به ، وأن يعلم أن كلَّ ما هو فيه وما يرجوه وما تقدم له : لطف من الله به ، ومِنَّة مَنَّ بها عليه ، وصدقة تصدق بها عليه بلا سبب منه ؛ إذ هو المحسن بالسبب والمسبب ، والأمر له من قبل ومن بعد ، وهو الأول والآخر ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

تلك كلمات نفيسةٌ للعلامة ابن القيم هذَّبتها ونقحتها وزدتُ حولها عباراتٍ موضحة ، وأسأل الله أن يرزقنا الإنابة إليه ، واعلم أخي الحبيب أنَّ من الأسباب التي تعين العبد على تحقيق تلك المنزلة ما يلي :

١ ـ كثرة الذكر والتسبيح والتهليل إلى غير ذلك ؛ كما قال ابن القيم في « الوابل

---

(١) « طريق الهجرتين » (٢٣ ـ ٢٧ بتصرف) ط ابن القيم .

الصيب »[1] : « وفي الذكر أكثر من مائة فائدة » ، ثم قال : « الحادية عشرة : أنه يورث الإنابة وهي الرجوع إلى الله ﷻ ؛ فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره أورثهُ ذلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله ؛ فيبقى الله ﷻ مفزعَهُ وملجأَهُ وملاذهُ ومعاذهُ وقِبْلَةَ قلبه ، ومهربه عند النوازل والبلايا » .

٢ ـ التدبر والتفكر في نعم الله وآياته وآلائه وأياديه في الكون ؛ كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾

[ق:٦ ـ ١٠]

قال ابن القيم في « شفاء العليل »[2] بعد ذكره للآية : « أي : لأجل التبصرة والذكرى ، والفرق بينهما أن التبصرة توجب العلم ، والذكرى توجب الإنابة والانقياد ، وبهما تتم الهداية » .

هذا بإيجازٍ شديد عن منزلة الإنابة ؛ فمن نزل منزلة التوبة ، وقام في مقامها نزل بعد هذا في منزلة الإنابة العظيمة ، وأسأل الله أن يرزقنا وإياكم توبة منه لنتوب إليه ، وإنابة منه لننيب إليه ؛ إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه .

*****

---

(١) « الوابل الصيب » (٦٢ ط الكتاب العربي) .

(٢) « شفاء العليل » (ص ١٩٤ ط الفكر) .

التذكُّر والتفكُّر

فقد انتهينا في الفصل السابق من الحديث عن منزلة الإنابة ؛ قال العلامة ابنُ القيم [(١)]: « ثم ينزلُ القلب منزل التذكر ، وهو الإنابة » .

إننا كثيرًا ما نُسأل : لماذا لا يعتبر الناسُ بالآيات المقروءة والمشهودة ؟ لماذا لا يستبصر الناسُ العبر في الأحداث الجارية ؟ لماذا لا يتأثر الناس بآيات الله المتلوة المسطورة في القرآن الكريم ؛ وآيات الله المنثورة والمشهودة في الكون من العرش إلى الفرش ، ومن السماء إلى الأرض ؟

والجوابُ : لأنَّ الله تبارك وتعالى حدَّد صنفًا معينًا هو الذي يتذكَّر ، وهو الذي يتأثر بالموعظة ، وهو الذي يعتبر بالآية المتلوة والآية المشهودة على السواء ؛ قال الله سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾[غافر:١٣] ، وقال جَلَّ وعلا : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[ق:٨] ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد:١٩] ؛ فأولوا الألباب هم أصحاب العقول الذين ينتفعون ويتذكرون ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة:٢٦٩] ، آيات كثيرة ؛ فالتذكر والتفكر منزلان أو مقامان يثمران كُلَّ أنواع المعارف ، وحقائق الإيمان والإحسان ؛ فالعارف بالله سبحانه وتعالى هو العارف بأسماء جلاله ، وبصفات كماله ، وبآياته ، والمستبصر المعتبر بأيام الله سبحانه وتعالى ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ [إبراهيم:٥] ؛ قال العلامة ابن القيم [(٢)] : « التذكر مقدمة المعرفة ، ومنه يدخل إلى مقام

---

(١) « المدارج » (١/ ٤٤٠ و ٤٤١) بتصرف يسير .

(٢) « المدارج » (٣/ ٨٩) ط دار الكتاب العربي ، الطبعة الثانية ، تحقيق محمد حامد الفقي .

الإيمان والإحسان ؛ فإنه إذا تذكَّر أبصر الحقيقة ؛ كما قال تعالى : ﴿ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١] » . ا.هـ .

ثم قال هنا : « والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره ، وبتذكره على تفكره ، حتَّى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم » .

وهكذا لابد من التلاقح بين التذكر والتفكر ، حتى يُفتح قفل قلبك ؛ لأن القلوب عليها أقفال ، وهذه الأقفال لا تفتح إلا بإذن الفتاح العليم ـ سبحانه وتعالى .

قال الحسنُ البصريُّ رحمه الله : «ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت »[1] يعني : حتَّى يفتح الله عز وجل هذه الأقفال المغلقة على القلوب ، فيشهد القلبُ ويتأثر بالموعظة : بالآية المتلوة ، والآية المرئية المشهودة ؛ « فالتذكر تَفعُّل من الذكر ، وهو ضدُّ النسيان ، وهو حضورُ صورة المذكور العملية في القلب » يعني : إذا تذكرت طفلك وأنت جالس الآن كيف يتحقق التذكر إذا استحضرت الصورة العملية الفعلية لطفلك ؟ بمعنى : كيف يتحول هذا الذكر إلى تذكر ؟ بالتفكر ؛ فأنت إذا نظرت فتذكَّرْتَ صورة طفلك فتفكُّر الذكرى حتَّى تصطاد الفكرة ، فتتذكر الصورة الفعلية والعملية لمن تذكرت ؛ فتبدأ في هذه اللحظة ربما تضحك ؛ لأنك تذكرت كلمة جميلة لطفلك أو موقفًا ظريفًا ، وربما تبكي ؛ لأنك تذكرت موقفًا مؤثرًا لطفلك ، أو لأي صورة أنت تذكرتها .

---

(١) وهو في « الحلية » لأبي نعيم (١٠/ ١٩) بسنده إلى الحسن قال : « إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر ، وبالفكر على الذكر حتى استيقظت قلوبهم ، فنطقت بالحكمة » .

ثم قال رحمه الله: «واختير له بناء التفعُّل ؛ لحصوله بعد مهلة وتدرج ؛ كالتبصر ، والتفهم ، والتعلُّم » والتعلم يأتي بالعلم ، والتفهم يأتي بالفهم ، والحرص عليه ، والتبصر يأتي بالبصيرة ـ وهكذا ـ فالتفكر تفعُّل يحتاج إلى فعل وإلى عمل .

« فمنزلةُ التذكُّر من التفكر منزلة حصول الشيء المطلوب بعد البحث عنه والتفتيش عليه » ، فلا يمكن أن نتذكر عظمة الله وجلاله إلا إذا اجتهدنا وتفكَّرنا في أسماء جلاله ، وصفات كماله ، وفضله في عطائه ، وحلمه في كرمه ؛ فلا يمكن أبدًا أنْ يأتيك التذكر إلا بعد التفكر ، «ولهذا كانت آيات الله المتلوة ـ التي هي القرآن ، وآيات الله المشهودة ـ في الكون ـ ذكرى ؛ أي: لا يتأثر بها إلا من تذكر ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [غافر:٥٣، ٥٤] ، وقال الله تعالى في شأن القرآن : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الحاقة:٤٨] ، وقال في آياته المشهودة الكونية : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق:٦ ـ ٨] ؛ فالتبصرة آلةُ البصر ، والتذكُّر آلةُ الذكر ، وقرن بينهما ، وجعلهما لأهل الإنابة ؛ لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر » ؛ فالذي يبصر مواقع الآيات والعبر هو العبد المنيب الأواب صاحب القلب النير والعقل الرشيد ، وهذا هو الذي يتذكر ويتأثر بالآيات والعبر ، «فاستدلَّ بها على الله سبحانه وتعالى ، فزال عنه الإعراض بالإنابة ـ يعني : بالتوبة ، وزال عنه العمى بالبصيرة ، وزالت عنه الغفلة بالتذكر» ؛ فالناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : رجل

قلبه ميت ؛ فذلك الذي لا قلب له ؛ فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه .

واعلم ـ أخي ـ أن القلوب شأنها عجب ، ولا ينجو العبد يوم القيامة بمظهره ولا بشكله ولا بمنصبه ولا بشهرته ولا بجاهه إنما بقلبه ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

[الشعراء:٨٨، ٨٩]

قال ابن القيم [(١)] : « ولا يسلم القلب حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد ، وبدعة تخالف السنة ، وغفلة تناقض الذكر ، وشهوة تخالف الأمر ، وهوى يناقض الإخلاص » فاعرض قلبك على هذه الشروط ؛ حتى يسلم ؛ فلو تحققت هذه الشروط ؛ لطهر القلب ، واستقام وأضاء وأنار .

فالقسم الأول : رجُلٌ ميت القلب ؛ فهذا لو قرأت القرآن كلَّه عليه لن يتأثر ! لا يتأثر بآيةٍ واحدةٍ من كتاب الله جلَّ وعلا ؛ لموت قلبه ـ والعياذ بالله ـ فهذه الآيات الكونية والمتلوة ليست في حقه ؛ بخلاف صاحب القلب الحي السليم المنيب الرجاع إلى الله ﷻ .

وهذا هو الصنف الثاني : رجُلٌ له قلبٌ حيٌّ مستعدٌّ ؛ لكنه غير مستمعٍ للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة : إما لعدم ورودها أو لوصولها إليه ، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها ؛ فهو غائب القلب ، ليس حاضرًا ؛ فهذا أيضًا لا تحصل له الذكرى ، مع استعداده ووجود قلبه .

فهو يسمع القرآن بأذنه ؛ لكن قلبه مشغول عن هذه الآيات المتلوة ، ويسمع الأخبار وفيها من العظات والعبر ما فيها ؛ لكنه لا يتأثر أيضًا ؛ لأن قلبه مشغولٌ عن السماع عن الله ورسوله ﷺ بصوارف أخرى ؛ فهذا لا تصلُ إليه

---

(١) « الجواب الكافي » (ص ٨٤ ط دار الكتب العلمية) .

أيضًا التذكرة ، وهذا صنفٌ كثيرٌ موجود في الناس ، ترى فيه خيرًا ؛ لكن تقول له : تعال ـ مثلًا ـ استمع للقرآن ، والمواعظ ؛ فتراه يقول لك : والله عندي الآن صفقة أو تجارة ! وعندي الآن عمل ، وعندي الآن كذا وكذا !!! فهناك صوارف وشواغل كثيرة تشغل قلبه عن السماع عن الله تبارك وتعالى ؛ فهذا لا يتأثر ـ هو الآخر ـ بالموعظة ، ولا بالذكرى! ولا بالتذكرة !

الصنف الثالث : « رجلٌ حيُّ القلب مستعد ، تُليت عليه الآيات ؛ فأصغى بسمعه ، وألقى السمع ، وأحضر قلبه ، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه ؛ فهو شاهد القلب ، ملقِ السمع ؛ فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة » .

ففي أيِّ لحظةٍ تراه مستعدًّا للسماع عن الله وعن رسوله ، ويتهلل وجهه ، ويفرح قلبه ؛ لأن قلبه حيٌّ ، قد فرح بهذه المادة ؛ لأنها غذاء روحه ، ومادة حياة قلبه ؛ فهو لا ينشغل ولا ينصرف ؛ بل يُلْقي السمع والقلب ؛ فهذا يتأثر حتمًا بآيات الله المتلوة والكونية .

قال العلامة ابنُ القيم : « فالأول ـ صاحب القلب الميت ؛ بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر ، والثاني : بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور ؛ فكلاهما لا يراه ، والثالث بمنزلة البصير الذي قد حدَّق إلى جهة المنظور ، أي : حدَّق البصر ، واتجه بقوةٍ إلى الهدف الذي يريد أن يراه ، وأتبعه بصره ، وقابله على توسط من البعد والقرب ؛ فهذا هو الذي يراه ؛ فسبحان من جعل كلامه جَلَّ وعلا شفاءً لما في الصدور » ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧] .

قال رحمه الله تعالى : « فَإِنْ قيل : فما موقع « أَوْ » من هذا النظم على ما قررت ؟ قيل : فيها سرٌّ لطيف ، ولسنا نقول : إنها بمعنى « الواو » كما يقول

ظاهرية النحاة ؛ فاعلم أن الرجل قد يكون له قلبٌ وقَّاد حيٌّ مليءٌ باستخلاص العبر واستنباط الحِكم ؛ فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار ، فإذا سمع الآيات كانت الآيات له نورًا على نور »[1] ؛ فهذا هو الذي يوقعه على مواطن استبصار الآيات والعبر ، تراه يقف عند الآية من القرآن الكريم ، ويتفكر فيها ، ويتدبرها ؛ فيوقعه قلبه على مواطن العظة والعبرة في هذه الآية ، أو يجلس يومًا على شاطئ نهرٍ فيرى الشمس وهي تغرب ، ويرى هذا المشهد الأخَّاذ للقلوب ؛ فيبكي لأن قلبه أخذه إلى موطن العظة والعبرة في هذه الآية التي هي من آيات الله تبارك وتعالى ؛ فيتذكر بهذه الآيات عظمة الخالق ؛ فحين تتلى عليه الآيات ؛ كيف يكون حال قلبه ؟ يزداد الإيمانُ في قلبه قوةً إلى قوة ، ونورًا إلى نور ، وبصيرة إلى بصيرة ، وقد اتفقنا أن بالإيمان نورًا ؛ كما في الحديث الذي رواه أبو نعيم في «الحلية» والديلميُّ في «مسنده» بسندٍ حسنه الألبانيُّ رحمه الله[2] من حديث عليٍّ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « مَا مِنَ القُلُوبِ قَلْبٌ إِلَّا وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ القَمَرِ ؛ فَبَيْنَا القَمَرُ مُضِيءٌ إِذْ عَلَتْهُ سَحَابَةٌ فَأَظْلَمَ ، إِذْ تَجَلَّتْ عَنْهُ فَأَضَاءَ » .

فيكون قلبه كالقمر ؛ فالإيمان في القلب له نور كنور القمر ؛ لو تحركَت

---

(١) انظر « الفوائد » لابن القيم (ص : ٧ ـ ٩) ط ابن رجب .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٩٦) والديلميُّ (٤/ ٨ ـ ٩) من حديث : عبد الرحمن بن مغراء عن الأزهر بن عبد الله الأودي عن محمد بن عجلان عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعًا .

قال أبو نعيم : « حديث غريب ، تفرد به عبد الرحمن بن مغراء عن أزهر » ؛ قال الألبانيُّ في « الصحيحة » (٢٢٦٨) : « قلتُ : وكلاهما صدوق ، وكذلك من فوقه » ، ثم تكلم الشيخ عن محمد بن عبد الله بن أبي حماد ، ثم قال : « فمثله حسن الحديث إن شاء الله ، لا سيما وفي كلام أبي نعيم المتقدم إشارة إلى أنه لم يتفرد به . والله أعلم » .

سحابةٌ مظلمة أمام القمر ماذا تفعل ؟ تحجب نور القمر ؛ فالقلب كذلك لو تحركت سحابة المعاصي حجبت نور الإيمان في القلب ، وإذا انقشعت سحابة السماء عاد القمر إلى نوره ، كذلك إذا انقشعت سحابة المعصية بالتوبة عاد الإيمان إلى نوره في القلب ؛ قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح:٤] ، يزداد النور في القلب ، ويزداد اليقين والإيمان ؛ فإذا سمع صاحب هذا القلب الوقاد الحيّ هذه الآيات كانت له نورًا على نور ؛ قال رحمه الله [1] : « وهؤلاء أكمل خلق الله وأعظمهم إيمانًا وبصيرة حتى كأن الذي أخبرهم به الرسول مشاهد لهم بأعينهم ؛ لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه » ؛ فهذا الصنف يُصَدِّق كلام النبيِّ ﷺ أكثر من تصديقه لما رأته عينه ؛ لأن بصرك كما ذكرت قد يزيغ ، وقد يطغى ، أما بصَرُ النبيِّ ﷺ ؛ فقد قال الربُّ العليُّ : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم:١٧] ؛ بأبي هو وأمي ﷺ .

« حتى قيل : إن مثل حال الصديق مع النبيِّ ﷺ ، كمثل رجلين دخلا دارًا فرأى أحدهما تفاصيل ما فيها وجزئياته ، والآخر وقعت يده على ما في الدار ، ولم ير تفاصيله ولا جزئياته ، لكن علم أن فيها أمورًا عظيمة ، لم يدرك بصرُه تفاصيلها ، ثم خرجا فسأله عما رأى في الدار ؟ فجعل كلما أخبره بشيء صدَّقه لما عنده من شواهده ، وهذه أعلى الصديقية ، ولا يستبعد أن يمنَّ الله المنان على عبده بمثل هذا الإيمان ؛ فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان ؛ فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة ازداد بها نورًا إلى نوره ، فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب ؛ فألقى السمعَ ،

---

(١) « المدارج » (١/ ٤٤٣) .

وشهد قلبه، ولم يغب، حصل له التذكر أيضًا؛ قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة:٢٦٥]، يعني: إذا لم يكن عنده القلب الوقاد الذي يوقعه على الآيات التي فيها البصيرة والعبرة؛ لكنه يُصْغي بسمعه، ويشهد قلبه في وقتِ الموعظة؛ فهذا يحصل له التذكر بفضل الله سبحانه وتعالى؛ لقوله ﷻ: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧]، أي: وهو حاضر القلب.

فهناك صنفان؛ صنفٌ صاحبُ قلب وقَّادٍ حاضرٍ يزداد نورًا وإشراقًا وإيمانًا وثباتًا ويقينًا، وصنفٌ أقل يسمع الموعظة، وينصت لها، ويرجو من الله أن يزيده هذا اليقين؛ فهذا الصنف لا يحرمه الله من التذكر أبدًا.

إذًا؛ الواو في قوله: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ تدل على المغايرة لا واو العطف، كما حرَّرهُ العلامة ابن القيم طيب ربِّي ثراه، وقد زاد هذا المعنى تفصيلًا في أول كلماته في كتابه الماتع «الفوائد»؛ فقال[1]: «وقوله: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ أي: وجَّه سمعه، وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له. وهذا شرط التأثر بالكلام.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي: شاهد القلب حاضر غير غائب.

قال ابن قتيبة: اسْتَمَع كتاب الله وهو شاهدُ القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساهٍ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله؛ فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع، وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر.

---

(١) «الفوائد» (٧ ـ ٩).

فإن قيل : إذا كان التأثير إنما يتمُّ بمجموع هذه ؛ فما وجه دخول أداة « أَوْ » في قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ والموضع موضع واو الجمع لا موضع « أو » التي هي لأحد الشيئين ؟

قيل : هذا سؤال جيدٌ ، والجواب عنه أن يقال : خرج الكلام بـ « أو » باعتبار حال المخاطب المدعو ؛ فإن من الناس من يكون حيَّ القلب واعيه ، تام الفطرة ، فإذا فكَّر بقلبه ، وجال بفكره ، دلَّه قلبه وعقله على صحة القرآن وأنه الحق ، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن ، فكان ورود القرآن على قلبه نورًا على نور الفطرة ، وهذا وصف الذين قيل فيهم : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [سبأ:٦] ، وقال في حقهم : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [النور:٣٥] .

فهذا نور الفطرة على نور الوحي : وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي .

قال ابنُ القيم : وقد ذكرنا ما تضمنت هذه الآية من الأسرار والعبر في كتاب « اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية » ؛ فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن ؛ فيجدها كأنها قد كُتبت فيه ، فهو يقرؤها عن ظهر قلب .

ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد ، واعي القلب ، كامل الحياة ؛ فيحتاج إلى شاهد يُميِّز له بين الحق والباطل ، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي ؛ فطريق حصول هدايته أن يفرغ

سمعه للكلام ، وقلبه لتأمله والتفكر فيه ، وتعقل معانيه ، فيعلم حينئذٍ أنه الحق .

فالأول : حال من رأى بعينه ما دُعِيَ إليه وأخبر به .

والثاني : حال من علم صدق المخبر وتيقنه وقال : « يكفيني خبره » ؛ فهو في مقام الإيمان ، والأول في مقام الإحسان ، هذا قد وصل إلى علم اليقين، وترقى قلبه منه إلى منزلة عين اليقين ، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به الإسلام .

فعين اليقين نوعان : نوع في الدنيا ونوع في الآخرة ؛ فالحاصل في الدنيا نسبته إلى القلب كنسبة الشاهد إلى العين ، وما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالأبصار ، وفي الدنيا بالبصائر ؛ فهو عين يقين في المرتبتين » انتهى .

وأهل الجنة متفاوتون ، وأهل الفضل متفاوتون في الإيمان ؛ فمن عقيدة السلف : التفاوت في الإيمان ؛ توضيح ذلك : كلُّنا يصلِّي خلف إمام واحدٍ في مسجدٍ واحدٍ ، ونتجه إلى ربٍّ واحدٍ سبحانه ، وبيننا من التفاوت في مراتب الإيمان في هذه الصلاة ما الله به عليم ؛ فمحالٌ أن يكون إيمانُ أبي بكر كإيماني أو كإيمانك ، أو يكون إيمان جبريل كإيمان واحدٍ منا ؛ بل هناك تفاوت ضخم كبير ، وهذا ما يعتقده أهل السنة ؛ خلافًا للفرق التي ضلَّت في هذه المسألة من مسائل الإيمان ؛ فأهل الجنة : سابقون مقربون ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ [الواقعة:١٠ـ ١٤] ، وهناك أصحاب اليمين ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة:٢٧ ـ ٤٠].

قال رحمه الله : « وأهل الجنة سابقون مقربون ، وأصحاب يمين ، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما ، حتى إن شراب أحد النوعين الصِّرف يُطَيَّب به شراب النوع الآخر ، ويمزج به مزجًا ؛ قال الله تعالى : ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦] ؛ فكلُّ مؤمنٍ يرى هذا ، ولكن رؤية أهل العلم لها لون كما أن رؤية غيرهم لها لون آخر » .

والسؤالُ المهمُّ جدًّا : كيف نصل إلى مرتبة التذكر ، وكيف نرتقي إلى هذه المنزلة ؟ وكيف نحقق هذا المقام من مقامات الإحسان ؟ والجوابُ : بثلاثة أشياء ؛ فأركان التذكُّر وأبنيتهُ ثلاثةٌ لا يتحقق التذكر إلا بها :

أولًا : الانتفاع بالعظة .

ثانيًا : الاستبصار بالعبرة .

ثالثًا : الظَّفر بثمرة الفكرة ؛ وإليك التفصيل :

أولًا : **الانتفاع بالعظة** ، وليس كلُّ أحدٍ ينتفع بالعظة ؛ فكيف ننتفع بها ؟

أولًا : ما هي العظة : العظةُ أو الموعظةُ هي الأمر والنهي عن الله ورسوله ، والتي تُعرف بالترغيب والترهيب ؛ هذه تسمى العظة ، وأتألم عندما أسمع بعض طلابنا يصنف رجلًا من أهل العلم بأنه واعظٌ ؛ كأنه يريد بهذه اللفظة الغمز واللمز ، وكأنه يريد أن ينتقص من قَدْر هذا العالم أو الداعية !! فالقرآن كلُّه موعظة ؛ بل لقد سمَّاه الله موعظة : ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس:٥٧] ، وأشرفُ واعظٍ هو المصطفى ﷺ .

فروى أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم [(١)] بسندٍ صحيح من حديث العرباض بن سارية قال : وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، فَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ ؛ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلاَلَةٌ ؛ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي ، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ » .

وقال له ربُّه : ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء:٦٣] .

فالوَعْظُ هو أشرف وظيفة ؛ فهي وظيفة الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين .

فلا ينبغي أن تكون تلك الكلمات التي يراد بها التنقُّص متداولةً على ألسنة بعض طلاب العلم ؛ نسأل الله أن يزكِّينا من فضله ؛ فالله يزكِّي من يشاء .

قال في « المدارج » [(٢)] : « الانتفاع بالعظة : هو أن يقدح في القلب قادح الخوف والرجاء ، فيتحرك للعمل طلبًا للخلاص من الخوف ، ورغبة في حصول المرجو ، والعظة هي الأمر والنهي المعروفُ بالترغيب والترهيب ، والعظة نوعان : عظة بالمسموع ، وعظة بالمشهود ؛ فالعظة بالمسموع :

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦ ، ١٢٧) ، وأبو داود ، كتاب السنة ، باب في لزوم السنة (٤٦٠٧) ، والترمذي ، كتاب العلم ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٢٦٧٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وهذا لفظه ، وابن ماجه في « المقدمة » (٤٣ و ٤٤) وصحَّحه العلامة الألباني في « صحيح الجامع » (٢٥٤٩) و« الإرواء » (٢٤٥٥) ، وانظر « جامع العلوم » لابن رجب (الحديث : ٢٨) ، ونقل فيه قول أبي نعيم وهو : « حديثٌ جيدٌ من صحيح حديث الشاميين » .

(٢) « المدارج » (١/ ٤٤٤) .

الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد والنصائح التي جاءت على يد الرسل ، وما أوحي إليهم ، وكذلك الانتفاع بالعظة من كلِّ ناصحٍ ومرشدٍ في مصالح الدين والدنيا.

والعظة بالمشهود : الانتفاع بما يراه ، ويشهده في العالم من مواقع العبر وأحكام القدر ومجاريه ، وما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله » ، ثم قال : « وإنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء : شدة الافتقار إليها ، والعمى عن عيب الواعظ ، وتذكر الوعد والوعيد ، وهي إنما يشتدُّ افتقار العبد إلى الموعظة بالترغيب والترهيب إلا إذا ضعفت إنابته وضعف تذكره ، وإلا فمتى قويت إنابتهُ إلى ربه ، واشتد تذكُّره لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب ، ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهي والعظة » .

فهناك صنفٌ شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب ، إن أذنب فتجد إنابته إلى الله ضعيفة ؛ فهو محتاجٌ إلى أحدٍ ليرغبه ويرهبه ، وهنا لفتةٌ ألا وهي : لابد أن يدرس حال البيئة أولًا ؛ فقبل أن تتحرك ـ أخي ـ إلى الدعوة ينبغي أن تتعرف على البيئة ؛ فهناك بيئة تحتاج إلى ترغيب ، وهناك بيئة تحتاج إلى ترهيب ، وأخرى تحتاج إلى أمر ، ورابعة إلى نهي ؛ لذا فهذا تأصيل مهم ، حتى نختار نوع البذر الذي يصلحها ، ولا يصلح بذر غيره لها ؛ فأقول : إذا ضعفت الإنابة ، وقلَّ التذكر ، وكثرت المعاصي والشهوات ، شعر الإنسان بالفتور في الهمة والإقبال على الله ، فإذا وجد داعية ؛ وقال له : ذكِّرنا ؛ لأن القلوب قست وجمدت ؛ فهو محتاج إلى الموعظة ؛ بالترغيب والترهيب ، أما العبد المنيب ؛ فتراه يطلب الأمر والنهي ؛ لأنه مستعدٌّ للاستقبال ، أما الأول ؛ فهو في مرحلة أولى هي مرحلة التجهيز والإعداد .

فالانتفاع بالموعظة أولًا يكون بشدة الافتقار إلى الموعظة : ترغيبًا وترهيبًا أو أمرًا ونهيًا .

يُلخِّص ذلك العلامة ابن القيم بقوله : « فالمنيبُ المتذكر : شديد الحاجة إلى الأمر والنهي ، والمُعْرِضُ الغافل : شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب ، والمعارض المتكبر : شديد الحاجة إلى المجادلة ؛ فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥] ، وأطلق الحكمة ولم يقيدها بوصف الحسنة إذ كلُّها حسنة ، ووصف الحسن لها ذاتي ، وأما الموعظة فقيدها بوصف الإحسان ؛ إذ ليس كلُّ موعظة حسنة ، وكذلك الجدال ؛ قد يكون بالتي هي أحسن ، وقد يكون بغير ذلك ، وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل ، وغلظته ، ولينه ، وحدَّته ، ورفقه ، فيكون مأمورًا بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن ، ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به من الحجج والبراهين والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه وأدله على المقصود ، وأوصله إلى المطلوب » ا.هـ .

ثانيًا : العمى عن عيب الواعظ أو المعلم ؛ فهذا من شروط الانتفاع بالموعظة ، وإلا لو انشغل الإنسان بعيب معلمه وشيخه لن ينتفع بكلامه ، ولن يتأثر بموعظته ؛ يقول ابن القيم [(١)] : « فالعمى عن عيب الواعظ من شروط تمام الانتفاع بموعظته » ، وهذا لا يمنع على الإطلاق من أن يذكِّر الطالبُ شيخه إن وجد عند شيخه شيئًا من القصور أو الخلل ؛ لكن بأسلوب مهذبٍ مؤدبٍ يليق بمكانة الشيخ ، ونسأل الله أن يسترنا وإياكم في

(١) « المدارج » (١/ ٤٤٧) .

الدنيا والآخرة ، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل .

الشرط الثالث من شروط الانتفاع بالموعظة : تذكُّر الوعد والوعيد ؛ لأنك إن تذكَّرت الوعد والوعيد أوجب ذلك خشية الله تبارك وتعالى والحذر منه ؛ فلا ينتفع بالموعظة إلا من آمن بالله ، وخشي الله ، ورجا ثوابه ومغفرته ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٢ـ١٠٨] ، أي غير منتهٍ ولا منقطع ، وقال الله تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى:١٠] ، وقال الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ [النازعات:٤٥] .

وقال الله ﷻ : ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥] ؛ فالذي يتذكر بالآيات المسموعة والآيات الكونية هو من يخاف وعيد الله سبحانه وتعالى ، وهو من يذكر وعده ووعيده ؛ فالإيمان بالوعد والوعيد وتذكرهما شرطٌ في الانتفاع بالعظات والآيات والعبر ، يستحيل أن تحصل هذه العظة إلا إذا كنت شديد الافتقار إلى الموعظة ، وإلا إذا كنت غاضًّا للطرف عن عيب ونقص من يُذَكِّرك بالله ﷻ ، إلا إذا كنت متذكرًا لوعد الله لأوليائه ، ووعيد الله للكافرين الأشقياء .

أما الركن الثاني ؛ فهو استبصار العبرة : اعلم أن كثيرًا من الناس الآن لا يتأثرون بالعبر بالآيات ؛ فإذا ما وقع حدث ـ مثلًا ـ في أمريكا أو في استراليا أو .... فإن العاقل المستبصر هو الذي يخرج بالعبرة من هذه الأحداث والقلة هي التي تستبصر ذلك ، أما بقية الخلق فهم في غفلة عن هذه العبر ، وعن هذه الآيات والعظات ؛ فالاستبصار بالعبرة لا يكون إلا بثلاثة أشياء [1] : أولًا : بحياة العقل .

ثانيًا : بمعرفة الأيام .

ثالثًا : بالسلامة من هذه الأغراض ؛ فلا يستبصر الإنسان العبرة ، ولا ينتفع بها إلَّا إذا تحققت لديه هذه الشروط .

والعبرة أولًا هي : الاعتبار ، وحقيقتها : العبور : من حكم الشيء إلى حكم مثله ؛ فإن رأى إنسانًا قد أصابته محنة وبلاء ومصيبة لسببٍ ارتكبه ، علم أن حكم من ارتكب ذلك السبب كحكمه .

فهو يقول : لو فعلتُ مثل ما فعله لأُصِبت بمثل ما أصيب به ؛ هذه هي العبرة ، وهذا هو الاعتبار ، والسعيد من اعتبر بغيره ؛ فلو نظر العاقل إلى ما فعله الله ﷻ بالظالمين ؛ كفرعون ، وقارون ، وهامان ، والنمرود بن كنعان رأى أنه بسبب ظلمهم أهلكهم الله جلَّ وعلا ؛ فهو يعتبر بأخذ الله للظالمين ، ويعلم أن فلانًا من الناس لو فعل مثل فعلهم ؛ فلابد وحتمًا بأن يعاقب بمثل ما عاقب الله تبارك وتعالى هؤلاء الظالمين من قبل .

الشرط الأول : حياة العقل : وهو صحة الإدراك ، وقوة الفهم وجودته ، وحياة العقل نورٌ يختصُّ الله به مَنْ يشاء من خلقه ، والله ذو الفضل العظيم .

---

(١) « المدارج » (١/ ٤٤٧) .

وأقولُ : لو أضيف إلى نور العقل نور العلم ؛ لأن العقل بغير نور العلم الذي يهديه إلى الحق ربما يُضِل - هذا العقل - صاحبَهُ ! فكم من أصحاب العقول والشهادات الذين منَّ الله عليهم بعقولٍ فذَّةٍ ، فأبدعت في جوانب الدنيا المتنوعة ، ومع ذلك طُمس هذا العقل ، وحبس عنه نور الهدى والعلم ، وضل صاحب هذا العقل ، وأضلَّه عقله !! فإذا أضيف نورُ الهدى إلى نور العلم كان نورًا على نور ، وأثمر النوران البصيرة .

ولله درُّ ابن القيم إذ يقول في كتابه الماتع « الصواعق المرسلة »[1] :

لا يستقلُّ العقل دون هداية ... بالوحي تأصيلًا ولا تفصيلًا
كالطرف[2] دون النور[3] ليس بمدركٍ ... حتى يراه بكرة وأصيلًا
نور النبوة مثل نور الشمس ... للعين البصيرة فاتخذه دليلًا
فإذا النبوة لم ينلك ضياؤها ... فالعقل لا يهديك قط سبيلًا
طرق الهدى مسدودة إلا على ... مَنْ أمَّ هذا الوحي والتنزيلا
فإذا عدلت عن الطريق تعمدًا ... فاعلم بأنك ما أردت وصولًا
يا طالبًا دَرْك الهدى بالعقل ... دون النقل لن تلقى لذاك دليلًا

فنورُ العقل إذا أضيف إليه نورُ العلم كان نورًا على نور ، وقاد هذا العقلُ صاحبه إلى جنة الدنيا وإلى جنة الآخرة ؛ فحياة العقل نورٌ ؛ قال ابن القيم : « وبحسب تفاوت الناس في هذا النور وضعفه ووجوده وعدمه يقع تفاوت

(١) « الصواعق المرسلة » (٣/ ٩٧٩) ط العاصمة .
(٢) يعني : البصر .
(٣) أي : نور الشمس .

أفهامهم وأذهانهم وإدراكاتهم » ، أي : لكلِّ واحدٍ طريقة في فهمه ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء .

والصحابة ﷺ في الجملة أفهم الخلق لمراد الله ولمراد رسوله ﷺ ثم بينهم في الفهم والإدراك وحياة العقل شيئًا كثيرًا .

ومن الأمثلة على تفاوت الفهم بين أصحاب النبيِّ ﷺ ، ما ثبت في « الصحيحين »[1] من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ : « إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ الله بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ » ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ : فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا ، فَعَجِبْنَا لَهُ ، وَقَالَ النَّاسُ : انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ ، يُخْبِرُ رَسُولُ الله ﷺ عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ الله بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ ، وَهُوَ يَقُولُ : فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا ، فَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرَ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ » . أي : أفهمنا لكلام رسول الله ﷺ . هكذا قال الراوي .

وهذا فهمٌ يؤتيه الله من يشاء ؛ فهذه حياة العقل ونوره .

وهذا ابن عباسٍ ﷺ كان من أصغر الصحابة ، ومع ذلك كان من أفهم الصحابة ؛ بل لقد سبق بفهمه السابقين الأولين !!

ودونك هذه المرتبة العالية في الحديث الصحيح الذي رواه البخاريُّ في « صحيحه »[2] من حديث ابن عباس قال : كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا ، وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ ؟ فَقَالَ : إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ ، قَالَ : فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَدَعَانِي مَعَهُمْ قَالَ : وَمَا رَأَيْتُهُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة (٣٩٠٤) ، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ (٢٣٨٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي باب (٥٢) ، (٤٢٩٤) .

دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلاَّ لِيُرِيَهُمْ مِنِّي ، فَقَالَ : مَا تَقُولُونَ : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾[النصر:١، ٢] ، حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ الله وَنَسْتَغْفِرَهُ ، إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لاَ نَدْرِي ، وَلَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا ، فَقَالَ لِي : يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَكَذَاكَ تَقُولُ ؟ قُلْتُ : لاَ ، قَالَ : فَمَا تَقُولُ ؟ قُلْتُ : هُوَ أَجَلُ رَسُولِ الله ﷺ أَعْلَمَهُ الله لَهُ : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾[النصر:١] ، فَتْحُ مَكَّةَ ، فَذَاكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾[النصر:٣] ، قَالَ عُمَرُ : مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَعْلَمُ .

لو جلسْتَ طُوال الليل تُفكِّر في هذا الجواب لطاش عقلك ـ والله ـ لهذا الفهم ، ولتساءلت : من أين لابن عباس هذا الفهم الرائع ؟ فالسورة واضحة ، والآيات واضحة ، ولكن هذا فهمٌ ونورٌ يختصُّ الله به من يشاء من عباده ؛ نسأل الله من فضله .

وفي « تفسير الطبري »[(١)] بسنده إلى بعجة بن زيد الجهني ، أن امرأة منهم دخلت على زوجها ، وهو رجل منهم أيضًا ، فولدت له في ستة أشهر ، فذُكر لعثمان بن عفان رضي الله عنه فأمر بها أن ترجم ، فدخل عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه : ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ ﴾ [الأحقاف:١٥] ، وقال : ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ ﴾[لقمان:١٤] ، قال : فوالله ما

---

(١) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾[الزخرف:٨١] ، وكذا أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (لسورة الأحقاف:١٥) ، قلت : ونحوها عند ابن أبي حاتم (تفسير البقرة : ٢٣٣) من طريق : أبي الضحى عن قائد بن عباس قال : « أتي عثمان بامرأة ولدت في ستة أشهر فأمر برجمها ، فقال ابن عباس : ..... » وانظر « الدر المنثور » للسيوطي (تفسير سورة البقرة : ٢٣٣) و (الأحقاف : ١٥) .

عَبِد [١] عثمان أن بعث إليها ترد .

فالفهم نعمةٌ من الله يهبها لمن شاء من عباده ؛ ولذلك يقول العلامة ابن القيم : « وهل أوقع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية والروافض وسائر طوائف أهل البدع إلا سوء الفهم عن الله ورسوله » [٢] .

فقضية الفهم عظيمةٌ جدًّا ، وكثير من شبابنا يحتاج إلى تفهم الأدلة ومناطاتها قبل تنزيلها على أرض الواقع حتى لا يفسد من حيث يريد الإصلاح ؛ فالوصول إلى الدليل ليس هو منتهى العلم ؛ بل لابد من فهم الدليل بمناطاته وبمراتبه ، حتى لا يُستشهد بالدليل في غير محلِّه وموضعه .

يقول ابنُ القيم رحمه الله : « ويحسب تفاوت الناس في قوة ذلك النور ـ نور العقل ـ وضعفه ، ووجوده وعدمه ، يقع تفاوت أذهانهم وأفهامهم وإدراكاتهم في التفاوت ، ونسبته إلى القلب كنسبة النور الباصر إلى العين ، ومن تجريبات السالكين [٣] التي جربوها فألفوها صحيحة أن من أدْمَنَ : « يا حيُّ يا قيوم ، لا إله إلا أنت » أورثه ذلك حياة القلب والعقل .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه [٤] شديد اللهج بهذا جدًّا ، وقال يومًا : لهذينِ الاسمين ، وهما : (الحي القيوم) تأثير عظيم في حياة القلب ، وكان يشير إلى أنهما الاسم الأعظم » ا.هـ .

ويؤيد ذلك ؛ ما رواه ابن ماجه في « السنن » والحاكم في « المستدرك »

---

(١) أي : استنكف .

(٢) « الروح » (٦٣ ط دار الكتب العلمية) .

(٣) يقصد نفسه ، ولكنه رحمه الله لا يصرح بهذا ، ومن سبر غور كلامه وعباراته علم ذلك منه رحمه الله تعالى .

(٤) التقديس : التزكية والتطهير .

وغيرهما [١] بسندٍ حسن من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ اسْمَ اللهِ الأَعْظَمَ لَفِي سُوَرٍ مِنَ القُرْآنِ ثَلَاث ».

قال القاسم : فالتمستها فوجدتُ في سورة البقرة آية الكرسي : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، وفي سورة آل عمران : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران:٢] ، وفي سورة طه : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ [طه:١١١] .

والمسألة فيها خلافٌ عريض بين أهل العلم ؛ حتى أوصلها الحافظ ابن حجر إلى أربعة عشر قولًا ، وقد تزيد [٢] ، وقد رجح ابن القيم في « الزاد » أنه : « الحي القيوم » [٣] .

فأكثر من هذا الذكر كثيرًا ؛ فإن هذا الذكر له تأثير عظيم في حياة القلوب ؛ أسأل الله أن يحيي قلوبنا ، وأن ينورها بنور العلم والهدى والإيمان ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

الشرط الثاني : معرفة الأيام به ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ [إبراهيم:٥] ؛ قال ابن القيم [٤] : « وقد فسِّرت « أيام الله » بنعمه ، وفُسِّرت

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب اسم الله الأعظم (٣٨٥٦) ، والحاكم (١/ ٥٠٦) ـ واللفظ له ـ وابن معين في « التاريخ والعلل » (رقم : ٥٠٧٢) ؛ كما في « الصحيحة » (٧٤٦) وابن مردويه في « تفسيره » ؛ كما في « ابن كثير » (تفسير البقرة : ٢٥٥) والفريابي في « فضائل القرآن » (٤٥) ، والبيهقي في « الأسماء » (ص ١٩) ، والطبراني في « الكبير » (٧٩٢٥) وحسَّنه الألباني في « الصحيحة » (٧٤٦) .

(٢) « فتح الباري » (١١/ ٢٢٤) ط المعرفة .

(٣) « زاد المعاد » (٤/ ٢٠٤) .

(٤) « المدارج » (١/ ٤٢٩) .

بنقمه من أهل الكفر والمعاصي ؛ فالأول : تفسير ابن عباس [١] ، وأبيٍّ بن كعب [٢] ، ومجاهد [٣] .

والثاني : تفسير مُقاتل [٤] .

والصوابُ : أن أيامه تعم النوعين ، وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه ، ونعمه التي ساقها إلى أوليائه .

وسُمِّيتْ هذه النعم والنقم الكبار المتحدَّث بها « أيامًا » ؟ لأنها ظرف لها ، تقول العرب : فلان عالم بأيام العرب ، وأيام الناس ، أي : بالوقائع التي كانت في تلك الأيام ؛ فمعرفة هذه الأيام تُوجب للعبد استبصار العبر ، وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته ؛ قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف:١١١] .

فالعبد إن تذكَّر أيام الله فعلم قِصَرَها ، وأنها أنفاس معدودةٌ منصرفة ، وكلُّ نَفَسٍ من أنفاسك المعدودة يقابله آلاف الأنفاس في دار البقاء في جنة الله ـ جلَّ وعلا ـ فليس لهذه الأيام التي تمرُّ بين أيدينا الآن نسبة إلى أيام البقاء في الجنة قط ! وهذه الأيام التي نحياها كوقت النوم بالنسبة لبقية يومك ؛ فالعاقل الذي يتذكَّر أيام الله ، ويعلم أن أيامه معدودة ، وأنفاسه محسوبة ، فيذكر فضل الله ﷻ ونعمه التي أعدها لأوليائه الذين فهموا حقيقة

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ؛ كما في « الدر المنثور » (٥/ ٧) .

(٢) ورد عنه مرفوعًا عند عبد الله بن أحمد (٥/ ١٢٢) ، وابن أبي حاتم (تفسير إبراهيم : ٥) ، والنسائي في « الكبرى » (١١١٩٦) ، وصححه الشيخ شعيب ، ونحوه عند مسلم (٢٣٨٠) (١٧٢) .

(٣) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٢٠٣٥٩) ـ (٢٠٣٦٦) ، وانظر «تفسير مجاهد» (١/ ٣٣٣) .

(٤) انظر « تفسير مقاتل » (لسورة إبراهيم : ٥) .

هذه الأيام ، ويذكر نقم الله على أهل الذنوب والمعاصي الذين لم يوظفوا هذه الأيام توظيفًا يقربهم من الله ـ جلَّ وعلا ـ فالناظر لهذه الأيام بهذه النظرة العاقلة هو الذي سيستفيد بالعبر ، ويستبصر بالعبر ، والغافل هو الذي لا يعرف الأيام ؛ فيومه كغده ، ويومه كأمسه ، وغده كيومه الذي يحياه ، وصدق الله حين قال : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:١] ؛ فكثير من الناس في غفلةٍ لا يتقدم خطوة إلى الآخرة ، ولا يتقدم خطوةً في السير إلى الله جلَّ وعلا ؛ فالصواب أن أيام الله تعمُّ النوعين : النعم والنقم ؛ فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبرة والعظة .

والعاقل هو الذي يعتبر ، ويجعل من هذه الأيام سفينةً ومزرعةً للآخرة ؛ ولله درُّ القائل :

إن لله عبــــادًا فطنًـــــا ... طلقـــوا الـــدنيا وخـــافوا الفتنـــا
نظـــروا فيهـــا فلـــما علمـــوا ... أنهـــا ليســـت لحـــيٍّ وطنـــا
جعلوهـــا لجـــة واتخـــذوا ... صـــالح الأعـــمال فيهـــا سُـــفُنا

قال رحمه الله : « ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض وهي متابعة الهوى ، والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء ؛ فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل ، ويعمي بصيرة القلب ، ويصدُّ عن اتباع الحق ، ويضل عن الطريق المستقيم ؛ فلا تحصل بصيرة العبرة مع وجود الهوى البتة ؛ والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره ، فأرته نفسه الحسَنَ في صورة القبيح ، والقبيح في صورة الحسن ، فالتبس عليه الحق بالباطل ؛ فأنَّى له الانتفاع بالتذكر أو بالتفكر أو بالعظة ؟ » .

الشرط الثالث : السلامة من الأغراض ، أي : السلامة من الهوى ؛ فإن الهوى ملك غشوم ظلومٌ يصم الآذان عن سماع الحق ، ويعمي الأبصار عن

رؤية الدليل .

فالهوى يدفع الحق ، ويطمس البصر عن الرؤية مع أن الشيء المرئي كالشمس في وضح النهار ؛ لذا حذَّر الله تعالى أنبياءه من الهوى ؛ فقال تعالى : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص:٢٦] .

ولن تجني ثمرة الفكرة إلا بشروط :

الشرط الأول : قصر الأمل .

الشرط الثاني : تدبر القرآن .

الشرط الثالث : التخلص من مفسدات القلب الخمسة ، من كثرة الخلطة ، والتمني ، والتعلق بغير الله ، والشبع والمنام .

فالشرط الأول : قصر الأمل .

وقصر الأمل هو : العلم بقرب الرحيل إلى الله وبسرعة انقضاء مدة الحياة ، وهو من أنفع الأدواء للقلب .

وقصر الأمل يبعث الإنسان على استثمار الأيام .. تصوَّر لو أن مريضًا ـ أسأل الله أن يشفي مرضى المسلمين ـ ذهب لطبيب وقال لهُ الطبيبُ : هذا المرض خطير ؛ فلا يعيش صاحبه إلا أيامًا معدودات ! وهذا يقعُ من أطباء كثيرين ، تصوَّر لو أن رجلًا قيل له : ستقتل الآن بعد عشر دقائق ماذا سيعمل في هذه الدقائق ؟ سيجتهد في العمل لله ﷻ إن كان موفقًا ، وإلا فمن الممكن أن يستخدم هذه الدقائق فيما يسخط الله تبارك وتعالى !! فالموفق من وفقه الله ، والمخذول من خذله .

فقصر الأمل يبعثك ويدفعك لاستثمار الأيام ، وانتهاز الفرص التي تمرُّ مرَّ السحاب ، وقصر الأمل يثيرُ المؤمن الصادق ليسير إلى دار البقاء إلى الجنة ، ويحثه على قضاء عُدَّة السفر إلى الآخرة ، ويزهده في الدنيا ، ويرغبه في الآخرة ، كما قال ابن القيم رحمه الله [1] : « والزهد الحقيقي هو ترك الحرام والعمل للآخرة » ؛ فالنبيُّ ﷺ كان جميلًا في ثوبه ، طيب الرائحة غنيًّا [2] ؛ فليس الزهد هو أن تكون مهلهل الثياب ، أو نتن الرائحة ، وإنما الزهد إن منَّ الله عز وجل عليك بمالٍ ، ألا يَحولَ هذا المال بينك وبين الآخرة .

« فإذا داوم العبد مطالعة قصر الأمل ؛ فإنه يقوم بقلبه شاهدٌ من شواهد اليقين يريه فناء الدنيا ، وسرعة انقضائها ، وقلة ما بقي منها ، وأنها قد ترحَّلت مُدْبرة ، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها ، وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رءوس الجبال ، ويريه بقاء الآخرة ودوامها ، وأنها قد ترحلت مقبلة ، وقد جاء أشراطها وعلاماتها ، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه ؛ فكلٌّ منهما يسير إلى الآخر ؛ فيوشك أن يلتقيا سريعًا .

ويكفي أن نتدبر قول الله تعالى في قصر الأمل : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس:٤٥] ؛ فأهل الحشر يظنون أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة ! وقال الله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ

---

(١) « المدارج » (١ / ٤٣٠) .

(٢) كما في «صحيح مسلم» ، كتاب الفضائل ، باب : ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال : لا ، وكثرة عطائه [٥٧ / ٢٣١٢] من حديث أنس بن مالك قَالَ : مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الإِسْلاَمِ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ ، قَالَ : فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لاَ يَخْشَى الْفَاقَةَ .

وكثير من الصحابة والتابعين وأتباعهم كانوا أغنياء ، ومع ذلك كانوا من أزهد الخلق .

إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات:٤٦] ، وقال الله تعالى : ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[المؤمنون:١١٢ ـ ١١٤] ، وقال تعالى : ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه:١٠٣، ١٠٤] ، والآيات في ذلك كثيرة .

وفي « سنن أبي داود » والترمذي وابن ماجه ، وأحمد في « مسنده » وابن أبي شيبة في « مصنفه » وابن حبان في «صحيحه » [١] من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ قال : مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا [٢] ؛ فَقَالَ : « مَا هَـٰذَا ؟ » ؛ فَقُلْنَا : قَدْ وَهَى فَنَحْنُ نُصْلِحُهُ ، قَالَ : « مَا أُرَى الأَمْرَ إِلاَّ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ » .

وقال الترمذيُّ : « هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ » .

وقوله : « وهَى » أي : ضعف واسترخى .

فقصر الأمل يُبنى على أمرين : تيقن زوال الدنيا ومفارقتها ، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها » [٣] .

وأنا لا أعلم حقيقة هي أقربُ إلى الشك من هذه الحقيقة ، وما من عاقلٍ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦١) وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب ما جاء في البناء (٥٢٣٥) (٥٢٣٦) والترمذيُّ ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في قصر الأمل (٢٣٣٥) وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب في البناء والخراب (٤١٦٠) ، وابن أبي شيبة (٧/ ٧٥) ،و ابن حبان (٢٩٩٧) ، والحديث صحّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٥٥٢٦) .

(٢) وفي رواية: « وأنا أطين حائطًا لي أنا وأمي » ، والخُصُّ : بيتٌ من قصب .

(٣) « المدارج » (٤٣٠-٤٣١) ط التوفيقية ، بتصرف يسير .

إلا وهو على يقين بأنَّ الدنيا زائلة ، والآخرة مقبلة ، ومع ذلك نتناساها ونتغافل عنها ؛ فالعاقل يقايس بين مُنْتَهٍ وبين مقبلٍ دائم ، ويفاضل بين أَوْلاهما بالإيثار ، ولا شك أن الأفضل هو أن العمل للآخرة .

اللهم ارزقنا العمل للآخرة .

ورحم الله القائل :

دَعْ عنك ما قد فات في زمن الصبا	واذكر ذنوبك وابكها يا مذنب
لم ينسه الملكان حين نسيته	بل أثبتاه وأنت لاهٍ تلعب
والروح منك وديعةٌ أودعتها	ستردُّها بالرغم منك وتُسلب
وغرور دنياك التي تسعى لها	دار حقيقتها متاع يذهب
الليل فاعلم والنهار كلاهما	أنفاسنا فيها تُعَدُّ وتحسب

الشرط الثاني : تدبر القرآن .

وتلك نعمة من أجل النعم ، وبكلِّ أسف نرى كثيرًا من المسلمين يفتح أحدهم المصحف للقراءة ، ويبدأ بسورة البقرة ؛ فيقرأ ربعًا أو ربعين ، ثم يبدأ يقلِّب صفحات المصحف من الخلف ؛ فربما قرأ قراءة سريعة لا تدبر فيها ولا خشوع ، حتى ينتهي بأكبر قدْر من القراءة !! وما لهذا نزل القرآن؛إنما نزل للتدبر والتفكر .

لا تقل : أنا حريصٌ على الأجر (أجر الأحرف) ؛ لأن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، لَا أَقُولُ : الٓمٓ حَرْفٌ ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ ، وَلَامٌ حَرْفٌ ، وَمِيمٌ حَرْفٌ »[1] .

---

(١) أخرجه الترمذيُّ في « السنن » كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ماله من الأجر (٢٩١٠) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٦٤٦٩) .

فلابد مع هذا أن تقرأ القرآن قراءةً متأنيةً متدبرة ؛ لأن الحكمة والغاية من إنزال القرآن هي التدبر ؛ قال الله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [الزخرف:٣] ، والله ـ تبارك وتعالى ـ يفتح على قارئ القرآن المتدبر على قَدْر إخلاصه واجتهاده في التدبر ، وربما يكون هذا الفتح من الله ـ تبارك وتعالى ـ أضعاف أضعاف ما يفتح الله به على رجلٍ حصَّل شهادة دكتوراة في علوم أخرى !!

قال ابنُ القيم : « وأما التأمل في القرآن ؛ فهو تحديق نظر القلب إلى معانيه ، وجمع الفكر على تدبره وتعقله ، وهو المقصود بإنزاله ، لا مجرد تلاوته بلا فَهمٍ ولا تدبر » .

فإذا كان عند القارئ حضورُ قلب ، وإقبالٌ صادقٌ مخلص على الله ، فسيفتح الله ﷻ عليه مغاليق الفهم ؛ فيرى من المعاني ما لا يصل إليها كثيرٌ ممن آتاهم الله العلوم والمعارف الدنيوية .

قال ابنُ القيم : « فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ـ يعني في الدنيا ـ ومعاده ـ يعني في الآخرة ـ وأقرب إلى نجاته : مِنْ تدبر القرآن ، وإطالة التأمل ، وجمع الفكر على معاني آياته ؛ فإنها تُطْلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها ، وتثبت معاني القرآن قواعد الإيمان في قلب العبد ، وتشييد بنيان الإيمان ، وتوطد أركانه ، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه ، وتُحضِرُه بين الأمم ، وتريه أيام الله فيهم » .

أي : في الأمم الماضية ، وتُبَصِّرُهُ بأيام الله فيهم من نعمةٍ ونقمةٍ ، وتُبصِّرهُ بمواقع العبر ، وتشهده عَدْلَ الله وفضله ، وتعرفه ذاته ـ سبحانه ـ وأسماءه وصفاته وأفعاله ، وما يحبه وما يبغضه ، وتعرفه آياتُ القرآن ـ بتدبر معانيها ـ صراطَ الله الذي يوصل إلى مرضاته ؛ بل وتعرفه نفسه ، وتبصره بعيوبها وآفاتها ومفسداتها ؛ بل وتعرفه مفسدات الأعمال ومصححاتها ، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار ، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة ، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه ، وافتراقهم فيما يفترقون فيه .

وبالجملة ؛ تعرفه الآياتُ ـ إن تدبرها ـ الربَّ المدعو إليه سبحانه وتعالى ، وتعرفه طريق الوصول إليه ، وما له من الكرامة إذا قدم عليه ، وكذلك تعرفه في مقابل ذلك ما يدعو إليه الشيطان ، وتعرفه الطريق الذي يوصل إلى الشيطان ، وما للمستجيب له من إهانةٍ في الدنيا وعذاب في الآخرة [(١)] .

فالقرآنُ إن تدبرت معناه ، وتفهَّمت آياته وسوره ، عرفت الخير والشر بحذافيره ؛ فمعاني القرآن دائرةٌ على التوحيد وبراهينه ، والعلم بالله وماله من أوصاف الكمال ، وما ينزَّه عنه من سمات النقص ، ودائرةٌ كذلك على الإيمان بالرسل ، وذكر براهين صدقهم ، وأدلة صحة نبوتهم ، والتعريف بحقوق مرسلهم ، وعلى الإيمان بالملائكة ، وعلى الإيمان باليوم الآخر ، وما أعد الله في الجنة لأوليائه من دار النعيم المطلق ، وما أعد الله في النار للكافرين وأهل الشقاء ، كلُّ هذا يقف عليه الإنسان إن قرأ كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وتدبره ، ومن أجمل وأرق ما قاله ابن القيم رحمه الله بعد هذا المقطع الذي سقته آنفًا ؛ قال [(٢)]: « فلا تزال معانيه ـ أي : القرآن ـ تنهض

---

(١) « المدارج » (١/ ٤٣٢) بتصرف .

(٢) « المصدر السابق » (١/ ٤٣٣) .

العبد إلى ربّه بالوعد الجميل ، وتحذّره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل ، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل ، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل ، وتصدُّه عن اقتحام طرق البدع والأضاليل ، وتبعثه ـ معاني القرآن ـ على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل ، وتبصرهُ المعاني بحدود الحلال والحرام ، وتوقعه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل ، وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل ، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل ، وتناديه كُلَّما فترت عزماته ، وونى في سيره ؛ تناديه : تَقَدَّم الركب وفاتك الدليل ؛ فاللحاقَ اللحاقَ والرحيلَ الرحيلَ ، وتحْدُو به وتسير أمامه سير الدليل ، وكُلَّما خرج عليه كمينٌ من كمائن العدو أو قاطع من قطاع الطريق نادته معاني القرآن: الحذَرَ الحذَرَ ! فاعتصم بالله ، واستعن به ، وقُلْ : حسبي الله ونعم الوكيل .

وفي تأمل القرآن وتدبره ، وتفهمه ؛ أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد وبالجملة : فهو أعظم الكنوز .. » انتهى .

الشرطُ الثالثُ ـ من شروط استبصار العبرة : التخلُّص من مكدرات ومفسدات القلب .

وأول هذه المفسدات والمكدرات : كثرة الخلطة ، بكسر الخاء ، وهناك فرق بين الخِلْطة والخُلطة ؛ فالخِلْطَةُ : العشرة ، وهو الاختلاط ، والخُلْطة : الشراكة ؛ كما قال أهل اللغة[1] ؛ فكثرة الخِلْطة هي أخطر مفسدات القلب .

ولا شك أن الاختلاط هنا هو الاختلاط مع أهل السوء والغفلة ؛ لكن الاختلاط مع أهل الاستقامة يُقوِّي الإيمان في قلبك .

---

(١) « اللسان » مادة خلط (٤ / ١٧٧) لابن منظور .

قال ابنُ القيم [1]: « ومفسدات القلب خمسة ـ كما أشرنا إليها قبل ذلك : كثرة الخِلْطة ، والتمني ، والتعلُّق بغير الله ، والشِّبَع ، والمنام ؛ فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب ، ثم قال : اعلم أنَّ القلب يسير إلى الله ﷻ والدار الآخرة ، وهذه الخمسة تطفئ نوره ، وتعور عين بصيرته ، وتثقل سمعه ، إن لم تَصُمَّهُ وتُبْكِمهُ ، وتضعف قواه كلَّها ، وتوهن صحته ، وتُفَتِّر عزيمته ، وتوقف همته ، وتنكسه إلى ورائه ، ومن لا شعور له بهذا ؛ فميِّتُ القلب ، وما لجرح بميت إيلام ؛ فإنه لا نعيم له ولا لذة ولا ابتهاج ولا كمال إلا بمعرفة الله ومحبته ، والطمأنينة بذكره ، والفرح والابتهاج بقربه ، والشوق إلى لقائه ، فهذه جنته العاجلة ؛ كما أنه لا نعيم في الآخرة ، ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة ؛ فله جنتان ، لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى ، وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : « إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة » .

وقال بعضهم : « إنه ليمرُّ بالقلب أوقات ، أقولُ : إن كان أهل الجنة في مثل هذا ، إنهم لفي عيشٍ طيب » ، وقال بعضهم : « مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وماذاقوا أطيب ما فيها ، قالوا : وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله ، والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه » .

إنه لا يشعر بالأنس إلا مع ربه عندما يستشعر جلاله وعظمته ـ سبحانه وتعالى ـ يشعر بسعادة لا تعبر عنها الكلمات ؛ فليس من ذاق كمن عرف ؛ فالذوق شيء والمعرفة شيءٌ آخر ؛ فأنت إن كنت تعرف ثمرة كذا من الفواكه ،

---

(١) « المدارج » (١/ ٤٣٤ و ٤٣٥) .

لكنك ما ذقت طعمها ، فأنت لا تعرف عنها شيئًا ؛ فالمعرفة النظرية شيء ، والذوق الحقيقيُّ شيء آخر .

وكلُّ منْ له قلب حيٌّ يشهد هذا ويعرف هذه المعاني ؛ بل ذاق حلاوتها ، وعرف طعمها ومعناها .

فأقولُ : الخلطة تفسد القلب ؛ فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم ربما يسود القلب ، ويملؤه بالران ! والاختلاط مع أهل الذنوب والمعاصي يورث القلب همًّا وحزنًا وكدرًا ، وتشتتًا وضعفًا ؛ فكم جلبت خلطة الناس من نقمة ، ودفعت من نعمة ، وأنزلت من محنة ، وعطلت من منحة ، وأحلَّت من رَزِيَّة ، وأوقعت في بلية ، وهل آفة الناس إلا الناس ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان:٢٧ ـ ٢٩] ، هذا هو صاحب السوء ؛ ففرقٌ كبيرٌ بين رجل يرشدك ـ مثلًا ـ إلى مجلس علمٍ شرعيٍّ ، وبين آخر يمنحك شريطًا لفاسقٍ من الفاسقين يعرض فيه الفُجْر والرذيلة !!

لذا قال النبيُّ ﷺ : « لاَ تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِنًا ، وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ »[1] ، وقال ﷺ : « مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ ، كَحَامِلِ المِسْكِ ، وَنَافِخِ الْكِيرِ ؛ فَحَامِلُ المِسْكِ : إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب من يؤمر أن يجالس (٤٨٣٢) والترمذيُّ ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في صحبة المؤمن (٢٣٩٥) ، وابن حبان ؛ كما في (« الموارد » ٢٠٤٩) وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٧٣٤١) .

ريحاً طَيِّبَةً ، وَنَافِخُ الكِيرِ : إمَّا أنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ ، وَإمَّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً مُنْتِنَةً » [١] .

من أجل ذلك : أنا أخاطب شبابنا الآن وأقولُ : أخي الشاب كُنْ رجلًا في اتخاذ القرار ؛ لا تصاحب إلَّا رجلًا يذكرك بالله ، واتخِذْ قرارًا برجولة في قطع الصحبة مع أي زميل لك يدفعك إلى المعصية دفعًا ، ويؤزُّك عليها أزًّا ، لا تغضب ربك ولا تغضب والديك ؛ فأنت أملُ هذه الأمة ، وأمل والديك كذلك ؛ يكدح أبوك ويتعب ـ وقد لا تنام أمك ـ من أجل أن تخرج شابًّا ناجحًا في دينك ودنياك ؛ فكم تكون الصدمة على الوالدين ؛ بل وعلى الأسرة ، حينما ترى الأسرة ولدها قد انحرف ! ولقد ذَكَرَتْ لي أمٌّ فاضلة وأقسمت لي بالله أنها تدعو الله أن يأخذ ولدها ـ وهو ولدها الوحيد ـ تقول : وكنت أتضرع إلى الله بأن يرزقني بولد .. لكن الولد حين كبر ودخل الجامعة ، دعوت الله أن يقبضه !! لماذا ؟ لأن المخدرات قد أهلكته ، وجعلته جلدًا على عظم ، ومسخت عقله ، ومسخت شكْلَه ؛ فصارت الأم تتمنى هلاك ولدها !! قال الله تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾[الزخرف:٦٧، ٦٨] ، فأحذِّرُ شبابنا وأولادنا خِلْطة أهل السوء ؛ فهي شرٌّ في الدنيا ، وعذابٌ في الآخرة .

لذا قال ابن القيم في هذا الموطن [٢]: « فكم جلبت خلطة السوء من نقمة ، ودفعت من نعمة ، وهل كان عَلَى أَبِي طالبٍ ـ عند الوفاة ـ [٣]أضرَّ من قرناء

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب البيوع ، باب في العطار وبيع المسك (٢١٠١) ومسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب استحباب مجالسة الصالحين ... (٢٦٢٨) .

(٢) « المدارج » (١/ ٤٣٥) .

(٣) أخرج ذلك البخاريُّ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب قصة أبي طالب (٣٨٨٤) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهي الغرغرة ... (٢٤) .

السوء ؟! لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد » .

والجمع بين أقوال أهل العلم وأحاديث الرسول ﷺ في العزلة والبعد عن الناس وأحاديث الخلطة ؛ فقد اختلف السلف في حكم العزلة والخلطة ، وفي أيهما أفضل ؟ فقال جمهور العلماء[1] : الاختلاط أولى من العزلة عن الناس ، لما فيه من اكتساب الفوائد الدينية ؛ كالقيام بشعائر الإسلام ، وتكثير سواد المسلمين في الخير ، والدعاء ببرهم في الخير ؛ لا سيما إن كان المسلم يستطيع في هذه الحالة أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

أما العزلة عن الناس ؛ فهي أولى وأفضل لمن خاف على نفسه الفتنة ، وخشي على دينه .

فالجمع الصحيح هنا في هذه المسألة هو : أن تخالط الناس في الخير ، وأن تعتزل الناس في كلِّ شر ؛ فتخالط الناس في صلاة الجماعة ، وفي الدعوة إلى الله ، وتكثير سواد المسلمين في الأعياد ، واعتزل الناس في الشر أو في ما يفسد عليك قلبك ودينك .

مسألة الاختلاط مع الصبر على أذى الناس :

ففي « سنن الترمذي » وابن ماجه[2] بسندٍ صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن

---

(١) « الفتح » (١٣/ ٤٦ ط الريان) بتصرف و (١١/ ٣٤٠) و « العزلة » للخطابي (١٥٥) و « رياض الصالحين » للنووي (باب ٧٠ فضل الاختلاط بالناس ، وحضور جمعهم ، ومشاهد الخير ..) ، و « مجموع الفتاوى » (١٠/ ٤٥٢)

(٢) أخرجه البخاريُّ في « الأدب المفرد » (٣٩٢) ، وأحمد (٥/ ٣٦٥) ، والترمذي ، كتاب صفة القيامة (٢٥٠٧) ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء (٤٠٣٢) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « الصحيحة » لابن تيمية (٩٣٩) .

النبيَّ ﷺ قال : « الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ ، أَفْضَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ » .

وفي « صحيح البخاري » [١] ـ في المقابل ـ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ » .

وفي الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال[٢]:«خذوا بحظكم من العزلة» .

وقال مسروق رحمه الله : « المرء حقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها ، فيذكر ذنوبه ، ويستغفر منها » [٣] .

فحاول أن تجعل لك وقتًا تخلو فيه مع نفسك ؛ فاجعل لنفسك حظًّا من العزلة عن الخلق وعن الناس ، سترى في هذه اللحظات وفي هذه الأوقات من فضل الله ﷻ ونعمهِ ما الله به عليم ؛ لكن اصدق في ذلك وأخلص النية .

قال الخطابيُّ : « لو لم يكن في العزلة إلا أن تسلم من الغيبة ، ومن رؤية المنكر الذي لا تقدر على إزالته لكان خيرًا كثيرًا » [٤] .

فمن شروط التخلص من مفسدات القلب : أن تخالط الناس في الخير ، وتبتعد عنهم ، وتعتزلهم في الشر .

المفسد الثاني : التمني ؛ قال ابنُ القيم : « المفسد الثاني من مفسدات القلب : ركوبه بحر التمني ، وهو بحرٌ لا ساحل له ، وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالَم ، كما قيل : إنَّ المُنَى رأسُ أموال المفاليس » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب من الدين الفرار من الفتن (١٩) .

(٢) أخرجه الخطابيُّ في كتاب العزلة (برقم : ١٨) ط دار الدعوة ، وسنده منقطع .

(٣) أخرجه الخطابيُّ في كتاب العزلة (برقم : ١١٦) .

(٤) « الفتح » (١١/ ٣٣٩) ، وانظر : « العزلة » للخطابي (٩٤ ، ٩٦ ، ١٠١) .

فهذه الأمنيات وهذه الآمال بغير أعمال لا تصحُّ ولا تستقيم ؛ فالتمني الفارغ بدون العمل رأس مال المفلس .

يقول رحمه الله : « فلا تزال الأماني الكاذبة ، والخيالات الباطلة تتلاعب براكبه ، وكلٌّ حسب حاله » ؛ من متمنٍّ للقدرة والسلطان ، وللضرب في الأرض ، والتطواف في البلدان ، أو للأموال والأثمان ، أو للنسوان والمردان ، وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان ؛ فأمانيُّ هذا إيمان ونور وحكمة ، وأمانيُّ أولئك خداع وغرور .

وقد مدح النبيُّ ﷺ متمني الخير ، وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله ؛ كالقائل : لو أن لي مالًا لعملت بعلم فلان الذي يتقي في ماله ربَّه ، ويصل فيه رحمه ، ويخرج منه حقه ، وقال : « هُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ » [(١)] .

وتمنَّى ﷺ في حجة الوداع [(٢)] : أنه لو كان تمتع وحلَّ ولم يسُقِ الهدي وكان قد قرن ؛ فأعطاه الله ثواب القِرَانِ بفعله ، وثواب التمتع الذي تمنَّاه بأمنيته ؛ فجمع له بين الأجرين » ا.هـ .

فصاحب الهمة العالية تجد أمنياته عالية ، وصاحب الهمة الدنيئة تجد أمنياته في الوحل والطين .

وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

وإذا كانت النفوس كبارًا ... تعبت في مرادها الأجسام

وهذا ربيعة بن كعب الأسلميُّ ؛ كما في « صحيح مسلم » [(٣)] ، من حديث

---

(١) صحيح ، وقد تقدم .

(٢) حديث حجة الوداع ؛ أخرجه مسلم ، كتاب الحج ، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب فضل السجود والحث عليه (٤٨٩) .

ربيعة قال : « كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي : « سَلْ ؟ » ؛ فَقُلْتُ : أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ ، قَالَ : « أَوَغَيْرَ ذَلِكَ ؟ » ، قُلْتُ : هُوَ ذَاكَ ، قَالَ : « فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ ».

وهذا عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان في الكعبة ؛ فمصعب قال لهم : تمنوا فنحن في بيت الله ؛ فقال مصعب : أما أنا فأتمنى ولاية العراق ، وأن أتزوج سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله ، فنال ما تمنى ، قالوا : وأنت يا عبد الملك ؛ فقال : أنا أتمنى الخلافة ، فصار خليفة على الأمة ، قالوا : وأنت يا عروة ، فقال : أما أنا فأتمنى أن أكون فقيهًا ، وأن يحمل الناس عني حديث رسول الله ﷺ ، قالوا : وأنت يا ابن عمر ؛ فقال : أما أنا فأتمنى الجنة[1] .

وتلك أعظم الأمنيات ، لما سئل الإمام أحمد ؛ متى يجد العبد الراحة ؟ قال : « عند أول قدم يضعها في الجنة »[2] .

أحـزان قلبـي لا تـزول حتـى أُبَشَّر بـالقبول
وأرى كتـابي بـاليمين وتقـر عينـي بالرسـول

هنا يزول كلُّ همٍّ وحزن ، أما الدنيا فهي دار حزن ، وكَدَرٍ ، وهمٍّ ، وغمٍّ ، ونقصٍ ؛ فالتمني لأهل العلم ، ولأهل البصيرة ، ولأصحاب الهمم العالية حول العلم والإيمان .

قال ابنُ القيم في عبارة جميلة : « يقول بعض السلف : « القلوبُ جوالةٌ ، قلبٌ يجول حول العرش ، وقلبٌ يجول حول الحُشِّ »[3] ؛ رجل قلبه في

---

(١) تقدَّم ، راجع «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٢٦٢ و ٢٦٣) وفي السند مقالٌ .
(٢) « طبقات الحنابلة » لابن أبي يعلي (١١٥) .
(٣) « مفتاح دار السعادة » (١/ ١٥٠) و « الجواب الكافي » (٨٢) وهو في كلام شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية في « الفتاوى » (٥/ ٥٢٤) حكايةً عن بعض السلف .

السماء ، وآخر قلبه في الخلاء ـ الحمام ـ أعزك الله ؛ فهذا تفاوت ضخم جدًّا في القلوب ؛ فأماني أهل العلم : نور وحكمة وعمل ، وأماني أهل الجهل : خداع وأباطيل وكذب !!

المفسد الثالث من مفسدات القلب : التعلق بغير الله تبارك وتعالى ، وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق !!

فليس عليه أضر من ذلك ، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه ؛ فإنه إذا تعلَّق بغير الله وكَلَهُ الله إلى ما تعلق به ، وخذله من جهة ما تعلق به ، وفاته تحصيل مقصوده من الله ﷻ بتعلقه بغيره ، والتفاته إلى سواه ؛ فلا على نصيبه من الله حصل ، ولا إلى ما أمَّله ممن تعلق به وصل ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم:٨١، ٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس:٧٤، ٧٥]

فأعظمُ الناس خذلانًا من تعلَّق بغير الله ؛ فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه ، أعظم مما حصل له ممن تعلق به ، وهو معرَّض للزوال والفوات ، ومَثَلُ المتعلق بغير الله : كَمَثَلِ المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت ؛ أَوْهنِ البيوت !!

وبالجملة ؛ فأساسُ الشرك وقاعدته التي بُني عليها : التعلُّق بغير الله ، ولصاحبه الذمُّ والخذلان ؛ كما قال تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ [الإسراء:٢٢] ؛ مذمومًا لا حامِ لك ؛ مخذولًا لا ناصر لك ؛ إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا كالذي قُهِرَ بباطل ،

وقد يكون مذمومًا منصورًا ؛ كالذي قُهر وتُسلِّط عليه بباطل ، وقد يكون محمودًا منصورًا ؛ كالذي تمكن وملك بحق ، والمشرك المتعلق بغير الله قِسْمُهُ أردأ الأقسام الأربعة ؛ لا محمود ولا منصور !!

المفسد الرابع من مفسدات القلب : الطعام .

والمفسد له من ذلك نوعان : أحدهما : ما يفسده لعينه وذاته ، كالمحرمات ، وهي نوعان : محرمات لحق الله ؛ كالميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وذي الناب من السباع والمخلب من الطير ، ومحرمات لحق العباد ؛ كالمسروق والمغصوب والمنهوب ، وما أخذ بغير رضى صاحبه ؛ إما قهرًا وإما حياءً وتذممًا .

والثاني : ما يفسده بقدره ، وتعدِّي حده ؛ كالإسراف في الحلال ، والشِبَع المفرط ؛ فإنه يُثلفه عن الطاعات ، ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها ، حتى يظفر بها ؛ فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ، ووقاية ضررها ، والتأذي بثقلها ، وقوى عليه مواد الشهوة ، وطرق مجاري الشيطان ووسعها ، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم ؛ فالصوم يُضيِّق مجاريه ، ويسدُّ عليه طرقه ، والشبع يطرقها ويوسعها ، ومن أكل كثيرًا شرب كثيرًا ، فنام كثيرًا ، فخسر كثيرًا ، وفي الحديث المشهور : « مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكَلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ »[1] .

ويُحكى أن إبليس ـ لعنه الله ـ عرض ليحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام ؛ فقال له يحيى : هل نلت مني شيئًا قط ؟ قال : لا ، إلا أنه قُدِّم إليك الطعام ليلة فشهَّيتُه إليك حتى شبعت منه ، فنمت عن وردك ؛ فقال

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٢) ، والترمذي ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل (٢٣٨٠) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه ، كتاب الأطعمة ، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع (٣٣٤٩) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « الصحيحة » (٢٢٦٥) و« الإرواء » (١٩٨٣) .

يحيى : لله عليَّ أن لا أشبع من طعامٍ أبدًا ؛ فقال إبليس : وأنا ، لله عليَّ أن لا أنصح آدميًا أبدًا[1] !!

المفسد الخامس : كثرة النوم ؛ فإنه يميت القلب ، ويثقل البدن ، ويضيع الوقت ، ويورث كثرة الغفلة والكسل .

ومنه المكروه جدًّا ، ومنه الضار غير النافع للبدن ، وأنفع النوم : ما كان عند شدة الحاجة إليه ، ونوم أول الليل أحمدُ وأنفعُ من آخره ، ونومُ وسطِ النهار أنفع من طرفيه ، وكلَّما قرب النوم من الطرفين قلَّ نفعه ، وكثر ضرره ، ولاسيما نوم العصر ، والنوم أول النهار إلا لسهران .

ومن المكروه عندهم : النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس ، فإنه وقت غنيمة ، وللسير ذلك الوقت عند السالكين مَزِيَّة عظيمة ، حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس ؛ فإنه أول النهار ومفتاحه . ووقت نزول الأرزاق ، وحصول القسم ، وحلول البركة ، ومنه ينشأ النهار ، وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة ؛ فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر .

وبالجملة ؛ فأعدل النوم وأنفعه : نوم نصف الليل الأول ، وسدسه الأخير ، وهو مقدار ثمان ساعات ، وهذا أعدل النوم عند الأطباء ، وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافًا بحسبه ، ومن النوم الذي لا ينفع أيضًا : النوم أول الليل ، عقيب غروب الشمس ، حتى تذهب فحمة العشاء ، وكان رسول الله ﷺ يكرهه ؛ فهو مكروه شرعًا وطبعًا ، وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات ،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٨ و ٣٢٩) من طريق ثابت البناني قال : بلغني أن إبليس ..... فذكره .

فمدافعته وهجره ، مورث لآفات أخرى عظام : من سوء المزاج ، ويبس وانحراف النفس ، وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل ، ويورث أمراضًا مُتْلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنِه معها ، وما قام الوجود إلا بالعدل ؛ فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير ، وبالله المستعان » ا . هـ .

نسأل الله أن يعيننا على القيام بهذه المنزلة العلية ؛ إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه .

*****

منزلة الاعتصام

تكلّمنا في الفصل السابق عن مقامٍ من مقامات الإحسان ؛ ألا وهو مقام التذكر والتفكر ، ثم ينزل القلب مقام الاعتصام ؛ فما هو الاعتصام ، وما هي أنواعه ، وثمراته ؟

تعريف الاعتصام :

قال ابن منظور في « اللسان »[1] : « والاعتصام : الامتساك بالشيء ، افتعالٌ منه ؛ ومنه شعر أبي طالب :

ثمال اليتامى عصمة للأرامل

أي : يمنعهم من الضياع والحاجة » .

وقال الراغب في « المفردات »[2] : « العَصْمُ : الإمساك ، والاعتصام : الاستمساك ؛ قال تعالى : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود:٤٣] ؛ أي : لا شيء يعصم منه ، وقال تعالى : ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ [يونس:٢٧] ، والاعتصام : التمسك بالشيء ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران:١٠٣] ، وقال : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٠١] » .

قال ابنُ القيم في « المدارج »[3] : « والاعتصام : افتعال من العصمة ، وهو التمسك بما يعصمك ، ويمنعك من المحذور والمخوف .

والاعتصام : الاحتماء ، ومنه سميت القلاع : العواصم ؛ لمنعها وحمايتها » .

---

(١) « اللسان » ـ مادة عصم ـ باب العين (٦/ ٢٨٨) ط الحديث .

(٢) « المفردات » (٣٤٠) .

(٣) « مدارج السالكين » (١/ ٤٤٠) .

والاعتصام : كما قال ابنُ القيم رحمه الله نوعان: اعتصام بحبل الله ، واعتصام بالله ، أما الاعتصام بحبل الله ؛ ففيه يقول ربُّنا تبارك وتعالى : ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران:١٠٣] ، أما الاعتصام بالله ؛ ففيه يقول جلَّ وعلا : ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج:٧٨] .

ثم قال لله درُّه : « ومدار السعادة في الدنيا والآخرة على : الاعتصام بالله ، والاعتصام بحبله ، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين ؛ فأما الاعتصام بحبل الله ؛ فإنه يعصم من الضلالة ، والاعتصام به : يعصم من الهلكة ؛ فإن السائر إلى الله تعالى كالسائر على طريق نحو مقصده » .

ولا شك أن الطريق إلى الله يُقْطَع بالهِمَم والقلوب لا بالأبدان ؛ كما قال ابن القيم أيضًا [١] : « اعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله تعالى بقلبه وهمته لا ببدنه » .

لذا قال هنا : « والسائر محتاج إلى هداية الطريق ، والسلامة فيها » أي : في نفس الطريق ، والمراد : أنه إذا أراد أن يصل إلى غايته يحتاج إلى أمرين : إلى هدايةٍ على هذا الطريق لتدُلَّه على مكانه وبغيته ، وسلامة من الآفات والعيوب وقطاع الطريق ، وما إلى ذلك ، ليصل إلى غايته ؛ فالاعتصام بحبل الله تبارك وتعالى يحتاج إلى سلامة الضلالة وسلامة الآفات والعيوب والهلكة ؛ فالدليل الذي يدلُّ على الطريق « كفيل بعصمته من الضلالة » وأن يهديك إلى الطريق والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل لك السلامة من قطاع الطريق وآفاتها .

---

(١) « الفوائد » (١٤١) .

إذًا السائر يحتاج إلى أمرين ؛ هما: الهداية ، وهذه تتمثل في الدليل، والثاني : السلامة من العطب والآفات ، وهذه تتمثل في السلاح والقوة والمنعة التي تمنعه من قطاع الطريق ونحو ذلك .

قال : « فالاعتصام بحبل الله : يوجب له الهداية واتباع الدليل » .

والاعتصام بالله : يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلئم بها في طريقه ، ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « تمسَّكُوا بدين الله »[1] .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « هو الجماعة »[2] ، وقال : « عليكم بالجماعة ؛ فإنها حبل الله الذي أمر به.، وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة »[3] .

وقال مجاهد وعطاء : « بعهد الله »[4] .

وقال قتادة والسديُّ وكثير من أهل التفسير : « هو القرآن »[5] ، وقال مقاتل : « أي : عليكم بأمر الله وطاعته »[6] .

فالاعتصام بحبل الله يحقق لك الهداية من أن تضل الطريق ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] .

---

(١) انظر « تفسير البغوي » (٢/ ٧٨) .

(٢) أخرجه الطبريُّ في « التفسير » (٧٥٦٥) .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧/ ٤٧٤) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ١٩٨) ، والحاكم (٤/ ٥٩٨) .

(٤) أخرجه الطبري (٧٥٧١ و ٧٥٧٢) عن عطاء ومجاهد .

(٥) أخرجه الطبري (٧٥٦٧ و ٧٥٧٠) .

(٦) انظر : « تفسير مقاتل » (لسورة آل عمران : ١٠٣) .

أما الاعتصام بالله ؛ فإنه يحقق لك القوة والعدَّة والمنعة والعصمة والسلامة، ويمنعك من أن تتعرض لأي هلاكٍ في الطريق الذي يوصلك إلى الله سبحانه وتعالى ؛ فالاعتصام بالقرآن الذي هو حبل الله عصمة لك من الضلالة في هذا الطريق ، والاعتصام بالله تبارك وتعالى حمايةٌ ومنعة لك من أن تهلك في أي مرحلةٍ من مراحل هذا الطريق ؛ قال النبيُّ ﷺ - كما في الحديث الذي أخرجه مسلم[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثًا : فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا ولَا تَفَرَّقُوا... » .

وفي رواية تميم الداري في « صحيح مسلم »[(٢)] أنه ﷺ قال : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » ؛ فاختزل النبيُّ ﷺ الدين كلَّه في كلمةٍ واحدةٍ ألا وهي : « النصيحة » إن دل ذلك فإنما يدل على شرفها ومكانتها وعلوها في الدين ؛ كما قال النبيُّ ﷺ : « الْحَجُّ عَرَفَةٌ »[(٣)] ؛ لكن ليس معنى ذلك أن من وقف بعرفة فقط دون أن يؤدي بقية أركان الحج فحجُّه صحيح ! لا ؛ وإنما هذا لبيان منزلة الوقوف بعرفة ؛ كما أن النبيَّ ﷺ يريد أن يبين بهذا الحديث منزلة النصيحة في الإسلام ؛ فقال : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » ، قُلْنَا : لِمَنْ ؟ قَالَ : « للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ » ؛ لكن النصيحة - كما أقول دومًا : لها ضوابط ، ولها شروط وآداب ؛ فشتان بين النصيحة والفضيحة ؛

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الأقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (١٧١٥) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة (٥٥) .

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٩ و ٣١٠) ، وأبو داود ، كتاب المناسك ، باب من لم يدرك عرفة (١٩٤٩) ، والترمذي ، كتاب الحج ، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج (٨٨٩) ، والنسائي ، كتاب مناسك الحج ، باب فرض الوقوف بعرفة (٥/ ٢٥٦) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٣١٧٢) و « الإرواء » (١٠٦٤) .

نسأل الله أن يجعلنا من الناصحين ، وأن لا يجعلنا من الغششة المنافقين ؛ إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه .

أيها الأحبة : إن الاعتصام بحبل الله يحمي من الضلالة ، ويحمي من الهلاك ؛ فالاعتصام بالله هو التوكل عليه ، والثقة فيه وحده ، واللجوء إليه وحده ، والتفويض إليه وحده ، والاحتماء به سبحانه وتعالى ، وسؤاله تبارك وتعالى أن يحميه ، وأن يحفظه ، وأن يعصمه ، وأن يمنعه ، وأن يدفع عنه ؛ فإن ثمرة الاعتصام بالله أن يدفع الله سبحانه وتعالى كلَّ شرٍّ في الظاهر والباطن عن العبد الذي اعتصم به ؛ والله يدافع عن الذين آمنوا ، فيدفع عن عبده المؤمن كلَّ سبب يفضي به إلى العطب ، ويحميه منه ، فيدفع عنه الشبهات والشهوات ، وكيد عدوه الظاهر والباطن ، وشرَّ نفسه ؛ كما قال ابن القيم في « المدارج »[1] : « فإن اعتصمت به حفظ قلبك من الشهوات ، وعقلك من الشبهات ، وجوارحك من الوقوع في المعصية التي لا ترضيه سبحانه وتعالى » ؛ فالله يدفع عن العبد إذا حقق الاعتصام به ؛ يدفع عنه الشهوات ، ويدفع عنه الشبهات ، ويدفع عنه كيد أعدائه في الظاهر والباطن؛ كلٌّ بحسب درجة اعتصامه بربه ، وقد يكون العبد مؤمنًا تقيًّا نقيًّا ، فيضعف في لحظة من اللحظات فيزل في المعصية ! لأنه في هذه اللحظة ضعف في قلبه درجة الاعتصام بالله سبحانه وتعالى ، فخلَّى بينه وبين المعصية فوقع فيها ، فما زلَّ مَنْ زلَّ إلا في لحظةٍ تخلَّى الله ﷻ فيها عن العبد بستره وحلمه ، وما أطاع من أطاع ، ووفِّق من وفق ، وعبد من عبد ، ووحَّد من وحد إلا بفضل الله سبحانه وتعالى ومدده وتوفيقه .

---

(١) « المدارج » (١/ ٤٤٢) .

قال الإمام الهرويُّ : « والاعتصام على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : الاعتصام بالخبر استسلامًا وإذعانًا ، بتصديق الوعد والوعيد ، وتعظيم الأمر والنهي ، وتأسيس المعاملة على اليقين والإنصاف » .

ثم شرع ابن القيم يشرح عبارة صاحب المنازل بقوله[1] : « إنهم اعتصموا بالخبر الوارد عن الله ؛ استسلامًا من غير منازعة ؛ بل إيمانًا واستسلامًا ، وانقادوا إلى تعظيم الأمر والنهي والإذعان لهما ، والتصديق بالوعد والوعيد ، وأسسوا معاملتهم على اليقين ، لا على الشك والتردد » .

قال جلَّ وعلا : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور:٥١، ٥٢] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦] ، وقال الله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥] ؛ فالعبد المعتصم بالله مستسلمٌ للأمر والنهي لا يتفذلك ، ولا يتحذلق ، ولا يتعامل مع أوامر الله معاملة الشك والريبة ، وإنما يتعامل مع الأمر والنهي معاملة الإذعان والاستسلام والتعظيم .

ويقول لكلِّ أمرٍ ونهيٍ وحدٍّ قولةَ السابقين الصادقين الأولين : « سمعنا وأطعنا » ؛ سمعٌ بلا تردد ، وطاعة بلا روغانٍ أو انحراف .

(١) « المدارج » (١/ ٤٤٣) .

فهذه الدرجة الأولى من درجات الاعتصام ؛ ثُمَّ أَسَّس هؤلاء معاملتهم مع الله ومع الخلق على اليقين لا التردد والشك ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾[الحجرات:١٥] ، أي : لم يتشككوا ولم تعصف ريح الشك والريبة بقلوبهم قط ؛ بل إن اليقين في قلوبهم بوعد الله ووعيده ، وأمره ونهيِهِ وحَدِّهِ ثابتٌ لا يتزعزع ؛ بل هو أثبت من ثبوت الجبال الرواسي ؛ فهو يتعامل مع ربه ، ومع الخلق على اليقين لا على الشك والريبة ؛ فهو على يقينٍ جازم مطلق بما أخبر به ربه ، وبما أخبر به نبيه مِنْ وعدٍ ووعيد ، ومن ثواب وعقاب .

الدرجة الثانية : وهي درجة خواص المؤمنين ، وهذا الاعتصام يكون بالانقطاع ، وهو صون الإرادة قبضًا ، وإسبال الخُلُق عن الخلق بسطًا ، ورفض العلائق عزمًا ، وهو التمسك بالعروة الوثقى .

قال ابن القيم [(1)] : « يريد انقطاع النفس عن أغراضها من هذه الوجوه الثلاثة ، فيصون إرادته ويقبضها عما سوى الله سبحانه .

الثاني : إسبال الخُلُق على الخلق بسطًا ؛ فإن حُسْن الخلق ، وتزكية النفس بمكارم الأخلاق : يدلُّ على سعة قلب صاحبه ، وكرم نفسه وسجيته ، وفي هذا الوصف : يكف الأذى ، ويحمل الأذى ، ويوجد الراحة .

وأما رفض العلائق عزمًا ؛ فهو : العزم التام على رفض العلائق ، وتركها في الظاهر والباطن ، والأصل هو : قطع علائق الباطن ـ يعني : علائق القلب بغير الربِّ ـ فمتى قطع العبد علائق الباطن لم تضره علائق الظاهر » .

قال : « فمتى كان المال في يدك وليس في قلبك لا يضرك هذا المال ، ولو كثر في قلبك ضرك ، ولو لم يكن في يدك منه شيء » .

---

(١) « المدارج » (١/ ٤٤٤) .

قيل للإمام أحمد : أيكون الرجل زاهدًا ومعه ألف دينار ؟ فقال الإمام أحمد : نعم ؛ على شريطة ألا يفرح إذا زادت ، وألا يحزن إذا نقصت »[(١)] .

لأن في هذا قطع العلائق في الباطن ، ولعلَّ الإمام رحمه الله يقصد بالفرح هنا فرح الأشر والبطر ، أما فرح المؤمن بالنعمة ، ليقدرها ويشكرها بحسن وضعها في موضعها ؛ فهذا من محاب الله ومراضيه ، ولا يمكن أن يكره الإمام أحمد ما يحبه الله ويرضاه !!

ثم قال : ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال .

وقيل لسفيان الثوري : أيكون صاحب المال زاهدًا ؟ قال : نعم إن كان إذا زِيدَ في ماله شكر ، وإن نقص في ماله شكر وصبر[(٢)] .

الدرجة الثالثة : وهي أعلى درجات الاعتصام ، وذروته ألا وهي درجة « القرب » .

قال ابنُ القيم[(٣)] : « ولا ريب أن العبد يقرب من الرب ، وأن الرب يقرب من العبد » ، ومعتقدُنا في قرب الله سبحانه وتعالى ؛ كما هو معلوم: أننا لا نعطل ولا نكيف ولا نشبه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ؛ فالله تبارك وتعالى استوى على عرشه وهو معك في أي مكان كنت ؛ بعلمه ، وسمعه ، وبصره ، وإرادته ، وقدرته ، وإحاطته ، وقد ضرب الإمام ابن تيمية رحمه الله لهذا مثلًا في غاية الدقة والجمال ؛ فقال[(٤)] : « القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته ، وهو موضوع في السماء ، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان ، وهو سبحانه فوق عرشه ، رقيب على خلقه ، مهيمن

---

(١) « الآداب الشرعية » لابن مفلح (٢/ ٣٤١) و « طبقات الحنابلة » لابن أبي يعلى (١٧٨) .

(٢) أخرجه الخلال في « الحث على التجارة » (١٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٧٣) .

(٣) « المدارج » (١/ ٤٤٥) .

(٤) « مجموع الفتاوى » (٣/ ١٤٢) ، و « الواسطية » (١٠) .

عليهم ، مطلع عليهم ، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته ، وكل هذا الكلام الذي ذكره الله ـ من أنه فوق العرش وأنه معنا ـ حقٌّ على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف ، ولكن يُصان عن الظنون الكاذبة » .

فالإنسان يمشي على الطريق والقمر معه ، وهو في مستقره ، فأنت تمشي وتقول : سرتُ مع القمر طوال الليل ! ولكن هل ترك القمر أفقه في السماء ؟ !

ولله المثل الأعلى ؛ فالله معك وهو مستوٍ على عرشه ؛ معك بسمعه ، وبصره ، وعلمه .

قيل لإسحاق بن راهويه ﷺ : يا إسحاق كيف تزعمون أن الله تعالى ينزل كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا ويدع عرشه ؟ فقال له الإمام : « يا هذا ! اعلم بأننا نؤمن بأن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا ، ولا يخلو منه عرشه » .

فكلُّ ما دار ببالك فالله بخلاف ذلك ، لا تدركه العقول ، ولا تكيفه الأفهام ، ولذلك قال الشنقيطيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ في مبحث « الأسماء والصفات »[1] : « لابد أن نقطع الطمع عن إدراك كيفية الذات » .

وقد قلْتُ قبل ذلك : أنت لا تنكر وجود عالم النمل ؛ لأننا نراه ونرى بأعيننا أن النمل يتكلَّم ، وإن لم نسمع بآذاننا : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النمل:١٨] ، أقول لك : هل فكَّرتَ في يوم وأنت واقف أمام سرب نملٍ على الأرض أن تأتي بميكروفون أو مُسَجِّل لتسجِّل وتسمع لغة النمل ؟! لا ؛ بل قطعت الطمع بسكين التعقل في أن تدرك كيف يتكلَّم النمل ؛ فإن كنت قد قطعت الطمع في إدراك كيفية كلام

(١) « منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات » (٤٤) للشنقيطي ﷺ .

النمل ـ وهو من خلق الخالق ـ أفتطمع في أن تدرك كيفية كلام الخالق ؟!

قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠] ، ويقول : ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل:٧٤] ؛ فالربُّ يَقْرب من العبد ، وكذلك العبد يقرب من الرب ؛ قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق:١٩] .

وفي الحديث القدسي الذي رواه البخاريُّ ومسلم [١] من حديث أبي هريرة ﷺ ، عن رسول الله ﷺ قال : « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » .

وفي الحديث القدسي الذي رواه البخاريُّ [٢] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « قال الله تعالى : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ » .

وفي الحديث الذي رواه مسلم [٣] من حديث أبي هريرة وفيه أنه ﷺ قال : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ » .

وفي رواية الترمذي والنسائي [٤] بسندٍ صحيح من حديث عمرو بن عَبْسَةَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب «قول الله : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ » (٧٤٠٥) ، ومسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب التواضع (٦٥٠٢) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢) .

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١١١ ، ١١٢) ، والترمذي ، كتاب الدعوات (٣٥٧٩) وقال : «هذا=

ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ » ، يعني : وأنت تتضرع إلى الله تبارك وتعالى في الثلث الأخير من الليل.

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلم [1] وأحمد ـ واللفظ له ـ من حديث أبي موسى الأشعري ، وفيه أن النبيَّ ﷺ قال للصحابة : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ؛ فَإِنَّكُمْ مَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِباً ، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعاً بَصِيراً ، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ » .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦] .

والسؤالُ : كيف نحقق الاعتصام ؟ والجوابُ في نقاطٍ محددة :

الخطوة الأولى : صِدْق التوكل على الله ﷻ ؛ إذ إن الاعتصام بالله هو صدق التوكل عليه ، والثقة فيه ، والامتناع به وحده ، واللجوء إليه وحْدَه ، والرضا به وعَنْه وحْدَه سبحانه وتعالى . وصدق التوكل لا يكون أبدًا إلا إذا حقق الإنسانُ الإيمان ؛ فالتوكُّل ثمرة الإيمان ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣] ، والإيمان : قولٌ وتصديقٌ وعملٌ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وهذا ما كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابه .

= حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » ، والنسائي ، كتاب المواقيت ، باب النهي عن الصلاة بعد العصر (١/ ٢٧٩) ، وعبد بن حميد في « المنتخب » (٢٩٨) ، وابن خزيمة (١١٤٧) ، والحاكم (١/ ٤٥٣) ، والبيهقي في « الكبرى » (٣/ ٤) ، وصحَّحه الألباني في « صحيح الجامع » (١١٧٣) .

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر (٤٢٠٥) ، ومسلم ،كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤) ، وأحمد (٤/ ٤٠٢) ، والنسائي في « الكبرى » (٧٦٨٠) ، واللفظ للنسائي وأحمد .

فمن حقَّق الإيمان، وذاق طعمه وحلاوته، واستقر في قلبه نوَّره؛ هذا هو الذي يحقق التوكل على الله ﷻ ويحصد ثمرته؛ فلا يتحقق الاعتصام إلا بصدق التوكل على الله، والثقة فيه .

الخطوة الثانية ـ على طريق تحقيق الاعتصام : التمسك بدين الله تبارك وتعالى؛ كما قال ابن عباس [1]: «واعتصموا بحبل الله، أي: بدين الله»، كلِّه؛ فالدين لا ينقسم إلى قشور ولباب، وأرجو من شبابنا وطلابنا أن يفرقوا بين هذه الدعوى: القشور واللباب، وبين القول بفقه الأولويات؛ فهذا شيء وذاك شيء آخر؛ فشتان شتان بين فقه الأولويات وبين التحقير والاستهزاء بالفرعيات والجزئيات؛ لأن دين الله كلٌّ لا يتجزأ؛ لكن فقه الأولويات مقبولٌ معتبر، لا ينكره أحد من أهل العلم؛ فإذا رأيت رجلًا يشرب الخمر، وفي الوقت ذاته بعدما أنهى كأس الخمر أشعل سيجارة؛ فمن فقه الأولويات أن تدعوه ابتداءً إلى ترك الخمر .

إن رأيت امرأة متبرجة تبرجًا صارخًا؛ فمن فقه الأولويات أن تدعوها إلى الحجاب ـ بالمعنى المتعارف عليه ـ وإلا فإن النقاب صورة من صور الحجاب ـ فأنا أقصد بالحجاب ـ هنا ـ الخمار وتغطية الجسم ما عدا الوجه والكفين .

فقبل أن تدعوها إلى النقاب عليك أن تدعوها أولًا بأن تستر جسدها وشعرها ونحرها .

وهكذا رجل لا يصلي، وفي نفس الوقت رأيته يلبس ثوبًا طويلًا؛ فمن فقه الأولويات أن تدعوه إلى الصلاة أولًا قبل أن تدعوه إلى تقصير الثوب .

ولا يظهر التمسك بدين الله مع خراب الباطن! ولا يجوز لأحد أن يقلل أبدًا

---

(١) سبق، والآثار التالية مخرجة آنفًا .

من شأن الظاهر ؛ فمعتقد أهل السنة أن الظاهر عنوان الباطن ؛ فالإيمان إن استقر في القلب ظهر على الوجوه والجوارح حتمًا ، والنبيُّ ﷺ يقول : « إِنَّ الله لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ »[1] .

فإن رأيت رجلًا مواظبًا على الصلاة ، محافظًا على الهدي الظاهر ، ومحافظًا على قراءة القرآن ؛ فاعلم أن هذه صورةٌ منعكسةٌ على الإيمان الذي استقر في قلب هذا الإنسان ، وليس معنى ذلك أنه بهذا الهدي الظاهر لا يزلُّ ولا يخطئ ؛ فقد ذكر الله المتقين في قرآنه ، وذكر من صفاتهم أنهم ربما يقعون في الفاحشة ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:١٣٥]؛ فالمعتصم بالله هو الذي يتمسك بدين الله في الظاهر والباطن ؛ نسأل الله أن يعيننا جميعًا على ذلك .

الخطوة الثالثة : تحقيق الأخوة الإيمانية ؛ كما مر معنا في تفسير ابن مسعود ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٠٣] ، قال : « عليكم بالجماعة » ؛ فمن الاعتصام أن نحقق الأخوة الإيمانية فيما بيننا ؛ أسأل الله أن يؤلف بين قلوب المسلمين .

رابعًا: تصحيح منهج السمع والطاعة ؛ كما قال مقاتل في قوله: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٠٣] ، أي : « بأمر الله وطاعته » ؛ فالمعتصم بالله ممتثل للأمر ، معظم للأمر والنهي ، والحد ، قد حدَّد منهج السمع والطاعة فلا يتلقَّى إلا عن الله ورسوله .

ثم لا ينبغي البتة أن يكون المرء في المسجد ، فيسلم قلبه وعقله ليسمع عن

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة .

الله وعن رسوله ﷺ ، فإذا خرج من المسجد سلَّم قلبه وعقله لوسائل الإعلام التي لا ترقب في الإسلام ولا في المسلمين إلًّا ولا ذمةً ؛ فتراه بعد ذلك مشوش العقل والفكر !!! لا ؛ فالمؤمن يكون محدد المنهج والتلقي ؛ فهو لا يتلقى إلا من ينبوع الكتاب والسنة ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر:٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] .

وأخيرًا ؛ العودة إلى القرآن الكريم ؛ كما قال مجاهد رحمه الله تعالى في قوله : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٠٣] ، أي : بالقرآن الكريم ، والعودة إلى القرآن ليست نافلةً ولا تطوعًا ولا اختيارًا ؛ بل أنت أمام شرط الإسلام ، وحدِّ الإيمان .

العودة إلى القرآن أمرًا أمرًا ، ونهيًا نهيًا ، وحدًّا حدًّا ، وتكليفًا تكليفًا ، وكلمةً كلمةً ، وآيةً آيةً ؛ بل وحرفًا حرفًا ، وأن تردد مع الأولين الصادقين السابقين : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥] ، أسأل الله أن يذيقنا حلاوة الاعتصام به ، وبرد اليقين فيه ، ولذة الثقة فيه ، وحسن التوكل عليه ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

منزلة الفرار إلى الله

تحدثنا فيما مضى عن منزلة الاعتصام ، وسوف نتحدث عن منزلةٍ أخرى من منازل الإحسان ألا وهي: منزلة الفرار ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[الذاريات:٥٠] ، وحقيقة الفرار : الهرب من شيء إلى شيء ؛ من شيء مخوف إلى الأمان ، ومن خاف شيئًا هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه [(١)] .

والفرار نوعان : فرار السعداء ، وفرار الأشقياء ، أما فرار السعداء فهو الفرار إلى الله ، وفرار الأشقياء هو الفرار من الله .

قال ابن عباس ﷺ في قوله تعالى : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي : « فروا منه إليه واعملوا بطاعته » [(٢)] ؛ إذ لا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه سبحانه وتعالى ؛ فأين تذهبون؟ فالملك ملْكه ، والأرض أرضه ، والسماء سماؤه ، وحيثما شرَّقت أو غربت ، فأنت تحت سمعه وبصره ـ جلَّ جلاله ـ لا يغيب عنه شيء ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[المجادلة:٧] ، وقال تعالى: ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾[القمر:٥٣]، وقال تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء:١٣، ١٤] .

---

(١) ورد ذلك عن أبي القاسم الحكيم ؛ كما في « الإحياء » للغزالي (٤/ ١٥٦) .

(٢) « تفسير القرطبي » (لسورة الذاريات : ٥٠) و « تفسير البغوي » (٧/ ٣٧٩) .

وقال سهل بن عبد الله التستريُّ رحمه الله : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، أي : « فروا مما سوى الله إلى الله » [(١)] ، وقال آخرون من أهل العلم : اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة ؛ فالفرار كذلك هو الهرب من عذاب الله ومن غضبه سبحانه إلى مرضاته وثوابه ونعيمه وفضله ، وذلك لا يكون إلا بالإيمان به تعالى وبطاعته ، بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، والوقوف عند حدوده .

والفرار على ثلاث درجات : الفرار من الجهل إلى العلم عقدًا وسعيًا ، ومن الكسل إلى التشمير جدًّا وعزمًا ، ومن الضيق إلى السعة ثقةً ورجاءً ، وأعلى منه : « الفرار من الخبر إلى الشهود ، ومن الرسوم إلى الأصول ، ومن الحظوظ إلى التجريد » ، ومع تفصيلٍ بديعٍ لهذا الكلام المجمل ؛ فقد قال العلامة ابن القيم [(٢)] : « أولًا : الفرار من الجهل إلى العلم عقدًا وسعيًا » .

الجهل نوعان : عدم العلم بالحق النافع ، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة:٦٧] ، لما قالوا له : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ ، [(٣)] أي : من المستهزئين ، والاستهزاء عدم العلم بمقتضى الحق ؛ لأن العلم النافع يأمر أصحابه بعدم الاستهزاء .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) « المدارج » (١/ ٤٤٨) .

(٣) قال القرطبيُّ في « تفسيره » (لسورة البقرة : ٦٧) : « قوله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ [البقرة:٦٧] ، هذا جواب منهم لموسى عليه السلام لما قال لهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ [البقرة:٦٧] ؛ فأجابهم موسى بقوله : ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة:٦٧] ؛ لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل ؛ فاستعاذ منه عليه السلام ؛ لأنها صفة تنتفي عن الأنبياء ، والجهل نقيض العلم ، فاستعاذ من الجهل » .

وقال الله تعالى حكاية عن نبي الله يوسف : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [يوسف:٣٣] ، إن مال إلى النساء وفعل ما يغضب رب الأرض والسماء ؛ فهذا نوع من أنواع الجهل ؛ فما عصى الله أحد قط إلا جاهلًا بقَدْره جَلَّ وعلا ، وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ﴾ [النساء:١٧] .

قال قتادة رحمه الله تعالى : « اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كلَّ شيءٍ عُصيَ الله به ، فهو جهالة عمدًا كان أو غيره »[١] .

فالفرار إلى الله تبارك وتعالى هو فرار من الجهل بنوعيه : فرار من جهل العلم ، وفرار من جهل العمل ؛ فأنتم تعلمون أن روح العلم العمل .

قال الشاطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه الماتع « الموافقات »[٢] : « إن كلَّ علمٍ لا يفيد عملًا ليس في الشرع البتة ما يدل على استحسانه » .

فلقد ذكر الله العلماء في قرآنه ، ووصفهم بأنهم هم الذين يخشون الله ؛ فقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر:٢٨] ؛ فالعلم هو الخوف والخشية من الله سبحانه وتعالى ؛ فليس العلم بكثرة الرواية ، ولكن العلم الخشية ، وقد قال تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة:٥] ؛ فحمار يحمل أطنانًا من كتب العلم ، وهو لا يفهم شيئًا ؛ فما قيمة هذا الحمل ؟ لا شيء ؛ فكذلك مَثَلُ القومِ الذين كذبوا بآيات الله ومثل القوم الذين لا يعملون بما علمهم الله تبارك وتعالى

---

(١) أخرجه الطبريُّ في « تفسيره » (٨٨٤٨) .

(٢) « الموافقات » (١/ ٤١) ط الكتب العلمية .

كمثل الحمار يحمل أسفارًا ، وهذا مثلٌ ضربه الله ﷻ لليهود ! نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الصدق في القول والعمل والحال .

إذًا ؛ الفرار إلى الله هو : الفرار من الجهل إلى العلم عقدًا وعزمًا .

أنت تكبدت المشقة ـ مثلًا ـ في جوٍّ شديد البرد لحضور درسِ علم ، فهذا فرار من الجهل عقدًا وسعيًا ، وعملًا ومعرفة وبصيرة ، وأخذًا بالأسباب ؛ فلا ينبغي للمرء أن يتمنى أن يكون طالب علم ، وهو جالس في بيته ! وإنما يلزمه أن يسعى ويذهب إلى العلماء المتحققين بالعلم الشرعي ليجلس بين أيديهم منكسر القلب لله ، منكسر الطرف للعلم .

فالفرار من الجهل إلى العلم لا يكون بالأماني ، وإنما بالسعي الدؤوب ، وبالعمل والتحصيل والصبر ، ولا يعرف قَدْر العلماء إلا من ذاق مشقة الطلب .

وأنا أقول : إذا رأيت طالب علم يتطاول على العلماء ؛ فكُنْ على يقينٍ جازمٍ مطلقٍ أنه فارغ من العلم لا يحمل إلا قشورًا لا تسمن ولا تغني من جوع !!

من أين هذه القاعدة ؟ أقول : لأنه لو ذاق مشقة التحصيل ، وحصَّل العلم الحقيقي ، وعانى وكابد ، وسهر الليالي ، وواصل النهار بالليل في التحصيل والطلب ، والمكث بين بطون الكتب والمجلدات ، والتضرع إلى ربِّ الأرض والسموات أن يحُل له إشكالات بعضِ المسائل التي تستشكل عليه .

إذا عانى كُلَّ ذلك عرف قَدْر أهل العلم ؛ فإذا رأى من عالمٍ زلة عَلِم يقينًا أن الكمال لله ، وأن العصمة للمصطفى ﷺ ، وقد دفنت العصمة يوم دفن المصطفى ﷺ ؛ فهناك ستراه يتضرع إلى الله ﷻ أن يغفر لهذا العالم من أهل السنة زلَّته ، وأن يجبر كسره ، وأن يستر عيبه ، وأن يوفقه ، وأن يغفر له خطأه ، وهذا هو طالب العلم ، المؤدب المهذب الذي عرف المشقة في تحصيل العلم .

فليس طلب العلم بالتمني وفقط ! وإنما بالسعي والتحصيل .

قال ابنُ القيم [1] : « وسمِّي عدم مراعاة العلم جهلًا ، إما لأنه لم ينتفع به ؛ فنُزِّل منزلة الجهل ، وإما لجهله لسوء ما تجني عواقب فعله ؛ فالفرار المذكور هو الفرار من الجهلين : من الجهل بالعلم إلى تحصيله ؛ اعتقادًا ومعرفةً وبصيرة .

ومن جهل العمل : إلى السعي النافع ، والعمل الصالح قصدًا وسعيًا » .

ثانيًا : الفرار من الكسل إلى التشمير جدًّا وعزمًا ، أي : « يفر من إجابة داعي الكسل إلى داعي العمل ، والتشمير بالجد والاجتهاد ، والجد هو : صدق العمل ، وإخلاصه من شوائب الفتور ووعود التسويف والتهاون ، وهي شجرةٌ ثمرها الخسران والندامات » ، يقول : سوف أقيم الليل غدًا ، سوف أطلب العلم في العام المقبل ، سوف أحفظ القرآن في الصيف ، سوف أبذل لله من مالي إن منَّ الله عليَّ بكذا وكذا ، وينتهي العمر مع كلمة : سوف ! مع كلمة عسى ! مع كلمة لعلَّ ! وهذه الكلمات أضرُّ شيء على العبد في دينه ودنياه ، وتلك هي شجرة التمني والتسويف ؛ شجرة لا تثمر إلا المرارة والخسران والندامة ، يظلُّ العبد يُمَنِّي نفسه ، وفجأةً يجدُ العبدُ نفسه في معسكر الموتى ؛ فلا يستطيع أن يقول أو أن يفعل شيئًا ؛ قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٩، ١٠٠] ، يتمنى الرجعة ؛ لكنه غير صادق ، وغير واثق من نفسه إن كان سيعمل صالحًا أَوْ لا ؛ فهو يقول : ﴿ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ ﴾ ، حتى وهو يتمنى الرجعة إلى الله ، فيأتيه الجواب الحاسم : ﴿ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ ﴾ ، يعني : لا وزن لها ولا قيمة : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ

---

(١) « المدارج » (١/ ٤٤٨) .

﴿ يُبْعَثُونَ ﴾ ، لا مخرج من هذا البرزخ ، حتى يَقف العبد بين يدي الله ـ جلَّ وعلا ـ في ساحة الحساب للسؤال عن الصغير والكبير ، والقليل والكثير ؛ قال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧، ٨] ، وقال سبحانه : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] ؛ فالسائر إلى الله يفرُّ من داعي الكسل إلى داعي العمل والتشمير .

وأذكِّر فأقول : هناك من الناس من تكاسل عن العمل ، وهناك معذور أقعده العذر ، والمطلوب هو الهمة العالية ، والرجولة ، والعزم .

قال ابنُ القيم : « العزم صدق الإرادة ، واستجماعها ، والجد : صدق العمل ، وبذل الجهد فيه » .

يعني : أنت قد عزمت أن تذهب إلى حج بيت الله الحرام العام المقبل ؛ فأنت صادق الإرادة ، فإذا ما جاء وقت الحج ؛ فقمت بمناسكه حينئذٍ يكونُ عندك صدق العمل ، وهو الجد .

قال رحمه الله : « وقد أمر الله سبحانه وتعالى : بتلقي أوامره بالعزم والجد ؛ فقال : ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة:٦٣] .

وقال الله عز وجل : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم:١٢] ، وقال الله عز وجل : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ [الأعراف:١٤٥] ؛ أي : بجدٍّ واجتهاد وعزم ، لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور » .

فالله سبحانه وتعالى أمر بتلَقِّي أوامره بعزمٍ وجِدٍّ ؛ لأن العزم لابد أن

يسبق الجد ؛ فالعزم هو صدق الإرادة ، والجد هو صدق العمل .

ثالثًا : « فرار العبد من الضيق إلى السعة ثقة ورجاءً » .

« يريد هروب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التي تعتريه في هذه الدار من جهة نفسه وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق بأسباب مصالحه ، ومصالح من يتعلق به ، وما يتعلق بماله وبدنه وأهله وعدوه » ، ومعنى هذا الكلام النفيس من شيخنا ابن قيم الجوزية رحمه الله يعني أن العبد يخاف على نفسه ويمتلئ قلبه بالهمِّ لموقفٍ من المواقف ، أو يمتلئ قلبه بالهمِّ والخوف على مَنْ يعول ، على أولاده ، على زوجته ، على أحبابه وأقربائه ؛ فإذا زادت همته على أمته ، وعلى المسلمين في أنحاء الأرض يملأُ القلبَ الهمُّ والخوفُ والحزنُ لسببٍ من هذه الأسباب ، ثم قال : « فيهرب العبدُ من ضيق صدره بكلِّ ذلك إلى سعة فضاء الثقة بالله ، وصدق التوكل عليه وحسن الرجاء لجميل صنعه به ، وتوقع المرجو من لطفه وبره ؛ ومن أحسن ما قاله عامة الناس : لا همَّ مع الله » ؛ لا همَّ إطلاقًا إن كنت مع الله ، ولحظات الهم التي تنتابك إنما هي لحظات تغيب فيها ، وتبتعد فيها عن الله ، وتنشغل فيها عن الله ، لكن لو صِرْتَ مع الله زال همك ، وخوفك ، وزال ضيقك وكربك وانشرح صدرك ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق:٢] ، و﴿ مَخْرَجًا ﴾ جاءت نكرة لتفيد العموم ، والمعنى : يجعل لك مخرجًا من الهمِّ والضيق ، والحزن ، والفقر ، والضنك ، والجوع ، والمرض ، والألم .

مخرجًا في الدِّين ، وفي الدنيا ؛ بل من أعظم مخارج الدين : أن يعصمك الله من الوقوع في معصية لا ترضيه .

فالمخرج ليس في أمور الدنيا وفقط ! لا ؛ بل إن من أعظم المخارج : أن يحول

الله بينك وبين الوقوع في معاصيه، ويهيء قلبك وجوارحك إلى مراضيه.

كما في الحديث الذي رواه أحمد والترمذي والحاكم [١] من حديث بلال رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ».

أي: سينهاك قيام الليل عن الوقوع في المعصية التي تأثم بها في النهار.

قال الربيع بن خُثَيم في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[الطلاق:٢]: «يجعل له مخرجًا من كل ما ضاق على الناس» [٢].

وقال أبو العالية: «مخرجًا من كل شدة» [٣].

وهذا جامعٌ لشدائد الدنيا والآخرة، وضيق الدنيا والآخرة؛ فإن الله تعالى قد جعل للمتقي من كلِّ ما ضاق على الناس، واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجًا.

وقال الحسن: «مخرجًا مما نهاه عنه» [٤]، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾[الطلاق:٣].

ومن جميل ما قاله أهل اللغة في تعريف الرزق [٥]: «الرزق هو ما تقوم به حياة كلِّ كائن ماديًّا كان أو معنويًا»؛ فليس هو المال فقط، وإنما المال من الرزق؛ فالرزق أوسع مدلولًا من المال، والعلم رزق، والحلم رزق،

---

(١) صحيح، وقد سبق تخريجه، وهو في «صحيح الجامع» (٤٠٧٩)، وحسنه في «الإرواء» (٢/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (لسورة الطلاق: ٢) (٣٤١٣٩ و ٣٤١٤٥).

(٣) انظر «تفسير البغوي» (٨/ ١٥١).

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر «الكليات» للكفوي (٧٤٤ و ٧٤٥). و «الفروق اللغوية» للعسكري (١٧٥).

والإيمان رزق ، والزوجة الصالحة رزق ، والتوفيق إلى الطاعة رزق ، وهكذا ، وقوله : ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣] ، أي : كافيه ، « وكلّما كان العبدُ حسن الظن بالله ، حسن الرجاء فيه ، صادق التوكل عليه ؛ فإن الله لا يخيب أمله فيه أبدًا » .

وقد ذكرت أن إحدى أخواتنا كان زوجها في السجن ؛ فانتقلت إلى بيت أبيها في ليلةٍ من الليالي ، فمرضت بنت لها مرضًا شديدًا جدًّا ، وجلست بجوارها تضع الماء على جبينها ، وهي تتضرع إلى الله ﷻ أن يرحمها ، تقول : فأنا لا أملك قيمة الدواء ؛ فوجدتُ الباب يطرق الساعة الثانية ليلًا ، قالت : فأسرع أبي إلى الباب ، وهي تهرول خلف أبيها ، فلما فتح الباب وجدنا طبيبًا يحمل حقيبة ؛ فقال : السلام عليكم أين البنت المريضة ؟ فارتعد الوالد ، وارتعدت الأم ، وقالت له : هي موجودة يا دكتور تصرخ بالداخل ؛ فدخل الطبيب ، وكشف ، ثم كتب العلاج ، ووقف بجوار الباب ، يطلب أجرة الكشف !! فقالت : والله يا دكتور : لا أملك قيمة الكشف ، فقال لها : كيف وقد أيقظتيني واتصلتِ عليَّ ؟ !

قالت : والله أنا ما اتصلتُ عليك ؛ فليس عندي هاتفٌ في البيت ! فقال الدكتور : أليس هذا بيت فلان ؟ قالت له : لا ؛ بل منزل فلان بجوارنا !! فقال الدكتور مذهولًا : ما الأمر ؟! فبكت الأخت وقَصَّت عليه ؛ فخرج الطبيب ، فأحضر العشاء ، والدواء ، وجعل لهذه الأخت الفاضلة وابنتها راتبًا شهريًّا ، تقسم الأخت بالله أن هذا الدكتور ظلَّ مواظبًا على إعطائها هذا الراتب ، حتى خرج زوجها من السجن !!

فحين يحسن الإنسان الظن بالله ، ويحسن الرجاء فيه ؛ فإن الله لا يخيب أمله ،

والله لا يخيب أمل آمل ، ولا يضيع عمل عامل ، فإنه لا أشرح للصدر ، ولا أوسع للصدر بعد الإيمان بالله من ثقةٍ بالله ، وصدق توكل عليه ؛ فاللهم إنا نبرأ من الثقة إلا بك ، ومن الأمل إلا فيك ، ومن التسليم إلا لك ، ومن التفويض إلا إليك ، ومن التوكل إلا عليك ، ومن الصبر إلا على بابك ، ومن الذل إلا في طاعتك ، ومن الرجاء إلا لما في يديك الكريمتين ، ومن الرهبة إلا من جلالك العظيم ، اللهم تتابع برك ، وكمل عطاؤك ، وعمت فواضلك ، وتمت نوافلك ، وبر قسمك ، وصدق وعدك ، وحُقَّ على أعدائك وعيدك ووعدك ، ولم تبق لنا حاجة إلا قضيتها ويسرتها ؛ فأنت أرحم الراحمين ، وأجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين .

ثم يقول الهرويُّ في أعلى درجات الفرار [1] : « فرارٌ من الخبر إلى الشهود ، ومن الرسوم إلى الأصول ، ومن الحظوظ إلى التجريد » ؛ فأصحاب الهمم العالية ممن حققوا منازل العبودية لرب العالمين لا يرضون أن يكون إيمانهم عن مجرد خبر ، فيطلبون الترقِّي إلى منزلة عين اليقين ؛ كما طلب الخليل إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ذلك من ربه ؛ إذ قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ ﴾ [البقرة:٢٦٠] ؛ فطلب إبراهيم أن يكون اليقين عيانًا ، والمعلوم مشاهدًا ؛ كما قال ابن القيم رحمه الله .

ثم وضَّح أنَّ مراتب اليقين ثلاث : علم يقين يحصل عن الخبر ، ثم تتجلَّى حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر ، حتى يصير العلم به عين اليقين ، ثم يباشره ويلابسه فيصير حق يقين .

---

(١) كما في « المدارج » (١/ ٤٥٠) .

فعِلْمُنا بالجنة والنار الآن علم يقين ؛ فإذا أزلفت الجنة للمتقين في الموقف ، وبُرِّزت الجحيم للغاوين ، وشاهدوهما عيانًا ، كان ذلك عين يقين ؛ كما قال تعالى : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر:٦، ٧] ؛ فإذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ ، وأهلُ النارِ النارَ ؛ فذلك حق اليقين . انتهى .

فهذا هو فرار من الخبر إلى الشهود ، وفرار من الرسوم إلى الأصول ؛ فهم لا يقنعون برسوم الأعمال وظواهرها ؛ بل لا يعتدُّون إلا بأرواح الأعمال وحقائقها ؛ فهم لا يتركون العمل بدعوى أنهم يريدون الغاية منه وهو الروح واللب ؛ فهذا فعل الزنادقة الذين يقولون : نحن لا ننشغل بالوسائل عن الغايات ؛ فالعبادة وسيلة ، إنما نجتهد بعمل روحانيٍّ لنصل إلى هذه الحقائق !! وهذا فهمٌ باطل ، وضلال مبين .

فهذا سيد الأولين والآخرين قام متعبدًا في محراب العبادة حتى تورمت قدماه ؛ فلما قيل له : أولم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا »(١) .

فأصحاب العلم والبصائر لا ينشغلون برسوم الأعمال عن حقائقها وأرواحها ، وإنما ينشغلون بالرسوم والأصول والحقائق ، وأضربُ مثالًا لتوضيح ما ذكرتُ : الصلاة لها رسم معين من قيام وركوع ورفع وسجودٍ ، إلى آخره (هذا هو رسم الصلاة) لكن روح الصلاة : الخشوع ؛ قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون:١، ٢] ، أما إن جاء أحد الناس وقال : لن أصلي ، بل سأحقق الخشوع الذي هو

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التهجد ، باب قيام النبيِّ ﷺ بالليل حتى ترم قدماه (١١٣٠) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩) ، وانظر رقم (٢٨٢٠) .

الغاية من غير صلاة !! قلنا له : هذا فعل الزنادقة الضُّلَّال !

أما أهل العلم والبصائر ؛ فهم الذين يهتمون برسوم الأعمال وحقائقها وأرواحها ؛ فهم يمتثلون الأمر ، ويجتنبون النهي ، ويقفون عند الحدِّ ، ويصلُّون كما أمر الله بالكيفية التي علَّمها لنا رسول الله ﷺ ؛ فإذا هم ينشغلون غاية الانشغال بحقيقة هذه العبادة وروحها ، فيخشعون لله تبارك وتعالى ، ويخرجون من الصلاة وقد جنوا ثمرة هذه الصلاة ، وهناك فريقٌ انشغل بالرسم فقط دون الروح ودون الحقيقة ؛ فتراه يركع ويسجد دون أن يخشع ودون أن يحقق حقيقة الصلاة ! لأن القلب منشغلٌ بأشياء أخرى ؛ فالبدن فقط حافظ للرسم من قيام وركوع وسجود ، أما القلب ففي غفلة وانشغال !!

والقلب مِلِكُ الأعضاء ، والأعضاءُ لا تعرف حلاوة الخشوع ، ولا طعمه إلا إذا ذاق القلبُ حلاوة الخشوع ؛ فالقلب كالإناء إن امتلأ الإناء بسائلٍ ، وإن أردت أن تزيد السائل في ذات الإناء سيطفح السائل على الإناء من كل ناحية ؛ فكذلك القلب إذا امتلأ بالحظوظ والشهوات والشبهات حتى طفحت الشهوات والشبهات من كل جانب من جوانب القلب ومن كل ناحية ؛ فإذا أراد العبدُ صاحبُ هذا القلب الطافح بالشهوات والشبهات أن يحشر الخشوع حَشْرًا في القلب في لحظةٍ من اللحظات ؛ فإن الخشوع يطفح خارج القلب ، كُلَّما أراد أن يخشع ما استطاع ؛ لأن الخشوع محلُّه القلب والقلب طافح بالفتن والمعاصي ، فليس فيه مكان للتلقي عن الله ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧] ؛ إذًا لابد من التخلية قبل التحلية ، وأن يوجد في القلب مكانٌ لله ـ سبحانه ـ للحب

والإنابة والتفويض والتوكل والاستعانة والخشية والرجاء والتفويض ، لابد من إيجاد مكان في القلب لهذه الأعمال القلبية .

إذا سمعت المواعظ لكن لم تحولها إلى عمل ؛ لن يتأثر قلبك إلا إذا شاء ربي ـ سبحانه وتعالى ـ شيئًا ، إذًا لابد أن تحول هذا الكلام النظري إلى عمل ، بأن تصلي بالليل ، وتبكي وتتضرع ، وتحافظ على صلاة الفجر ـ مع بقية الصلوات ـ في جماعة ، وتحافظ على الورد اليومي للقرآن ، وتحافظ على الصحبة الصالحة ، وتجتهد في أن تسمع كلَّ يومٍ شريطًا أو شريطين أو خمسة أشرطة للعلماء ، سترى قلبك يتحول يومًا بعد يوم ؛ من حبِّ البدع إلى حب السنة ، ومن حب المعصية إلى حب الطاعة ، ومن حب النساء في الحرام إلى حبِّ زوجتك في الحلال ، وسيبغِّض الله ﷻ لك مناهيه ومساخطه ؛ قال يوسف ﷺ : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

[يوسف:٣٣، ٣٤]

فهناك قومٌ تركوا الرسوم من أجل أن يحققوا الحقيقة بدون وسائل ! وهذا محال ؛ فالفرار من الرسوم إلى الأصول ، ومن الحُظوظ إلى التجريد ـ مع المحافظة على الرسوم أي : على العبادات ـ لا يتخلى عنها صاحبُ بصيرة أو مسلمٌ عاقلٍ ، وإنما يمتثل الأمر ، ويجتنب النهي ، ويجتهد في أن يحقق روح العمل ، وروح العبادة ؛ قال ابنُ القيم ﷾ : « فإن أرباب العزائم في السير إلى الله لا يقنعون برسوم الأعمال وظواهرها ، ولا يعتدُّون إلا بأرواحها وحقائقها ، وهذا القَدْر هو الذي فات الزنادقة ، وقطاع الطريق ، فإنهم لمَّا علموا أن حقائق هذه الأوامر هي المطلوبة أرواحها لا صورها وأشباحها

ورسومها ، قالوا : نجمع همنا على مقاصدها وحقائقها ، ولا حاجة لنا إلى رسومها وظواهرها ؛ بل الاشتغال برسومها اشتغال عن الغاية بالوسيلة ، وعن المطلوب لذاته بالمطلوب لغيره ، وغرَّهم ما رأوا فيه الواقفين مع رسوم الأعمال وظواهرها دون مراعاة حقائقها ومقاصدها وأرواحها ؛ فرأوا نفوسهم أشرف من نفوس أولئك ، وهممهم أعلى مِنْ همم أولئك ؛ لأنهم المشتغلون باللب ، وأولئك المشتغلون بالقشر ؛ فتركَّب من تقصير هؤلاء وعدوان هؤلاء تعطيل لدين ربِّ الأرض والسماء .

وجملةُ الأمر : أن هؤلاء عطَّلوا الرسوم ، وهؤلاء عطلوا الأصول ، هؤلاء عطَّلوا سرَّه ومقصوده وحقيقته ، وهؤلاء عطَّلوا رسمه وصورته ؛ فظنوا أنهم يَصِلون إلى حقيقته من غير رسمه وظاهره ؛ فلم يَصِلوا إلَّا إلى الكفر والزندقة ، وجحدوا ما علم بالضرورة مجيءُ الرسل به ؛ فهؤلاء كفار الزنادقة منافقون ، وأولئك مقصرون غير كاملين !!

وفي الجملة : أن هؤلاء الذين عرفوا الله تبارك وتعالى هم الذين يرون أن الأمر متوجِّهٌ إلى قلوبهم قبل جوارحهم ، وأن على القلب عبودية في الأمر كما على الجوارح ، وأن تعطيل عبودية القلب بمنزلة تعطيل عبودية الجوارح ، وأن كمال العبودية قيام كلٍّ من الملك وجنوده بعبوديته ، فهؤلاء خواص أهل الإيمان وأهل العلم »[1] .

إذًا لابد من سجود القلب مع سجود البدن والجوارح لله ـ تبارك وتعالى ـ وهؤلاء هم خواص أهل الإيمان الذين يُكَمِّلون فرارهم بفرار آخر من حظوظِ نفوسهم ، يهتم الواحد منهم بالعبادة ، ويجتهد في تحقيق روح العبادة ، ثم هو يُكَمِّل ذلك بالفرار من حظ نفسه وشهواتها وآفاتها وعيوبها ؛ قال ابن

(١) « المدارج » (١/ ٤٥١ و ٤٥٢) .

القيم : « فصاحبُ هذا التجريد لا يقنع من الله بأمرٍ يسكن إليه دون الله ، ولا يفرح بما حصل له دون الله ، ولا يأسى على ما فاته سوى الله ، ولا يستغني برتبةٍ شريفةٍ وإن عظمت عنده أو عند الناس ، فلا يستغني إلا بالله ، ولا يفتقر إلا إلى الله ، ولا يفرح إلا بموافقته لمرضاة الله ، ولا يحزن إلا على ما فاته من الله ، ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله ، لا من عين البشر ، فكلُّه بالله ، وكلُّه لله ، وكلُّه مع الله .

وسيره دائمًا إلى الله ، قد رُفع له عمله ، فشمر إليه ، وتجرد له مطلوبهُ فعمل عليه ، تناديه الحظوظ : إليَّ » .

أي : تناديه حظوظ نفسه من الشهوات والشبهات: إليَّ إليَّ .. إلى المنصب ، إلى الشهرة ، إلى الوجاهة ، إلى الهوى ، إلى المال ، إلى الناس !!

« وهو يقول لها : إنما أريد رضاه الذي إذا حصل لي حصل لي كلُّ شيء ، وإذا فاتني فاتني كلُّ شيء » .

هؤلاء هم المتجردون من حظوظ النفس وآفاتها وعيوبها ؛ هؤلاء هم الذين حققوا الفرار إلى الله .

أما فرار الأشقياء والتعساء ؛ فهو فرارٌ من ربِّ الأرض والسماء ؛ لكن أين المفرُّ ؟! إلى من تذهب يا من فررت من الله ؟! مَنْ فَرَّ من الله وظنَّ أنه سيحقق السعادة والرضا في المعصية ، أو في المال الحرام ، أو في الشهوات ، أو في الشبهات ؛ فليعلم يقينًا أن الله ﷻ سيحولها ضنكًا وشقوةً عليه .

إن ظن أنه سيفرُّ من الله ليحقق السعادة والرضا في النساء ؛ فسيحُول الله ﷻ بينه وبين المتعة ؛ إن ظنَّ وهو فارٌّ من الله يريد أن يحصل السعادة والرضا في الجاه والشهرة سيحولها الله ﷻ نقمة عليه ؛ وستصبح سيفًا مسلطًا على رقبته ؛ قال جلَّ وعلا : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ

أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٣، ١٢٤] ؛ فالفارُّ من الله فارٌّ من السعادة ؛ فارٌّ من الهناء ؛ فارٌّ من راحة القلب ، وانشراح الصدر ، واستقرار الضمير ؛ فارٌّ من كلِّ نعيمٍ في الدنيا والآخرة ، الفار من الله كالذبيحة التي تُساق إلى الذبح ، وهي تُخْدَع بعودٍ برسيمٍ أخضر ؛ فإذا وصلت إلى العود وجدت سكينَ مَنْ يريدُ ذبحها ! الفارُّ من الله كالفراش الذي يحترق وهو يقبل على الضوء ولا يعلم أن مصرعه فيه ! الفارُّ من الله فارٌّ من كل السعادة والنعيم في الدنيا والآخرة !! وانظروا إلى مَنْ مَنَّ الله عليهم بالتوبة بعد أن ذاقوا مرارة المعصية لتستمعوا إلى بعض كلماتهم ؛ فهذا شابٌّ كان يعمل تاجرًا للمخدرات ؛ فخرج مع زميلين له قبيل المغرب يومًا إلى المنصورة ، يقول لي ـ وكان يحمل نصف كيلو جرامًا من المخدرات ، من الأفيون ـ لبيعه ، وقدَّر الله ﷻ في هذا اليوم أن تكون محاضرة لي في هذه القرية ـ قرية هذا الشاب ـ عن وفاة النبيِّ ﷺ ؛ تلبيةً منَّا لرغبة إخواننا هناك ، يقول : وأنا خارج مع زميلين لي رأيت البلد كلَّها أصحاب لحىً ونساء منتقبات ؛ فقلت لمن معي : من هؤلاء ؟ ولماذا جاءوا هنا ؟ وما الأمر ؟ فمرَّ بنا فوج فسألتهم أين أنتم ذاهبون ؟ فقالوا لي : في هذا المكان محاضرة لفلان ـ يقصدون الفقير إلى عفو الرحيم الرحمن ـ فقلت لمن معي : هلَّا ذهبنا لننظر ماذا يقولون ، وعن ماذا يتحدثون ؟ وحين يدخل الليل نذهب إلى حاجتنا ! فرجعوا فوجدوا خيمة كبيرة في الشارع ، وجلسوا بخارج المسجد في تلك الخيمة ، وليسوا على وضوء ؛ بل لم يصلوا صلاة المغرب ، لكنهم جلسوا واستمعوا ، يقول هذا الشاب : وكان الموضوع مؤثرًا جدًّا ، فبكيت بكاءً شديدًا ، لم أذق حلاوته في حياتي من قبل ، وتصورت أن رسول الله ﷺ أمامي ، وتخيلتُ أنني معه في الحجرة الشريفة

التي مات فيها حبيبنا ﷺ ، وكاد قلبي أن ينخلع ، يقول : والله ما إن سمعتُ المؤذن يؤذن لصلاة العشاء إلَّا وقد دخلت دورة المياه في المسجد ، وأخرجت قطعة الأفيون ، حوالي نصف كيلو ، وألقيتها في عين الحمام ، واغتسلت ؛ وخرجت وصليت العشاء ، وأنا لا أعرف الصلاة ، فكنت أقلِّدُ مَنْ يصلي إلى جواري ، لكنني ما كففتُ عن البكاء دقيقة واحدةً في الصلاة ، وشعرتُ بمشاعر لم أتذوق طعمها في حياتي من قبل ، وانتهت المحاضرة ، وتمنيتُ أن أراك ، لكنني لم أستطع للزحام الشديد .

فخرجتُ وأنا وصاحباي ، وأنا في بكاء لا ينقطع ، فوجدتهم يبكون ببكائي ، فأخبرتهم بأني ألقيت بقطعة الأفيون في عين الحمام ، ونحن من اليوم كلٌّ في طريق ؛ فقالوا : كُنَّا معًا في المعصية ، وسنبقى سويًا في الطاعة ، والآن بفضل الله ـ أصبح الشاب ملتزمًا ، وزيَّن الله وجهه باللحية ، والتزمت امرأته ، وصارت منتقبة ؛ نسأل الله أن يثبتنا على الحق حتى نلقاه .

فتدبر الحال قبل الطاعة وبعدها ، هنا تقفُ على الفارق بين الفرار إلى الله وبين الفرار من الله !! فلا تتصور أنك ما دمت بعيدًا عن الله ستحيا حياة سعيدة ! لا ، والله ؛ فقد قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥] .

فالفرار إلى الله هو فرار السعداء ،و الفرار من الله هو فرار الأشقياء في الدنيا والآخرة ؛ نسأل الله أن يجعلنا من السعداء في الدنيا والآخرة ، وأن يرزقنا الفرار إليه ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

منزلة الخوف من الله

ومن أعظم هذه المنازل التي توصِّل أصحابها إلى مقام الإحسان : منزلة الخوف من الله ﷻ ؛ أسأل الله ـ بداية ـ أن يجعل سرَّنا أحسن من علانيتنا ، وأن يجعل باطننا أحسن من ظاهرنا ، وأن يرزقنا الصدق في القول والعمل والحال ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه ؛ فإنه لا ينبغي أن يتكلَّم عن منزلة الخوف إلا من توفرت لديه الأهلية علمًا وعملًا وحالًا ، وأنا وربِّ الكعبة لا أزعم أنني طبيب معافىً يطبب الناس ، وإنما أذكر منزلة الخوف ، وما يلي هذه المنزلة من منازل الإحسان لا من منطلق الشعور بالأهلية ؛ إنما من منطلق الشعور بالمسؤولية ، وهذا ما تؤصِّلُهُ وتقرره القاعدة الأصولية : « مَنْ عدم الماء تيمم بالتراب » ، ويترَدَّدُ في أذني قولُ القائل :

وغير تُقيً يأمر الناس بالتقى طبيبٌ يداوي الناس والطبيب عليل

أيها الأحبةُ : منزلة الخوف من الله ﷻ هي من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب ، وهي فرضٌ على كلِّ مسلم ومسلمة ؛ قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥] ؛ فالخوفُ ثمرةٌ حتميةٌ للإيمان ؛ إذ لا يذوقُ طعم الخوف من الله ﷻ إلا من حقَّق الإيمان ابتداءً ، وقوله : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ أي : لا تخافوا الشيطان وأولياءه من أعداء الله ﷻ : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة:٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة:٤٤] ، وقال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب:٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ

هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾

[المؤمنون:٥٧ ـ ٦١]

وفي الحديث الذي رواه أحمد والترمذي وابن ماجه ـ واللفظ له ـ والحاكم بسندٍ حَسَّنه لغيره شيخنا الألبانيُّ [(١)] من حديث عائشة ﵂ قالت: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون:٦٠]، أَهُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ؟ قَالَ: «لاَ يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ ـ أَوْ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ـ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَيُصَلِّي وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لاَ يُتَقَبَّلَ مِنْهُ».

هؤلاء هم الذين عرفوا قَدْر ربهم، وجلالَهُ؛ لأنهم يعلمون يقينًا أنهم لو وضعوا الأنوف والجباه في الوحل والطين سُجَّدًا لله حتى تقوم الساعة ما وفَّى أحدُهم ربه تبارك وتعالى حقَّه، وما أدَّى شكر نعمةٍ واحدةٍ أنعمها ربُّه عليه؛ كنعمة الإيمان والتوحيد والإسلام.

قال الحسن: «عملوا ـ والله ـ بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم؛ إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنًا» [(٢)].

و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبة» كلُّها ألفاظ متقاربة، ولكنها ليست مترادفة [(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩)، والترمذيُّ، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون (٣١٧٥)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوقي على العمل (٤١٩٨)، والحاكم (٢/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤)، وانظر «الصحيحة» (١٦٢).

(٢) انظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٤٢١).

(٣) «المدارج» (١/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧).

فالخوف هو « توقع العقوبة على مجاري الأنفاس»[1] ، أي : على كلِّ نَفَسٍ ستتنفسه بعيدًا عن طاعة الله!

وقيل : « الخوفُ : اضطرابُ القلب وحركتهُ من تذكُّر المخوف » .

فأنت تتذكر ربَّ العالمين فتخاف منه ، وتَذْكُر الجنة وتخاف أن تُحرم منها ، وتتذكر النار وتخشى أن تُحَرَق فيها ، وتتذكر مَكْرَ الله وتخشى أن يختم لك بخاتمة الشقاوة ، وتتذكر سوء الخاتمة فتخاف ألا يُختم لك بخاتمة المسددين الموفقين .

وقيل : « الخوف : قوةُ العِلْم بمجاري الأحكام » .

علَّق ابن القيم رحمه الله فقال : « هذا سبب الخوف ليس الخوف نفسه » ،

وقيل : « الخوف : هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره » .

قال ابن القيم[2] : و«الخشية» أخصُّ من الخوف ؛ فالخشية للعلماء بالله ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨] ؛ فالخشية خوف مقرون بالعلم والمعرفة » .

والعلم بالله يكون بمعرفة أسمائه وصفاته ؛ فمن عرف الله بأسماء الكمال ، وصفات الجلال ، وحقَّق الخوف منه ؛ فهو من العلماء بالله ؛ وهؤلاء هم أهل الخشية ؛ نسأل الله أن نكون منهم بمنه وكرمه .

وكما قُلْنا : الخوف حركة القلب واضطرابه ؛ لكن الخشية انقباضٌ يتلوهُ سكونٌ واستقرار وسكينة ؛ فحينما ترى مثلًا سيارة مقبلة عليك لتدهمك ؛ فإن أوَّل تحركٍ شعوريٍّ داخلي أنك تخاف وتهرب .

---

(١) وهذا تعريف الجنيد : كما ذكر ابن القيم في « المدارج » .

(٢) « المدارج » (١/ ٤٨٧) .

حركة الهرب هذه هي حالة الخوف ؛ فإذا ابتعدت عن طريق السيارة ومرَّت ، ووقفتَ أنت في مكانٍ آمنٍ بهدوء ، وأخذت نفسًا عميقًا وسكنت ؛ فهذه هي حالة الخشية .

وهنا يقولُ العلامةُ ابن القيم : « فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك : له حالتان : إحداهما : حركة للهرب منه ، وهي حالة الخوف .

والثانية : سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه ، وهي الخشية » .

وأما « الرهبة ؛ فهي الإمعان في الهرب » ، أي : وصل به الخوف وبلغ به مبلغًا كبيرًا ، ولا شك أن الرهبة هي ضد الرغبة ؛ فالرغبة هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه .

فقلبك يهفو لتحصيل المرغوب فيه ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ؛ فالقلب له هجرة ؛ كما أن البدن له هجرة .

قال ابنُ القيم [(١)] : « اعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه ؛ فالتقوى في الحقيقة هي تقوى القلوب لا تقوى الجوارح ؛ قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج:٣٢] » .

فإنما الخشية والخشوع في القلب ليس في الظواهر ، وسأتكلَّم عن هذا التأصيل بالتفصيل إن شاء الله تعالى في منزلة الخشوع ؛ أسأل الله أن يرزقنا الخوف منه والخشوع له ؛ إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه .

وأما « الوجل » فهو رجفة القلب وانصداعه لذكر من يخافه الإنسان أو من يخشى سلطانه وعقوبته ، أو حينما يرى إنسانٌ رجلًا ظالمًا يرتجف قلبه ،

---

(١) سبق .

هذا يسمَّى « وجل » ، أما « الهيبة » فهي خوف مقارن بالتعظيم والإجلال .

و«الهيبة» لا تكون في الغالب إلا مع المحبة ، والمعرفة ، و«الإجلال» : « تعظيمٌ مقرونٌ بالحب» أي : إذا ارتقت الهيبةُ إلى مرتبة الخوف ، ثم انتقلت مرتبةُ الخوف إلى مرحلة الحب الذي يقترن به التعظيم ؛ فهذا هو الإجلال ، وهو ما كان عليه الصحابة مع النبيِّ ﷺ ؛ فإنهم كانوا يهابون رسول الله ﷺ هيبةَ إجلال ؛ لأن الذي يبعث هذه الهيبة هو الحبُّ .

كما قال عروة بن مسعود حين رجع إلى قريش : « أَيْ قَوْم : وَالله لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى المُلُوكِ ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ ، وَالله إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ ، يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا ، وَالله إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلاَّ وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ » [1] ؛ وهذا مبعثه الحب والإجلال .

أما التعظيم الذي يحركه الخوف ؛ فهذا يسمَّى هيبة ؛ كما جاء في « سنن ابن ماجة » [2] بسندٍ صحَّحه شيخُنا الألبانيُّ بالمتابعات من حديث أبي مسعود رضي الله عنه قال: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ ؛ فَقَالَ لَهُ : « هَوِّنْ عَلَيْكَ ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ؛ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ القَدِيدَ » .

والقديد : هو اللحمُ المجفَّفُ المملوحُ عن طريق الشمس .

إذًا ؛ هذه هي معاني الخوف ، والخشية ، والرهبة ، والوجل ، والهيبة ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ؛ كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

(٢) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الأطعمة ، باب القديد (٣٣١٢) ، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٨٧٦) .

والإجلال .

ورحمةُ الله على ابن القيم إذ يقول : « فالخوف لعامة المؤمنين ، والخشية للعلماء العارفين ، والهيبة للمحبين ، والإجلال للمقربين ، وعلى قَدْر العلم والمعرفة يكونُ الخوفُ والخشية ؛ كما قال أعرف الناس وأخشاهم لله نبينا ﷺ : « فَوَالله إِنِّي أَعْلَمُهُمْ بِالله ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً » [(١)] .

وفي « الصحيحين » [(٢)] عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « وَالله لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » .

وفي رواية عند الترمذي وابن ماجه وأحمد والحاكم [(٣)] من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ ، أَطَّتِ السَّمَاءُ ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لله ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى الله » .

قال أَبو ذَرٍّ : « لوددتُ أني كنتُ شجرةً تعضد » ، والحديث فيه خلافٌ في الوقف والرفع ؛ ولكن لفقراته شواهد .

والخوف سوط يقوِّم الله به الشاردين عن بابه ، وهو سراجٌ في القلب ، به

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب من لم يواجه الناس بالعتاب (٦١٠١) ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته (٢٣٥٦) من حديث عائشة .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الكسوف ، باب الصدقة في الكسوف (١٠٤٤) ، ومسلم ، كتاب الكسوف ، باب صلاة الكسوف (٩٠١) .

(٣) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الزهد ، باب في قول النبيِّ ﷺ : « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً » (٢٣١٢) ، وقال : « هذا حديث حسن غريب » ، وابن ماجة ، كتاب الزهد ، باب الحزن والبكاء (٤١٩) ، وأحمد (٥/ ١٧٣) ، والحاكم (٢/ ٥١٠) ، وصحَّحه الألباني في « صحيح الجامع » (٢٤٤٩) ، و « الصحيحة » (١٠٥٩ ، ١٠٦٠) وبرقم (٨٥٢ و ١٧٢٢) .

يبصر ما فيه من الخير والشر ، وكلُّ أحد إذا خفته هربت منه ، إلا الله ﷻ ، فإنك إذا خفته هربت إليه ؛ فالخائف هاربٌ من ربه إلى ربه .

وإذا سكن الخوفُ القلوبَ أحرق مواضع الشهوات منها ، وطرد الدنيا عنها ؛ فهناك قلوبٌ لا يجرؤ الشيطان أن يزين لأصحابها الزنا .

وإذا طَرَد الخوف الدنيا عن القلب ، صارت في يدك ، وليست في قلبك ، وكنت أوثق بما في يد الله أكثر مما في يدك .

فالواثق يعيش في الدنيا يتاجر فيها ويعمل ، ولكن قلبه معلق بالآخرة .

إن لله عبـــــادًا فطنًــــــا طلقـــوا الـــدنيا وخـــافوا الفتنـــا

نظـــروا فيهـــا فلـــما علمـــوا أنهـــا ليســـت لحـــيٍّ وطنًـــا

جعلوهـــــا لُجَّـــــة واتخـــــذوا صـــالح الأعـــمال فيهـــا ســـفنًا

هؤلاء هم العقلاء ، وتدبَّر هذا الكلام النفيس ، وعُضَّ عليه بالنواجذ فقلَّما تقف عليه لغير قائله !

فقد رُوي عن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال : « الدنيا دارُ صدقٍ لمن صدقها ، ودار نجاة لمن تزود منها ، ودارُ غنىً لمن فهم عنها ؛ فهي مُصَلَّى أنبياء الله ، ومتجرُ أولياء الله ، ربحوا فيها الرحمة ، واكتسبوا فيها الجنة »[1] .

هذا هو الفهم لحقيقة الدنيا والآخرة ، أَوَ لَمْ يقُلْ ربُّنا تبارك وتعالى : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف:٤٦] ؛ أسأل الله ﷻ ، أن يجعلنا من أهل الآخرة ممن أنعم الله عليهم في الدنيا وقلوبهم معلقة بالآخرة ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

---

(١) سبق .

و«الناس على الطريق ـ طريق الحق ـ ما لم يَزُل عنهم الخوف ؛ فإن زال عنهم الخوف ضلُّوا الطريق »[١] .

وهذا هو الجرئ على الله إن ذُكِّر بالله لن يتذكر ، وإن ذكِّر بكلام النبيِّ ﷺ لن يتأثر ! وقال الفضيل بن عياض[٢]: « من خاف الله ﷻ دلَّه الخوف على كلِّ خير ، وكلُّ قلبٍ ليس فيه خوف الله فهو قلبٌ خربٌ »[٣].

اللهم املأ قلوبنا بخوفك وحبك ، ولذلك قيل للحسن البصري[٤] : يا أبا سعيد : إننا نجالس أقوامًا يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا أن تطير من شدة الخوف ؛ فقال : « إنك إن تخالط أقوامًا يخوفونك في الدنيا حتى يدركك الأمن في الآخرة خيرٌ من أن تخالط أقوامًا يؤمنونك في الدنيا حتى يدركك الخوف في الآخرة » .

اجلس مع من يخوفك بالله ؛ فإنك إن حققت الخوف في الدنيا أمنك الله في الآخرة ، وإن تجرأت على الله في الدنيا ولم يعرف قلبك طعم الخوف ؛ فاعلم بأنك ستذوق الفزع أشكالًا وكؤوسًا وألوانًا يوم الفزع الأكبر !!

روى البيهقيُّ في « الشعب » وابن حبان في « صحيحه » وصحَّح الحديث شيخنا الألبانيُّ ؒ في « السلسلة الصحيحة »[٥] من حديث أبي هريرة ؓ

---

(١) نقلها ابن القيم عن ذي النون ، وهو من زهاد مصر « المدارج » (١/ ٤٨٨) ، وقد تُوفي سنة ٢٤٥هـ ، وانظر ترجمته في « السير » (١١/ ٥٣٢) .

(٢) «الإحياء» للغزالي (٤/ ٢٣٣، ٢٣٤) ط فياض.

(٣) قال أبو سليمان الداراني : « ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب » (« الإحياء » ٤/ ٢٣٤) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « الوجل والتوثق بالعمل » (٣) وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٥٠) ، وانظر : « الإحياء » (٤/ ١٦٢) .

(٥) أخرجه البيهقيُّ في « الشعب » (١/ ٤٨٢ و ٤٨٣) (٧٧٧) ، وابن حبان في « صحيحه » (رقم ٢٤٩٤ ، الموارد) وأخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٩٨) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (٤٦٢) من حديث شداد بن أوس مرفوعًا ، ولكن سنده واهٍ ، وله شاهدٌ مرسل=

أن النبيَّ ﷺ قال : « قال الله تعالى : وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ : إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

ويذكر الله تعالى المتقين ويبين حالهم يوم القيامة ؛ فيقول : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان:٥١] ؛ فالناس على أرض المحشر في فزعٍ ورعبٍ وهلعٍ لكن أهل التقوى لا يعرفون الخوف ولا الرعب ولا الفزع ؛ لأنهم في مقام أمين .

وليس الخائفُ من يبكي ويمسح عينيه ، ثم بعد ذلك يتجرأ على المعاصي وينتهك المحارم بين يديه ، ولكن الخائف هو الذي يترك ما يخاف أن يعاقبه الله عليه .

قال ابنُ القيم : « والخوف ليس مقصودًا لذاته ؛ بل هو مقصودٌ لغيره قصْدَ الوسائل ، ولهذا يزولُ بزوال المخوف ؛ فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[(١)] .

فالخوف ليس غاية ، ولكن الخوف وسيلة لغاية ألا وهي الخشية ، لذلك أمر الله المؤمنين أن يخافوه ويرهبوه ويخشوه ؛ فقال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟

= وسنده صحيح إلى الحسن البصريِّ ؛ أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (رقم ١٥٧) بهذه الطرق يرتقي الحديث إلى درجة الحسن ، والله أعلم ؛ كما في « الصحيحة » (٧٤٢) و (٢٦٦٦) ، وحسَّنه كذلك في « صحيح الجامع » (٤٣٣٢) ، وحسَّنه كذلك الأرناؤوط في تعليقه على «صحيح ابن حبان» .

(١) « المدارج » (١/ ٤٨٩) .

بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٢ ـ ١٧٥] .

وقال تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى:١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾ [هود:١٠٢، ١٠٣] ؛ فالذي يعتبر ويستبصر بالآيات وبأخذ الله للظالمين وللمجرمين هو من يخشى ربَّ العالمين ؛ ثم قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٣ـ١٠٨] ، أي : غير منقطع .

وقال تعالى : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة:٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ ﴾ [آل عمران:٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج:١٢] ؛ بل لقد أعدَّ الله لأهل الخوف والخشية أعلى مقامات أهل الجنان من الهدى والعلم والرحمة والمغفرة والرضوان .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٤] ، وقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك:١٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق:٣١ـ ٣٥] .

أيها الأحبة : ما نجا من نجا إلا بالخوف من الله سبحانه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الطور:٢٥ـ ٢٨] .

وفي « الصحيحين » [١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، فَإِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ وَاذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَأَمَرَ اللهُ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، وَأَمَرَ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : لِمَ فَعَلْتَ ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ ، فَغَفَرَ لَهُ » .

سبحان الله ! وصية من أغرب الوصايا في التاريخ البشري كلِّه من والدٍ لأولاده !

درجات الخوف :

والخوف درجات : خوفٌ من عذاب الله ، وخوفٌ من مَكْر الله ، وخوفٌ من سوء الخاتمة .

أولًا : الخوف من عذاب الله وعقوبته هو : خوفُ عامة المؤمنين ، وهو علامةُ صحةٍ للإيمان ؛ إذ لا يحقق الخوف إلا من حقق الإيمان ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَلَا

---

(١) سبق .

تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥] ، وهذا لا يستقرُّ في القلب إلا إذا آمن العبد بالجنة والنار ، وبأن الجنة هي دار النعيم ، وبأن النار هي دار العذاب والجحيم ؛ ففي « الصحيحين » [(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ ؛ فَقَالَتِ النَّارُ : أُوثِرْتُ بِالمُتَكَبِّرِينَ وَالمُتَجَبِّرِينَ ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ : مَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ ؛ فَقَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ : « أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي ، وَقَالَ لِلنَّارِ : إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا » ؛ بل وستطلب النار المزيد ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق:٣٠] ، وتظلُّ جهنم تقول : هل من مزيد [(٢)] ، حتَّى يضع عليها ربُّ العزة قدمه ، لا تعطل ولا تكيف ولا تشبه ؛ فكل ما دار ببالك ؛ فالله بخلاف ذلك ، فإذا وضع ربُّ العزة عليها رجله قالت : قط قط ، أي : قد امتلأت .

وفي « الصحيحين » [(٣)] من حديث النعمان بن بشير ﷺ أن البشير النذير ﷺ قال : « إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب تفسير القرآن ، باب قوله : « ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ » (٤٨٥٠) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦) ، وفي رواية : « ولكليكما عليَّ ملؤها » ، انظر « صحيح مسلم » (٢٨٤٧) .

(٢) انظر : « صحيح البخاريَ » (٤٨٤٨) ، عن أنس عن النبيِّ ﷺ قال : « يُلْقَى فِي النَّار ، وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ ؟ فَتَقُولُ : قَطْ قَطْ » ؛ وهو عند مسلم (٢٨٤٨/ ٣٧ ، ٣٨) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار (٦٥٦١ ، ٦٥٦٢) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب أهون أهل النار عذابًا (٢١٣) .

وفي « الصحيحين »[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « قَالَ الله تعالى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » .

فالخوفُ أن تظنَّ أنك ستحرم من النعيم ! وأعلى درجات العذاب ، وأشد ألوان النكال أن يُحرم أهلُ النار من النظر إلى العزيز الغفار !!

كما أن أعلى أنواع النعيم أن تتمتع بالنظر لوجه الجليل الكريم ؛ قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣] ، وذلك إذا دخل أهلُ الجنة الجنة ؛ كما في الحديث الذي أخرجه البخاريُّ ومسلم من حديث أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ الله يَقُولُ لأَهْلِ الجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ، فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ : أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، فَيَقُولُونَ : يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا »[(٢)] .

وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة:٧٢] ، يعني : أكبر من أي نعيم آخر في الجنة .

وفي رواية[(٣)] : قال ﷺ : « فَيَكْشِفُ الحِجَابَ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٤) ، ومسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب (٥١) (٢٨٢٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار (٦٥٤٩) ومسلم ، كتاب الجنة ، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدًا (٢٨٢٩) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربَّهم سبحانه وتعالى (١٨١) من حديث صهيب مرفوعًا .

مِنَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الله تَعَالَى » .

وقال سبحانه : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦] ، والحسنى هي : الجنة ، والزيادة هي : التمتع بالنظر إلى وجه الله تعالى في الجنة .

فالنوع الأول من أنواع الخوف : الخوف من العذاب : من عذاب النار ؛ فالطعام في النار نار ، والشراب في النار نار ، والثياب في النار نار . والخوفُ من الحرمان من النعيم أشقُّ ألوان وأنواع العذاب .

ثانيًا : الخوف من مَكْر الله تبارك وتعالى ؛ قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩] .

قال ابنُ القيم ـ وهذا من أعجب ما قاله [(١)] : « فكم من سعيد بجاهه وماله انقلب عليه حاله ، فرجع من حسن الجاه والنعيم إلى سوء المآل ، فأصبح يقلِّب كفيه ويضرب اليمين على الشمال ، فبينما بَدْر أحواله مستنير في ليالي التمام ، إذ أصابه الكسوف فدخل في الظلام ، فبدل بالأنس وحشة ، وبالحضور غيبة ، وبالإقبال إعراضًا ، وبالقرب إبعادًا » .

فسبحان من بيده الأمور ، يدبرها كيف يشاء ، وسبحان من بيده القلوب يصرفها حيث شاء ؛ روى مسلم في « صحيحه » [(٢)] عن عبد الله بن عمر ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» ، ثم قال رسول الله ﷺ : «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ » .

وفي «سنن الترمذي» و«ابن ماجه» [(٣)] من حديث أنس ﷺ قال : كان

---

(١) « المدارج » (١/ ٤٩٠) بتصرف يسير .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء (٢٦٥٤) .

(٣) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب القدر ، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٢١٤٠) ، وقال :=

رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ ؛ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ » .

فما سمِّي القلبُ قلبًا إلا لكثرة تقلبه !! فقلبك الآن على حال ، وبعد خروجك من المجلس إلى حال آخر ! فإذا جلست أمام التلفاز تحوَّل قلبك إلى حالٍ ثالث ، فإذا جلست أمام فيلم فاضح تحول قلبك إلى حالٍ رابع ؛ فإذا ذهبت إلى العمل في الصباح تحوَّل القلبُ إلى حالٍ خامس ، وهكذا ؛ نسأل الله أن يثبت قلوبنا على الحق حتى نلقاه ؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

القِسْمُ الثالثُ من أَقْسَام الخوف : الخوف من سوء الخاتمة .

وهذا الخوف هو الذي قطَّع ومزَّق قلوب الصديقين ؛ فضلًا عن المؤمنين الذين يعلمون بأن العبرة بالخواتيم ، وأن الخواتيم ميراث السوابق ؛ ففي «الصحيحين»[(١)] من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: وفيه : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ ، وَهُوَ مِن أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » .

وفي روايةٍ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : «فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ،

= «هذا حديث حسن» وابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب دعاء رسول الله ﷺ (٣٨٣٤) ، وأحمد (٣/ ١١٢ و ٢٥٧) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٢٠٩) والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٦٨٣) ، والحاكم (٢/ ٣١٧) ، والحديث صحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه والترمذي» ، و« ظلال الجنة » (٢٢٥) .

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب لا يقول : فلان شهيد (٢٨٩٨) ، ومسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي (٢٦٥١) ، (١١٢) .

فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا »[1] .

ولذلك لَمَّا نام عمر بن الخطاب على فراش الموت ، ودخل عليه ابن عباس ، وقال : أبشر يا أمير المؤمنين لَقَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ الله ﷺ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ ، ثُمَّ صَحِبْتَ أَبَا بَكْرٍ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ ، ثُمَّ صَحِبْتَ صَحَبَتَهُمْ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُمْ ، وَلَئِنْ فَارَقْتَهُمْ لَتُفَارِقَنَّهُمْ وَهُمْ عَنْكَ رَاضُونَ . قَالَ : « أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ الله ﷺ وَرِضَاهُ ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ الله تَعَالَى مَنَّ بِهِ عَلَيَّ ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ أَبِي بَكْرٍ وَرِضَاهُ ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ الله جَلَّ ذِكْرُهُ مَنَّ بِهِ عَلَيَّ ، وَأَمَّا مَا تَرَى مِنْ جَزَعِي ؛ فَهُوَ مِنْ أَجْلِكَ وَأَجْلِ أَصْحَابِكَ ، وَالله لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَافْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ عَذَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ »[2] .

ولما نام معاذ بن جبل على فراش الموت بعدما أُصيب بطاعون عمواس قال لإخوانه من الصحابة : انظروا هل أصبح الصباح ؟ قالوا : لا بَعْدُ ، قال : أعوذ بالله من ليلةٍ صباحها إلى النار ، ثم بكى وقال : يا رب إنك تعلم أني كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك[3] .

ولما نام عمر بن عبد العزيز على فراش الموت دخلت عليه فاطمة بنت

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة (٤٢٠٨) ، ومسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٣) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في « صحيحه » ، كتاب فضائل أصحاب النبيِّ ﷺ ، باب مناقب عمر بن الخطاب (٣٦٩٢) .

(٣) تقدَّم .

عبد الملك ، فوجدته قابضًا لحيته بيديه يبكي ؛ فقالت : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : يا فاطمة : لقد فكَّرتُ في الفقير الجائع ، والمسكين الضائع ، واليتيم ، والمظلوم ، والمقهور ، وابن السبيل ، وعلمتُ أن خصمي بيني وبين هؤلاء هو محمد ﷺ ، فخشيتُ أن لا تثبت لي حجة بين يدي الله جلَّ وعلا [(١)].

ولما نام سفيان الثوريُّ على فراش الموت دخل عليه حماد بن سلمة فوجده يبكي بكاءً مريرًا ، فقال حماد : أبشر يا أبا عبد الله إنك مقبل على من كنت ترجوه ، فقال : أسألك بالله يا حماد أتظن أن مثلي ينجو من النار؟! [(٢)].

ولما نام الشافعيُّ على فراش الموت ، ودخل عليه تلميذه المزنيُّ ، قال [(٣)] : يا إمام كيف أصبحت ؟ فيقول الشافعيُّ : أصبحت عن الدنيا راحلًا ، وللإخوان مفارقًا ، ولكأس المنية شاربًا ، ولعملي ملاقيًا ، وعلى الله واردًا ؛ ثم بكى الشافعيُّ وقال : لا أدري أتصير روحي إلى الجنة فأُهَنِّيها ، أم إلى النار فأعزِّيها ؟!

هؤلاء هم الذين خافوا من سوء الخاتمة ، وعلموا أن العبرة بالخواتيم ؛ فما اغتروا بطاعة ، وما اغتروا بعلمٍ ولا جاه ؛ لأنه لا يعلم أحدٌ من البشر كيف تكون خاتمته ؟!!

وقد أخبرنا بذلك نبينا ﷺ بقوله : « وَاللهِ لَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللهِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ » [(٤)].

أيها الأفاضل : الخواتيم ميراث السوابق ؛ قال الحافظ ابن كثير [(٥)] : « لقد

---

(١) «السير» للذهبي (٩/ ١٥١).

(٢، ٣) سبق.

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التعبير ، باب العين الجارية في المنام (٧٠١٨).

(٥) « تفسير ابن كثير » (لسورة آل عمران : ١٠٢).

أجرى اللهُ الكريمُ عادته بكرمه أن من عاش على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء بعث عليه » ؛ فمن عاش على الطاعة اقتضى عدلُ الله سبحانه أن يقبضه على طاعة ، ومن عاش على معصية وبات الليل والنهار لا يفكِّر إلا في الذنب والمعصية اقتضى عدل الله ﷻ أن يقبضه على معصية ، وأن يبعثه على ذات المعصية ؛ فاجتهد أن تكون كلُّ أنفاسك في طاعة ، واحذر إن زلَّت قدمك في بؤرة معصية أن تظلَّ في غفلتك وفي غيك وضلالك ، ولكن إن ذُكِّرت بالله فتذكَّر ، واجْذِبْ ثوبك من أشواك المعاصي والذنوب ، وطَهِّر ثوبك بدموع التوبة والأوبة والبكاء من خشية الله ، وكُنْ على يقينٍ مطلقٍ بأن الله سيغفر لك ، وسيفرح بتوبتك وأوبتك وهو الغنيُّ عنك مهما كان جرمك ، ومهما كانت معصيتك ، ومهما كان ذنبك !!

إلهـــي لا تعـــذبني فـــإني ... مقـــرٌّ بالـــذي قـــد كـــان مِنِّـــي

فكـــم مـــن زلَّـــةٍ لي في البرايـــا ... وأنـــت عـــليَّ ذو فضـــلٍ ومَنِّـــي

يظـــنُّ النـــاسُ بي خـــيرًا وإني ... لشرُّ النـــاس إن لم تعـــف عَنِّـــي

وأختمُ بهذه الكلمات لشيخنا ابن القيم ؛ حيث يقول[1] : « القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر ؛ فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحاه ؛ فمتى فقد الجناحان ؛ فهو عرضة لكلِّ صائدٍ وكاسرٍ ، ولكن السلف استحبوا أن يُقَوِي في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء ، وعند الخروج من الدنيا يُقَوِّي جناح الرجاء على جناح الخوف ؛ هذه طريقة أبي سليمان وغيره .

---

(١) « المدارج » (١/ ٤٩٢) .

قال : ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف ؛ فإن غلب عليه الرجاء فسد » .

وقال أيضًا : « قال أبو عليٍّ الرُّوذباريُّ : الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير ، وتمَّ طيرانه ، وإذا نقص أحدُهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهب صار الطائر في حد الموت »[1] .

فالخوف والرجاء جناحان لطائرٍ واحدٍ لا يمكن أبدًا أن يحلِّق هذا الطائر في أجواء الفضاء إلا بهذين الجناحين معًا ، ولو طار في أفق السماء بجناح واحد ، ونجح في ذلك لمدةٍ ولو طالت ؛ فإنه حتمًا سيسقط لينكسر جناحه الآخر !!

فغلِّب جانب الرجاء إن غلب عليك الخوف ، وغلِّبْ جانب الخوف إن غالب عليك الرجاء .

وخذ هذه الجوهرة الثمينة ؛ فمن صفات من يظلُّهم الله في ظله يوم القيامة ؛ كما في «الصحيحين»[2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ ... وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ؛ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ ... » .

نسأل الله أن يغفر لنا الذنوب ، وأن يستر علينا العيوب ، وأن يفرج لنا الكروب ، وأن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال ، وأن يملأ قلوبنا بالخوف منه ، وأن يرزقنا حسن الخاتمة ؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

*****

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٣٦) .

(٢) تقدم .

منزلة الخشوع

الخشوعُ لغةً هو : الانخفاض ، والذلّ ، والسكون ، والضراعة ، قال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه:١٠٨] ، وخشعت الأصوات : أي ذلَّت وخضعت ، ومنه كذلك وَصْفُ الأرض بالخشوع ، وهو يبس الأرض ، وانخفاضها ، وعدم ارتفاعها ، وتلألؤها بالنضرة وبالزرع وبالألوان المختلفة للورد والثمار ؛ قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [فصلت:٣٩][١] .

فالأرض قبل نزول الماء تراها خاشعةً منخفضة ساكنة .

والخشوع اصطلاحًا هو : قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل ، وقيل : « الخشوع » هو : الانقياد للحق ، وهذا من موجبات الخشوع[٢] .

فمن علامات الخشوع : أن العبد إذا خولف في أمر من الأمور أو في مسألةٍ من المسائل ، ورُدَّ عليه بالحق ، ولو كان الردُّ من ابنٍ له ، أو من طالبِ علمٍ من طُلابه ؛ فإنه يسلم ويذعن وينقاد إلى الحق دون النظر إلى من أجرى الله الحقَّ على لسانه وقلبه ، وهذا ضدُّ الكبر ؛ كما قال النبيُّ ﷺ[٣] : « الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ » ـ وفي رواية [«سَفَهُ الحَقِّ[٤] »] ـ يعني رد الحق] ـ وغَمْطُ النَّاسِ» ،

---

(١) « المدارج » (١/ ٤١٧) .

(٢) قال الجرجانيُّ في « التعريفات » (١٠٢) : « الخشوع والخضوع والتواضع ؛ بمعنىً واحد ، وفي اصطلاح أهل الحقيقة : الخشوع : الانقياد للحق » .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١) عن ابن مسعود ﷺ .

(٤) عند أحمد في « المسند » (٢/ ١٦٩ و ١٧٠) ، والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (٥٥٨ ط المعرفة) ، والحاكم (١/ ٤٨ و ٤٩) ، والبيهقيُّ في « الأسماء » (١٨٦) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا ، والحديث صحَّحه الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » (١/ ١١٢) ، والعلامة الألبانيُّ في « الصحيحة » (١٣٤) و (١٣٢٦) ، و« صحيح الجامع» (٤٦٠٨) .

يعني : ازدراء الناس واحتقارهم .

وقيل: «الخشوع» هو: خمودُ نيرانِ الشهوة، وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التعظيم للرب في القلب ؛ فالإيمان له نورٌ ، وكلَّما ازداد العبدُ إيمانًا بربه وتعظيمًا له ازداد نورُ الإيمان ونورُ التعظيم في قلبه ، فظهر الخضوع في قلبه وعلى جوارحه ، وهذا هو الجمع الصحيح ؛ فشتان شتان بين خشوع الظاهر مع كذب الباطن ! فهذا نفاقٌ وخداعٌ ، وإن انطلى على الخلق ، فإنه لا يغيب عن الذي يعلم السرَّ وأخفى ؛ فخشوع الصادقين هو : خشوع الظاهر والباطن في آنٍ واحد ، لا أن تخشع الجوارح والقلبُ في غفلة ، وفي لهوٍ ؛ بل وفي كبرٍ وإعراضٍ عن الله تبارك وتعالى ؛ فهذا هو خشوع المنافقين ، كما سأبين الآن ، أسأل الله أن يجعلنا جميعًا من الصادقين .

فالخشوع هو : « خمود نيران الشهوة » ، أي : العبد الذي انطفأت نار الشهوة للحرام في قلبه ؛ فهو لا يتطلع أبدًا إلى الحرام ، وإن حدثته نفسه عن الحرام ؛ فسرعان ما يطفئ نيران هذه الشهوة بالتعظيم لربه ؛ بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، والوقوف عند حده ؛ فينقلب من طاعةٍ إلى طاعة ، وينتقل من قُرب إلى قرب ، ومن رحمة إلى رحمة ، وهو سكونُ دخان الصدور .

فالعبد الخاشع تراه صحيحَ الصَّدر ، سليم القلب ، لا يعرف الحقد والحسد والغل والضغينة ، وإنما هو يعلم يقينًا أن ما هو فيه إنما هو تقديرُ ربِّه واختيار خالقه ، وأن ما فيه غيره من إخوانه من عطاءٍ أو منعٍ ؛ فهو أيضًا تقدير الله تبارك وتعالى الذي قسم المعيشة بين خلقه بعدله وحكمته ورحمته تبارك وتعالى .

والخشوع هو : « إشراق نور التعظيم في القلب » ؛ كما في الحديث الذي رواه أبو نعيم في «الحلية» ، بسندٍ حَسَّنه شيخنا الألبانيُّ[1] من حديث عليٍّ رضي الله عنه

---

(١) تقدَّم ؛ وهو في « الصحيحة » (٢٢٦٨) ، و« صحيح الجامع » (٥٦٨٢) .

أن الحبيب النبيَّ ﷺ قال : « مَا مِنَ القُلوبِ قَلْبٌ ، إلاَّ وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ القَمَرِ ، بَيْنَا القَمَرُ مُضِيءٌ إذْ عَلَتْ عَلَيْهِ سَحَابَةٌ ، فَأَظْلَم إِذْ تَجَلَّتْ عَنْهُ فَأَضَاءَ» ؛ فالقلب يشرق فيه نورُ الإيمان ؛ فإذا تكاثفت وتكاتفت ، وازدادت الذنوبُ حجب سوادُ الذنوبِ نورَ الإيمان في القلوب ؛ فإذا تاب العبد ونزع واستغفر ربَّه تبارك وتعالى صُقِل قلبه ؛ أي : لمع وأضاء ؛ كما في « مسند أحمد » و« سنن الترمذي وابن ماجه » وغيرهم [1] من حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ ؛ فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤] » .

أي : عاد الإيمان إلى نوره وإشراقه في القلب مرةً أخرى إذا عظَّم الإنسانُ ربَّه ؛ فانعكس هذا النور في القلب على الجوارح ، ولِمَ لا ؟ أولم تسمع قول النبي ﷺ : « نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي ، فَوَعَاهَا ... » [2] ، والنضرة في الوجوه ، كما ستظهر النضرة على أهل الجنة في الجنة ؛ كما في قوله : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [المطففين:٢٤] .

فالنبيُّ ﷺ دعا بنضارة الوجه إلى من يحمل حديثًا عنه ﷺ ليبلغه كما سمعه ، وكذلك العبدُ الخاشعُ إذا ذاق قلبه حلاوة الخشوع ، وامتلأ بنور

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٧) ، والترمذيُّ ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة المطففين (٣٣٣٤) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ذكر الذنوب (٤٢٤٤) ، وحسنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (١٦٧٠) .

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٨٠ ، ٨٢) ، وابن ماجه ، في المقدمة ، باب من بلغ علمًا (٢٣١) من حديث جبير بن مطعم مرفوعًا ، وللحديث شواهد كثيرة ، راجع « الصحيحة » (١٧٢١) و « صحيح الجامع » (٦٧٦٣) وما بعده .

التعظيم للربِّ ظهرت ثمراتُ هذا الخشوع على الجوارح ؛ قال ابنُ القيم [(١)] :
« أجمع أَهْلُ العلم على أن الخشوع محلُّه القلب ، وثمرته على الجوارح ، وهي تظهره » ، أي : تظهر ثمرة الخشوع على الجوارح ، وقد استدلَّ كثيرٌ من أهل العلم بحديثٍ ضعيفٍ عن رسول الله ﷺ أنه رأى رجلًا في الصلاة يعبث بلحيته ؛ فقال : « لو خضع قلبه لخشعت جوارحه » ، وهذا لا يصحُّ عن النبيِّ ﷺ ؛ فقد رواه الحكيم الترمذيُّ [(٢)] من حديث أبي هريرة ، وفي إسناده سليمان بن عمرو ، وهو متفق على ضعفه ؛ كما قال أهل العلم .

لكن قال النبيُّ ﷺ ـ وقد أشار يومًا إلى صدره الشريف : « التَّقْوَى هَاهُنَا ، التَّقْوَى هَاهُنَا ، التَّقْوَى هَاهُنَا » [(٣)] .

قال الله تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج:٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج:٣٢] ؛ فالتقوى محلُّها القلب ، والخشوع محلُّه القلب ؛ لكنَّ ثمرات الخشوع تظهر على الجوارح ؛ فتظهر في العين ، فالبصر يخشع ؛ كما قال تعالى : ﴿ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾ [النازعات:٩] ، والسمع يخشع ؛ والبدن كلُّه يخشع .

قال بعض الصالحين : « حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن » .

رجلٌ لم يخالف هدي النبيِّ ﷺ الظاهر ، وكذلك تراه غضَّ الطرف عما

---

(١) « المدارج » (١/ ٤٩٥) بتصرفٍ يسير .

(٢) راجع « الضعيفة » (١١٠) و « الإرواء » (٣٧٣) و « ضعيف الجامع » (٤٨٢١) ، وقال الألبانيُّ : « لا يصحُّ مرفوعًا ولا موقوفًا ، والمرفوع أشدُّ ضعفًا ؛ بل هو موضوع » .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤) .

حرم الله ؛ فلا ينظر إلى الفواحش ، ولا يقترف الكبائر ، ولا يجلس في مجلس ريبةٍ ، أو لهوٍ أو فسقٍ إلى آخر هذه الصفات ؛ فهذا الرجل بإجماع أهل العلم هو من أهل الصلاح ، وحسنُ أدبه الظاهر عنوانٌ صادقٌ على حسن أدبه الباطن .

ورأى أحد السلف رجلًا خاشع المنكبين والبدن ؛ فقال : يا فلان ! الخشوع ها هنا ، وأشار إلى صدره ، لا ها هنا ، وأشار إلى منكبيه ؛ فليس معنى الخشوع أن يطأطأ رقبته في الأرض ذليلًا مهينًا ، وإن كنتُ قد ذكرتُ أن الخشوع من أصل معانيه في اللغة : الذلُّ والانكسار ؛ فهذه من علامات المؤمنين تراهم أذلةً لله سبحانه وتعالى ، وفيما بينهم ، وتراهم أعزةً على الكافرين والمنافقين ؛ فإن وافق خشوع البدن خشوع القلب ؛ فهذا هو خشوع الصادقين ، أما ما يعيبه السلف ؛ فهو أن ترى خشوعًا في الظاهر مع كذب في الباطن ، وجرأة صاحب هذا البدن الخاشع على محارم الله إن خلا بنفسه ؛ فهذا ليس خاشعًا وإن طأطأ رأسه ، وطأطأ منكبيه ! وهذا خشوع المنافقين ؛ أعاذنا الله وإياكم من النفاق ، قال أبو الدرداء ـ رضوان الله عليه : « إياكم وخشوع النفاق ؟ قيل له : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن ترى الجسد خاشعًا ، والقلب ليس بخاشع »[1] .

قال شيخُ الإسلام في « مجموع الفتاوى »[2] : « وليس كلُّ من صلَّى ببدنه يكون قلبه منورًا بذكر الله والخشوع وفهم القرآن ، وإن كانت صلاته يثاب عليها ، ويسقط عنه الفرض في أحكام الدنيا ؛ فكلُّ من خشع قلبه خشعت جوارحه ، ولا ينعكس ، ولهذا قيل : « إياكم وخشوع النفاق » ؛ فإذا صلح

---

(١) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٣) ، وأحمد في « الزهد » (ص١٤٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٧/ ٢٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٩٦٦، ٦٩٦٧).

(٢) « الفتاوى » (٧/ ٣٦٧ و ٣٦٨) .

القلب صلح الجسد كلُّه ، وليس إذا كان الجسد في عبادة يكون القلب قائمًا بحقائقها » .

ورأى عمر بن الخطاب رجلًا طأطأ رقبته في الصلاة ؛ فقال عمر : « يا صاحب الرقبة ، ارفع رقبتك ، ليس الخضوع في الرقاب ، إنما الخشوع في القلوب » (١) .

ورأت عائشة رضي الله عنها شبابًا يتماوتون في مشيتهم ؛ فقالت لأصحابها : مَنْ هؤلاء ؟ فقالوا : نُسَّاك ، أي : عباد زهاد ؛ فقالت : « كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع ، وإذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع ، وإذا أطعم أشبع ، وكان هو الناسك لله حقًّا » (٢) .

وقال الفضيل بن عياض : « كان يُكره أن يظهر الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه » .

قال أبو الفرج ابن الجوزي (٣) : « إذا سكن الخوف القلب أوجب الخشوع في الظاهر ، ولا يملك صاحبه ؛ فتراه مطرقًا متأدبًا متذللًا ، وكانوا رضي الله عنهم يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك ، فكان محمد بن سيرين رحمه الله يبكي الليل ويضحك بين الناس في النهار » .

وقال حذيفة ـ رضوان الله عليه : « أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ،

---

(١) راجع « تلبيس إبليس » (٣٥٥) لابن الجوزي ، و « الإحياء » للغزالي (٣/ ٢٩٦) .

(٢) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٣/ ٢٩٠) ، والطبري في « تاريخه » (٢/ ٥٧١ و ٥٧٢) ، وابن عساكر (٤٤/ ٢٨٨) ، وابن الجوزي في « التلبيس » (٣٥٥ و ٣٥٦) من حديث الشفاء بنت عبد الله قالت : كان عمر .... فذكرته ، وفيه ضعف ؛ وابن القيم هنا أورده في « المدارج » (١/ ٤٩٦) من رواية عائشة ، وعزاه لها السيوطيُّ في « الأمر بالاتباع » (٢٠) بقوله : « وفي كتاب « الكامل » لأبي العباس المبرد وقال : ويُروى أن عائشة .... » .

(٣) في « تلبيس إبليس » (٣٥٤) ، وراجع هذا الفصل في « التلبيس » ؛ فإنه مهمٌّ جدًّا .

وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة ، وربَّ مصلٍّ لا خير فيه ، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا » (١) .

تصور حجم المصيبة !!

قال سهل بن عبد الله التستري : « من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان » ، وقال ابن مسعود ﷺ : « من تواضع لله تخشعًا رفعه الله يوم القيامة ، ومن تطاول تعظمًا وضعه الله يوم القيامة » (٢) .

لأن الله تبارك وتعالى لا يحبُّ المتكبرين ، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر !! اللهم جنبنا الكبر يا رب العالمين ، وارزقنا الذلَّ إليك ، أنت وليُّ ذلك والقادر عليه .

فعقوبة الله للمتكبرين أن يصيرهم يوم القيامة كالذرِّ أي : كالنمل يطؤهم الناسُ بأقدامهم !

أما من تواضع لله رفعه الله تعالى في الدنيا والآخرة .

والخشوع في القرآن ورد على خمسة أوجه :

المعنى الأول : الذل والخضوع ؛ قال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه:١٠٨] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧/ ١٤٠) ، والطبريُّ في « تاريخه » (٧/ ٧١) وأحمد في «الزهد » (١٧٩) ، وأبو داود في « الزهد » (٢٧٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥١٦) ، والدولابي في « الأسماء والكنى » (٢/ ٥٤)وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٨١) ، وقد رُوي مرفوعًا بسنَدٍ واهٍ ؛ كما في « الكامل » لابن عدي (٢/ ٤٣٤) .

(٢) أخرجه أحمد في « الزهد » (١٥٦) وابن المبارك في « الزهد » (٧٤ زيادات نعيم) ، وهناد في « الزهد » (٨٣٢) ووكيع في « الزهد » (٢١٠) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٥٥) وابن أبي الدنيا في « التواضع » (١٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٣٨) .

مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد:١٦] ؛ قال ابن عباس [(١)] : « إن الله تعالى استبطأ قلوب المهاجرين ؛ فعاتبهم بهذه الآية على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن » ، أي : متى ستخشعون وتذلُّون لربِّ العالمين ، وتخضعون له ؟! متى ستسلِّمون لأمره ، وتجتنبون نهيه ، وتقفون عند حدوده ؟! متى ستذلُّ القلوب ، وتخشع وتخضع لعلام الغيوب ؟!

روى مسلم في « صحيحه » [(٢)] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين » .

أيها الأخوة : ألم يأن لنا أن تخشع قلوبنا لذكر ربنا وما أنزله الله من الحق على قلب نبينا ﷺ ؟ ألم يَحِن بَعْد الأوان لنراجع فيه أنفسنا جميعًا ؛ لنطهر النفوس من الشرك والشك والغل والحقد والحسد ؛ لنطهر الألسن من الغيبة والنميمة والقذف والخيانة ؛ لنطهر الجوارح من المعاصي والذنوب ؟ أما آن أن تخشع قلوبنا لربنا تبارك وتعالى ، وأن نردد مع السابقين الأولين قولتهم الخالدة : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥] .

وجاء الخشوع في القرآن بمعنى سكون الجوارح ؛ قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون:١، ٢] ؛ قال ابن عمر رضي الله عنه [(٣)] : « كانوا إذا قاموا إلى الصلاة أقبلوا على صلاتهم ، وخفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم ، وعلموا أن الله يُقبل عليهم ؛ فلا يتلفتون يمينًا ولا شمالًا » .

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » ؛ كما في « تفسير ابن كثير » (لسورة الحديد : ١٦) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب التفسير ، باب في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد:١٦] ، (٣٠٢٧) .

(٣) أخرجه ابن مردويه في « تفسيره » ؛ كما في « الدر المنثور » (تفسير المؤمنون : ٢) .

قال الحسن [١] : « كان خشوعهم في قلوبهم ؛ فغضوا بذلك أبصارهم ، وخفضوا لذلك جناحهم » .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ [القمر:٤ ـ ٧] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم:٤٢، ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾

[المعارج:٤٠ ـ ٤٤]

وورد الخشوع في القرآن أيضًا بمعنى الخوف ؛ كما في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾

[الأنبياء:٨٩، ٩٠]

وورد الخشوع أيضًا بمعنى التواضع ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٥] .

---

(١) أخرجه الطبريُّ في « تفسيره » (لسورة المؤمنون : ٢) .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آل عمران:١٩٩] ؛ فالخشوع هنا بمعنى الخضوع والذلة والمسكنة لله تبارك وتعالى.

ورد الخشوع أيضًا في القرآن بمعنى الجمود واليبس ـ وهذا للأرض ـ كما في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [فصلت:٣٩] ؛ فالخشوع هنا بمعنى اليبس ، أي : لا تهتز الأرض خضرة ونضرة وجمالًا بالزهور والثمار والأشجار ، وإنما تراها خاشعة للعزيز الغفار ، ثم إذا نزل الماء عليها اهتزت ، وحدث لها ما أراد لها ربها سبحانه من الخضرة والجمال .

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى [١] : « قال ـ يعني الهروي : والخشوع على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : التذلل للأمر ، والاستسلام للحكم ، والاتضاع لنظر الحق » .

أما التذلل للأمر : فهو تلقيه بذُلِّ القبول والانقياد والامتثال مع موافقة الظَّاهر للباطن .

« والافتقار إلى الهداية للأمر » ، وهذا هو معنى : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ؛ فمن امتثل الأمر فبتوفيقه ، وبإعانة الله له ؛ فأنت تفتقر إلى الله ﷻ أن يعينك على امتثال الأمر ، وأن يعينك على فعله أثناء الفعل ، وأن يرزقك القبول بعد الفعل ، فأنت قبل العمل تسأل الله أن يوفقك لتعمل ؛ فإذا شرعت في العمل فأنت مفتقر إلى الله ليعينك على العمل ، فإذا انتهيت من العمل تتضرع إلى الله ثالثةً أن يتقبل منك العمل ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ

---

(١) « المدارج » (١/ ٤٩٦) .

يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون:٦٠] .

والاستسلام للحكم الشرعيِّ معناه : ألا تعارض الحكم الشرعيَّ إن صحَّ برأي أو شهوة ؛ لأن الخشوع هو الاستسلام للحكم الشرعي ، وللحكم القدري إذا ثبتت صحةُ الدليل ، فيجب عليك أن تسلِّم للدليل دون معارضة برأيٍ أو هوى أو شهوة .

فالعقل له مجاله فليبدع فيه ، لكن إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل [١] .

وإن لم تستطع ـ بعقلك ـ أن تتفهم الأمر الربانيَّ أو النبويَّ ، وقد قدَّمنا قبل ذلك أمثلة على ذلك بحديث الذبابة و« إذا ولغ الكلب » وبمسألة : « المسح على ظاهر الخف » ؛ فلا يجوز أن نرد النصوص الشرعية بعقولنا القاصرة بحالٍ من الأحوال .

وأنا ذكرتُ أن القلب السليم لا يصل إلى درجة السلامة إلا بخمسة شروط ؛ قال ابنُ القيم [٢] : « ولا يسلم القلب حتى يسلم من خمسة أشياء ؛ حتى يسلم من شرك يناقض التوحيد ، ومن بدعة تناقض السنة ، ومن شهوة تناقض الأمر ، ومن هوى يناقض الإخلاص ، ومن غفلة تناقض الذكر » .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٥١] ، وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ

---

(١) وهذا المثل يسوقه أهل العلم فيمن يستعملُ النظر عند ورود الأثر ، أو يردُّ النص إذا عارضه العقل ، ونهر معقل بالبصرة ، نسب إلى معقل بن يسار المزني ، راجع ترجمته في تراجم الرجال ، وانظر « تاج العروس » (٧٣٤٩) .

(٢) تقدَّم .

أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[الأحزاب:٣٦] .

فالخشوع هو الاستسلام للحكم الشرعي بعدم معارضة الحكم برأي أو بشهوة ، والاستسلام للحكم القدري بعدم التسخط والكراهة والاعتراض ، ومن لم يرض بقضائه ويصبر على بلائه ؛ فليخرج من تحت سمائه ، وليبحث عن ربٍّ سواه !!

وأقولُ : لو أن رجلًا يملك شركة خاصة به ، وهو رجل تقيٌّ يخشى الظلم ، وجاء في يوم من الأيام ونادى على موظفٍ عنده وقال له : لقد صرفت لك مكافأة قيمتها مثلًا مائة جنيه ، فلا يستطيع أحدٌ أن ينكر على هذا الرجل عطاءه ؛ لأن الشركة شركته ، والمال ماله ؛ فلا أحد ينكر عليه ، ثم هو أعطى فلانًا هذا ؛ لأنه معروفٌ بين الموظفين بأنه رجلٌ مبدعٌ ومتقن يؤدِّي العمل على أكمل وَجْه ، فلن يتهم هذا الرجل في عطائه ؛ لأنه أعطى لحكمة ، فإذا كنا لا ننفي الحكمة والعدل عن بشرٍ ، فكيف ننفي الحكمة والعدل عن رب البشر سبحانه وتعالى ؛ فإن أعطى الله فلحكمة ، أو منع فلحكمة وبعدل ، نعم إذا كنَّا نحن نمدح الحكماء ، والحكمة عند الحكماء ما هي إلا شيء من فيض الحكيم الخبير سبحانه وتعالى ؛ قال تعالى : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [البقرة:٢٦٩] ؛ فما ظنك بحكمةِ الحكيم نفسه ؟! وما ربك بظلام للعبيد .

فالخشوع هو: التسليم للحكم الشرعيِّ والقدريِّ ، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره ، وما تراه شرًّا من وجهة نظرك ؛ فهو عند الله ليس كذلك ؛ كما قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ

خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦] ، وقال الله تبارك وتعالى في حادثة الإفك التي رُمي فيها المصطفى ﷺ في شرفه وعرضه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور:١١] ؛ فالله تعالى يقول في هذه الفاجعة : ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ فالمؤمن هو الذي يرضى بما قسمه له الله تبارك وتعالى ، وهو على يقينٍ مطلقٍ أن ما قدَّره له ربُّه وقضاهُ هو الخير .

قال ابنُ القيم [1] : « وأما الاتضاع لنظر الحق » ؛ فهو اتضاع القلب والجوارح ، وانكسارها لنظر الرب إليها ، واطلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح ، وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦] وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات:٤٠] ، وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع ، والقدرة ، والربوبية .

فخوف العبد من هذا المقام : يوجب له خشوعًا في قلبه لا محالة ، وكلَّما كان العبدُ أشدَّ استحضارًا لهذا المقام كان أشد خشوعًا لربه سبحانه ، وإنما يفارق القلبُ الخشوع والخوف من مقام ربه إذا غفل صاحبُ هذا القلب عن اطلاع الله عليه ، ونظر الله سبحانه وتعالى إليه .

أما الدرجةُ الثانية من درجات الخشوع فهي : ترقُّبُ آفات النفس والعمل ،

---

(١) « المدارج » (١/ ٤٩٧) .

ورؤية كلِّ ذي فَضْلٍ عليك ؛ فإن العبد عليه أن ينظر إلى عيوب نفسه ونقائصها ، وإلى عيوب عمله ؛ فأنت لا تتعرف على طعم الخشوع إذا أصبت بالكبر والعجب ، فإذا كنت معجبًا بعملك أو بمكانتك ؛ فمحالٌ أن يعرف الخشوع إلى قلبك سبيلًا ؛ لكن إذا نظرت دومًا إلى عيوب نفسك وآفاتها وعيوب عملك وآفاته ورَّثك ذلك خشوعًا في القلب لا محالة ؛ لأنك لا تدري هل قبل الله منك العمل أم لا ؟ ولا تدري هل سيختم لك بخير أم لا ؟ ولا تدري أنَّ ما أنت فيه هَلْ هو فَضْلٌ من الله عليك أم ابتلاء وامتحان ؟ فكم من مغرور بثناء الناس عليه وهو لا يدري ؟ وكم من مفتون بنعم الله عليه وهو لا يدري ؟ وقد قال ابنُ القيِّم رحمه الله تعالى [1] : إذا وجدت النعم التي أنعم الله بها عليك تزيدك قربًا من الله ؛ فإنما هي علامة رضا ، وإذا ما وجدت أن النعم بين يديك تزيدك بعدًا عن الله ؛ فإنما هي علامة سخطٍ وبغضٍ عليك من الله جلَّ وعلا ؛ قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥] ؛ فكلَّما نظر الإنسان إلى عيوب نفسه وآفات عمله ورَّثه ذلك خشوعًا وذلًّا وانكسارًا بين يدي الله تبارك وتعالى .

أما رؤيةُ فضل كلِّ ذي فضلٍ عليك ؛ فمعناه أن تراعي حقوق إخوانك وحقوق الناس عليك فتؤديها ، ولا أن ترى ما فعله الناس معك إنما هو من حقك عليهم ، فلا تعارضهم على ذلك ، فإن هذا من رعونات النفس وحماقاتها ، ولا تطالبهم بحقوق نفسك عليهم ، وتعترف بفضل كلِّ ذي

---

(١) انظر « الجواب الكافي » (٢١ و ٢٢ ط الكتب) بتصرف .

فضل عليك، كن أصيلًا وفيًّا؛ فما أعظم الوفاء لمن أسدى إليك معروفًا، وقدَّم لك فضلًا في الدين أو في الدنيا؛ فلابد أن تعترف له بفضله عليك.

هذه من علامات خشوع القلب لله تبارك وتعالى، وفي الوقت نفسه: تنسى فضلك عليه، ولا يرتقي إلى هذا إلا ذو حظٍّ عظيم، أن تنظر إلى حقوق إخوانك عليك، ولا تنظر إلى حَقِّك أنت عليهم، وإذا كان ذلك كذلك فسترى كلَّ أخٍ يؤدي لأخيه حقه بيسر وسلاسة؛ لذلك لقي أحدُ السلف رجلًا؛ فقال له: «غدًا نلتقي لنتعاتب؛ فقال له أخوه: بل غدًا نلتقي لنتغافر»، يعني: ليغفر كلُّ واحدٍ منا لأخيه؛ قال ابنُ القيم: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله[1] يقول: «العارف[2] لا يرى له على أحدٍ حقًّا، ولا يشهد له على غيره فضلًا، ولذلك لا يُعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب».

إن كنت عالمًا فالفضل لله، وإن كنت غنيًّا فالفضل لله، وإن كنت موفقًا لطاعةٍ فالفضل لله، والله ذو الفضل العظيم؛ فالفضل ابتداءً وانتهاءً من الله، ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب.

أما الدرجة الثالثة من درجات الخشوع؛ فهي: «تصفيةُ القلب من مراءاة الخلق».

أخي الكريم: خلِّص عملك لله، واستعن بالله على ذلك، واعلم أنه لو اجتمع أهلُ الأرض كلهم بالثناء عليك؛ فلن يقربك ثناؤهم عليك من الله إن كنت بعيدًا عن الله، ولو اجتمع أهل الأرض بالذم فيك لن يبعدك ذمهم

---

(١) «المدارج» (١/ ٤٩٨) ط التوفيقية.

(٢) وهو العارف بالله وبأسمائه وصفاته.

فيك عن الله إن كنت قريبًا من الله ؛ فلا تعلق قلبك بالبشر ، وعلِّق قلبك برب البشر ـ جلَّ جلاله ، وقلوبُ البشر كلُّها بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ؛ فما أحبك مَنْ أحبك إلا بتوفيقه ، وما أبغضك من أبغضك إلا بتقديره .

فتصفية القلب من مراءاة الخلق سبب لراحة البال وانشراح الصدر ، وطمأنينة القلب ؛ لأن الذي يعمل من أجل الناس يعيش في قلق وهمٍّ وغم ، لكن اطرح الناس خَلْف ظهرك ، وراقب ربَّك سبحانه وتعالى في قولك وعملك ؛ فلو رضي الناسُ عن أحدٍ لرضي الناسُ عن الواحد الأحد !!

فإذا كان كلُّ البشر لم يرضوا عن ربِّ البشر ، أفيرضى البشر عن سيد البشر ﷺ ؟ !

قال ابن القيم رحمه الله [(١)] : « ولقد شاهدتُ من شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره ، فقد كان يقول كثيرًا : مالي شيء ، ولا مني شيء ، ولا فيَّ شيء » .

وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت :

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين في مجموع حالاتي

أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتينا من عنده ياتي

لا أستطيع لنفسي جَلْبَ منفعة ... ولا عن النفس لي رفع المضرات

والفقر لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا ... كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي

وهذه الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عبدٌ له آتي

---

(١) « المدارج » (١/ ٤٢٠ و ٤٢١) ط الحديث .

هؤلاء هم الذين ذاقوا حلاوة الخشوع وحلاوة تصفية القلب من مراءاة الخلق ، وجردوا رؤية الفضل ، فهو لا يرى الفضل والإحسان إلا من الله ؛ فهو المانُّ به بلا سبب منك ؛ فالفضل ابتداءً منه وإليه : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[الحجرات:١٧] ، وكذلك يشهد العبد في هذا المقام أن ما زوي عنه من الدنيا أو ما لحقه منها من ضرر أو أذى فهو من الله أيضًا من وجوه كثيرة ؛ كما قال بعض السلف [(١)] : « يا ابن آدم لا تدري أي النعمتين عليك أفضل ؟ نعمته فيما أعطاك أم نعمته فيما زوَى عنك » .

وقال عمر بن الخطاب : « لا أبالي على أي حالٍ أصبحتُ أو أمسيت : إن كان الغنى إنَّ فيه للشُّكر ، وإن كان الفقر إنَّ فيه للصَّبر » [(٢)] .

وقال بعض السلف : « نعمته فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لي منها ؛ فإني رأيت الله قد أعطاها قومًا فاغتروا بها » [(٣)] .

أسأل الله أن يرزقنا الخشوع بهذا الفهم الرائع الراقي للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، وأسأل الله أن يرزقنا الصدق في الأقوال والأعمال والأحوال ، وأن يتقبل منا جميعًا صالح الأعمال .

(١ ، ٢ ، ٣) انظر هذه الآثار في « المدارج » (١/ ٥٠٢) ط دار الكتب ، وقد أخرج ابن المبارك في « الزهد » (٤٢٧) ، وابن أبي الدنيا في « الشكر » (١٢٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٤٨٨) بسنده إلى صالح بن مسمار قال : « ما أدري أنعمة الله عليَّ فيما بسط عليَّ أفضل أم نعمته فيما زوى عني » ، وأخرج ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧/ ٢٠٩) ، وابن أبي الدنيا في « الشكر » (١٢٠) ، وابن عساكر (٢٢/ ٤٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٣٣) من حديث أبي حازم قال : « نعمة الله فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته عليَّ فيما أعطاني منها إني رأيته أعطاها قومًا فهلكوا » ، وفي « العلل » للإمام أحمد (١٠١٠) ، والدولابي في «الكنى» (١٢٨٥)، وابن المبارك في « الزهد » (٤٢٥) ، وأبي داود في « الزهد » (٩٦) وابن أبي الدنيا في « الفرج » (١٣) من حديث عمر قال : « ما أبالي على أيِّ حال أصبحت أعلى ما أحبُّ أم على ما أكره، ذلك لأني لا أدري الخير في ما أحب أو في ما أكره » .

منزلة الإخبات

ومن بين هذه المنازل التي لابد أن ينزلها السالكُ طريق ربه ﷻ قبل أن يصل إلى مقام الإحسان : « منزلة الإخبات » ؛ قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الحج:٣٤، ٣٥] .

فالمخبتُ بنصِّ هذه الآية الكريمة وَجِلُ القلب ، إذا سمع كلام الله تبارك وتعالى وجل قلبه ، واقشعر بدنه ، وهذه يشعر بها كلُّ واحدٍ منا بلا استثناء في لحظة الإخبات والخشوع ، يشعر برجفة في القلب حقيقية ليست معنوية ، إن ذُكر الله أمامك وأنت مخبت القلب لله جَلَّ وعلا ، والمخبت لله صابر على المحن والبلايا والفتن لعلمه فضل الصبر ؛ قال سبحانه : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٥ ـ ١٥٧] ، صلاة من الله ، ورحمة من الله ، وهداية من الله لكلِّ صابر على الفتن والمحن والبلايا .

فالمخبت وَجِلُ القلب ، صابرٌ على البلاء والضراء ، والفتن والمحن والبلايا ، وهو كذلك مقيم للصلاة ؛ بل إذا حزبه أمر ، واشتدَّت به الفتن لجأ إلى الله تبارك وتعالى ، وطرح قلبه بِذُلٍّ وانكسار بين يدي العزيز الغفار ؛ كما كان حال نبينا ﷺ ؛ كما في « سنن » أبي داود و« مسند » أحمد [1] عن

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل (١٣١٩) ، وأحمد (٥/ ٣٨٨) ، وحسّنه الألبانيُّ في « سنن أبي داود » و« صحيح الجامع » (٤٧٠٣) ؛ قال ابن الأثير : « حزبه : أي نزل به مُهِمٌّ أو أصابه غم » ؛ النهاية (١/ ٣٦٩) .

حذيفة ﷺ قال : « كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى » .

والمخبت منفق مما آتاه الله تبارك وتعالى ؛ هذه صفات المخبتين في كلام رب العالمين ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [هود:٢٣] .

فما هو الإخباتُ ؟ قال ابنُ القيم رحمه الله [1] : « الخَبْتُ في أصل اللغة هو : المكان المنخفض من الأرض ، وبه فسر ابن عباس ﷺ وقتادة الإخبات بهذا المعنى وقالا : « وبشر المخبتين » هم : « المتواضعون » ؛ فالمتواضع دائمًا وجهه في الأرض ، وأنفه في الطين ، لا يشمخ بأنفه قط ، وقد ذكرتُ مثالًا حينما شبَّهتُ المتكبر والمتواضع بسنبلتين من سنابل القمح ، فإذا ذهبْتَ إلى حقل قمح وجدتَ نوعًا من أنواع السنابل قد انحنى بوجهه إلى بطن الأرض ، ورأيت نوعًا آخر شمخ هكذا إلى السماء ؛ فلو تحسست بيدك السنبلة التي وضعت أنفها في الطين وجدتها مليئة ، وإن تحسست بيدك السنبلة الأخرى التي شمخت بأنفها إلى السماء وجدتها فارغة ، فالفارغ هو الذي يشمخ بأنفه ؛ فارغ من الإيمان ، فارغ من التواضع ، فارغ من الحكمة ، أما المتواضع مُطأطئ الرأس؟ فهودائمًا ينظر إلى الطين ، وإلى عيب نفسه ، وإلى تقصيره ؛ لأنه يعلم قدر نفسه بعد علمه بقدر ربه ، فإذا عرف العبدُ قدر ربه عرف قدر نفسه ، وإذا علم العبد أن أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة وهو بين ذلك يحمل العذرة ما تكَبَّر ؛ فعلام الكبر يا ابن التراب ومأكول التراب غدًا؟!! علام الكبر؟ قال جَلَّ وعلا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار:٦] ؛ فابن عباس وقتادة يقولان: «المخبتون: المتواضعون » ، وقال مجاهد [2] : « المخبت

---

(١) « مدارج السالكين » (٢/ ٥) الحديث .

(٢) المصدر السابق بتصرف .

المطمئن إلى الله ﷻ » ـ اللهم ارزقنا الثقة بك والطمأنينة إليك ـ فالمخبت واثق فيما عند الله أكثر من ثقته فيما في يده .

وقال الأخفش : « المخبتون هم : الخاشعون » .

وقال إبراهيم النخعي : « المخبتون هم : المصلون المخلصون » .

وقال الكلبيُّ : « المخبتون هم : الرقيقة قلوبهم » ؛ فالمخبت رقيقُ القلب ، بكَّاء ، خاشع الجوارح ؛ عينه دامعة ، ساكن خاضع ، متواضع ، صادق مخلص .

وقال عمرو بن أوس : «هم الذين لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم ينتصروا».

كلُّ هذه المعاني من معاني الإخبات ، وهي أقوال كلُّها تدور على معنيين ، والكلام لابن القيم رحمه الله : « الأول : التواضع ، والثاني : السكون إلى الله » ، وسيأتي الحديث عن التواضع بعد ذلك .

المعنى الثاني : هو السكون إلى الله .

قال بعض السلف [1] : « مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها ، قالوا : وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله ، والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه » .

فالأنسُ بالله : السكون إلى الله ؛ بمعنى : ألا تشعر بالطمأنينة والثقة واليقين والسعادة والسعة ـ من أيِّ ضيق ـ إلا وأنت مع الله .

فلا تجد لذةً إلا إذا ابتعدت عن الخلق وأن تخلي قلبك لربك ، وأن تنفرد في هذه اللحظات بمناجاة رب الأرض والسماوات ، وأن تقول :

بك أستجير ومن يجير سواك ... فأجر ضعيفًا يحتمي بحماك

(١) « مدارج السالكين » (١/ ٤٥٤) .

إني ضعيف أستعين على قَوِيٍّ ... ذنبي ومعصيتي ببعض قواك

أذنبت يا رب وقادتني ذنوب ... ما لها من غافر إلاك

دنياي غرتني وعفوك شدني ... ما حيلتي في هذه أو ذاك

لو أن قلبي شك لم يك مؤمنًا ... بكريم عفوك ما غوى وعصاك

يا مُنبت الأزهار عاطرة الشذى ... هذا الشذى الفواح نفح شذاك

يا مجري الأنهار ما جريانها ... إلا انفعالة قطرةٍ لنداك

ربَّاه ها أنا ذا خُلِّصت من الهوى ... واستقبل القلب الخلي هُدَاك

ربَّاهُ قلبٌ تائبٌ ناجاك

أتردُّه وتردُّ صادق توبتي ... حشاك ترفض تائبًا حشاك

فليرض عنِّي الناس أو فليسخطوا ... أنا لم أعد أسعى لغير رضاك

هذه أجمل لحظاتٍ تمرُّ على العبد الصادق ... إنها لحظاتٌ أشهى عنده من أيِّ لحظة أخرى يقضيها أمام لقمة هنية أو شربة شهية ، أو زوجة حسناء جميلة رضية ؛ إنها أسعد اللحظات التي لو عرفها ملوك الأرض لجالدوا عليها أهل السكون إلى الله بالسيف !!

فمن معاني الإخبات : أن تسكن إلى الله ، وأن تخرج من كلِّ همٍّ إلى ساحة السعة ، والفضاء الواسع في الثقة بالله سبحانه وتعالى ، والرضا عنه ، واليقين فيه جَلَّ جلاله ؛ فالإخبات أول مقامٍ يتخلَّص فيه العبد السالك إلى ربه تبارك وتعالى من التردد الذي هو نوع من أنواع الغفلة والإعراض ؛ فالعبد السالك إلى الله تبارك وتعالى مسافر إلى ربه ، سائر إليه على مدى أنفاسه في

هذه الحياة الدنيا لا ينتهي سيره إلى الله ﷻ إلا بانتهاء نَفَسِهِ ؛ فإن الإخبات للعبد السالك إلى الله تعالى كالماء العذب الزلال في الوقت الشديد الحر ، يُقبل العبد في الجو القائظ على هذا الماء إقبالًا لا يستطيع بليغ أن يصفه ؛ فكذلك العبد السالك إلى الله يقبل على الإخبات كأول خطوة أو كأول مقام يسلكه ليستمر في سيره إلى الله تبارك وتعالى ، فإذا ورد ذلك الماء زال عنه التردد ، وزال عنه خاطر الرجوع في هذا الماء العذب أو عن هذا الطريق ، كذلك السالك إلى الله إذا ورد منزل الإخبات تخلَّص من التردد والرجوع عن هذا الطريق الذي تَذوَّق فيه حلاوة القرب ، والسكون إلى الله تبارك وتعالى .

درجات الإخبات :

والإخبات على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : أن تستغرق العصمة الشهوة ، وأن تستدرك الإرادةُ الغفلة ، وأن يستهوي الطلبُ السلوة .

هذه هي الدرجة الأولى من درجات الإخبات ، وخذ هذا التفصيل لهذا الإجمال البديع .

فالمرحلة الأولى من مراحل الدرجة الأولى من درجات الإخبات : أن تستغرق العصمة الشهوة ؛ فالسالك إلى الله سبحانه وتعالى تعترض طريقه غفلةٌ أو شهوةٌ أو سلوى ، وقد ذكرت أن الطريق إلى الله يُسلك بالهمم والقلوب لا بالأبدان ؛ فكما أن مسافات الأرض تُقطع بالأبدان فإن المسافات إلى الله تقطع بالأرواح والقلوب والهمم ؛ كما قال ابنُ القيم [1] : « اعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه ؛ فالتقوى

(١) « مدارج السالكين » (١/ ١٤١) .

في الحقيقة هي تقوى القلوب لا تقوى الجوارح ؛ قال الله تبارك وتعالى :﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج:٣٧] ، وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢] .

وأشار النبيُّ ﷺ يومًا إلى صدره الشريف ، وقال[١] : « التَّقْوَى هَاهُنَا ، التَّقْوَى هَاهُنَا ، التَّقْوَى هَاهُنَا » .

فالعبد السالك إلى الله ، السائر على هذا الدرب ، تُضعِف إرادته شهوته ، وتعترض طريقه غفلةٌ ، وتصرفه عن السير في الطريق سلوى ؛ فإذا نزل العبد السالك إلى الله منزلة الإخبات استغرقت عصمته شهواته ، واستدرك طلبه إرادته ، واستهوى طلبه أيضًا وحرصه على الخير وعلى السير سلوته .

وأُفصِّل وأقول : العصمة : هي الحماية والحفظ ، والاعتصام في أصل اللغة[٢] : الامتناع والاستمساك بالشيء ، اعتصمت بكذا ، أي : امتنعت به ، واحتميت به ، فالعصمة : الامتناع والحماية والحفظ ، والشهوة ؛ إما شهوة الدنيا ، وإما أن تكون من شهوات الشبهات ؛ فالشبهة أيضًا شهوة ؛ فهناك شهوة المال ، وشهوة النساء ، وشهوة الجاه ، وشهوة الحرص ، وشهوة الطمع ، وشهوة حب الظهور ؛ فالفتن: إما أن تكون من باب الشهوات أو

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤) ولفظه : « لاَ تَحَاسَدُوا ، وَلاَ تَنَاجَشُوا ، وَلاَ تَبَاغَضُوا ، وَلاَ تَدَابَرُوا ، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا ، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ ، التَّقْوَى هَا هُنَا » ، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ : « بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ » .

(٢) « لسان العرب » لابن منظور (١٢/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥) بتصرف ، « ومعجم مقاييس اللغة » (٤/ ٣٣١) .

من باب الشبهات، ولا ثالث لهما، والرسول ﷺ خشي على أمته من فتنة الشهوات أشد خشية؛ كما في «الصحيحين»[(١)] من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «وَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكم أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ».

وفي «صحيح مسلم»[(٢)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؛ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ».

وأخطر فتنة على الرجال، فتنة النساء؛ كما في «الصحيحين»[(٣)] من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ».

فإن نزل العبد منزلة الإخبات استغرقت عصمته شهوته؛ فإذا استوفت العصمةُ جميع أجزاء الشهوة؛ فذلك دليلٌ على إخبات هذا العبد لله تبارك وتعالى، ودخوله في مقام الطمأنينة؛ لأنه لم يشعر بالسكون ولا بالطمأنينة إلا وهو مع الله، وإذا زلَّت قَدَمُه في شهوةٍ من الشهوات شعر بالضنك، والقلق، والشقاء، والحيرة، والغضب، وضيق الصدر، وقلق البال، وعدم استقرار الضمير والنفس، تراه قلقًا كأنما يرى أمامه وحشًا يريد أن

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٤٢٥)، وانظر (٣١٥٨)، ومسلم كتاب الزهد والرقاق (٢٩٦١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء (٢٧٤٢).

(٣) أخرجه البخاريُّ كتاب النكاح باب ما يُتقى من شؤم المرأة (٥٠٩٦)، ومسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء (٢٧٤٠).

يفترسه بين اللحظة والأخرى ؛ فهو في كلِّ لحظة يتنابه الفزع ؛ لأنه في بؤرة شهوة في معصية من المعاصي !!

والخلاصةُ : أن العبد في هذه الدرجة يتخلَّص من مرحلة التردد والحيرة بين الإقبال على الطاعة والإدبار عنها ، أو إقبال على المعصية ؛ ففي أول مراحل الطريق ترى العبد مترددًا : يا تُرى أسيرُ في الطريق المستقيم أم أرجع إلى ما كنت فيه ؟ فتراه مترددًا بين الإقبال والإدبار للعودة إلى طريق المعاصي الذي كان يشعر فيها زعمًا باللذة ؛ فإن نزل منزلة الإخبات خرج تمامًا من مرحلة التردد هذه ، وعلم يقينًا أنه لا طمأنينة له ، ولا أنس ولا سعادة إلا إن واصل السير بعزم بلا تردد إلى الله تبارك وتعالى .

ثم تستدرك إرادته القوية بعد هذه المرحلة غفلته ؛ فالإنسان الغافل عن الغاية لا إرادة له ؛ لأنه يعيش بدون غاية ، ولا يفكر في الآخرة ، وهذه هي حقيقة الغفلة ؛ قال جَلَّ وعلا : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنبياء:١-٣] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس:٧، ٨] .

والغافل عن الغاية التي من أجلها خُلق يقول :

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقًا فمشيت
وسأمضي في طريقي شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟ لست أدري

فهذا الصنف أضل من البهائم !! قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩] .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد:١٢] .

فالعبد إذا نزل منزلة الإخبات ترك ما كان فيه من غفلة ، ودفعته إرادته إلى الله تبارك وتعالى ، والخروج من هذه الغفلة التي كان عليها .

فالإرادة عند أهل العلم هي اسمٌ لأول منازل القاصدين السائرين إلى الله ، وهذا ذكرته بالتفصيل في أول مقامات الإحسان ، والمسافر إلى ربِّه هو الذي خرج من وطن طبعه ونفسه ، وأخذ في السفر إلى الله ، وأعد العدة ، وواصل السير إلى الله تبارك وتعالى ؛ فإذا نزل بمنزلة الإخبات أحاطت إرادتُه بغفلته ، فاستدركها ، واستدرك بها ما فات ، وشمَّر عن ساعد الجد والعزم ، وواصل السير إلى الله تبارك وتعالى .

المرحلة الثالثة من مراحل الدرجة الأولى : أن يستهوي طلبه سلوته .

والسلوة :[1] هي الحب والعشق ، وقيل : هي مشتقة من السلوان ، والسلوان : دواء يسقاه الحزين فيسلوا .

(١) انظر « لسان العرب » لابن منظور (٤/ ٦٧٠) ط الحديث و« معجم مقاييس اللغة » (٤٨٧) ، و« القاموس المحيط » (٦٣٥) .

فإذا نزل العبد السائر إلى الله تبارك وتعالى إلى منزلة الإخبات استهوى طلبه سلوته ، أي : قدَّم محبة الله ومحبة رسوله ﷺ على كلِّ حبٍّ وعشق ، وصار حبُّه لأي محبوبٍ متعلقًا بحبه لله ولرسوله .

فهناك من يعشق الصور ، وهناك من يعشق النظر إلى النساء ، وهناك من يعشق النظر إلى الأطفال المردان ، وهناك من يعشق المال ، وهناك من يعشق ممثلًا من الممثلين ، أو مطربًا من المطربين ، أو مطربة من المطربات ، ويصل الحب إلى درجة العشق ! وهذا واقع مشاهد .

فالمحبُّ لله والمحبُّ للحبيب ﷺ ؛ يجعل حُبَّه لأي محبوب متعلقًا بحبه لله ولرسوله ﷺ ؛ فنحن لا نحب رسول الله ﷺ إلا لأن محبتنا للنبيِّ ﷺ محبة تابعة لمحبة الرب العلي ، لازمةٌ لها ؛ فمن ادَّعى أنه يحبُّ الله دون أن يحب رسول الله ﷺ فهو كاذبٌ في محبته ؛ ومن ادَّعى أنه يحبُّ رسول الله ﷺ دون محبته لله ؛ فهو كاذب في محبته ؛ فمحبتنا للمصطفى تابعة لمحبتنا لله لازمة لها ، والمحبة الحقيقية هي محبة الموحدين ، أمَّا المحبة الشركية - أعاذني الله وإياك منها - فهي أن ينقش على جدار القلب لمحبوب آخر إلى درجة العشق ؛ فيقدم هذا الإنسان حبه لهذا المحبوب على حب لله ورسوله مع أن هذا الصنف يدَّعي في الوقت نفسه محبته لله ولرسوله ﷺ !! ولقد ادعى قوم المحبة فابتلاهم الله بآية المحبة ؛ أو بآية المحنة ؛ فنزل قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١] .

إذًا ؛ المحك الحقيقي لمحبة الله ورسوله : الاتباع ؛ أن تمتثل الأمر ، وتجتنب النهي ، وتقف عند حدِّ الله سبحانه وتعالى ، ولذلك في « الصحيحين »[1] من

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب وجوب محبة رسول ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين (٤٤) .

حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » .

وفي « الصحيحين »[1] من حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ » .

فالعبد المخبت يستهوي طلبُه سلواه ؛ فلا يقدم حبه وعشقه على حبه لله ورسوله ؛ بل يجعل محبته لأي محبوب ، وتعلقه بأي معشوق تابعًا لمحبته لله سبحانه وتعالى ولمحبته لرسول الله ﷺ ؛ قال الله جَلَّ وعلا : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٥] .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ ؛ أي : أشد حبًّا لله من حبِّ المشركين لأندادهم ؛ فالمشرك اتخذ ندًّا مع الله ، وأحبه كحبه له[2] ، وهذه هي المحبة الشركية .

فالمخبت لا يقدم حبه لأيِّ أحدٍ على حب الله ورسوله ، وهذه الدرجة قد لا يعرف قدرها إلا من ذاق طعمها ، وعرف حلاوتها ؛ فالكلام النظري يختلف كل الاختلاف عن ذوق القلب واستشعاره لهذه المعاني ، فليس من سمع كمن رأى ؛ فالعصمة تقهر شهوة المُخبت ، وإرادته تقهر غفلته ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان (١٦) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣) .

(٢) راجع « مجموع الفتاوى » (١٠/ ٤٦٥ ، ٦٠٨) .

ومحبته لله ورسوله تقهر سلوته .

الدرجة الثانية من درجات الإخبات : ألا يُوحش قلبَ المخبتِ عارضٌ ، وألا يقطع عليه الطريق فتنة ؛ فإذا قهرت شهوتَه عصمتُه ، وغلبت إرادته غفلته ، وقهرت محبته لله ورسوله سلواه ، وعشقه للنساء ، ولحبِّ المال والمنصب والشهرة .. وما شابه ؛ فإن ارتقى ووصل إلى هذه الدرجة نزل إلى الدرجة الثانية من درجات الإخبات وهي : ألا يوحش قلبه عارض ، وأن يسير إلى الله سبحانه وتعالى دون أن يشعر بوحشة في الطريق ؛ لأن إرادته في مواصلة السير إلى الله قهرت غفلته ، ولأن محبته لله ورسوله دفعته دفعًا إلى المواصلة في السير ، حتى قهر هذا الحب لله ورسوله كلَّ سلوى ؛ فحين يسير على الطريق لا يعترضه في الطريق فتنة ، ولا يستوحش وإن كان في الطريق وحده .

فالسالك إلى الله سبحانه إن نزل منزلة الإخبات لا يحزن ، ولا يشعر بوحشة إطلاقًا ؛ بل يشعر بسعادةٍ ولذة ؛ لأنه على الحق ؛ بل سيذوق هذه اللذة في صدره ، وسيذوق هذه الحلاوة في قلبه .

قال بعض السلف [1] : « انفرادك في طريق طلبك دليلٌ على صدق الطلب بشرط أن يكون هذا هو طريق الحق بلا شك » .

وقال آخر [2] : « لا تستوحش في الطريق بقلة السالكين ، ولا تغتر بكثرة الهالكين » .

وقال حذيفة [3] : «لو خلت الطريق من المنافقين لاستوحشتم في الطريق» .

---

(١) انظر : « مدارج السالكين » (٢/ ٥) ، و« إغاثة اللهفان » (١/ ٦٩) ، و« مفتاح دار السعادة » (١/ ١٤٧) .

(٢) « مدارج السالكين » (٢/ ٥) ، وعزاه النوويُّ في « التبيان » (١١٦) للحاكم أبي عبد الله بسنده إلى الفضيل بن عياض .

(٣) « مدارج السالكين » (١/ ٣٥٨) ، وإحياء علوم الدين (١/ ١٢٣) .

ومعنى ذلك : أنه لو خلت الطرق من أهل النفاق لمشى أهل الإيمان في الطرق وهم يشعرون بالوحشة ؛ لأنه قد لا يمشي في الطريق الكامل بطوله وعرضه إلا مؤمن واحد !!

كما قال عبادة بن الصامت [(١)] : « يوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم رجلًا خاشعًا » !! لكثرة أهل الكفر وأهل النفاق ، ولقلة أهل الإيمان الخُلَّص ؛ فلا تستوحش في طريقك لقلة السالكين .

فلو تمكن العبد من منزلة الإخبات ، ونزل فيها ، ولم يستشعر وحشة الطريق لا يمكن بحال أن يطمع فيه حينئذٍ عارض من عوارض الفتنة ، وإن اعترضه عارض من هذه العوارض تَغلَّب عليه ؛ لأن عصمته قهرت شهوته ، ولأن إرادته قهرت غفلته ، ولأن حبه لله ورسوله قهر سلواه .

يقول ابنُ القيم رحمه الله [(٢)] : « وهذه العزائمُ لا تصحُّ إلا لمن أشرق على قلبه أنوار آثار الأسماء والصفات ، وتجلَّت عليه معانيها ، وكافح قلبَهُ حقيقةُ اليقين بها » .

فإذا وصل العبد إلى هذه الدرجة نزل الدرجة الثالثة حتمًا من درجات الإخبات ، وهي كما يقول ابنُ القيم : « أن يستوي عنده المدح والذم ، وأن يداوم على اللوم لنفسه » وهذه درجةٌ عاليةٌ ؛ لأن العبد مفطور ومجبول على حب المدح والثناء ، وبُغض الذم والشين والعيب ، وربُّ العزة يقول : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١٦] .

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب العلم ، باب ما جاء في ذهاب العلم (٢٦٥٣) وقال : « حسن غريب » والدارمي في «سننه» (٢٨٨) وصحَّحه العلامة الألبانيُّ في « صحيح الترمذي » .

(٢) « مدارج السالكين » (٢/ ٧) ط الحديث .

لكن مع ذلك ؛ فإن المؤمن يقاتل ويطلب الشهادة ، وهذا الكُرْهُ أنت مجبول عليه ، لكن حينما سمعت أن الله تعالى عرض عليك هذه الصفقة الرابحة في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة:١١١] ؛ فانطلق المؤمن ـ وهو كاره للقتال ـ ليقدم نفسه لله تبارك وتعالى ، ليسعد بهذا الجزاء ، فقد تغلَّب على الكره الجبلي بحبه لربه ، وحبه لنبيه ﷺ ، وحبه للجنة ، وهذه درجةٌ إذا بلغها العبد فاز وسعد سعادةً غامرة .

قال ابنُ القيم رحمه الله [1] : « متى استقرت قدمُ العبد في منزلة الإخبات ، وتمكَّن فيها : ارتفعتْ همته ، وعَلَتْ نفسه عن خطفات المدح والذم ؛ فلا يفرح بمدح الناس ، ولا يحزن لذمهم ، وهذا وصف من خرج عن حظ نفسه ، وتأهل للفناء في عبودية ربه ، وصار قلبه مطرحًا لأشعة أنوار الأسماء والصفات ، وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه » .

فالعبد السائر إلى الله الذي لا يلتفت إلى الناس ؛ بل يؤدي عمله وهو يبتغي به وجه الله ، ويخشى ألا يتقبله الله منه ؛ لأنه على يقين أن إرضاء الناس غاية لا تدرك .

ويعلم يقينًا أنه ما كان من خير بين يديه فإنما هو بفضل ربه ، ثم بفضل طاعته وتقواه ، وأن كلَّ ما رآه من شرٍّ بين يديه فإنما هو بسبب معصيته وتقصيره في حق سيده ومولاه ، ويظلُّ يلوم نفسه ، ويعاتبها على الخير ؛ لأنه قصر فيه ، وإن فعل المخبت شرًا فهو شديد اللوم لنفسه ؛ قال تعالى : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة:١، ٢] .

---

(١) « المدارج » (٢/ ٧) .

قال سعيد بن جبير وعكرمة [1] : ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ ، « تلوم على الخير والشر » .

وقال مجاهد [2] : « النفس اللوامة هي التي تندم على ما فات وتلوم عليه » .

وقال الفراء : « ليس من نفس برَّة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها إن كانت عملت خيرًا قالت : هلَّا ازددت ؟ وإن كانت عملت سوءًا قالت : ليتني قصَّرت ! ليتني لم أفعل » [3] .

وقال الحسن : « هي النفس المؤمنة ، إن المؤمن ـ والله ـ ما تراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمة كذا ؟ ما أردت بكذا ؟ ما أردت بكذا ؟ وإن الفاجر يمضي قدمًا ، ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها على شيء » [4] .

قال ابنُ القيم رحمه الله [5] : « من بذل نفسه لله بصدق كره بقاءه معها ؛ فالنفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله ، وكلُّ سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل ؛ فلابد أن ينتهي إليه ، ولكن منهم من هو شاق عليه ، ومنهم من هو سهل عليه ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، وفي ذلك الجبل ـ يقصد به النفس ـ أودية وشعوب وعقبات ولصوص يقتطعون الطريق على السائرين إلى الله ؛ فإذا لم يكن مع السائرين عُدَدُ الإيمان ، ومصابيح اليقين تتقد بزيت الإخبات ، وإلا تعلقت بهم تلك الموانع ، وتشبثت بهم تلك القواطع ، وحالت بينهم وبين السير إلى الله جَلَّ وعلا ؛ فإن أكثر

---

(١) أخرجها الطبريُّ في « تفسيره » (١٠/ ٨٣٢١) ط دار السلام .

(٢) المصدر السابق .

(٣) « معاني القرآن » للفراء (٥/ ١٥٩) ، و « تفسير البغوي » (٨/ ٢٨٠) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٤) ، وأحمد في « الزهد » (٢٨١) .

(٥) « المدارج » (٢/ ٨) .

السائرين في هذا الطريق قد رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته ، والشيطان على قمة ذلك الجبل يحذر الناس من صعوده وارتفاعه ، ويخوفهم منه ..وكلَّما رقى السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع ، وتحذيره وتخويفه ؛ فإذا قطعه وبلغ منتهاه ، انقلبت تلك المخاوف كلُّهن أمانًا ، وحينئذٍ يسهل السير ، وتزولُ عنه عوارض الطريق ، ومشقة عقباتها ، ويرى طريقًا واسعًا آمنًا يفضي به إلى المنازل والمناهل وعليه الأعلام ، وفيه الإقامات قد أعدت لركب الرحمن .

فبين العبد وبين السعادة والفلاح ، قوةُ عزيمة ، وصبرُ ساعة ، وشجاعةُ نفس ، وثبات قلب ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » انتهى .

أسأل الله جَلَّ وعلا أن ينزلنا منزلة الإخبات ، وأن يرزقنا السكون إليه ، والطمأنينة إليه ، والثقة فيه ، والتوكل عليه ، وحسن الثقة به ، وحسن الرجاء فيه ، وصدقِ التوكل عليه ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

منزلة الإشفاق

ومن بين هذه المنازل التي لابد أن ينزلها السالك طريق ربه ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ قبل أن يصل إلى مقام الإحسان منزلة الإشفاق ؛ والإشفاق ؛ كما قال ابنُ القيم [(١)] : «رقة الخوف ؛ فهو خوف برحمةٍ من الخائف لمن يخاف عليه ؛ فالإشفاق نسبته إلى الخوف كنسبة الرأفة إلى الرحمة ؛ فإنها ألطف الرحمة وأرقها» ، فالمؤمن تراه دائمًا مشفقًا ؛ لكنه مشفق إشفاق من يحب الله تبارك وتعالى ويخشاه ؛ قال الله ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٩] ، وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور:٢٥ـ٢٧] ؛ فالمشفق مؤمن ؛ لكنه يخشى الله سبحانه وتعالى ، ومشفق من لقاء ربه ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ إشفاق المحب الذي يخشاه خشية إجلالٍ وهيبة ؛ فهو يؤمن بالغيب فضلاً عن إيمانه بالله سبحانه وتعالى .

والإشفاق على ثلاث مراتب : بداية ، ووسط ، ونهاية .

الأولى : إشفاق على النفس أن تجمح إلى العناد ، أي : أن تسرع إلى طريق الهوى والعصيان ومعاندة العبودية ، ثم إشفاق على العمل أن يصير إلى الضياع ؛ وسأبين كيف يضيع العمل ، لكن قف مع أول درجة من درجات الطريق إلى منزلة الإشفاق ، ألا وهي : أن تشفق على نفسك ، والنفس كالطفل إن فطمتَ الطفل عن ثديِ أمه بكى في أول يوم وعلا صُراخه ، ثم يقلُّ البكاء في اليوم الثاني عنه في اليوم الأول ، ثم يقل البكاء في اليوم الثالث

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤١٥) ط الحديث .

عنه في اليومين الأولين ، فإذا قدَّمت الأم بنفسها ثدييها لرضيعها في اليوم الرابع ردَّ الثدي بيده ، وأبى أن يلتقمه ، كذلك النفس إن فطمتَها في أول الأمر عن المعصية جمحت ، وصرخت في وجهك ، ونادت عليك من أعماق الأعماق أن خلِّ بيني وبين ما أريد من شهوات وشبهات ، وهنا ستشعر بالمعاناة والألم في أول الأمر ؛ فإن عاهدت ربك ألا تطيع النفس في معصية الله ، وألجمتها بلجام التقوى والخوف من الله تعالى نادت عليك في اليوم الثاني بصوت هو أخفض قليلاً من صوتها عليك في اليوم الأول ، فإن ألجمتها وزاد إصرارك وتعلقك بالله سبحانه وتعالى ومراقبتك له وتضرعك إليه أن يحميك من شر نفسك خَفَتَ صوتُ النفس ، فإن جاء اليوم الرابع ونادت عليك ربما لا تسمع بأذُن قلبك فضلاً عن أذن رأسك ، ربما لا تسمع صوتها ولا نداءها ، فتنتقل هذه النفس التي كانت أمارة بالسوء إلى المرتبة الثانية : وهي النفس اللوامة بعد اليوم الرابع مثلاً ، وأنا لا أجزم بهذه الأيام على سبيل التحديد ، لكن بعد هذه المدة الزمنية التي ارتقت فيها النفس من مرتبة وصِفة النفس الأمارة إلى صفة النفس اللوامة ، فتعيش حالة لوم لنفسك على كلِّ نظرة ، وعلى كلِّ كلمة ، وعلى كلِّ عمل ، إن فعلتَ خيراً لُمت نفسَك ، وإن فعلت شرًّا لُمت نفسك ، إن فعلتَ خيرًا سترجع إلى بيتك لتحدث النفس باللوم والتقريع : ويحكِ يا نفسُ لماذا لم تُكثري من هذا الخير ؟ لماذا أنفقت مائة جنيه وأنتِ تقدرين أن يكون الإنفاق ألف جنيه ؟ ويحك يا نفس لماذا تحركت لدين الله ساعة وقد فرَّغك الله ﷻ أكثر من ساعة ؟ فإذا نظرت نظرة محرمة عُدْت إلى بيتك وقلت لنفسك : ويحك يا نفس لماذا ؟ إذا قُلْت كلمةَ غِيبة ، أو كلمة نميمة ، قلْت : ويحك يا نفس لماذا اغتبت فلانًا ؟ ولماذا نقلت هذا الكلام السوء ؟ وهكذا تنتقل من لومٍ إلى لومٍ ، ومن تقريع

إلى تقريع ، ومن توبيخ إلى توبيخ ؛ قال ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى [١] : « المتقي أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح لشريكه » ، وقال الحسن [٢] : « لا ترى المؤمن إلا يلوم نفسه على الخير والشر ، أما الفاجر يمضي قدمًا ما يعاتب نفسه » . وهذه النفس الكريمة أقسم بها ربنا ولا يقسم الله بشيء إلا وهو يريد أن يبين لنا مكانته وقدره ؛ فالقسم يبين عظمة المقسوم به ؛ قال الله تعالى : ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:١، ٢] ؛ فإذا وصَلْتَ بالنفس إلى هذه المرتبة ـ مرتبة اللوم الدائم في الخير لماذا لم تكثر منه ؟ وفي الشر لماذا وقعت فيه وفعلته ؟ ـ تصل بها إلى مرتبة النفس المطمئنة ؛ تلك النفسُ التي لم تَعُدْ تشعر بالسكينة ولا بالطمأنينة إلا مع الله ، تأبى عليك أن تقع في معصية .

وأنا أتصور أن النفس الأمارة أشد خطرًا من الشيطان ؛ لأن كيد الشطان ضعيف بنص القرآن ؛ قال سبحانه : ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦]

وهنا إشكالٌ : وهو أنك ترى الناس في رمضان يذنبون ويقعون في المعاصي مع أن نبينا ﷺ وهو الصادق الذي لا ينطق عن الهوى قد أخبرنا أن مردة الجن والشياطين تُغلُّ وتصفد في رمضان [٣] !! والجوابُ : أن هذه الذنوب كلها إنما هي نداء النفس الأمارة بالسوء ؛ فهي من أعدى أعدائك ؛ كما قال الشاعر :

---

(١) « جامع العلوم والحكم » (١٥٩) .

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (٢٨١) ، وابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (٤) ، وزاد السيوطي عزوه في «الدر المنثور» (٨/ ٣٤٣) إلى عبد بن حميد .

(٣) كما في «صحيح البخاريّ» ، كتاب الصوم ، (١٨٩٩) ، و«صحيح مسلم» ، كتاب الصيام (١٠٧٩) .

إني ابتليــت بــأربع ما سلَّطوا عليَّ إلا لشقوتي وعنائي
إبليس والــدنيا ونـفـسي والهــوى كيـف الخلاص وكلهـم أعـدائي

والجوابُ : لا خلاص لك إلا إذا استعنت بالله ؛ قال ابنُ الجوزي (١) :
« قال شيخ لطالب علم عنده : ماذا تصنع لو مررت على غنم فنبحك كلب الغنم ؟ قال : أدفع الكلب ما استطعتُ يا سيدي ، قال : فماذا تصنع إن نبحك الثانية ؟ قال : أدفع الكلب ما استطعت يا سيدي ، قال : يا بني ، ذاك أمرٌ يطول ؛ لكن إن أردت النجاة والعبور فاستعن بصاحب الغنم يردَّ عنك كَلْبها ، وكذا إن أردت النجاة ؛ فاستعِنْ بالله يردُّ عنك كيد الشيطان » . وهذا معنى : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ؛ فالنفس إن وصلت إلى النفس المطمئنة ؛ تلك النفس التي لم تعد تشعر بالسكينة ولا بالأُنس واللذة والسعادة إلا في طاعة الله تبارك وتعالى ؛ فهذا رجلٌ نفسه تأمره بالزنا ! وهذا رجل نفسه تأمره بقيام الليل ؛ فالناس صنفان : صنف قهر نفسه وألجمها بلجام التقوى والتوبة والأوبة ، وجعل النفس مطية له إلى كلِّ خير وطاعة ، وصنف قهرته نفسه وغلبته ، وجعلته مطية إلى كل شهوة ومعصية ؛ قال الله تبارك وتعالى :
﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٧ـ١٠] .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات:٣٧ـ٤٠] .

فبداية الإشفاق أن تشفق على نفسك : أن تجمح إلى العناد ، أو أن تسرع

(١) في « التلبيس » كما سبق تخريجه قريبًا .

إلى طريق الهوى والعصيان ومعاندة العبودية ، ثم إشفاق على العمل : أن يصير إلى الضياع ، وضياع العمل له صورتان : الأولى : إما أن يكون العمل رياءً ، وإما أن يضيع العمل بعد ذلك وإن كان مخلصًا في أول الأمر . إما أن يضيع عمله في المستقبل بتركه هذا العمل وتضييعه ، وإما بالوقوع في المعاصي والذنوب ؛ فالصورة الأولى : قال الله تبارك وتعالى فيها : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[الفرقان:٢٣] ، أي : ليس له قيمة ؛ لأنه كان عملاً لغير الله !!

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾[البينة:٥] .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[الكهف:١١٠] .

والرياء لغةً ؛ كما قال الفيروزآبادي وغيره [(١)]: « راءيته مراءاة ورِئَاءً : أريته خلاف ما أنا عليه » ، وحدُّ الرياء : إرادةُ العباد بطاعة الله ، أن يريد العبد به المحمدة والثناء والشهرة والمكانة والجاه والمنصب ؛ فالمرائِي : هو صاحب العمل ، والمرائَى به : هو العمل نفسه ، والمرائَى : هم الناس .

وفي الحديث الذي رواه أحمد وابن ماجه وغيرهما بسندٍ حسَّنه شَيْخُنا الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» [(٢)] من حديث أبي سعيد الخدري

---

(١) « القاموس المحيط » (٤٨٠) مادة (رأى) ، و« لسان العرب » (٤/ ١٥) ، و« معجم مقاييس اللغة » (٢/ ٤٧٢، ٤٧٣) .

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠) ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الرياء والسمعة (٤٢٠٤) ، وقال البوصيريُّ : « إسناده حسن » ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٦٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٥/ ٣٣٤) وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الترغيب » (٣٠) .

ﷺ أنه قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمسِيحَ الدَّجَّالَ ؛ فَقَالَ : « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمسِيحِ الدَّجَّالِ ؟» قَالَ : قُلْنَا : بَلَى ؛ فَقَالَ : « الشِّرْكُ الْخَفِيُّ : أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ » .

وفي الحديث الذي رواه أحمد في « مسنده » والبغوي في « شرح السنة » [1] وغيرهما بسند صحيح من حديث محمود بن لبيد ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ » قَالُوا : وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ ؟ قَالَ : «الرِّيَاءُ ، إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ تُجَازَى الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا ، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟ » . وفي رواية : « خيرًا؟ » . وتدبَّر هذا الحديث الذي يخلع القلب ! الذي رواه الإمام مسلم [2] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ الله عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨) ، والطبراني في « الكبير » (٤/ ٢٥٣) (٤٣٠١) ، والبيهقي في « الشعب » (٥/ ٣٣٣) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (١/ ١٠٢) : « أخرجه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح» وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الترغيب » (٣٢) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥) .

فِيهَا ؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ » . ولقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ [الماعون:٤-٧] .

وقال ﷺ [(١)]: « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » ؛ فقد يكون العمل في أعين الناس جليلاً عظيمًا ، وهو عند الله حقير ؛ لأنه ما ابتغي به وجه الملك القدير ، وقد يكون العمل في أعين الناس حقيرًا صغيرًا ، وهو عند الله عظيم ؛ لأن صاحبه ابتغى به وجه الله العظيم .

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم [(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « قَالَ اللهُ تَعَالَى : أَنَا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ . مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ ». وفي لفظ ابن ماجه بسندٍ صحيح [(٣)] : « فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ ».

ثم تشفق على عملك أن يضيع إن كان على غير سُنة ؛ فلابد أن يكون العمل خالصًا ، وأن يكون على هدي الحبيب ﷺ ، ثم تخشى على عملك أن يضيع في المستقبل ؛ إما بترك العمل ، وإما ببعض المعاصي التي تفرق العمل وتحبط العمل ، فيذهب ضائعًا ، ويكون صاحب هذا العمل كحال الذي قال الله تبارك وتعالى عنه في القرآن : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الوحي برقم (١)، ومسلم ، كتاب الإمارة برقم (١٩٠٧) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق (٢٩٨٥) .

(٣) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الرياء والسمعة (٤٢٠٢) ، وصَحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الترغيب » (٣٤) .

مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة:٢٦٦].

وروى البخاريُّ (١) عن عُمَر ﷺ أنه قَالَ يَوْمًا لأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: « فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾ ؟ قَالُوا: الله أَعْلَمُ، فَغَضِبَ عُمَرُ، فَقَالَ: قُولُوا: نَعْلَمُ أَوْ لاَ نَعْلَمُ؛ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي، قُلْ وَلاَ تَحْقِرْ نَفْسَكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلاً لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ الله ﷻ ثُمَّ بَعَثَ الله لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ ».

فعلى المؤمن أن يسأل ربه الثبات، وأن يستعمله الله في طاعته حتى الممات، وقد قال النبيُّ ﷺ: « إِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ » فَقِيلَ كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: « يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ » (٢).

المرحلة الثانية: إشفاق على الوقت أن يشوبه تفرق، أي: أن يحذر العبد السالك إلى ربه تبارك وتعالى على وقته، فلا يُضيع دقيقة من عمره إلا في عملٍ لدنيا بشرط أن يكون هذا العمل حلالاً، وإما في عمل الآخرة؛ فالوقت هو الحياة، والوقت يساوي جنة أو نارًا، والعاقل هو الذي يعرف

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ (٤٥٣٨).

(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب القدر، باب ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار (٢١٤٢) وقال: «حسن صحيح»، وأحمد (٣/ ١٠٦، ٢٣٠)، والحاكم (١/ ٤٩٠) وصحَّحه على شرط الشيخين، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٨٢١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٠٥).

شرف زمانه وقيمة وقته ، ويبين الله ﷻ لنا مكانة الوقت ، فأقسم الله به في القرآن في كثيرٍ من المواضع ؛ قال الله تبارك وتعالى مبينًا مكانتهُ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[الفرقان:٦٢] ، وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾[الليل:١، ٢] ، وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾[الفجر:١] ، وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾[الضحى:١] ، وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴾[العصر:١] ؛ فالعاقل هو الذي يبذل ماله ، ولا يفرط في عمره ووقته ؛ لكنني أودُّ أن أقول : إن أرخص شيء عندنا الآن هو الوقت ؛ فإنك ترى هؤلاء المساكين الذين يجلسون على المقاهي وعلى نواصي الشوارع والطرقات يقتلون العمر قتلاً بأيديهم ، وإذا سألت واحداً منهم ماذا تصنع ؟ يقول : أضيع الوقت ، ولو صدق لقال : أقتل نفسي بتضيعي لعمري !!

وفي « صحيح البخاريِّ »[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال : « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصِّحَّةُ ، وَالْفَرَاغُ ».

قال الحافظ ابنُ حجر[2]: «فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله ؛ فهو المغبوط ، ومن استعملها في معصية الله ؛ فهو المغبون » ، والفراغ من أخطر عوائق الاستثمار للوقت ، وأنا أقسم الفراغ إلى ثلاثة أقسام : فراغٌ قلبي ، وفراغٌ نفسي ، وفراغٌ عقلي ، وخذ قسمًا رابعًا فراغٌ عملي ، أي من أعمال الدنيا ؛ فلا حرج أن تنشغل نفسُك بعملٍ من أعمال الدنيا بشرط أن يكون هذا العمل حلالاً .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب ما جاء في الصحة والفراغ ، وأن لا عيش إلا عيش الآخرة (٦٤١٢) .

(٢) « فتح الباري » (١١/ ٢٦٨) .

إذًا أوسط الإشفاق أن تشفق على وقتك، وأن تحرص عليه حتى لا يضيع الوقت منك هدرًا وأنت لا تدري.

وأن يحذر السائر إلى الله على وقته أن يخالطه ما يفرقه عن الحضور مع الله ﷻ، وإشفاق على القلب أن يزاحمه عارض، والعارضُ المزاحم؛ كما قال ابنُ القيم رحمه الله[1] هو: «عارض الفترة، أو الشهوة، أو الشبهة»؛ فما هو الفتور؟ قال ابنُ منظور[2]: «فتر يفتر فتورًا، أي: سَكَنَ بعد حدة، ولَانَ بعد شدة»، والفتور إما أن يكون في طاعة، وإما أن يكون في معصية، بمعنى أنه قد يفتر المسلم عن قيام الليل، أو يمكث أسبوعًا لا يصلي الليل مع أنه كان مواظبًا على قيام الليل، أو يفتر عن المواظبة على مجالس العلم مع أن مجالس العلم كانت روحه التي يعيش بها، أو قد يفتر عن الصيام مع أنه كان من المواظبين على صيام النوافل والتطوع، أو يفتر عن الدعوة إلى الله مع أن الدعوة كانت روحه التي يعيش بها .. إلى آخره؛ فهذا الفتورُ إن كان في طاعة بمعنى أنه لن ينحدر إلى معصية؛ فإن هذا النوع مما يعتري النفس البشرية حتمًا من آنٍ لآخر؛ لأن النفس قد جُبلت على ذلك؛ فالنفس جموح قد تجمح أحيانًا، فإن كان الفتور في الطاعة؛ فهذا أمرٌ جبليٌّ طبيعيٌّ، وسيدفعك بعد ذلك إلى مزاولة العمل بشدة وجدٍّ ورجولة، وكلُّكم يذكر حديث حنظلة، وهو في[3] «صحيح مسلم» من حديث حنظلة بن أسيد ﷺ قال: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ؛ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟!!

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤١٦).

(٢) «لسان العرب» (٧/ ١٤) مادة (فتر).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة (٢٧٥٠).

قَالَ : قُلْتُ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ ؛ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَوَالله إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا ؛ فَانطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ الله ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « وَمَا ذَاكَ ؟ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ ، وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً » ثَلاَثَ مَرَّاتٍ .

والمعنى : ساعة للدنيا في غير معصية الله تعالى لمداعبة الأهل والأولاد ، والعمل بالتجارة وفي الوظيفة ، وساعة لتسمع فيها عن الله ورسوله ﷺ.

فمن صفات المؤمن أنه بين يدي الله تجده الخاضع الأواب ، وبين الأولاد ترى الرحيم الودود ، وبين إخوانه ترى المتواضع في عمله ، ترى الصادق الأمين في تجارته ، ترى البطل في ساحة الجهاد .

يحدثني أخٌ فاضل يقول : تنتابني لحظاتُ ضَعْفٍ وأنا خائف جدًّا من هذه اللحظات ، قُلْت : يا أخي ، سبحان الله ! يأبى الربُّ إلا أن يكون ربًّا والعبد عبدًا !! مستحيلٌ أن تتخلص من هذه الهفوات ، وإلا فكيف تكون العبودية ، وسبحان مَنْ أَذَلَّ المواهب بالنواقص !! كلُّ واحدٍ له منقصة وعيب هو يعرفه ، والله سبحانه وتعالى يعريه بهذا العيب أمام نفسه حتى لا يشمخ بأنفه .

وكما قال ابنُ القيم [1] : « العبد سائر إلى الله بين مطالعة المنة ومطالعة

---

(١) مرَّ بنا قريبًا .

عيب النفس » تنظر إلى منن الله عليك وتنظر إلى عيب نفسك ؛ فتخضع وتذل بين يدي الله سبحانه وتعالى .

أما عارض الشهوة ؛ فالشهوات كثيرة !! وأخطر الشهوات : فتنة النساء ! وهي أخطر فتنةٍ من فتن الشهوات على الرجال ؛ كما في «الصحيحين»[1] من حديث أسامة ﷺ أنه ﷺ قال : « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ ».

وفي «صحيح مسلم»[2] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : قال النبيُّ ﷺ: «..فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ».

ومن تلك الشهوات كذلك : شهوة المال ، وشهوة الجاه ، وشهوة الحرص ، وشهوة الطمع ، وشهوة المنصب ، وشهوة الأولاد ، وهذا عارضٌ يزاحم القلب أيضًا .

ثم عارض الشبهة ، وأنا لا أعرف زمانًا ؛ كما ذكرتُ مرارًا وتكرارًا ؛ قد انتشرت فيه الشبهات كزمان الإنترنت ، صار الآن كلُّ أحد يقول ما يريد ، ولم تَعُد الشبهات مقصورة على الفرعيات والجزئيات ؛ بل على الثوابت والكليات ؛ صارت الشبهات ترمي سهامها المسمومة الخبيثة على ربِّ العزة ، وعلى القرآن ، وعلى نبينا ﷺ ، وعلى الإسلام ، وعلى الصحابة والصحابيات ؛ فصارت الحرب الآن على الأصول والكليات لا على الفرعيات والجزئيات ؛ فأوسط الإشفاق أن تحمي قلبك من هذه العوارض ، وقد فَصَّلْتُ في كيفية حفظ القلب من هذه العوارض ؛ أسأل الله أن يحفظنا جميعًا بمنه وكرمه .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب النكاح ، باب ما يتقي من شؤم المرأة (٥٠٩٦) ، ومسلم ، كتاب الرقاق ، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء (٢٧٤٠) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الرقاق ، باب أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء (٢٧٤٢) .

المرتبة الثالثة : إشفاق يصون سعي العبد السالك من العُجْب ، ولن تصل إلى هذه الدرجة إلا بعد أن تحفظ نفسك ، وتحفظ قلبك ، وتحفظ وقتك ؛ فتأتي هذه المرحلة بعد ذلك ، والعُجْب يحبط الأعمالَ كما يحبط الأعمالَ الرياءُ .

والفرح بالطاعة يختلف عن العجب تمامًا ؛ فإن وفقك الله عز وجل لطاعة وفرحت بها ؛ فهذا من فضل الله تبارك وتعالى ، أما العُجْب فمعناه [1] : « الزهو والكبر بالعمل » ؛ لأن المعجب يستعظم النعمة ، ويركن إليها ، وينسى إضافتها إلى المنعم جل وعلا .

قال ابنُ القيم [2] : « العجب يفسد العمل كما يفسده الرياء ؛ فالعبد السالك إلى الله يشفق على سعيه من هذا المفسد شفقةً تصونه عن الوقوع فيه » انتهى .

أسأل الله أن يجنبنا العُجْب ، وأن يرزقنا الإشفاق ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

(١) « لسان العرب » (١/ ٥٨٢) ، و« القاموس المحيط » (١٤٤) .

(٢) « مدارج السالكين » (١/ ٤١٧) .

منزلة المراقبة

ومن بين هذه المنازل التي لابد أن ينزلها السالكُ طريقَ ربه ـ جَلَّ وعلا ـ قبل أن يصل إلى مقام الإحسان : « منزلة المراقبة » ؛ فما المراقبة ؟

تعريفُ المراقبة لغةً [١] : هي مصدر قولهم : راقب مراقبة ، وهي مأخوذةٌ من مادة رقب التي تدل على انتصابٍ لمراعاة شيء ، ومن ذلك : الرقيب ، وهو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء ، وراقب الله تعالى في أمره أي : خافه .

واصطلاحًا : كما قال ابنُ القيم رحمه الله [٢] : « هي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الله سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه » ؛ فالمراقبة : ثمرة علم العبد بأن الله سبحانه وتعالى رقيبٌ عليه ، ناظر إليه ، سامع لقوله ؛ بل يعلم خلجات صدره ، وخواطر نفسه ؛ فالله سبحانه وتعالى مطلع على عمل العبد في كل وقت وفي كل لحظة ؛ بل ويعلم سبحانه وتعالى من عبده كلَّ نَفَسٍ ، وكل طرفة عين ، وكل فكرة وخاطرة ؛ قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[ق:١٦] ، وقال سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[غافر:١٩] ، وقال سبحانه : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ ﴾ [البقرة:٢٣٥] ، وقال سبحانه : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب:٥٢] ، وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ

---

(١) « معجم مقاييس اللغة » (٤١٧) ط الفكر ، و« لسان العرب » (٤/ ٢٠٩) ط الحديث .

(٢) « مدارج السالكين » (٢/ ٥٥) .

وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة:٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق:١٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [المجادلة:١] ، وقال تعالى : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٣ ـ ٤٦] . والآيات في القرآن كثيرة ؛ فالله سبحانه وتعالى مطلع على ما يدورُ في صَدْر العبد ، ويعلم خائنة الأعين ؛ بل يسمع دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ؛ لا يغيب عن سمعه وبصره شيء ، ولا يغيب عن علمه تبارك وتعالى شيء ؛ فمَنْ راقب الله في خواطره عصمَهُ الله تبارك وتعالى في حركات جوارحه ؛ قال الجنيد : « من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربِّه لا غير »[1] .

لأنه يعلم في كل لحظة أن الله تبارك وتعالى يسمعه ويراه ؛ تدبر معي لنعلم أن بيننا وبين المراقبة بونًا شاسعًا ؛ فمن يراقب الله سبحانه وتعالى إن خلا بنفسه ؟! مَنْ يراقب الله في سمعه وخواطره ؟! بل إذا غلَّق الإنسان على نفسه الأبواب والنوافذ ، وأرخى الستائر ، وخلا بمحارم الله يتجرأ على الله تبارك وتعالى بانتهاك محارمه حينما يطمئن إلى أنه لا يراه أحد من الخلق ؛ مع علمه يقينًا أن خالق الخلق يسمع ويرى .

(١) المصدر السابق .

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قُل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تُخفي عليه يغيب

فعليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية ؛ فمن راقب الله سبحانه وتعالى خاف في كل لحظة ؛ قال ذو النون [(١)] : « علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله » .

فالمراقِبُ لله سبحانه وتعالى هو الذي يؤثر ما أنزله الله إليه ؛ فلا يقدم شيئًا ولا أمرًا على أمره، وكذلك : يعظم ما عظمه الله ؛ قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج:٣٢]، وقال تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج:٣٧]، وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج:٣٠] ؛ فتعظيم ما عظَّم الله دليلُ مراقبةِ العبد لربه، ومن علامات المراقبة أيضًا : أن تصغر ما صغره الله ؛ فلا يجوز أبدًا أن تضخم المنافقين ؛ لأن الله حقَّر شأنهم، وصغَّر أمرهم ؛ فلا يجوز لمراقب لله امتلأ قلبه بالخوف من الله والإجلال والتعظيم لله أن يعظم ما حقَّر ربُّه، ولا يُكبِّر ما صغَّر ربُّه سبحانه وتعالى، ولذلك روى أبو داود في «سننه» وأحمد في «مسنده» والبخاري في « الأدب المفرد » [(٢)] عن بريدة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « لاَ تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ : سَيِّدَنَا ؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدَكُمْ ؛ فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ ﷻ » .

قال إبراهيم الخواص [(٣)] : «المراقبة خلوص السر والعلانية لله ﷻ» .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٦، ٣٤٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٦٠)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب لا يقول المملوك ربي وربتي (٤٩٧٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٤٤) وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٣٧١)، و«صحيح الجامع» (٧٤٠٥) .

(٣) «المدارج» (٢/ ٥٥) .

وبهذا الإخلاص ـ أقصد إخلاص السر ـ سَبَقَ السابقون ؛ فليست القضية كثرة عمل ، ولا أريد بذلك أن أقلل من شأن العمل ! حاشا وكلاًّ ؛ فليس هذا ما ندين الله به ، إنما أريد أن أقول بأن الصديق رضي الله عنه قد سبق كلَّ أصحاب النبيِّ ﷺ وفاقهم ، وما فاقهم بكثرة العمل ، وإنما بشيء وقر في قلبه [١] .. إنه الإيمان واليقين والإخلاص .

فلو أخلصت لله تبارك وتعالى في سرك كما تخلص لله في العلانية بين الناس لذقت حلاوةً وجَدْت طعمها في قلبك ، لو علم بها ملوك الأرض لجالدوك عليها بالسيوف !

قال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري : « إذا جلست للناس ـ أي : إذا جلست لتذكر الناس بالله ولتعلم الناس عن الله وعن رسول الله ﷺ ـ فكن واعظًا لقلبك ونفسك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك ؛ فإنهم يراقبون ظاهرك ، والله يراقب باطنك » .

وأرباب العلم والمعرفة مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر سبب لحفظها في الظاهر ـ كما ذكرت ـ فمن راقب الله في سره حفظه الله في علانيته [٢] ؛ فالأمر كلُّه بيد الله ؛ فما أطاع من أطاع إلا بفضله وتوفيقه ، وما خُذل من خذل إلا بتخلي الله عنه ؛ فمن راقب الله في السرِّ أعانه الله تبارك وتعالى على المراقبة في العلانية ؛ فإنَّ من أعظم أدوية الرياء عمل الخفاء ، إلا إذا جاء الشرع بوجوب إظهار العمل ؛ كصلاة الجماعة ، وصلاة الجمعة ،

---

(١) قال بكر بن عبد الله المزني : « ما سبقهم أبو بكر رضي الله عنه بكثرة صيام ، ولا صلاة ، ولكن بشيء وقر في قلبه » أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» ؛ كما في «الضعيفة» (٩٦٢) وقد ورد عن أبي بكر بن عياش ؛ كما في « المنار المنيف » (١١٥) وقد ورد مرفوعًا ، ولكن لا أصل له ؛ كما في « الضعيفة » .

(٢) « المدارج » (٢/ ٥٦) .

والدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحج .. وغير ذلك من الأعمال التي أوجب الإسلام إظهارَها .

لكِنْ هناك من الأعمال ما يستطيع المسلم أن يُخفيها ؛ فهذه الأعمال تدرِّب قلبك على الإخلاص في العلانية ؛ فلو قُمْت بالليل ، وبكيت ، وذقت حلاوة البكاء من خشية الله ؛ فلا تخش إن بكيت في العلانية ؛ لأن الله عزَّ وجلَّ سيحفظك في العلانية من الرياء ما دمت قد دربت قلبك في الخفاء على الإخلاص ، وصدقةُ السر تُدرِّب بها قلبك على الإخلاص في صدقة العلانية، وكذلك الذكر في الخفاء تدرِّب به قلبك على إخلاص الذكر في العلانية .

والمراقبة هي : التعبد لله باسمه الرقيب ، العليم ، الحفيظ ، السميع ، البصير ؛ فمن عقل هذه الأسماء ، وتعبد بمقتضاها حقق المراقبة ؛ فمن علم أن الله هو الرقيب السميع الذي يراقب خواطره ، ويسمع كلامه ، ومن علم أن الله هو البصير الذي يراه حيثما كان ، ومن علم أن الله هو الحفيظ الذي يحفظ عليه كل شيء في كتابٍ لا يضلُّ ربي ولا ينسى ؛ راقب الله عزَّ وجلَّ في أيِّ أرض وتحت أي سماء ؛ لأنه حيثما وجد ؛ فإن الله تبارك وتعالى معه بسمعه وبصره وعلمه ومراقبته ، لا يغيب عنه تبارك وتعالى شيء .

لقد أمسك أعرابيٌّ أعرابية في الصحراء ، وأراد أن يفعل بها الفاحشة ؛ فقالت الأعرابية المراقبة : اذهب واطمئن هل نام الناس في الخيام أم لا ؟ فأسرع الرجل الأعرابيُّ هائمًا على وجهه فرحًا بمعصية سيجني ثمارها المرة طول عمره ؛ بل وفي الآخرة إن لم يتب إلى الله ؛ فانطلق وعاد إليها مداعبًا ليقول لها : أبشري لقد نام كلُّ الناس في الخيام ولا يرانا أحدٌ ، لا يرانا إلا الكواكب ، فقالت له الأعرابية : وأين مكوكبها ؟![1] .

---

(١) أخرج هذه القصة البيهقي في «الشعب» عن الأصمعي (٨٧٨) ، وابن الجوزي في «تنوير الغبش»-

ومن أمتع النصوص النبوية التي توضِّح قدر المراقبة وجلالها وعظمتها ؛ ما أخرجه البخاريُّ ومسلم[1] من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « بَيْنَمَا ثَلاَثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ ؛ فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ . فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : انْظُرُوا أَعْمَالاً عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لله فَادْعُوا الله تَعَالَى بِهَا ؛ لَعَلَّ الله يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : اللَّهُمَّ ! إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ ، وَامْرَأَتِي ، وَلِيَ صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ ؛ فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ ؛ فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا ، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ ؛ فَجِئْتُ بِالْحِلاَبِ؛ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا ، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا ، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا ، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبُهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ ، فَفَرَجَ الله مِنْهَا فُرْجَةً ، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ ، وَقَالَ الآخَرُ : اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ ، فَجِئْتُهَا بِهَا ، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا ، قَالَتْ : يَا عَبْدَ الله ! اتَّقِ الله ، وَلاَ تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ ، فَقُمْتُ عَنْهَا ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً ، فَفَرَجَ لَهُمْ ، وَقَالَ الآخَرُ : اللَّهُمَّ ! إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ

= في فضل السودان والحبش » (٩٧) ، وعن العتبي (٨٧٩) والخرائطي في « اعتلال القلوب » (٨٠) ، وابن الجوزي في « ذم الهوى » (٢٧٢) عن عبد السلام بن عبيد .

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب إجابة دعاء من بر والديه (٥٩٧٤) ، ومسلم ، كتاب الرقاق ، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة (٢٧٤٣) .

أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ : أَعْطِنِي حَقِّي ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ ؛ فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا . فَجَاءَنِي ؛ فَقَالَ : اتَّقِ اللهَ وَلاَ تَظْلِمْنِي حَقِّي ، قُلْتُ : اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا فَخُذْهَا ، فَقَالَ اتَّقِ اللهَ وَلاَ تَسْتَهْزِئْ بِي ، فَقُلْتُ : إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ ؛ خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا ، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ ، فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ » .

ولا يخفى عليك ـ أخي الكريم ـ حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ؛ وذكر منهم : « وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتَ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللهَ »[1] .

وفي « الصحيحين »[2] من حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ اللهُ ﷻ : إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ ، فَإِذَا عَمِلَهَا ، فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا ؛ فَإِذَا عَمِلَهَا ؛ فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا » .

ومن ألطف ما وُصفت به المراقبة : أنها مراقبة الحق تعالى في السير إليه على الداوم ؛ بين تعظيم مذهل ، ومداناة حاملة ، وسرور باعث .

خُذِ التفصيل لهذه الكلمات المجملة البليغة ؛ فمراقبة الله سبحانه وتعالى هي : أن تراقب الحق تعالى في السير إليه على الدوام بين تعظيم مذهل ، وهو امتلاء القلب من عظمة الله ﷻ بحيث يذهلك تعظيمك لربك عن تعظيم

---

(١) تقدم ؛ وهو في «الصحيحين» (البخاري ١٤٢٣ ومسلم ١٠٣١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : «﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾» (٧٥٠١) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (١٢٩).

غيره ، وعن الالتفات إليه ، وانظر إلى أولئك الذين وقفوا أمام طواغيت الأرض في أحلى زينةٍ كانوا فيها وهم ينظرون إلى هذا المتاع وهذه الزينة على أنه تراب ، وعلى أنه ركام في ركام ؛ لأن قلوبهم امتلأت بالتعظيم له بصورةٍ أذهلتهم عن تعظيمهم لغيره سبحانه وتعالى ، وانظر إلى الصورة الأخرى إلى أولئك الذين ترتجف قلوبهم ، وتضطرب أفئدتهم حينما يرون صورة التعظيم لعبدٍ من العبيد الحقراء الفقراء ، إن دلَّ ذلك فإنما يدلُّ على أن هذا القلب لم يذق طعم تعظيم الربِّ جَلَّ جلاله ؛ فهذا ربعي بن عامر رضي الله عنه [1] الذي وقف أمام رستم في عظمته ومُلْكه وصولجانه وذهبه وحريره ، وبين جنده ، وقد أمرهم رستم أن يزينوا مجلسه ، وأدخلوا ربعي بن عامر ؛ ذلكم الصحابي المتواضع في هيئته العظيمة لربه ، ووقف ربعي بصورة تجسد حلاوة التعظيم للرب سبحانه وتعالى ، لا يشعر بأيِّ شيءٍ ممن حوله ، زَهد عن كلِّ ما حوله بتعظيمه لربه ، يقف بعزة ؛ بل ويترجم هذا التعظيم حينما يقبل برمحه ليمزِّق هذه الفرش العظيمة الثمينة الوثيرة ؛ ليؤكد لهؤلاء أنها تحت النعل ولا وزن لها ،ولا قيمة ، وتتجلَّى في كلماته النيرة حينما يسأله رستم : من أنتم ؟ فيعرفه ربعيٌّ الغاية والوظيفة التي من أجلها ابتعث هو وإخوانه من أهل التوحيد ؛ فيقول : نحن قوم ابتعثنا الله ؛ لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ؛ فمن قبل منا قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن حال بيننا وبين دعوة الناس لدين الله قاتلناه ، حتى نفضي إلى موعود الله ، قال رستم : وما موعود الله ؟ قال ربعيٌّ : الجنة لمن مات من إخواننا ، والنصر لمن بقي منا ، قال رستم : سمعت مقولتك ؛ فهل لكم أن تؤخرونا لننظر في أمرنا ولتنظروا في أمركم ؟

(١) انظر « تاريخ الأمم والملوك » للطبري (٢/ ٤٠١) ، و« البداية والنهاية » (٧/ ٣٩) .

قال ربعيٌّ : لقد سنَّ لنا رسول الله ﷺ ألا نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث ليال ؛ فانظر في أمرك وأمرهم ، واختر لنفسك ولهم واحدة من ثلاث !! قال رستم : وما هي ؟ قال ربعي : الإسلام ، والثانية : الجزية ، قال : وما الثالثة ؟ قال ربعيٌّ : القتال ؛ ولن نبدأ بقتال فيما بيننا وبين اليوم الثالث إلا إن بدأتنا أنت ، قال : أسيدهم أنت ؟ ـ هل أنت القائد ؟ ـ قال : لا ، ولكن المسلمين تتكافأ دماؤهم ؛ فيسعى بذمتهم أدناهم على أعلاهم .

أيُّ تعظيم هذا ؟! ولما أوقفوا الإمام أحمد إمام أهل السنة ـ طيب الله ثراه ـ [(١)] وطلبوا منه أن يغير فتواه ، والسَّيَّاف إلى جواره يمسك السوط ، وفتنة السوط شديدة ؛ كما قال الإمام أحمد : والله ما خِفْتُ في السجن شيئًا إلا من فتنة السوط ؛ فردَّ عليه قاطع طريق في السجن معه ، وقال له : يا أحمد ، اصبر فإنما هو سوط أو سوطان ، ولن تشعر بشيء بعد ذلك ، قال الإمام : والله ما انتفعت بشيء مثل ما انتفعت بكلمة هذا الرجل ؛ قيل له : يا أحمد ، غَيِّر فتواك ؛ وقل بأن القرآن مخلوق ، والله الذي لا إله غيره ما قال أحمد ما قال إلا لما امتلأ قلبه بعظمة ربه بصورةٍ أذهلته عن تعظيم أمير المؤمنين وعن تعظيم حاشيته ، قال : ائتوني بآية من كتاب الله أو بحديثٍ من أحاديث رسول الله ﷺ لأقول : إن القرآن مخلوق !! إلى آخره ، والأدلة على ذلك كثيرة .

ومن أعجب ما قرأت أن جند الحجاج سمعوا يومًا أن غلامًا يسيء إلى الحجاج ؛ فأدخلوا الغلام عليه ، وكان الحجاج متكئًا في مجلسه مع بعض وجهاء أهل العراق ؛ فلما دخل الغلام ، ونظر إلى مجلس الحجاج وأبهته وعظمته ؛ قال الغلام : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ

---

(١) سبق في مبحث : «فتنة خلق القرآن» .

مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء:١٢٨، ١٢٩] ؛ فكان الحجاج متكئًا فجلس وقال : يا غلام ، إني أرى لك عقلًا وذهنًا أحفظت القرآن ؟ فقال الغلام : أو خفت على القرآن من الضياع يا حجاج حتى أحفظه أنا ؟ ففطن الحجاج إلى أنه أخطأ السؤال ؛ فقال الحجاج : أفجمعت القرآن يا غلام ؟ قال : وهل كان القرآن مفرقًا لأجمعه ؟ فعلم للمرة الثانية أنه أخطأ السؤال ، فقال : يا غلام أفاستظهرت القرآن ؟ قال : معاذ الله أن أجعل القرآن وراء ظهري قال : ويحك ! فماذا إذًا ؟ قال : قُلْ هل أوعيت القرآن في صدرك ؟ فقال له الحجاج : هل أوعيت القرآن في صدرك ؟ قال : أوعيت القرآن كلَّه والحمد لله ، قال : اقرأ عليَّ شيئًا منه ؟ قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر:١-٣] ثم قال يا حجاج : كانوا يدخلون في دين الله أفواجا على عهد النبي ﷺ ، ولكنهم في عهدك يخرجون من دين الله أفواجًا ، قال : ويحك ولم ؟ قال : لظلمك لهم ، وسوء فعلك بهم ! قال : ويحك ألا تعلم من تخاطب أيها الغلام ؟ قال : بلى ، أخاطب شيطان ثقيف ؛ الحجاج بن يوسف ؛ فالتفت جلساء الحجاج إليه ، وقالوا : اقتلْهُ ؛ فإنه قد خلع الطاعة ، وفارق الجماعة ؛ فقال الغلام : يا حجاج جلساء فرعون خير من جلسائك ، قال : كيف ؟ قال : جلساء فرعون قالوا له عن موسى وهارون : « ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ » [الأعراف: ١١١] أما جلساؤك فقالوا : اقتله ، قال الحجاج : يا غلام والله لقد عفوت عنك ، وأمرت لك بثلاثة آلاف درهم ؛ فقال الغلامُ : العفو بيد الله لا بيدك ، والفضل لله لا لك ، ولا جمع الله بيني وبينك ثم خرج .. إلى آخر

القصة [١] ، فالقلب إذا امتلأ بالتعظيم للرب أذهله هذا التعظيم لربه عن تعظيم غيره وعن الالتفات إليه ؛ فلا ينسى العبد المراقب لله هذا التعظيم عند حضور قلبه مع الله ؛ بل يستصحبه دائمًا ؛ فإن الحضور مع الله يوجب أنسًا ومحبة ؛ فكلُّ حبٍّ لا يقارنه تعظيم المحبوب ؛ فهو سببٌ للبعد عنه ، والسقوطِ من عينه .

قال ابنُ القيم بَعْدَ هذا [٢] : « فقد تضمن هذا الكلام خمسة أمور : السير إلى الله ، واستدامة هذا السير ، وحضور القلب معه ، وتعظيمه ، والذهول بعظمته عن غيره » .

أما « الدنو الحامل » فهو الدنو والقرب الحامل له على هذه الأمور ، أي : على السير إلى الله ، ودوام السير إليه ، وحضور القلب ، وتعظيم الرب ، والذهول عن تعظيم غيره ؛ هذا هو معنى الدنو الذي يحمل العبد على كلِّ ذلك ؛ فإنه كلما زاد قربًا من الحق ازداد له تعظيمًا ، وذهولًا عن سواه ، وبعدًا عن الخلق ، وأما « السرور الباعث » : فهو الفرحة والتعظيم ، واللذة التي يجدها العبد السائر إلى الله في هذا الدنو من الله سبحانه وتعالى ؛ فإن سرور القلب بالله ، وفرحه به ، وقرة العين به ، لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا ألبتة !!

ولقد قال أحد الصالحين : إنه لتمرُّ بي أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا ، إنهم لفي عيش طيب [٣] .

فالأنس ، والقرب ، والرضا ، واللذة ، والسعادة ، والانشراح ، والسكون ، والطمأنينة في الدنيا ، وأنت مع الله في حال ذكرك لله تبارك وتعالى وأنسك به ،

---

(١) تقدمت القصة ، وانظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر (١٢/ ١٧٩) .
(٢) «المدارج» (٢/ ٥٦) .
(٣) « المدارج » (٢/ ٥٧) .

ولا ريب أن هذا السرور يبعث العبد على دوام السير إلى الله ؛ بل ويبعث العبد على بذل الجهد في طلب مرضات الله ، والقرب منه ، ومن لم يجد هذا السرور في قلبه بالأنس مع الله ولا شيئًا من ذلك ، فليتهم إيمانه وأعماله ؛ إذ أن للإيمان حلاوةً في القلب من لم يذقها فليرجع ، وليقتبس نورًا يجد به حلاوة الإيمان .

ففي « صحيح مسلم »[1] من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بالله رَبًّا ، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا » .

وفي «الصحيحين»[2] من حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ : أن يكون الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لله ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ » .

قال ابنُ القيم[3] : « سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ طيب الله ثراه ـ يقول : إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك ، وانشراحًا في صدرك ؛ فاتهم العمل ، فإن الرب تعالى شكور . يعني : أنه لابد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه ، وقوة وانشراح وقرة عين ؛ فحيث لم يجد العبد ذلك فعمله مدخول» . اهـ .

والقرب منه ، وقرة العين به ، تبعث على الازدياد من طاعة الله ، وتحثُّ العبد السائر على الجد في السير والانتقال من مراقبة إلى أخرى ؛ لتحملك

---

(١) سبق وهو في « صحيح مسلم » (٣٤) .

(٢) سبق وهو في « البخاري » (١٦) ، ومسلم (٤٣) .

(٣) « المدارج » (٢/ ٥٧) .

هذه المراقبة عن الإعراض على الاعتراض، وذلك بصيانة الباطن والظاهر؛ فصيانة الظاهر: بحفظ الحركات الظاهرة، وصيانة الباطن: بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة التي منها رفضُ معارضةِ أمره وخبره؛ فيتجرد الباطن من كلِّ شهوةٍ وإرادةٍ تعارضُ أمر الله سبحانه، ومن كلِّ إرادة تعارضُ إرادته، ومن كلِّ شبهة تعارض خبره، ومن كلِّ محبة تزاحم محبة الله سبحانه، وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله به.

فالعبد السالك إلى الله تبارك وتعالى الذي ينتقل من مراقبة إلى أخرى يتجرد ظاهره كما يتجرد باطنه؛ فلا يعترض على أمر الله، ولا يقدم محبة غير الله على محبة الله سبحانه وتعالى، ولا يعترض على شرعه ولا على شرع نبيه ﷺ.

و«الاعتراض» ثلاثة أنواع سارية في الناس، والمعصوم من عصمه الله منها[1]:

النوع الأول: الاعتراض على أسماء الله الحسنى وصفاته العلا؛ وذلك بالشُّبه الباطلة التي يسميها أربابها قواطع عقلية، وهي في الحقيقة خيالات جهلية، ومحالات ذهنية؛ اعترضوا بها على أسمائه وصفاته عزَّ وجلَّ، وحكموا بها عليه، ونفَوْا لأجلها ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ، وأثبتوا ما نفاه، ووالَوْا بها أعداءه، وعادوا بها أولياءه، وحرفوا بها الكلم عن مواضعه، والعاصمُ من هذا الاعتراض: التسليم المحض للوحي؛ فإذا سلم القلب له رأى صحة ما جاء به، وأنه الحق بصريح العقل والفطرة، فاجتمع له السمع والعقل والفطرة، وهذا أكمل الإيمان.

النوع الثاني: الاعتراضُ على شرعه وأمره، وأهلُ هذا الاعتراض ثلاثة

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٥٨).

أنواع : أحدها : المعترضون عليه بآرائهم وأقيستهم ، المتضمنة تحليل ما حرم الله سبحانه وتعالى ، وتحريم ما أباحه ، وإسقاط ما أوجبه ، وإيجاب ما أسقطه ، وإبطال ما صحَّحه ، وتصحيح ما أبطله ، واعتبار ما ألغاه ، وإلغاء ما اعتبره ، وتقييد ما أطلقه ، وإطلاق ما قيده .

وهذه هي الآراء والأقيسة التي اتفق السلف قاطبة على ذمها ، والتحذير منها وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض ، وحذَّروا منهم ، ونفروا عنهم .

النوع الثاني : الاعتراضُ على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات ، والكشوفات الباطلة الشيطانية ، المتضمنة شرع دينٍ لم يأذن به الله ، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله ﷺ ، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان ، وحظوظ النفوس الجاهلة .

والعجب أن أربابها ينكرون على أهل الحظوظ ، وكل ما هم فيه فحظٌّ ، ولكن حظهم متضمن مخالفة مراد الله ، والإعراض عن دينه ، واعتقاد أنه قربة إلى الله ؛ فأين هذا من حظوظ أصحاب الشهوات ، المعترفين بذمها ، المستغفرين منها ، المقرين بنقصهم وعيبهم ، وأنها منافية للدين ؟!

وهؤلاء في حظوظٍ اتخذوها دينًا ، وقدموها على شرع الله ودينه ، واغتالوا بها القلوب ، واقتطعوها عن طريق الله ، فتولَّد من معقول أولئك ، وآراء الآخرين ، وأقيستهم الباطلة ، وأذواق هؤلاء خراب العالم ، وفساد الوجود ، وهدم قواعد الدين ، وتفاقم الأمر وكاد ؛ لولا أن الله ضمن أنه لا يزال يقوم به من يحفظه ، ويبين معالمه ، ويحميه من كيد من يكيد .

النوع الثالث : الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة ، التي لأرباب الولايات التي قدموها على حكم الله ورسوله ، وحكموا بها بين عباده ،

وعطلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده .

فالأولون قالوا : إذا تعارض العقل والنقل : قدَّمنا العقل على النقل ، والآخرون قالوا : إذا تعارض الأثر والقياس : قدمنا القياس على الأثر ، وقال أصحاب الذوق والكشف : إذا تعارض الذوق والوجد والكشف مع ظاهر الشرع : قدمنا الذَّوْق والوجد والكشف على الشرع ، وقال أصحابُ السياسة الجائرة : إذا تعارضت السياسة والشرع ؛ قدمنا السياسة ؛ فجعلت كل طائفة قبالة دين الله وشرعه طاغوتًا يتحاكمون إليه من دون الله ؛ فهؤلاء يقولون : لكم النقل ، ولنا العقل . والآخرون يقولون : أنتم أصحاب آثارٍ وأخبار ، ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار ، وأولئك يقولون : أنتم أرباب ظاهر ، ونحن أهل الحقائق وأرباب الباطن ، والآخرون يقولون : لكم الشرع ، ولنا السياسة ؛ فيا لها من بلية ، عمَّت فأعْمَت ، ورزية رَمَتْ فأصمت ، وفتنةٍ دعت القلوب فأجابها كلُّ قلب مفتون ، وأهويةٍ عصفت فصُمَّت منها الآذان ، وعَمِيَتْ منها العيون ، عطلت لها ـ والله ـ معالم الأحكام ، كما نفيت لها صفات ذي الجلال والإكرام ، واستند كلُّ قوم إلى ظلم وظلمات آرائهم ، وحكموا على الله وبين عباده بمقالتهم الفاسدة وأهوائهم ، وصار لأجلها الوحي عرضة لكلِّ تحريف وتأويل ، وصار الدين عرضةً لكلِّ إفساد وتبديل !!

أما النوع الثالث من أنواع الاعتراض : فهو الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدره ، وهذا اعتراض الجهال ، وهذا الاعتراض يسري في النفوس كسريان الحمَّى في بدن المحموم ، ولو تأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله ، لرأى ذلك في قلبه عيانًا ؛ فكلُّ نفس معترضة على قدر الله وقسمه وأفعاله ، إلا نفسًا قد اطمأنت إلى الله ، وعرفت ربها حق المعرفة ؛ فتلك

النفس لا تحسن إلا أن تسلم وتنقاد بحبٍّ لله ورضًا عن الله [١] .

وأَخْتِمُ بهذه الكلمات الرائعة لابن القيم ـ رحمه الله ـ إذ يقول [٢] : « ينبغي أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل ، هل يحركه عليه هوى النفس أو المحرك له هو الله تعالى خاصة ؟ فإن كان الله تعالى ، أمضاه ، وإلا تركه ؛ وهذا هو الإخلاص .

قال الحسن [٣]: رحم الله عبدًا وقف عند همه ، فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخر .

فهذه مراقبة العبد في الطاعة ، وهو أن يكون مخلصًا فيها ، ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع ، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب ، والشكر على النعم ؛ فإنه لا يخلو من نعمة لا بد له من الشكر عليها ، ولا يخلو من بلية لابد من الصبر عليها ، وكلُّ ذلك من المراقبة » .

وقال ابنُ الجوزي رحمه الله [٤] : « الحقُّ ﷻ أقربُ إلى عبده من حبل الوريد ؛ لكنه عامل العبد معاملة الغائب عنه البعيد منه ، فأمر بقصد نيته ، ورفع اليدين إليه ، والسؤال له ، فقلوب الجهال تستشعر البعد ، ولذلك تقع منهم المعاصي ؛ إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفُّوا الأكف عن الخطايا ، والمتيقظون علموا قربه فحضرتهم المراقبة ، وكفتهم عن الانبساط » .

فأفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات ؛ أسأل الله أن يرزقنا مراقبته في سِرِّنا وعلانيتنا ، وظاهرنا وباطننا ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

---

(١) انظر المصدر السابق .

(٢) « إغاثة اللهفان » (٣٩٢ بتصرف) راجع «نضرة النعيم» (٨/ ٣٣٧٢) ؛ فإنه مهم .

(٣) أخرجه البيهقيُّ في «الشعب» (٧٢٧٩) ، وانظر «إغاثة اللهفان» (١/ ٦١، ٦٢) ط التوفيقية .

(٤) « صيد الخاطر » (٢٣٦) .

منزلة الإخلاص

ومن بين هذه المنازل العظيمة الجليلة الكبيرة التي لابد أن ينزلها السالك طريق ربه - جلَّ وعلا - قبل أن يصل إلى مقام الإحسان: «منزلة الإخلاص».

والإخلاصُ لغةً:

قال ابن فارس[1]: «الخاء واللام والصاد أصل واحد مطرد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه».

وقال الراغب[2]: «الخالص كالصافي إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه، والصافي قد يُقَال لما لا شوب فيه، ويقال: خَلَّصْتُهُ فَخَلَصَ».

وقال ابنُ منظور[3]: «خَلَصَ الشيء بالفتح، يَخْلُص خُلُوصًا وَخَلاصًا إذا كان قد نَشِبَ ثم نَجَا وسَلِمَ، وأخلصه وخلصه وأخلص لله دِينَهُ: أمْحَضَهُ، وأَخْلَصَ الشيءَ: اختاره، وقرئ: إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِيْنَ، والمُخْلَصِينَ.

قال ثَعْلَبُ: يعني بالمُخْلِصينَ الذين أَخْلَصُوا العبادة لله تعالى، وبالمخلَصين الذين أَخْلَصَهُمُ الله ﷻ، والتَّخْلِيصُ: التَّنْجِيَةُ مِنْ كُلِّ مَنْشَبٍ، تقول: خَلَّصْتُهُ من كذا تَخْلِيصًا، أي: نَجَّيْتُهُ تَنْجِيَةً فَتَخَلَّصَ، والإخْلاصُ في الطَّاعة: تَرْكُ الرِّيَاءِ».

وقال الفيروز آبادي[4]: «أَخْلَصَ لله: تَرَكَ الرِّيَاءَ».

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٣٢٧) ط الفكر.

(٢) «المفردات» (٢٩٢) ط القلم.

(٣) «لسان العرب» (٣/ ١٧٦) ط الحديث.

(٤) «القاموس المحيط» (٣٨٧) ط المعرفة.

واصْطِلاحًا :

قال الكفويُّ [(١)] : « هو القصد بالعبادة على أن يعبد المعبود بها وحده .

وقيل : تصفية السر والقول والعمل » .

وقال الجُرجانيُّ [(٢)] : « هو تخليص القلب عن شائبة الشوب المكدِّر لصفائه ، وتحقيقه أن كلَّ شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه يُسمَّى : خالصًا ، ويسمى الفعل المخلص : إخلاصًا .

قال الله تعالى : ﴿ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا ﴾ [النحل:٦٦] ، فإنما خُلُوصُ اللبن أن لا يكون فيه شوب من الفَرْث والدم ، وقال الفضيل بن عياض: ترك العمل لأجل الناس رياءً ، والعمل لأجلهم شرك ، والإخلاص: الخلاص من هذين .

وقيل هو : أن لا تطلب لعملك شاهدًا غير الله ، وقيل : هو تصفية الأعمال من الكدورات » .

وقيل : « هو تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين » [(٣)] .

وقيل : «هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة» .

وقيل : «التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك» ، وقيل : «استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن ، والرياء : أن يكون ظاهره خيرًا من باطنه ، والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره» .

وقيل : « الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق » [(٤)] .

---

(١) «الكليات» (٦٤) ط الرسالة .

(٢) «التعريفات» (٢١) ط الحديث .

(٣) «معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم» للسيوطي (٢١٩) ط مكتبة الآداب .

(٤) «المدارج» (٢/ ٧٦) ط الحديث .

ومنزلة الإخلاص منزلة عظيمة ، ومقام جليل إذ لا يقبل الله قولًا ولا عملًا ولا حالًا إلا بالإخلاص والاتباع .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥] .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ [الزمر:٢، ٣] .

وقال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ : ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣]

وقال الله ﷻ : ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ ﴾ [الملك:٢]

قال الفضيل بن عياض ؒ حينما سئل عن قوله تعالى : ﴿ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ ﴾ : «أحسن العمل أخلصه وأصوبه ، إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، حتى يكون خالصًا صوابًا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على سنة رسول الله ﷺ »(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾ أي : وهو متبعٌ للنبي ﷺ ؛ فالإحسان هنا في متابعة النبي ﷺ .

وتدبر هذه الآية التي تزلزل القلب ؛ قال تعالى : ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣] ، أي: لا قيمة له ولا وزن ..

---

(١) سبق تخريجه ، وهو في «حلية الأولياء» (٨/ ٩٨) .

ستسأل إذا ما قرأت كتابك وستنقب في صحيفتك: أين الصلاة ؟ لا أرى لها أثرًا ، أين مجالس العلم ؟ لا أرى لها أثرًا في الصحيفة ، أين أمري بالمعروف ونهيي عن المنكر ؟ أين قيامي لله بالليل ؟ أين العمل ؟ لا أثر له ؛ لأنه لم يكن خالصًا لله ﷻ ، كان من أجل الناس ، ومن أجل الدنيا !! ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩] .

وقوله: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ ﴾ هي النكرة التي تفيد العموم والشمول ، سواء كان العمل قوليًّا أو قلبيًّا أو بالجوارح ما دمت لم تبتغ بهذا العمل ـ وإن قلَّ ـ وجْه الله ؛ لن تجد له أثرًا في صحيفتك يوم تلقى الله !!

وفي « صحيح مسلم »[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ » .

وفي لفظ ابن ماجه بسندٍ صحيحٍ : «فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ»[(٢)] .

إن عملت من أجل الشهرة ، أو من أجل المحمدة والثناء ؛ فستنال ما عملت من أجله ، وستأخذه في الدنيا ، أما بين يدي الله تبارك وتعالى ؛ فلن تجد لهذا العمل أي أثر على الإطلاق !!

ففي « صحيح مسلم »[(٣)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ ؛ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ ،

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥) .

(٢) أخرجه ابن ماجة ، كتاب الزهد ، باب الرياء والسمعة (٤٢٠٢) ، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٤) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥) .

قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ:كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ ؛ فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ ، فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ ».

فيا طلبة العلم ، ويا من نصَّبتم أنفسكم الآن علماء للجرح والتجريح؛ لا للجرح والتعديل ، تدبروا هذا الحديث المهيب الذي يخلع القلب ؛ فإن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة : منهم عالم وقارئ للقرآن ؛ لأنه لم يتق الله في علمه ، ولم يبتغ بعلمه وجه الله ؛ إنما أراد المحمدة والثناء والشهرة والمكانة .

وفي سنن الترمذي وغيره [1] وصحَّحه شيخنا الألباني عن كعب بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال : « مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ ، أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ » .

وفي « الصحيحين » [2] من حديث أسامة بن زيد ﷺ ، أنه ﷺ قال : « يُؤْتَى

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب العلم ، باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا (٢٦٥٤) ، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٠١) ، ولعله لشواهده ؛ فقد أخرجه ابن ماجه في المقدمة (٢٥٩) عن حذيفة ﷺ ، وأخرجه برقم (٢٦٠) ، وأبو داود كذلك (٣٦٦٤) عن أبي هريرة ﷺ ، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة (٢٥٣) عن ابن عمر ﷺ وبرقم (٢٥٤) عن جابر ﷺ .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الوحي ، باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٧) ، وكتاب الفتن=

بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ ؛ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى ، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ ، فَيَقُولُونَ : يَا فُلاَنُ ، مَا لَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى ، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ » !!!

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[الصف:٢، ٣] .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[البقرة:٤٤] .

وفي « الصحيحين » [(١)] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال له : «إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلاً تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ الله ؛ إِلاَّ ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً » .

وفي الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده» وغيره [(٢)] بسندٍ صحيحٍ بمجموع طرقه وشواهده من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « ثَلاَثٌ لاَ يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ صَدْرُ مُسْلِمٍ : إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لله عَزَّ وَجَلَّ ، وَمُنَاصَحَةُ أُولِي

= باب الفتنة التي تموج موج البحر (٧٠٩٨) ، ومسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ، وينهى عن المنكر ويفعله (٢٩٨٩) .

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب حجة الوداع (٤٤٠٩) ، وفي الدعوات (٦٣٧٣) ، وفي الفرائض (٦٧٣٣) ، ومسلم ، كتاب الوصية ، باب الوصية بالثلث (١٦٢٨) .

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٥) ، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ٦٦) ، والضياء في «المختارة» (٣/ ٢٦) ، والطبراني في «الأوسط» (٩٤٤٤) ، وفي «مسند الشاميين» (٨٧) ، وأبو علي الصوري في «الفوائد المنتقاة» (٢) ، وتمام في «الفوائد» (٩) ، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٧/ ٦٠) و(٣٤/ ١٥) ، وأبو عمرو بن حكيم المديني في «جزء حديث نضر الله» (٣٦، ٣٨، ٤٠) ، وخيثمة في «حديثه» (٦٥) وله شواهد كثيرة عن زيد بن ثابت وابن مسعود وأبي سعيد الخدري ، وجبير بن مطعم رضي الله عنهم وغيرهم ، وصحّحه لغيره الألبانيُّ «الصحيحة» (٤٠٤) .

الأَمْرِ ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ » .

أي: أن قلب المرء المسلم لا يبقى فيه غلٌّ ، ولا يحمل الغلَّ مع هذه الثلاثة ؛ بل هذه الثلاثة تنفي عن القلب غلَّه ، وتُنقيه منه ، وتخرجه عنه .

فتأتي هذه الثلاثة لتملأ القلب صفاءً وإخلاصًا ، ولتستخرج من القلب الغل ؛ فدواءُ الغلِّ واستخراج إخلاصه لا يكون إلا بتجريد الإخلاص والنصح ومتابعة جماعة المسلمين ومتابعة السنة.

وفي « الصحيحين » [1] من حديث أبي موسى ﷺ قال: سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً ، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً ، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً ؛ أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الله ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله » .

وفي الحديث الذي رواه « مسلم » [2] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ الله تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » .

وفي الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده» وصحَّح الحديث العلامة أحمد شاكر [3] ـ رحمه الله تعالى ـ من حديث أبي هريرة ﷺ قال : سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ عَلَى هَذَا المِنْبَرِ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ فِي هَذَا الْيَوْمِ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب من سأل وهو قائم ، عالمًا جالسًا (١٢٣) ، وكتاب الجهاد والسير ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٢٨١٠) ، ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (١٩٠٤) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤) .

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤) ، والنسائي في «الكبرى» (١٠٧٢٠) ، وابن حبان (٩٥٠) ، والضياء في «المختارة» (٢٧، ٢٨) ، والبيهقي في «الشعب» (١٤٤٠، ١٠١٤٦) ، وضعفه الألبانيُّ في «ضعيف الجامع» (٤٧٥٦) ، وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر والأرناؤوط في «المسند» .

عَام الأَوَّلِ ، ثُمَّ اسْتَعْبَرَ أَبو بَكْرٍ وَبَكَى ، ثُمَّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : «لَمْ تُؤْتَوْا شَيْئاً بَعْدَ كَلِمَةِ الإِخْلاَصِ مِثْلَ الْعَافِيَةِ ؛ فَاسْأَلُوا الله الْعَافِيَةَ» .

وكلمة الإخلاص هي: كلمة لا إله إلا الله ؛ اللهم إنا نسألك العافية .

وفي الحديث الذي رواه الترمذيُّ بسندٍ حسن [1] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : «مَا قَالَ عَبْدٌ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله قَطُّ مُخْلِصًا ؛ إِلاَّ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، حَتَّى تُفْضِيَ إِلَى الْعَرْشِ مَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ» .

وفي «الصحيحين» [2] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في قصة الثلاثة الذين انطلقوا إلى الغار والذين سقطت عليهم الصخرة وآواهم المبيت إلى الغار ، قال النبيُّ ﷺ : «بَيْنَمَا ثَلاَثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ ؛ فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : انْظُرُوا أَعْمَالاً عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لله ؛ فَادْعُوا الله تَعَالَى بِهَا ؛ لَعَلَّ الله يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ ، وَامْرَأَتِي ، وَلِيَ صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ ؛ فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ ، حَلَبْتُ ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا ، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ ، فَجِئْتُ بِالْحِلاَبِ ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا ، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا ، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا ، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً ،

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الدعوات ، باب دعاء أم سلمة (٣٥٩٠) ، وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإجارة ، باب من استأجر أجيرًا فترك أجره فعمل فيه المستأجر فزاد (٢٢٧٢) ، وانظر (٢٢١٥) ، ومسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال (٢٧٤٣) .

نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ ، فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً ، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ ، وَقَالَ الآخَرُ : اللَّهُمَّ، إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا ، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ ، فَجِئْتُهَا بِهَا ، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا ، قَالَتْ : يَا عَبْدَ اللهِ! اتَّقِ اللهَ وَلاَ تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ ، فَقُمْتُ عَنْهَا ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً ، فَفَرَجَ لَهُمْ ، وَقَالَ الآخَرُ : اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ : أَعْطِنِي حَقِّي ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا ، فَجَاءَنِي فَقَالَ : اتَّقِ اللهَ وَلاَ تَظْلِمْنِي حَقِّي ، قُلْتُ : اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا ، فَخُذْهَا ، فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلاَ تَسْتَهْزِئْ بِي ، فَقُلْتُ : إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا ، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ ، فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ » .

وأنا أقول: لو وقَعْتَ الآن في كَرْب وشدَّة هل تجد عندك عملًا خالصًا من كل شوائب الشرك لتتضرع به إلى الله تعالى؟ اطرح على نفسك هذا السؤال ! هل ستتذكر عملًا يليق أن تُقبل به على الله سبحانه وتعالى ، وتفرح أن تتضرع به إلى الله لأنه كان خالصًا لم تَشُبْهُ أيُّ شائبة من شوائب الشرك ولم تعكره شائبة من شوائب البدعة ، وكان خالصًا صوابًا ؛ أسأل الله أن يرزقنا الإخلاص والاتباع .

وفي «صحيح البخاري»[(١)] من حديث أنس ﷺ وفي « صحيح مسلم »[(٢)] عن جابر ﷺ قال : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ ؛ فَقَالَ : « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد ، باب من حبسه العذر عن الغزو (٢٨٣٩) عن جابر ﷺ ، وفي المغازي (٤٤٢٣) عن أنس ﷺ .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر (١٩١١) .

سِرْتُمْ مَسِيرًا ، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا ؛ إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ » .

ولفظ البخاري : « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ » ، قَالُوا :يَا رَسُولَ الله ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ ؟ قَالَ : « وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ » .

وقد ترجم الإمام البخاريُّ لهذا الباب في كتاب الجهاد ترجمة فقهية فقال : «باب من حبسه العذر عن الغزو» .

بل ربما يحرم من شارك في القتال ، وربما تُسعَّر به النار ، وربما يَنالُ هذا المحبوس المعذور الأجر كاملًا غير منقوص .

كما في «صحيح مسلم »[1] من حديث سهل بن حنيف ومن حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ سَأَلَ الله الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ ، بَلَّغَهُ الله مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ ».

والله يعلم الصادق من الكاذب ؛ اللهم اجعلنا من الصادقين .

وفي « الصحيحين »[2] عن عمر رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » .

انظر إلى صدق النية ، وإلى الإخلاص ، وإلى ثمرة الإخلاص ؛ فإنك تنال أجر شهيدٍ يفتن بالطائرات والصواريخ والقاذفات إن علم الله منك أنك تريد الشهادة بصدق .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى (١٩٠٩) عن سهل وبرقم: (١٩٠٨) عن أنس .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١)، ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ » (١٩٠٧) .

ورحم الله القائل:

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد ... سرتم جسومًا وسرنا نحن أرواحًا

إنا أقمنا على عذر نكابده ... ومن أقام عن عذر كمن راحا

إنه الإخلاص والصدق، وبه تفاضل العاملون؛ فالقرآن ما تغير لفظه، والسنة ما تغير لفظها، والمتكلمون كثيرون، لكن الذي يفرق بين الجميع هو الإخلاص؛ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

وقد يُكتب لك الآن في ميزانك وفي سجلك وفي كتابك أنك بنيت مسجدًا أو بنيت لله مُجمعًا وكفلت آلاف الأيتام!! وأنت لم تكفل يتيمًا، ولم تساهم بنافذة في مسجد، ولم تساهم بلبنة في بنائه ..إنه الإخلاص .. إنها النوايا الحسنة..

روى الإمام أحمد في «مسنده» والترمذيُّ في «سننه»(١) من حديث أبي كبشة الأنماري ﷺ، أن النبيَّ ﷺ قال: «ثَلاَثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً فَاحْفَظُوهُ، قَالَ: فَأَمَّا الثَلاَثُ الَّذِي أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ؛ فَإِنَّهُ مَا نَقَّصَ مَالَ عَبْدٍ صَدَقَةٌ، وَلاَ ظُلِمَ عَبْدٌ بِمَظْلَمَةٍ، فَيَصْبِرُ عَلَيْهَا إِلاَّ زَادَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ بِهَا عِزًّا، وَلاَ يَفْتَحُ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلاَّ فَتَحَ الله لَهُ بَابَ فَقْرٍ، وَأَمَّا الَّذِي أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً فَاحْفَظُوهُ؛ فَإِنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٌ رَزَقَهُ الله ﷻ مَالاً وَعِلْماً، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لله ﷻ فِيهِ حَقَّهُ، قَالَ:

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٠، ٢٣١)، والترمذيُّ، كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا أربعة نفر (٢٣٢٥)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب النية (٤٢٢٨)، ووكيع في «الزهد» (٢٤٠)، والطبرانيُّ في «الكبير» (٢٢/ ٢٦٧)، والطحاويُّ في «شرح المشكل» (٢٦٣)، والبيهقيُّ في «الكبرى» (٤/ ١٨٩)، والبغوي في «شرح السنة» (٤٠٩٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي، وابن ماجه» و«صحيح الترغيب» (١٤).

فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ ، قَالَ : وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ ﷻ عِلْماً وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً ، قَالَ : فَهُوَ يَقُولُ : لَوْ كَانَ لِي مَالٌ ، عَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ ، قَالَ : فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ ، قَالَ : وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْماً ، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ﷻ ، وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَلاَ يَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقَّهُ ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ ، قَالَ : وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا وَلاَ عِلْماً ؛ فَهُوَ يَقُولُ : لَوْ كَانَ لِي مَالٌ لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ ، قَالَ : هِيَ نِيَّتُهُ ؛ فَوِزْرُهُمَا فِيهِ سَوَاءٌ » .

وقد يسألني طالبُ علم نجيبٍ ويقول : كيف ذلك؟!! والرسول ﷺ يقول كما في «الصحيحين»[1] عن أبي هريرة ﷺ ، وعن ابن عباس ﷺ : « إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ ، وَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبْتُهَا لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا ، لَمْ أَكْتُبْهَا عَلَيْهِ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا سَيِّئَةً وَاحِدَةً » .

شتان شتان بين هذا وذاك ؛ شتان بين رجل همَّ بسيئة فتذكر الله ﷻ ، وارتجف قلبه حبًّا لله ، وخوفًا منه ؛ فترك المعصية وهو قادر عليها ؛ فهذا يعطيه الله حسنة ، وبين رجل خرج ليسرق بيتًا وأخذ معه المفاتيح وما يحتاج إليه ، ووصل إلى البيت ليباشر السرقة ؛ فعلم أن أهل البيت مستيقظون ؛ فعاد على وجهه ، وقد أجَّل السرقة إلى يوم آخر ؛ فهذا والذي سرق سواء ، فهو بنيته فوزرهما سواء ، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله ، وأسقطه الله من أعين الناس ، وهذا مرض عضال جدًّا بين بعض طلبة العلم ؛ فقد يحفظ الطالبُ مسألةً أو بعض المسائل من مسائل الأصول الثقيلة ، ونيته

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح:١٥] (٧٥٠١) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت ، وإذا هم بسيئة لم تكتب (١٢٨) ، عن أبي هريرة ﷺ واللفظ لمسلم ، وأخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب من هم بحسنة أو سيئة (٦٤٩١) ، ومسلم ، كتاب الإيمان (١٣١) عن ابن عباس ﷺ .

وهو يعلم تمامًا من نفسه ذلك ـ والله يعلم نيته مِنْ حفظ هذه المسائل ـ أن يتأسَّد بها، ويتنمر على أقرانه في مجلس العلم ـ أو ليتأسد بها، ويتنمَّر بها على شيخه، لا على قرينه بل على شيخه؛ فتدبر هذه الكلمات: من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله وأسقطه الله من أعين الناس، وسيجعل الله سره علانية إن لم يتب إليه ويرجع إليه.

ففي «الصحيحين»[1] عن جندب العلقي ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله به، وَمَنْ يُرائِي يُرَائِي الله بِهِ» أما قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴾ فقال ابن عباس[2]: «أي: محبة في قلوب الخلق» ـ أي من عباد الله المؤمنين؛ سيلقي الله الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين، أما إذا كنت تبارز الله بالمعاصي، وتتجرأ على انتهاك حرماته وحدوده، إذا أرخيت الستائر وغلَّقت النوافذ والأبواب، وظننت أنه لا يراك أحد؛ فاعلم بأنك إن لم تتب إليه بعد إمهالٍ منه لك سيجعل الله سرك علانية، وستسمع ما أنت فيه على ألسنة الناس؛ نسأل الله أن يسترنا في الدنيا والآخرة.

ومن أروع ما قرأت في ذلك: ما قاله الحافظ ابنُ رجب رحمه الله قال[3]: «كان حبيبٌ أبو محمد تاجرًا يَكْرِي الدراهمَ، فمرَّ ذات يوم بصبيان، فإذا هم يلعبون؛ فقال بعضهم لبعض: قد جاء آكِلُ الربا، فنكس رأسه، وقال: يا ربِّ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة (٦٤٩٩)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٧).

(٢) كما عند الطبري في «تفسيره» (٢٣٩٦٠) بسندٍ ضعيف، وصحَّ عن مجاهد عند الطبري (٢٣٩٦٣)، وقتادة (٢٣٩٦٧)، وثبت عن ابن عباس أنه قال: «يحبهم ويحببهم» عند الطبري (٢٣٩٦٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٣/ ٣٧٣).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١٦٣) تحت الحديث (١٨).

أفشيت سرِّي إلى الصبيان ، فرجع فجمع ماله كُلَّه ، وقال : يا ربِّ إنِّي أسيرٌ ، وإني قد اشتريتُ نفسي منك بهذا المال فأعتقني ، فلما أصبح ، تصدَّق بالمال كلِّه وأخذ في العبادة ، ثم مرَّ ذات يوم بأولئك الصبيان ، فلما رأوه قال بعضهم لبعض : اسكتوا ؛ فقد جاء حبيبٌ العابد ، فبكى ، وقال : يا ربّ أنتَ تذمّ مرَّةً وتحمد مرَّةً ، وكلُّه من عندك » .

درجات الإخلاص :

والإخلاص على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى [١] : إخراج رؤية العمل عن العمل ، والخلاص من طلب العوض على العمل ، والنزول عن الرضا بالعمل ؛ فالعامل يعرض له في عمله ثلاث آفات ؛ كما قال ابن القيم رحمه الله ؛ رؤية العمل وملاحظته ، يعني : يفتخر به ، ويمتن به ، ويدل به ، وطلب العوض على العمل يريد العوض من الناس أو من الله عز وجل ؛ فإن كان من الناس ؛ فهو رياء ، وإن كان يطلب من الله تبارك وتعالى ؛ فهو إخلاص ، فالله عز وجل وعد من فعل كذا : أن يكون ثوابه كذا وكذا ، ووعد رسول الله ﷺ من فعل كذا ؛ فله كذا وكذا ، والأحاديث في ذلك كثيرة ، ورضاه بالعمل وسكونه إليه هذه آفات تعرض للعامل في كل عملٍ يعمله إلا من رحم ربي سبحانه وتعالى ؛ فالدرجة الأولى ألا وهي رؤية العمل الذي يخلصه من ذلك ومن طلب العوض عليه ، أن يكون شاهدًا لمنة الله عليه ، وفضله ، وتوفيقه له ، مطالعًا لعيب نفسه ؛ فالعبد المخلص سائر بين مطالعة المنة ، ومطالعة عيب النفس ، بمعنى : أن يعلم من نفسه لو خُلِّي بينه وبين نفسه لم يكن من فعله الصالح شيء ألبتة؛ فالنفس جاهلة وظالمة ، وطبعها الكسل ، وإيثار الشهوات ، والفتنة بالشبهات ،

---

(١) «المدارج» (٢/ ٧٨) ط الحديث .

والنفس هي منبع كل شر : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[يوسف:٥٣] ، وما كان ليصدر منك الخير إلا بفضل الله ﷻ ، ومِنَّته عليك ، وتوفيقه لك ؛ فأنت تطالع عيب نفسك بعد مطالعتك لمنة ربك تبارك وتعالى ؛ فالخير الذي يصدر منك إنما هو محض فضل الله عليك لا منك ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ ﴾[النور:٢١] .

وقال أهل الجنة : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ ﴾[الأعراف:٤٣] .

وقال الله تبارك وتعالى لنبيه : ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٧٤] .

فرسول الله ﷺ يحتاج إلى تثبيت من الله ؛ فكيف يكون حالي وحالك ؟! وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ [الحجرات:٧] ؛ فكلُّ عمل صالح إنما هو محض فضل ، وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ (١) من حديث عائشة ﵂ قالت : سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ الالْتِفَاتِ فِي الصَّلاَةِ ؛ فَقَالَ : « هُوَ اخْتِلاَسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلاَةِ الْعَبْدِ » .

فإذا كان هذا الالتفات طرفة عين اختلاس من الشيطان ؛ فكيف يكون حال التفات القلب ؟!!

فانظر إلى عيوبك وتقصيرك في العمل ؛ حتى لا تسكن إلى العمل ، ولا تطمئن إليه ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأذان ، باب الالتفات في الصلاة (٧٥١) .

أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، قالت عائشة ﵂ : يا رسول الله ! الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ ، قَالَ : « لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُ »[1].

الأمر الثاني : أن تعلم ما يستحقه الربُّ تبارك وتعالى من حقوق العبودية ، وآدابها الظاهرة والباطنة ؛ لتعلم يقينًا أنك أضعف وأعجز وأقلُّ من أن توفي الله تبارك وتعالى حقه وقدره ، وبأنك لو سجدت في الطين لربك ما وفيت الله شكر نعمة واحدة من النعم التي أنعم بها عليك ، فتنظر إلى تقصيرك في العمل وإلى حقيقة العبودية ، فلا تسكن إلى عملك ولا ترضى به ولا تطمئن إليه ؛ بل لابد من الخجل من العمل مع بذل الجهد بإخلاص ومتابعة ، فمن إخلاص العابد لله خجله من عمله ، وشدة حيائه من الله تبارك وتعالى أن يُقبل عليه بهذا العمل بهذه العيوب وبهذا التقصير[2] .. وما أحوجنا إلى الإخلاص ، ولو أخلص العابدون ما رأينا هذا التشرذم والتهارج على ساحة الدعوة ؛ بل وعلى ساحة الأمة .. لو أخلص العابدون ؛ لرأينا الخوف والوجل بدل العجب والغرور .. لو أخلص السائرون لوجدنا ساحة العمل قد أزهرت فيها من جديد زهور الحب في الله ، واقتلعت من باطن أرضها الكريمة الجليلة نباتات السوء من الحقد والحسد والغل والكراهية .. لو أخلص السائرون لوجدنا أخوة يظلل سماءها إيمان بالله تبارك وتعالى .. لو أخلص المخلصون

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة المؤمنون (٣١٧٥) ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب التوقي في العمل (٤١٩٨) ، وأحمد (٦/ ١٥٩، ٢٠٥) ، والحميدي في «مسنده» (٢٧٥) ، والحاكم (٢/ ٣٩٣، ٣٩٤) ، وصححه لشواهده الألباني في «الصحيحة» (١٦٢) .

(٢) «المدارج» (٢/ ٧٩، ٨٠) بتصرف واختصار .

لتغير الحال ، ونصر الله الأمة ، وأعاد الله لنا العزة والكرامة ، والإخلاص ليس كلمة وليس عملًا في عبادة فحسب ، ولكن الإخلاص عملٌ في كلِّ مناحي الحياة ، وفي كل مناهج الأرض ، وفي كل أجزائها وبقاعها ، فنحن نحتاج إلى الإخلاص في عمل الآخرة ، وإلى إخلاص في عمل الدنيا ؛ فما أحوج الأمة الآن إلى الإخلاص بشموله وكماله بهذا الطرح والعرض .

والله أسأل أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل ، وأن يتقبل منا صالح الأعمال ؛ إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه .

*****

منزلة الاستقامة

ومن بين هذه المنازل العظيمة الجليلة الكبيرة التي لابد أن ينزلها السالك طريق ربه ـ جلَّ وعلا ـ قبل أن يصل إلى مقام الإحسان : «منزلة الاستقامة» ـ أسأل الله أن يرزقنا الاستقامة وأن يتوفانا عليها ؛ إنه على كل شيء قدير ـ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٠ ـ ٣٢] ، وسأرجع إلى هذه الآية الجليلة الكريمة مرةً أخرى ؛ لأختم بها الحديث عن الاستقامة إن شاء الله تعالى .

وقال جلَّ وعلا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف:١٣، ١٤] .

وقال الله تبارك وتعالى لسيد المستقيمين ﷺ : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود:١١٢] .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ ﴾ [فصلت:٦]

وقال جلَّ وعلا : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [الجن:١٦]

فما هي الاستقامة ؟ وما هي حدود الاستقامة ؟ وما هي درجاتها ؟

وتعريف الاستقامة ؛ كما قال الراغب [١] : « استقامَةُ الإنسانِ لزومُه للمنهج المستقيم ؛ نحو : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ [فصلت:٣٠] » .

وقال ابنُ القيم في « المدارج » [٢] : « الاستقامة ضدُّ الطغيان ، وهو مجاوزة الحدود في كل شيء » .

وقال ابنُ حجر في « الفتح » [٣] : « الاستقامة كناية عن التمسك بأمر الله تعالى فعلًا وتركًا » .

أقوال السلف في بيان معنى الاستقامة :

لقد سئل أول رجل في الأمة حقق الاستقامة بعد نبيها ﷺ ألا وهو الصديق الأكبر أبو بكر ﷺ عن الاستقامة ؛ فقال [٤] : « الاستقامة ألا تشركوا بالله شيئًا » .

وهذا تعريفٌ شاملٌ ؛ يريد به الاستقامة على محض التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شيءٌ من شوائب الشرك ، ولذلك قال الحافظ ابنُ رجب ﷺ في كتابه الماتع « جامع العلوم والحكم » [٥] : « وأصل الاستقامة : أن يستقيم القلب على التوحيد ؛ فإن استقام القلب على التوحيد استقامت الجوارح كلُّها على طاعة العزيز الحميد » .

---

(١) « المفردات » (٤١٨) .

(٢) « مدارج السالكين » (٢/ ١٠٤) .

(٣) « فتح الباري » (١٣/ ٢٥٧) ط المعرفة .

(٤) عزاه السيوطي في « الدر المنثور » (٧/ ٣٢١ و ٣٢٢) لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور ومسدد وابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وهو في « الزهد » لابن المبارك (٣٢٦) .

(٥) « جامع العلوم والحكم » (٢٠٥) بتصرف .

فأنت لا تقدر أن تتحكم في بصرك ، ولا تستطيع أن تقيم الليل ، ولا تقدر أن تحفظ قرآنًا ، أو خطبة ، أو محاضرة ، أو حديثًا ، ولا تقدر أن تمنع لسانك من الغيبة أو النميمة ، ولا تقدر على كذا وكذا وكذا ، لا تتحكم في جوارحك إنما تدفعك جوارحك دفعًا للوقوع في المعاصي ؛ لأن الملك الذي يصدر الأوامر إلى هذه الجوارح مريضٌ معتلٌ أو ميت ؛ هذا الملك هو القلب ، فبصلاح القلب يصلح الجسد كلُّه ؛ كما قال حبيب القلوب محمد ﷺ ، كما في «الصحيحين» [(١)] من حديث النعمان رضي الله عنه ، وفيه : « أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ . أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ » .

فالقلبُ الذي ما عرف حقيقة التوحيد مُحالٌ أن يغض صاحب هذا القلب بصرهُ عن الحرام ، أو أن يكفَّ يده عن الحرام ، أو أن يكف قدمه عن السعي إلى معصية الله ، أو أن يكفَّ بطنه عن الحرام ، أو أن يكف فرجه عن ممارسة الحرام ؛ مُحال أن يكف إنسان عن المعصية وقلبهُ مريضٌ معتلٌ غارق في أوهام وأوحال الشرك والعياذ بالله ؛ فأصْلُ الاستقامة أن يستقيم القلب على التوحيد ، وهذا القلب المستقيم على التوحيد هو القلب السليم ، ولا نجاة لأحدٍ إلا بقلب سليم ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩] .

قال ابنُ القيم رحمه الله [(٢)] : « ولا يَسْلَمُ القلبُ حتَّى يَسْلمَ من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد ، ومن بدعة تخالف السُّنة ، ومن غفلة تناقض الذكر ، ومن شهوة تناقض الأمر ، ومن هوى يناقض الإخلاص » .

(١) تقدم .

(٢) « الجواب الكافي » (٨٤) .

ولا يمكن للقلب أن يسلم إلا بالتوحيد والبراءةِ من الشرك ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥، ٦٦]

وقال الله تبارك وتعالى حكايةً عن لقمان : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨] .

والحديثُ عن التوحيد والشرك حديث طويل جدًّا بطول رحلة الشرك وبطول جلال التوحيد ؛ فأصْلُ الاستقامة أن يستقر القلب على التوحيد ، وأول خطوة على طريق سلامة القلب أن يسلم القلب من الشرك الذي يناقض التوحيد ، ومن البدعة التي تناقض السنة ؛ روى البخاريُّ ومسلم [(١)] من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ » . يعني : مردود ليس مقبولًا .

وقال جَلَّ وعلا : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف:١١٠] .

والعمل الصالح هو العمل الذي يبتغي به صاحبه وجه الله بشرط أن يكون هذا العمل على هدي رسول الله ﷺ .

وحتَّى يسلم القلب من غفلة تناقض الذكر ؛ فصاحب القلب السليم

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧) ، ومسلم ، كتاب الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨) .

دائمًا في ذكر ، وكان ﷺ يذكر الله على كل أحيانه[(١)] .

وفي « الصحيحين »[(٢)] من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ » .

وكذلك ؛ فإن صاحب القلب السليم لا تتحكَّم فيه شهواتهُ حتى لا يُخالف بشهوته أمر ربه وأمر نبيه ، ولا يقدِّم هواه على أمر الله ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٥١] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦]

ولا يسلم القلب حتى يسلم من هوى يناقض الإخلاص ، وقد تحدثت في هذا فيما سبق على سبيل التفصيل .

إذًا ؛ فالصديق يُعرِّف الاستقامة بأنها الاستقامة على التوحيد ؛ فإن من استقام على التوحيد الصادق استقام في كل شأنه على الصراط المستقيم ؛ لذلك فإن أجمعَ وأشملَ دعاء هو الدعاء الذي علمنا الله إياه في الفاتحة : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] .

وفي « الزهد » لأحمد وابن المبارك[(٣)] بسندٍ منقطع عن عمر بن الخطاب ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الحيض ، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها (٣٧٣)

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الدعوات ، باب فضل ذكر الله ﷻ (٦٤٠٧) ، ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب استحباب صلاة النافلة في بيته (٧٧٩) .

(٣) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٣٢٥) ، وعزاه السيوطيُّ في « الدر المنثور » لأحمد في « الزهد » (١١٥) وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وغيرهم .

أنه تلا هذه الآية وهو يخطب على المنبر : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ ، قال عمر ﷺ : « ثم استقاموا ـ والله ـ لله بطاعته ولم يروغوا روغان الثعالب » .

فأنت وقت درس العلم مثلًا مستقيم على الأمر والنهي ؛ لكنك إن خرجت من الدرس أسلمت بصرك وأذنك وقلبك وعقلك لكثيرٍ من الوسائل الأخرى التي تشكِّل قلبك وسمعك وعقلك تشكيلًا آخر يصطدم اصطدامًا مباشرًا مع ما كنت فيه وأنت تسمع عن الله وعن رسول الله ﷺ ؛ فهذا هو روغان الثعالب ، والله ما أمرك الله بطاعته في بيته تعالى ثم إن خرجت لتقف في عملك أو في تجارتك أو في مكتبك تتحول إلى إنسان آخر لا يعرف شيئًا عن الصدق ، ولا عن الأمانة ، ولا عن الشهامة ، ولا عن الإخلاص ، ولا عن الوفاء ، ولا عن الرجولة ، والله ما بهذا أُمرنا !!!

فاستقم على الطاعة والهداية في جميع أحوالك ... ثم إن دعوت غيرك إلى الخير فكن أنت أولًا على الدرب ؛ كما قال بعضُ السلف : « إذا أردت أن تعِظ الناس فعِظْ نفسك ؛ فإن اتَّعظَت ، وإلا فاستحي من الله » .

وغير تقيٍّ يأمر الناس بالتقى ... طبيبٌ يداوي الناس وهو سقيم
يا أيها الرجل المقوِّم غيره ... هَلَّا لنفسك كان ذا التقويم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإن انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

ولما حاسب المتقون أنفسهم خافوا من عاقبة الوعظ والتذكير ؛ قال رجلٌ لابن عباس : أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ؛ فقال له : إن لم تخش

أن تفضحك هذه الآيات الثلاث فافعل ، وإلا فابدأ بنفسك ، ثم تلا : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة:٤٤] ، وقوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٢، ٣] ، وقوله حكايةً عن شعيب عليه السلام : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود:٨٨] » .

وقد تقدَّم بعض التابعين ليصلي بالناس إمامًا ، فالتفت إلى المأمومين يُعدِّل الصفوف ، وقال : استووا ، فغشي عليه ، فسُئل عن سبب ذلك ؛ فقال : لمَّا قلتُ : استقيموا ، فكَّرت في نفسي ، فقلت لها : « فأنت ، هل استقمت مع الله طرفة عين ؟ »[1] .

فاصْدُق في الاستقامة مع الله ؛ قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود:١١٢]

وقال عثمان رضي الله عنه [2] : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾ ،أي : أخلصوا العمل لله جَلَّ وعلا .

وقال الحسن [3] : « استقاموا على أمر الله ؛ فعملوا بالطاعة ، واجتنبوا المعصية » .

وقال مجاهد في قوله تعالى [4] : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾ ،

---

(١) « لطائف المعارف » (٥٣ و ٥٤) ط دار ابن كثير بدمشق .
قال ابن رجب (ص ٥٥) : «ومع هذا كلِّه فلابد للناس من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والوعظ والتذكير ، ولو لم يعظ الناس إلا معصوم من الزلل ، لم يعظ بعد رسول الله ﷺ أحد ؛ لأنه لا عصمة لأحدٍ بعده» اهـ .

(٢) « تفسير البغوي » (٧/ ١٧٢) و « المدارج » (٢/ ١٠٤) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) قلت : ونحو قول مجاهد ، ورد عن ابن عباس عند البيهقي في « الأسماء » (٢٠٤) .

أي : استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله ، وهذا كما فسرها به الصديق ﷺ .

وقال ابنُ القيم رحمه الله : « وسمعت ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ يقول في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ [(١)] ؛ أي : استقاموا على محبته وعبوديته ؛ فلم يلتفتوا عنه سبحانه وتعالى يمنة ولا يسرة » .

والمراد بالالتفات هنا ؛ التفات القلب ، وفي « صحيح مسلم » [(٢)] من حديث أبي عمرة سفيان بن عبد الله ﷺ قال : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ : « قُلْ آمَنْتُ بِالله ثُمَّ اسْتَقِمْ » .

وفي لفظ أحمد [(٣)] : « لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ » .

وهذا الحديث من أبلغ كلام رسول الله ﷺ يلخص فيه النبيُّ ﷺ الدين كلَّه في هذا الحديث في كلماتٍ قليلة .

وفي رواية الترمذي وابن ماجه والنسائي في «الكبرى» وأحمد [(٤)] بسندٍ صحيح من حديث أبي عمرة سفيان بن عبد الله ﷺ قال : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ ، قَالَ ﷺ : « قُلْ رَبِّيَ الله ثُمَّ اسْتَقِمْ » . قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ قَالَ : «هَذَا» .

---

(١) « المدارج » (٢/ ١٠٤) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب جامع أوصاف الإسلام (٣٨) .

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٣) ، والترمذي ، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في حفظ اللسان (٢٤١٠) وقال : « حديث حسن صحيح » وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٢) ، والدارمي (٢٧١٠) ، والنسائي في « الكبرى » (١١٤٨٩) ، وصحَّحه الشيخ الأرناؤوط .

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٣) ، وصحَّحه الألباني في « ظلال الجنة » (٢١) .

فاستقم على الأمر والنهي ؛ استقم على الطاعة ، وابتعد عن المعصية ؛ استقم على التوحيد ، وابتعد عن الشرك ؛ كلُّ هذه المعاني في معنى : « ثم استقم » ؛ امتثل الأمر ، واجتنب النهي ، وقف عند الحد ، واحفظ لسانك ؛ فإن أرخص شيءٍ عندنا الآن هو الكلام ، وصار الورع نادرًا جدًّا ؛ فقد ترى الرجل متورعًا عن المال الحرام ؛ ربما تقدِّم له لحمًا وهو يعلم أنك رجل مسلم فيسأل : من أين هذا اللحم ؟ لكن في نفس المجلس الذي يسأل فيه عن اللحم الحلال لا يتورع هو عن أكل اللحم الحرام بالفرية في أعراض إخوانه من الأحياء والأموات ؛ تورَّع عن الحلال وأكل الحرام الصرف !! قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات:١١، ١٢] .

وروى مسلمٌ في « صحيحه »[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ سأل الصحابة يومًا : « أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ ؟ » ، قَالُوا : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ » ، قِيلَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ؟ قَالَ : « إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ » .

والبهت هو الظلم العظيم ؛ فانظر إلى خطر الغيبة ، وأنا أقول : لقد

(١) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩) .

صارت الغيبة الآن أحلى فاكهة في المجالس إلا من رحم ربي سبحانه وتعالى ؛ بل لقد سقط فيها أفاضل أهل العلم إلا من رحم ربي ـ أسأل الله أن يغفر لنا وأن يستر علينا ، وأن يجعل سرَّنا أحسن من علانيتنا ، وباطننا أطيب وأنقى وأطهر من ظاهرنا ؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه ؛ إذًا اللسان خطره عظيم ؛ فبكلمة تدخل دين الله ، وبكلمة تخرج من دين الله ، وبكلمة تستحلُّ فرج امرأة ، وبكلمة تحرم عليك هذه المرأة ، وبكلمة تنال رضوان الله ، وبكلمة تنال سخط الله .

روى البخاريُّ ومسلم [1] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً ، يَرْفَعُ الله بِهَا دَرَجَاتٍ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ» .

إن ترك الألسنة تلقي التهم جزافًا دون بينة أو دليل يترك المجال فسيحًا لكلِّ من شاء أن يقول ما شاء في أيِّ وقت شاء ، ثم يمضي آمنًا مطمئنًا ، فتصبح الجماعة المسلمة وتُمسي وإذا أعراضُها مجرَّحة ، وسُمْعتها ملوثة ، وإذا كلُّ فرد فيها متهمٌ أو مهددٌ بالاتهام ، وهذه حالةٌ من القلق والشك والريبة لا يمكن أن تطاق بحال من الأحوال .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور:١٦] .

فصارت الغيبة مما يتلذذ ويتسلى به الآن ، وصار التورع عن الكلام الذي لا دليل عليه ولا برهان عملة نادرةً هي أندر من الماس والياقوت والمرجان ،

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب حفظ اللسان (٦٤٧٧ ، ٦٤٧٨) ، ومسلم ، كتاب الزهد ، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨) .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

- روى البخاريُّ ومسلم [1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « قَارِبُوا وَسَدِّدُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ » ، قَالُوا : يَا رَسُولَ الله : وَلاَ أَنْتَ؟ قَالَ : «وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » .

وفي « الصحيحين » [2] كذلك من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « سَدِّدُوا وَقَارِبُوا ، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، وَأَنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى الله أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ » .

وقولُه في الحديث : « بِعَمَلِهِ » الباء هنا هي باء العوض ، أما الباء في قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف:٧٢] ؛ فهي باء السببية ، حتى لا يُظَنَّ أن تعارضًا قد وقع بين الآية والحديث ، كلا فالنور يخرج من مشكاة واحدة ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣، ٤] .

فليس ثمة عملٌ عوضًا للجنة أبدًا ؛ ولذلك في حديث ثوبان رضي الله عنه الذي رواه الإمام أحمد والبغوي وغيرهما بسندٍ صحيح [3] أن النبيَّ ﷺ قال : « اسْتَقِيمُوا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣) ومسلم ، كتاب صفة القيامة ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦) (٧٦) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٤) ومسلم ، كتاب صفة القيامة (٢٨١٨) .

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٦ ، ٢٨٢) وابن ماجه ، كتاب الطهارة ، باب المحافظة على الوضوء (٢٧٧) ، والدارمي (٦٥٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٧/ ١١٦) ، وفي « الصغير » (٨) و (١٠١١) ، والطيالسي في « مسنده » (٩٩٦) ، والبيهقي في « الكبرى » (١/ ٨٢) ، والروياني في « مسنده » (٥٩٨ و٥٩٩ ، ٦٠٢) ، والمروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (١٦٨ ، ١٧٠) من طريق : سالم عن ثوبان مرفوعًا .

قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١١٢) : « هذا الحديث رجاله ثقات أثبات ، إلا أنه منقطع=

وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَفْضَلَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاةُ، وَلَنْ يُحَافِظَ عَلَى الصَّلاةِ إِلا مُؤْمِنٌ » .

والحديث صححه كثير من أهل العلم ، ومن أهل العلم من ضَعَّف إسناده لكن الحديث صحيح ؛ فلا يستطيع الإنسان أن يصل إلى حدود الاستقامة إلا أن يسدد ويقارب ، وألا يركن إلى عمله وألا يغتر بعلم ولا بطاعة ولا بعبادة ؛ فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين ، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء ، وامتثال الأمر واجتناب النهي ، وهي تتعلق بالأقوال ؛ استقامة في الأقوال ، وعلى الإخلاص ؛ استقامة في الأعمال والأفعال ، واستقامة في النيات [1] ، ومن أجمل ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قال [2] : « أعظم الكرامة لزوم الاستقامة » .

هذه أعظم كرامات الله لك أيها الولي المستقيم على طاعة الرب العلي ودرب الحبيب النبيِّ ﷺ ؛ أعظم كراماتك أن الله ﷻ قد أعانك ووفقك بالاستقامة على طريق نبيه ﷺ .

= بين سالم وثوبان ، فإنه لم يسمع منه بلا خلاف ، لكن له طريق أخرى متصلة من طريق أبي كبشة أنه سمع ثوبان » ؛ كما عند أحمد (٥/ ٢٨٢) والطبراني في « الكبير » (١٤٤٤) والدارمي (٦٥٦) والمروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (١٦٧) .

قال الألباني في « الإراوه » (٢/ ١٣٦) : « وهذا إسناد حسن » وقد توبعا من عبد الرحمن بن ميسرة ؛ كما عند أحمد (٥/ ٢٨٠) وللحديث عدة شواهد ؛ من حديث عبد الله بن عمرو ؛ كما عند ابن ماجه (٢٧٨) والبزار كما في « البحر الزخار » (٢٠٧٤) ، والمروزي (١٦٩) وفيه ليث وهو ابن أبي سليم وهو ضعيف .

وأخرجه ابن ماجه (٢٧٩) من حديث أبي أمامة بسند فيه مجهول ، وأخرجه العقيلي في « الضعفاء » (١٧٤١) والطبراني في « الكبير » (٦٢٧٠) من حديث سلمة بن الأكوع ، وثمَّ شواهد أخرى ؛ أوردها العلامة الألباني في « الإرواء » (٢/ ١٣٥) .

(١) « بصائر ذوي التميز » (٤/ ٣١٢) ؛ كما في « النضرة » (٣٠٦) .

(٢) كما في « المدارج » لابن القيم (٢/ ١٠٥) .

وصاحب المنازل يُعرِّف الاستقامة تعريفًا جميلًا جدًّا ؛ فيقول ابنُ القيم [(١)] :

« الاستقامة عند شيخ الإسلام الهروي : الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد لا عاديًا رسم العلم ، ولا متجاوزًا حد الإخلاص ، ولا مخالفًا نهج السنة » ؛ فهي بذلك تتضمن عند الإمام الهروي ستة أمور : عملًا واجتهادًا فيه ، واقتصادًا وهو السلوك المعتدل بين طرفي الإفراط والتفريط ، ووقوفًا مع ما يرسمه العلم ، وإفراد المعبود بالإرادة وهو الإخلاص ، ووقوع الأعمال على الأمر وهو متابعة السنة » .

فديننا ليس فيه إفراط ولا تفريط ، فاقتصد لكي تستقيم ، وسدد وقارب ؛ فالوسطية والاعتدال في كلِّ شيء سبب من أسباب المواصلة على الطريق ، وديننا لا غلوَّ في أيِّ شيء منه إطلاقًا ؛ دين لا يغالي في جانب الدنيا ؛ بل ولا حتى في جانب الآخرة على حساب الدنيا ، ولكنه دين الوسطية والعدل بين حاجيات الجسد وحاجيات الروح ، بين الدين والدنيا ، وتدبر هذا الدعاء العجيب الجميل للنبيِّ ﷺ الذي كان يجمع فيه بين الدين والدنيا ؛ فيقول : « اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِيَ الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي ، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي ، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ » [(٢)] .

يقول ابنُ القيم رحمه الله [(٣)] : « والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيرًا وهما : الاقتصاد في الأعمال والاعتصام بالسنة ؛ فإن الشيطان يشم قلب

---

(١) « المدارج » (٢/ ١٠٧) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والاستغفار ، باب التعوذ من شرِّ ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٢٧٢٠) .

(٣) « المدارج » (٢/ ١٠٧) .

العبد ويختبره » .

كما قال تعالى حكاية عنه : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ [الأعراف:١٦، ١٧] ؛ لكن سبحان الله لم يذكر الشيطان جهة العلو أبدًا ؛ فهو يأتيك من أمامك ومن خلفك ، وعن يمينك ، وعن شمالك ، يأتي عند القلب يشم القلب ، ويختبره ؛ قال ابنُ القيم : « فإن رأى الشيطان في هذا القلب داعية للبدعة ، وإعراضًا عن كمال الانقياد للسنة أخرجه عن الاعتصام بها ، وإذا رأى فيه حرصًا على السنة ، وشدة طلب لها : لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها ، فأمره بالاجتهاد والجور على النفس ومجاوزة حد الاقتصاد فيها قائلًا له : إن هذا خير وطاعة ، والزيادة والاجتهاد فيها أكمل ؛ فلا تغتر مع أهل الفتور ، ولا تَنَمْ مع أهل النوم ؛ فلا يزال يحثُّه ويحرضه حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها فيخرج عن حدها ؛ قال بعض السلف : « ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان : إما إلى تفريط ، وإما إلى مجاوزة ، وهي الإفراط ، ولا يبالي بأيهما ظفر ، زيادة أو نقصان » .

فكلُّ الخير في اجتهادٍ باقتصاد وإخلاص مقرون باتباع » اهـ .

والذي يعين العبد على هذا : أن يكون دائمًا على حَذَرٍ ووجل ، وأن يكون على علم وبصيرة ، وفهمٍ لكلام النبيِّ ﷺ.

وأختمُ الكلام عن منزلة الاستقامة بالآية التي وعدتُ أن أختم بها وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ ما جزاؤهم ؟ ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾، وفي وقت تَنزُّل الملائكة على أهل الإيمان والاستقامة قولان [1] : القول الأول : تتنزل الملائكة على أهل الإيمان

(١)انظر « تفسير الطبري » و« ابن كثير » عند تفسير آية فصلت (٣٠) .

والاستقامة وهم على فراش الموت ؛ فعندما تحتضر فأنت ترى الملائكة ، لأنك بدأت تنتقل إلى عالم الآخرة .

وفي الحديث الذي رواه ابن ماجه بسندٍ صحَّحه شيخنا الألبانيُّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال [1] : « إِنَّ المَيِّتَ تَحْضُرُهُ المَلَائِكَةُ ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَالُوا : اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ ، اخْرُجِي حَمِيدَةً ، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ ، وَرَبٌّ غَيْرِ غَضْبَانَ » .

ولذلك تسمع كثيرًا من الناس يقول : فلان كان على فراش الموت مبتسمًا أو كان على خشبة الغسل مبتسمًا ؛ لأنه يعاين ملائكة الله ، ويسمع بشارتهم الجميلة ، كما قال ربنا : ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ مَنْ أنتم ؟ ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ يعني في الدنيا والآخرة .

وبعض أهل العلم قال : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ يعني في الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ أي : ما تريدون وما تشتهون وما تطلبون . ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ ما النزل ؟ والنزلُ : هو ما يُعدُّ وما يهيء للضيف من كرامة ؛ فكيف يكون النزل المهيء من أكرم الأكرمين ورب العالمين جلَّ جلاله ؟! فالوقت الأول الذي تتنزل فيه الملائكة على أهل الإيمان والاستقامة وهم على فراش الموت ، يجد العبد فيه البشر والسرور والسعادة والفرح ، والله الذي لا إله غيره رأيتُ بنفسي وسمعتُ بأذني إحدى المحارم عندي دَخَلْتُ عليها وهي تحتضر ، وكانت قد طلبت مِنِّي أنا شخصيًّا فاكهةً

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٤) وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٦٢) وصحَّحه الألباني في « صحيح سنن ابن ماجه » .

محددة وهي المشمش ، وكُنَّا بالفعل في زمان الفاكهة ؛ فذهبت سريعًا لأُحضر لها هذه الفاكهة وهي على فراش الموت ، وعُدْت إليها مسرعًا وقدَّمت إليها هذه الفاكهة ، قلت لها : كلي هذا هو المشمش الذي طلبتيه ؛ قالت : فما هذا المشمش الذي كان أمامي الآن من جاءني به ؟ فالعبد والله يعاين موقعه من الجنة والنار ؛ بشارات يُبَشَّر بها على فراش الموت : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧] ، وقد ذكرتُ قصة شابٍّ انقلبت سيارته وعليه جنابة الزنا !! انقلبت به سيارته واحترقت ، وكان في طريق سريع في السعودية ، لم يلتفت إليه أحد ؛ فلما تغيَّب عن إخوانه وزملائه أسرعوا إليه فوجَدُوا سيارةً منقلبة تحترق ؛ فلما اقتربوا وجدوا أنها سيارة صديقهم ، ووجدوا جثته تتفحَّم ، فحملوه سريعًا ونقلوه إلى المستشفى ، وبعد أيام وفي غرفة العناية المركزة ذهب إليه بعضُ إخوانه من أهل الصلاح والدين ـ ومن بينهم أخوه ـ وكان إمامًا في مسجدٍ من المساجد ، وذكَّره بالله ، لعلَّ الله أن يتوب عليه ؛ فقال له : أَحْضِر لي المصحف ؛ ففرح فرحًا عارمًا ، وسعد سعادة غامرة ، وأحضر له كتاب الله ، وظنَّ أنه سيقرأ فيه ، وستكون الخاتمة مِسْكًا إن شاء الله ؛ فلما أخذ الكتاب نظر إليه ، ونظر إلى إخوانه من حوله وقال لهم : بأنه يشهدهم بأنه كافر بكلِّ كلمةٍ في هذا الكتاب !! ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧] .

الوقت الثاني الذي تنزل فيه الملائكة على أهل الإيمان والاستقامة: عند الخروج من القبور يوم البعث والنشور ، وأنا لا أرى أيَّ تعارض البتة في الجمع بين القولين أبدًا ؛ فالملائكة تتنزل عليهم وهم على فراش الموت ، وإذا نفخ في الصور ، وخرج الناس من قبورهم حفاة عراةً غرلًا ، وجد أهل

الإيمان والاستقامة الملائكة مرة أخرى في استقبالهم ؛ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم:٨٥] ، أي ركبانًا ؛ تهيئ الملائكة مراكب المتقين المؤمنين المستقيمين ؛ ليحشرهم الله ﷻ في أرض المحشر ركبانًا لا يمشون على أقدامهم ؛ فمن الناس في هذا اليوم من يمشي على وجهه ؛ عميًا وبكمًا وصمًا ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء:٩٧] .

وفي «الصحيحين»[١] من حديث أنس ﷺ أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا نَبِيَّ الله كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ ؟ قَالَ : «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» . قَالَ قَتَادَةُ : بَلَى وَعِزَّةِ رَبِّنَا .

وأنا أقول : بلى وعزة ربي ؛ إنه لقادر .

إذًا ؛ أهل الإيمان والاستقامة تستقبلهم الملائكة يوم البعث والنشور : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت:٣١] .

ضيافةً وإنعامًا وإكرامًا من غفور غفر لكم الذنوب ، ورحيم رحمكم يوم الأهوال والكروب ، وستر لكم الزلات والعيوب ؛ أسأل الله أن يرزقنا الاستقامة، وأن يختم لنا جميعًا بها ، وأن يحشرنا في زمرة أهلها ؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

*****

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب سورة الفرقان (٤٧٦٠) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب كيف يحشر الكافر على وجهه (٢٨٠٦) .

منزلة التوكل

ومن بين هذه المنازل العظيمة : منزلةُ التوكُّل ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة:٥١] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣] .

وقال تعالى : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة:٤]

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك:٢٩] .

وقال لنبيه ﷺ : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل:٧٩] .

وقال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء:٨١] .

وقال لنبيه ﷺ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الفرقان:٥٨]

وقال تعالى لنبيه : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩]

وأثنى على أنبيائه ورسله الذين قالوا : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم:١٢]

وأخبر عن أصحاب النبيِّ ﷺ ، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٧٣، ١٧٤] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[الأنفال:٢].

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تأمر بالتوكل ، وتأمر سيد المرسلين والنبيين ﷺ بتحقيق التوكل على الله .

وفي « الصحيحين » [١] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ ؛ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلاَنِ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ، وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ فَرَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ أُمَّتِي ، فَقِيلَ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ ، ثُمَّ قِيلَ لِي : انْظُرْ ، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ فَقِيلَ لِي : انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا ؛ فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ ؛ فَقِيلَ : هَؤُلاَءِ أُمَّتُكَ ، وَمَعَ هَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ ؛ فَتَذَاكَرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا : أَمَّا نَحْنُ فَوُلِدْنَا فِي الشِّرْكِ ، وَلَكِنَّا آمَنَّا بِالله وَرَسُولِهِ ، وَلَكِنْ هَؤُلاَءِ هُمْ أَبْنَاؤُنَا ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : « هُمُ الَّذِينَ لاَ يَتَطَيَّرُونَ ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ ، وَلاَ يَكْتَوُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » ؛ فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ : أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : « نَعَمْ » ، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ : أَمِنْهُمْ أَنَا ، فَقَالَ : « سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ » .

فمنزلة التوكل من أعظم المنازل .

ففي «صحيح البخاري» [٢] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال :

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب (٦٥٤١) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢٢٠ / ٣٧٤ ، ٣٧٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب تفسير القرآن ، باب : « ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ ﴾ » (٤٥٦٣ ، ٤٥٦٤) .

«حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا : ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران:١٧٣] » .

وفي « الصحيحين »[1] من حديث ابن عباس ﷺ أنه ﷺ كان يتودد إلى الله سبحانه وتعالى بهذا الدعاء الودود المشرق : « اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي ، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ » .

وفي «سنن الترمذيّ» و«مسند أحمد» بسندٍ صحيح[2] من حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ ؛ لَرَزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا » .

يعني : تخرج في وقت الغدوة في الصباح الباكر فارغة البطون ، وتروح في وقت الروحة في المساء بطانًا ؛ أي : ملأ الله بطونها بالرزق الحلال .

وفي « سنن الترمذي » و« سنن أبي داود » وغيرهما بسندٍ صحيح[3] من

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب (٧) (حديث ٧٣٨٣) ، ومسلم كتاب الذكر والدعاء ، باب التعوذ من شر ما عمل وما لم يعمل (٢٧١٧) .

(٢) تقدَّم ، وهو في « صحيح الجامع » (٥٢٥٤) ، و « الصحيحة » (٣١٠) .

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب ما يقول إذا خرج من بيته (٥٠٩٥) ، والترمذي ، كتاب الدعوات ، باب ما يقول إذا خرج من بيته (٣٤٢٦) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » .

وله شاهدٌ عن عثمان ؛ أخرجه أحمد (١/ ٦٥) ، وشاهدٌ عن أبي هريرة ؛ أخرجه ابن ماجه (٣٨٨٦) ، وشاهدٌ عن أم سلمة ؛ أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٦) ، وأبو داود (٥٠٩٤) ، والترمذي (٣٤٢٧) ، والنسائي (٨/ ٢٦٨) ، والحديث صححه الألباني في « صحيح الجامع » (٦٤١٩) .

حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ قَالَ ـ يَعْني : إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ : بِسمِ الله تَوَكَّلْتُ عَلَى الله ، وَلا حَولَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بالله ، يُقالُ لَهُ : هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيطَانُ ؛ فيقُولُ لَهُ شَيْطانٌ آخَرُ : كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ ؟ » .

ومنزلة التوكل على الله أوسع المنازل وأجمعها ، ولا تزال معمورة بالنازلين على حسب درجاتهم في التوكل على ربِّ العالمين ، وذلك بحسب هممهم وهمومهم .

فعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظُم في عين الصغير صغارها وتَصْغُر في عين العظيم العظائم

فمنزلة التوكل معمورةٌ دومًا بالنازلين لسعة متعلق التوكل ، ولكثرة حوائج العالمين ؛ فأهل السموات والأرض ـ المكلفون وغيرهم ـ بالتوكل ، وإن تباينوا واختلفوا في متعلق توكلهم ؛ فأولياء الله سبحانه وخاصته يتوكلون عليه في مسائل الإيمان ، وفي إرساء كلمة الدين ، وإعلاء كلمة الله ، وجهاد أعداء الله ، وفي تنفيذ أمره ، وتحكيم شرعه ، هؤلاء هم الأولياء والعلماء السائرون على دَرْب الأنبياء ، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامة نفسه ، وفي حفظ حاله مع الله ، بعيدًا عن الناس ، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في أي أمرٍ من أمور الدنيا من رزقٍ أو عافيةٍ ، أو زوجةٍ أو ولدٍ ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش .

لكن شتان شتان بين هؤلاء في منزلة التوكل ؛ فأفضل التوكل : التوكل في الواجب ـ أعني : واجب الحق ، وواجب الخلق ، وواجب النفس .

فما هو التوكُّل ؟ التوكُّل هو : صدق اعتماد القلب على الله مع الأخذ

بالأسباب ، وربما يسأل الكثير : أين نصر الله ؟ لماذا لا يتدخل ملك الملوك لحسم هذه المعركة بين الكفر والإيمان ، وبين المشركين والمسلمين ؟ أين الوقاية وأين الكفاية ؟!

والجوابُ على كلِّ هذه الأسئلة أطرحُهُ في سؤالٍ أيضًا ، وأقولُ : وأين التوكُّل؟ أين الصادقون ؟

والتوكُّل ليس كلمةً ترددها الألسنة والحناجر الملتهبة الساخنة ؛ بل إن التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله ؛ فهل صدقنا الله في توكُّلنا عليه ؟ هل صَدَقَتْ قلوبنا في الثقة فيه ، والاستعانة به ، والرجاء فيه ، والتعلق به ؟ ما زلنا إلى هذه اللحظة نثق في بعض دول الأرض أكثر من ثقتنا في ربِّ السماء والأرض !!

قال ابنُ القيم في « الفوائد »[1] : « والذي يحقق التوكل : القيام بالأسباب المأمور بها ؛ فمن عطَّلها لم يصح توكُّله ؛ كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يحقق رجاءه ؛ فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنيًا ، كما أن من عطَّلها يكون توكُّله عجزًا وعجزه توكُّلًا .

وسرُّ التوكل وحقيقته : هو اعتماد القلب على الله وحده ، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها ؛ كما لا ينفعه قوله : توكلت على الله ، مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به ، فتوكل اللسان شيء ، وتوكل القلب شيء ؛ كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء ، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء ؛ فقولُ العبد : توكلتُ على الله مع اعتماد قلبه على غيره مثل قوله : تبت إلى الله ، وهو مصرٌّ على معصية ، مرتكب لها » .

---

(١) « الفوائد » (١١٠ ، ١١١) .

فيجبُ على الأمة الآن ـ وبلا أدنى تأخير ـ أن تصدق في توكلها على الله ، وأن تأخذ بالأسباب ؛ فالسماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة ، كان اللهُ قادرًا ولا يزال سبحانه على أن يأخذ النبيَّ ﷺ يوم الهجرة من مكة إلى المدينة في ثانية ، بل في مايكرو ثانية ؛ بل في فيمتو ثانية ؛ لكن شاء الله أن يعلِّم الأمة درسًا على يد نبيه ﷺ في حقيقة التوكل على الله ، في صدق اعتماد القلب على الله مع الأخذ بجميع الأسباب ؛ فلم يترك نبينا ﷺ سببًا واحدًا من أسباب النجاة من أهل الشرك والكفر إلا وأخذ به ، فالمتجه من مكة إلى المدينة يتجه شمالًا ، لكن النبيَّ ﷺ اتجه جنوبًا ؛ فهذا أول سببٍ قام به ؛ فهو يعلم يقينًا أن المطاردين سيبحثون عنه في كلِّ الطرق والدروب التي تؤدي إلى المدينة من ناحية الشمال ، ثم سيقلِّبون الصخور ؛ بل وينقبون بين حبَّات الرمال ، فاختفى وصاحبه في الغار ثلاثة أيام !

كُلُّ هذه أسباب لم يضيع النبيُّ ﷺ سببًا من الأسباب إلا وأخذ به ، وفجأة انقطعت به كلُّ هذه الأسباب ؛ فالمشركون يحاصرون الآن الغار من كل ناحية ! أين الأسباب ؟ إنه يعلم يقينًا أن الأسباب وحْدَها لا تضرُّ ولا تنفع ، ولا ترزق ولا تمنع ، إلا بأمر مسبب الأسباب ـ جلَّ وعلا ـ ولذا لمَّا انقطعت به الأسباب مباشرةً وبدون مقدمات ، يقول الصديق في حوار هامسٍ وجِلٍ ودُود : « يَا رَسُولَ الله ! لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَرَآنَا ؛ فَقَالَ سَيِّدُ المتَوكِّلِينَ : « يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا » [1] .

فشاء الله وقدَّر أن يجعل للنصر أسبابًا ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج:٤٠] ؛ لكن وبكل أسف لم تنصر الأمةُ دين الله ؛ فلم تحقق

(١) وهو في « الصحيحين » ، كما تقدَّم .

الإيمان المطلوب ، وقد قال تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧] ؛ فالأمة في حالة مخاض حقيقيٍّ ، وأسأل الله ﷻ أن يجعل موعد ميلاد الصبح قريبًا .

قال ابنُ القيم [1] : « وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب ، فلا يصح التوكُّل إلا مع القيام بها ، وإلا فهو بطالة ، وتوكل فاسد » .

وقد أورد العلامة ابن القيم تعريفات متعددة لأهل العلم في معنى التوكل ؛ فمنها قول الإمام أحمد : « التوكُّل عمل القلب » قال ابنُ القيم : « ومعنى ذلك : أنه عمل قلبي ، ليس بقول اللسان ، ولا عمل الجوارح .. ومنهمْ من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب ؛ فيقولُ : التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب ، كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء ، وهو ترك الاختيار ، والاسترسال مع مجاري الأقدار ، ومنهم من يفسره بالرضى ؛ فيقول : هو الرضى بالمقدور ... » إلى آخر هذه التعريفات .

درجات التوكل :

وأول درجات التوكل [2] : معرفة العبد بالرب وصفاته جلَّ جلاله : من قدرة ، وكفاية ، وقيومية ، وانتهاء الأمور كلِّها إلى علمه ، وصدروها عن مشيئته وإرادته ، وهذه المعرفة هي أول درجةٍ من درجات التوكل على الله ؛ فمن لم يعرف قَدْر ربه سبحانه وتعالى كيف يتوكل عليه ؟!

ويضاف إلى ذلك أن يعرف العبد قَدْر نفسه ؛ فإذا عرف العبد قدر نفسه عرف قَدْر ربه .

---

(١) « المدارج » (١/ ١١٢) .

(٢) « المدارج » (٢/ ١١٤) .

كما في عبارة أخرى لابن القيم في كتابه الماتع « طريق الهجرتين » ؛ قال [(١)]:
« من عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق ، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالذل التام ، ومن عرف ربَّه بالكمال المطلق عرف نفسه بالنقص المطلق » .

قال ابنُ القيم [(٢)]: «قال شيخنا [(٣)]: ولـذا لا يصحُّ التوكل ، ولا يتصور من القدرية النفاة القائلين بأنه يقع في ملك الله ما لا يشاء » ، حاشا وكَلَّا ؛ فلا يتصور أن يتوكل على الله واحدٌ من هؤلاء الذين يعتقدون هذا المعتقد الفاسد الخبيث ! « ولا يستقيم أيضًا من الجهمية المعطلة النفاة لصفات الربِّ جَلَّ جلاله ، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات » .

أي : إلا ممن يثبتون لله تبارك وتعالى ما أثبته لنفسه من أسماء الجلال ، وصفات الكمال ، وما أثبته أعرف الخلق به عبده ورسوله محمدٌ ﷺ؛ « فأيُّ توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالم سفليه وعلويه ؟ ولا فاعل باختياره ؟ ولا له إرادة ومشيئة ، ولا يقوم به صفة ؟ فكلُّ من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف : كان توكله أصح وأقوى ؟ والله سبحانه وتعالى أعلم »ا.هـ. فأيُّ توكلٍ يحققه ؟! وأيُّ توكُّل لمن يعتقد أن الله تبارك وتعالى يقع في كونه ما لا يريد ولا يشاء ؛ فكلُّ من كان بالله وصفاته أعلم كان توكُّله على الله أصح وأقوم ؛ فعلى قدر علمك بأسماء الجلال ، وصفات الكمال يكونُ توكلك على الله ﷻ.

---

(١)« طريق الهجرتين » (ص : ١٠) بتصرف .
(٢)« المدارج » (٢/ ١١٤) .
(٣)يقصد : ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى .

إذًا ؛ فأول درجةٍ وأول خطوة على طريق التوكل: أن تعرف قدر من ستتوكل عليه ، وتفوض أمورك إليه .

الخطوةُ الثانية : إن عرفت قدر الله ، ونزلت في هذه الدرجة من منازل التوكل ؛ فالدرجة الثانية : أن تشرع في الأخذ بالأسباب ؛ فمن نفى الأسباب فتوكُّلُهُ مدخولٌ معلولٌ مُشَوَّشٌ ! وهذا عكس ما يُظهره الكثير من الناس في أول الأمر وبدايته : أن الأخذ بالأسباب يقدح في التوكل ، وأن نفي الأسباب وتجاهلها هو تمام التوكل على الله ! وهذا خطأٌ فادحٌ ، فاعلم أيها الحبيبُ : أن من يفوت الأسباب لا يستقيم له التوكل ؛ لأن التوكل على الله تبارك وتعالى من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه ؛ فهو كالدعاء الذي جعله الله سببًا في حصول المدعو به ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦] .

قال ابنُ القيم : « فإذا اعتقد العبد أن توكُّله لم ينصبه الله سببًا ، ولا جعل دعاءه سببًا لنيل شيء ؛ فقد وقع في وهم وباطلٍ ؛ من ظن أن الله تبارك وتعالى لم يجعل التوكل سببًا لحصول المتوكل عليه ، أو لحصول ما يريد المتوكِّلُ على الله تبارك وتعالى أن يحققه له ، وإذا اعتقد أن الدعاء ليس سببًا لحصول المدعو به ، أو لما يرجوه من ربه تبارك وتعالى ؛ فقد اعتقد الباطل ؛ فإن الله سبحانه وتعالى « قضى وقدَّر حصول الشبع بالأكل ، وحصول الري بالشرب ؛ فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو ، فهل سمعت عاقلًا إذا وضع أمامه الماء وهو في غاية الظمأ ينظر إلى الماء ويقول : أنا متوكِّل على الله ؟ هل فعل ذلك عاقلٌ على ظهر الأرض ؟ لا ، وإنما إذا شعر بالظمأ يسرع إلى الماء ، وإذا شعر بالجوع يسرع إلى الطعام ؛ فإن

الله تبارك وتعالى قد جعل وقضى بحصول الشبع إذا أكل العبد ، وحصول الري إذا شرب ، والجوع قدر ، والأكل قدر ، والظمأ قدر ، والشرب قدر ، وكلُّ شيءٍ بقدر ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر:٤٩] .

وقضى الله تبارك وتعالى بحصول الحج ، والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق ؛ فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة » ؛ فلا يمكن أبدًا أن يقال بأنه حجَّ بيت الله ، وأدَّى ما عليه ، وهو مقيم في بيته ! وهكذا ــ أيها الأحبة ــ فالأخذُ بالأسباب لا يقدح في التوكل ؛ فتعريف التوكل ــ كما ذكرتُ ــ هو صدق اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب .

والأخذ بالأسباب لا يقدح في التوكل ، ولكن من تمام التوكل : عدم الركون إلى الأسباب ، وقطع علاقة القلب بها ، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بالأسباب ، وحال بدنه هو الأخذ بالأسباب .

لأن الأسباب وحدها لا تضرُّ ولا تنفع ، ولا ترزق ولا تمنع إلا بأمر مسبب الأسباب ؛ فالجوارح تعمل والقلب معلق بالله تبارك وتعالى .

ومن هذا المنطلق أقول : يجب على الأمة أن تأخذ بالأسباب إذا طلبت النصرة والتمكين ، وذلك في نقاط محددة ؛ **أولًا** : تحقيق الإيمان ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الصف:١٠، ١١] .

ثانيًا : صرف العبادة بكلِّ صورها وجزئياتها إلى الله تعالى .

ثالثًا : تطبيق الشريعة ، وامتثال الأمر ، واجتناب النهي ، والوقوف عند الحد .

رابعًا : تصحيح ما فسد واعوجَّ من الأخلاق .

خامسًا : تنشئة جيل النصر .

سادسًا : رفع راية الجهاد في سبيل الله .

هذه هي أسباب النصرة والعزة والتمكين لهذه الآية المباركة.

أما المظاهرات التي نحطم فيها ما يملكه الفقراء من محلات ، أو تخريب ممتلكات ، أو تحطيم سيارات ؛ فليست من أسباب النصر ، وإنما هي من أسباب الخذلان ؛ فالأمة لن تنصر بالماكيتات أو بحرق الأعلام الأمريكية أو بالمظاهرات الصاخبة ! فالأخذ بالأسباب أن تعي الأمة حقيقة التوكُّلِ على الله ، وأن تأخذ بأسباب النصر التي ذكرت ، وأن تعلَّق القَلْب بالله حده ، لا بأمريكا ولا بأوروبا ، ولا بالروس!! فالأمة ـ إلى هذه اللحظة ـ لم تأخذ بسببٍ حقيقيٍّ من أسباب النصر ! أنا أتكلم عن الأمة في مجموعها ، أما أولئك الأبطال الأطهار الذين سطَّروا بدمائهم الزاكية أروع ملاحم الصبر والثبات على المحن على أرض فلسطين ، من شباب وحد الله جَلَّ وعلا ، ونساء عرفن الله ، وارتدين الحجاب ، وخرجت المرأة المسلمة بفطرةٍ جميلة ؛ لتقول : عندي سبعة أولاد سأقدم السبعة لله تعالى ، ثم من أجل الأقصى ؛ هذه هي الفئة التي أخذت بالأسباب .

فالمطلوب أن تأخذ الأمة بالأسباب في حدود استطاعتها وإمكاناتها ، وأن تعلم بعد ذلك أن النتائج بيد الله سبحانه وتعالى ؛ قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] ، وجاءت كلمة « قُوَّة » نكرة في سياق الشمول والعموم ، أي : وسيلة من وسائل القوة في حدود قدراتك .

ثم على المسلم أن يأخذ بالأسباب في كلِّ المجالات ، فالمسلم قويٌّ متفوق في كل جانب ؛ فهو متفوق في جانب الدراسة ، والأخلاق ، والأدب ،

والطهر، وغير ذلك، ولا يجوز لمسلم أن يكون متفوقًا في العلوم الشرعية، وفي الطاعة والعبادة، وفي جانب الدراسة تراهُ يقدم نموذجًا سيئًا؛ فهذا خلل في فهم التوكل؛ فلابد أن تنظم وقتك، وأن تضع لك جدول مذاكرة، ووقتًا للنوم، ووقتًا للراحة، ووقتًا للاستجمام، ووقتًا للصلوات، ووقتًا للاطلاع في الكتب الشرعية، ووقتًا للاطلاع في الكتب الدراسية.

«أما التجرد من الأسباب جملة فهو ممتنع عقلًا وشرعًا وحسًّا؛ فما أخلَّ رسول الله ﷺ قط بشيءٍ من الأسباب، فقد ظاهر النبيُّ ﷺ بين درعين يوم أحد، ولم يحضر الصف قط عريانًا، كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة، واستأجر دليلًا مشركًا على دين قومه ليدله على طريق الهجرة، وهو الذي هدى الله به العالمين، وعصمه من الناس أجمعين، وكان يدخر لأهله قوت سنة، وهو سيد المتوكلين، وكان إذا سافر في جهادٍ أو حجٍ أو عمرة حمل الزاد والمزاد، وكذلك جميع أصحابه هم أصحاب التوكل حقًّا، وهم أكمل المتوكلين بعد رسول الله ﷺ»[1]؛ «فالأسباب محلُّ حكمة الله، وأمره، ودينه، والتوكُّلُ متعلق بربوبيته وقضائه وقدره؛ فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل، ولا يقوم قدم التوكل إلا على ساق العبودية لله ﷻ»[2].

«الخطوة الثالثة: وهي رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل.

فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده[3]؛ بل حقيقة التوكل: توحيد القلب، فما دامت في القلب علائق الشرك، فتوكله معلولٌ فاسدٌ مدخولٌ، وعلى قدر تجريد التوحيد: تكون صحة التوكل، فإن العبد متى

(١) «المدارج» (٢/ ١٢٩ و١٣٠).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ١١٦).
(٣) أي: كيف يعرف التوكل ما لم يعرف ربه بأسماء جلاله وصفات كماله؟!!

التفت إلى غير الله أخذ ذلك الذي التفت إليه شعبةً من شعب قلبه ، فنقص توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة » .

أي : على قدر ثقة القلب بهذه الواسطة على قدر نقص حقيقة التوكل في القلب ؛ فلو أن التوكل مثلًا له مائة درجة في القلب ، والتفت قلبك إلى هذه الواسطة التي ذكرت بنسبة ٦٠ ٪ أو ٥٠ ٪ درجة ، فسيبقى من شعب التوكل ٥٠ درجة . « ومن هنا ظَنَّ مَنْ ظَنَّ أن التوكل لا يصحُّ إلا برفض الأسباب ، وهذا حقٌّ ، لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح ؛ فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب ، مع تعلق الجوارح بها ، فيكون منقطعًا منها متصلًا بها » ا.هـ.

أي : فيكون منقطعًا من الأسباب بقلبه متصلًا بها ؛ ببدنه وجوارحه .

الدرجة الرابعة : اعتماد القلب على الله ، واستناده إليه ، وسكونه إليه ، بحيث لا يبقى في القلب اضطرابٌ من تشويش الأسباب ، بحيث لا يسكن ولا يطمئن إلى الأسباب ، وإنما يطرد ويخلع السكون إلى الأسباب من قلبه ، ويُلبس قلبه السكون إلى مسبب الأسباب جَلَّ جلاله ، وأعظم العلامات لهذا : ألا يبالي المتوكل على الله بإقبال الأسباب وإدبارها ، ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها ، وإقبال ما يكره ؛ لأن اعتماده على الله ، وسكونه إليه ، واستناده إليه قد حصنه من خوفها ورجائها .

فحال العبد المتوكل المعتمد عليه كحال من خرج عليه عدوٌّ عظيمٌ لا طاقة له به ، فرأى هذا العبد حصنًا حصينًا مفتوحًا فأدخله الله هذا الحصن ، وأغلق عليه باب الحصن ؛ فهو يشاهد عدوه خارج الحصن ، وعدوُّه لا يراه ؛ فاضطراب قلبه من عدوه في هذه الحالة لا معنى له ، كحال الطفل الرضيع

هل عنده سكون لأيِّ شيءٍ آخر غير ثدي أمه ؟ إنه لا يعرف غيره ، وليس في قلبه التفات إلى غيره .

فحال المتوكل على الله كحال الطفل الذي لا يسكن إلا لثدي أمه ، كذلك المتوكل الصادق في توكله لا يسكن إلا إلى الله ، ولا يعتمد إلا على الله ، ولا يحمل في قلبه التفاتًا إلى غير الله تبارك وتعالى .

الدرجة الخامسة : حُسْن الظن بالله ، وعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه ، ولذلك من أهل العلم من فسر التوكل بحسن الظن بالله .

والتحقيق [(١)] : « أن حسن الظن بالله يدعو إلى التوكل عليه » ؛ فلو أحسنت الظن بربك ، وأنه القادر القويُّ الظاهر الذي إذا أراد شيئًا كان ، والذي إذا لم يُرِدْ شيئًا لم يكن ، ولن يكون ، إن أحسنت الظن بربك أحسنت وصدقت في التوكل على الله ﷻ .

الدرجة السادسة : « استسلام القلب لله ، وانجذاب دواعيه كلِّها إليه ، وقطع منازعته ، وهذا معنى قول بعضهم : التوكل إسقاط التدبير ، يعني : أن يستسلم العبد لتدبير الرب ، وهذا في غير باب الأمر والنهي ، بل في ما يفعله بك [(٢)] ، لا فيما أمرك بفعله » ، يعني : لا يجوز - كما قال بعض الجهال - أن أسقط الأمر والنهي ؛ بدعوى التوكل ، وسأبين الآن بعض الأوهام عند كثيرٍ ممن يدَّعون التوكُّل على الله ﷻ ؛ فإنَّ توكُّلَ العبد على الله تبارك وتعالى بصدقٍ يُعَلِّمه أن استطاعته بيد الله لا بيده ، فالله إن لم يعط عبده الاستطاعة ؛

---

(١) وما زال الكلام لابن القيم في « المدارج » (٢/ ١١٧) .

(٢) أي : تقدير الله تعالى للعبد .

فهو عاجز ، لا يتحرك إلا بالله لا بنفسه ، فكيف يأمن العبد مكر الله ، وهو محرَّك لا مُحرِّك ، يحركه من حركته بيده ؛ فإن شاء ثبطه وأقعده مع القاعدين ، وإن شاء وفقه وسدده ودفعه مع الصالحين ؛ قال رب العالمين في شأن المنافقين :

﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة:٤٦] ؛ فمكر الله بالعبد أن يخلي الله بين العبد وبين نفسه ، وحينها يهلك إذ لا فضل من نفسك ، فنفسك أمارة بالسوء ، ونفسي أمارة بالسوء ، وكلُّ ما فينا من خير غنمناه هو محضُ فضل الله علينا ، فنحمد الله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

الدرجة السابعة : التفويض ، والتفويض روح التوكُّل ولبُّه وحقيقته ، وهو أن يلقي العبد كلَّ أموره إلى الله تبارك وتعالى ، وأن ينزلها بربه طلبًا واختيارًا ، لا كرهًا واضطرارًا .

مثلًا : أمٌّ يموتُ ابنها ، فتلطم خدها ، وتشق ملابسها ، وتضع التراب على رأسها ، وتدعو بدعوى الجاهلة ، وتستمر على ذلك يومًا ويومًا ويومًا ، حتى إذا ما خارت قواها ، وأُنهكت تمامًا ، قيل لها : اصبري ، فتقول : ما عندي حيلة إلا الصبر !!

فهذا تفويض اضطرار ، وليس تفويض اختيار ، وبالمناسبة : أُحذِّر من حديثٍ مشهور على ألسنة كثير من الدعاة والخطباء : « من لا يرض بقضائي ويصبر على بلائي ، فليخرج من تحت سمائي ، وليعبد ربًّا سواي » ؛ فهذا لا يصح ولا يثبت عن الصادق رسول الله ﷺ [1] .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٨٠٧) ، وابن عساكر (٤٣/ ٢٠٩) وقال الهيثمي في «المجمع»=

فالتفويض هو لبُّ حقيقة التوكل على الله ، وهو أن يلقي العبد أموره كلها إلى الله اختيارًا وحبًّا لا كرهًا واضطرارًا ، وقد جاء عن التفويض في كتاب الله تبارك وتعالى ما قاله مؤمن آل فرعون : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[غافر:٤٤] ، والمفوض لا يفوض أمره إلى الله إلا وهو يريد أن يقضي الله تبارك وتعالى له ما هو خير في معاشه ومعاده ، وإن كان المقضيُّ له خلاف ما يظنه خيرًا ؛ هذا هو المفوض الصادق .

فإن قضى الله لك أمرًا هو من نظرك ورؤيتك شرٌّ ، فيجب عليك أن ترضى بما قدر الله لك وقسم ، إن كنت صادقًا في تفويضك إلى الله ، وإن عشت سترى أن ما قدره الله لك هو الخير بإذن الله تعالى .

فهو يرضى به ؛ لأنه يعلم أنه خير له من الله ، وإن أخفى الله عليك بعض وجوه المصلحة في مثل هذا المقضي والمقدور ، كما قال الله في أعظم حادثٍ ، وأعصف فتنة تعرض لها نبينا ﷺ ألا وهي حادثة الإفك التي اتهم فيها النبيُّ ﷺ في عرضه وشرفه حين رميت عائشة الحصان الرزان الطاهرة في عرضها ، ومع ذلك ينزل القرآن بقول الله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾[النور:١١] ؛ فإذا وضع العبد قدمه في هذه الدرجة « التفويض » انتقل منها إلى درجة «الرضا» ؛ قال ربُّ العزة في حق الصحابة : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾[التوبة:١٠٠] .

= (٧/ ٤٢١) : « رواه الطبراني ، وفيه سعيد بن زياد بن أبي هند وهو متروك » ، وقال العراقي في « تخريج الإحياء » (٤/ ٣٤٥) : « وإسناده ضعيف » ، وقال ابن عبد البر في « الاستيعاب » (ترجمة بر بن عبد الله الداري) : « وليس هذا الإسناد بالقوي » ، وضعفه الألباني جدًّا ؛ كما في « الضعيفة » (٥٠٥) .

والرضا ثمرة التوكل ؛ بل من أهل العلم من فسر التوكل بالرضا ، والتحقيق : أن الرضا من أعظم ثمرات التوكل ؛ بل هو أعظم ثمرات التوكل ، ومن فسر التوكل بالرضا ؛ فإنما فسَّره بأجلِّ ثمراته ، وأعظم فوائده ؛ فإن العبد إذا توكل حقَّ التوكُّل رضي بما يفعله وكيله ، وشعر بسكونٍ في القلب .

قال ابنُ تيمية : « المقدور يكتنفه أمران : التوكل على الله قبله ، والرضا بالله بعده ؛ فمن توكل على الله قبل الفعل ورضي بالمقضيِّ له بعد الفعل ، فقد قام بالعبودية »[(١)] .

وهذا معنى قول النبيِّ ﷺ في دعاء الاستخارة [(٢)] : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ ، وَأسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » .

فهذا العبد قد تبرأ إلى الله من العلم والحول والطول والقوة ، وتوسل إلى الله بصفاته التي هي أحبُّ ما توسل بها المتوسلون ، ثم يسأل العبد ربه بعد ذلك أن يقضي له الأمر الذي صلَّى صلاة الاستخارة من أجله إن كان فيه مصلحته عاجلًا أم آجلًا ، وأن يصرف عنه هذا الأمر إن كان فيه مضرته عاجلًا أو آجلًا .

فهذا هو حاجته التي سألها ؛ فلم يبق إلا أن يرضى بما يقضيه الله سبحانه وتعالى له ؛ لذا قال النبيُّ ﷺ في آخر الدعاء : « وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ » ا. هـ .

ومتى رضيت بالله وكيلًا وجَدْت إلى كل خير سبيلًا ؛ نسأل الله أن يرزقنا الرضا عنه ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

---

(١) كما في « المدارج » (٢/ ١١٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : « ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ ﴾ » (٧٣٩٠) .

منزلة الثقة والتسليم

الثقة ؛ كما قال الهرويُّ [(١)] : « سواد عين التوكُّل ، ونقطة دائرة التفويض ، وسويداء قلب التسليم » .

وقد علَّق ابن القيم على قول الله جلَّ وعلا : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾ [القصص:٧] ؛ فقال : « فإن فعل أم موسى هو عين الثقة بالله تعالى ؛ إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء تتلاعب به أمواجه ، وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف » .

فها هي أم موسى تؤمر بإلقاء ولدها في اليم ، فتمتثل الأمر ثقةً في وعد الله بالنجاة ، وتأتي البشارة من الله ـ جلَّ في علاه : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٧] .

والهدية إذا أتت من الملك أتت مضمخة بطيبه ؛ فتصور فضل الله تبارك وتعالى على أم موسى حينما حققت ثقتها في الله على أرض الواقع .

ونجَّى الله موسى بسترٍ رقيقٍ لا يخطر على بال ، ألا وهو ستر المحبة ؛ فلما نظرت امرأة فرعون إلى وَجْهِ موسى الأزهر الأنور قالت قولتها الجميلة : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [القصص:٩] ؛ فينجي الله موسى بسترِ المحبة حينما قُذفت في قلب امرأة فرعون ، ويحرم الله المراضع على موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لترضعه أمه كما وعد

(١) كما في « المدارج » (٢/ ١٣٧) .

جلَّ جلاله ، تدبر معي أيها الحبيب لتتذوق طعم الثقة ؛ أسأل الله أن يذيقنا حلاوتها ؛ فليست الثقةُ بالتنظير !!

فشتان شتان بين العلم النظري وبين أن تتحول هذه الصفة فيك إلى حقيقة وواقع ، وهذا يحتاج إلى جَهْدٍ على القَلْب وإلى عمل ! فما أيسر التنظير وما أسهله ؟ يحرم الله المراضع على أم موسى ؛ لأنه جلَّ وعلا وعدها أن يرد موسى إليها ، وتصوَّر معي هذا المشهد العجيب من مشاهد الثقة ، أو إن شئت فقل : من مشاهد ثمرات الثقة في الله جَلَّ وعلا ؛ ففرعون يُجْلِس أمَّ موسى إلى جوارِه ، ويُصْدِر لها الأوامر القاطعة الحاسمة بإرضاعه وإشباعه فيقول لها : أرضعيه ، أشبعيه ، أكرميه ! وبالأمس القريب جدًّا كانت تخشى على موسى من فرعون وملأه ، وهي الآن ترضع موسى في قصر فرعون بأمره ! وها هي أمُّ إسماعيل هاجر عليها السلام التي جسدت ثقتها في الله أيضًا تجسيدًا يتألق في دنيا الناس ، وما زال يتألق سموًّا وعظمةً وروعةً وجلالًا ؛ حين قالت لإبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام حينما أراد أن يتركها في هذا الوادي الذي لم يكن فيه شيء ، لا ترى فيه هاجر إنسًا ولا أُنسًا ، ولا شجرة ولا بيتًا ، ولا طيرًا ولا ماءً ، لا ترى إلا رمالًا انعكست عليها أشعة الشمس المحرقة ، فكادت الأشعةُ أن تسرق الأبصار ، لا ترى إلا جبالًا سوَّدتها حرارةُ الشمس التي تصهر الحديد ، وتذيب الصخر ، ومع ذلك تعلَّقت بإبراهيم حين همَّ بتركها مع رضيعها ، وقالت [1] : « يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا ، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ؛ فَقَالَتْ لَهُ: آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَقَالَتْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب : يزفون : النسلان في المشي (٣٣٦٤) .

قولتها التي تجسد حلاوة الثقة : « إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا » ، وفي رواية[١] : « رَضِيتُ بالله » ؛ كلمة يسيرة كلنا يعرفها ؛ لكن شتان شتان بين من سمعها ورددها ، وبين من ذاق طعمها ، وعرف حلاوتها ، ورزقه الله في قلبه بردها.

وهنا تدبر ثمرة الثقة ، فهل ضيعها الله ؟ لا والله ؛ فلما نفد الشراب ، ونفد التمر ، وجفَّ اللبن في ثديها بدأ الغلامُ يتلبط في حجرها في هذا الجو القاتل ، وتركت ولدها ، وراحت تسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، وشاء الله أن يُبقي هذه السُّنة ألا وهي سنة السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، تكريمًا لهاجر وإسماعيل وإبراهيم ؛ فأبقى الله هذه السُّنة في أمة محمد ﷺ ، فهو أولى الناس وأمته بإبراهيم عليه الصلاة والسلام ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٦٨] .

وقد صحَّت رواية عند الطبريِّ بسندٍ حسنه الحافظ ابن حجر[٢] من حديث عليٍّ رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام نزل إلى الأرض عند إسماعيل بالقرب منه عند موضع زمزم الآن ؛ فسمعت هاجر وهي في الشوط الأخير على المروة صوتًا ؛ فقالت لنفسها : « صَهٍ صَهٍ » يعني : كأنها تريد أن تُسْكت نفسها ؛ لأنها تسمع صوتًا جيدًا غريبًا ، التفتت هاجر إلى الرضيع ، فوجدت المَلَكَ يُلامس الأرضَ بجناحيه ، وجدت جبريل عليه السلام ، فناداها جبريلُ ، وهي على جبل المروة وهو يقول : « مَنْ أَنْتِ » ؛ فقالت هاجر الفقيهة البليغة : « أَنَا هَاجَرُ أُمُّ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ » ـ نسبت نفسها إلى إبراهيم ؛ لأن إبراهيم يعرفه

---

(١) عند البخاري (٣٣٦٥) .

(٢) في « الفتح » (٦/ ٤٦٢) .

أهل السماء ـ فقال لها جبريل : « وإلى مَنْ وَكَلَكُما ؟ » ـ يعني : في هذا المكان ـ فقالت هاجر : وَكَلَنا إلى الله ـ أي : تركنا إلى الله ـ فقال جبريل عليه السلام : « وَكَلَكُما إلى كافٍ »[(١)]؛ قال جلَّ وعلا : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦]

وهذا نبينا محمدٌ ﷺ؛ قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾[آل عمران:١٧٣، ١٧٤] ، ووالله ما عرفنا بشرًا حقق الثقة في الله كما حققها سيد البشرية محمد ﷺ؛ فكلُّ حياة النبيِّ ﷺ تجسيدٌ للثقة في الله وفي وعده تبارك وتعالى ، وفي أشد الأوقات إيذاءً واضطهادًا ، ومحاربة للدعوة ، ولصاحب الدعوة ، أعْلَنها بكلِّ ثقة لخباب بن الأرت ، فقال : « والله لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ الله وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ »[(٢)].

ولم تمض سنوات إلا ورسول الله ﷺ يأمر بلالًا أن يرتقي الكعبة ؛ ليرفع من فوق ظهرها نداء الحق : الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدًا رسول الله ، في سنوات لا تُعدُّ في حساب الزمن شيئًا على الإطلاق ، وهكذا لو استطردتُ مع المواقف لطال بنا المقام ، لاسيما لو دخلت بستان الصحابة رضي الله عنهم؛ لكنني ـ والله ـ أشعر بشيء من الجفاء لو تحدثت عن الثقة إن

---

(١) أخرجه الطبريُّ في « التفسير » (لسورة البقرة : ١٢٧) و « التاريخ » (١/ ١٥٢ و١٥٣) ، والفاكهي في « أخبار مكة » (٩٩٤) من طريق : أبي إسحاق السبيعي عن حارثة بن مضرب عن علي بن أبي طالب قال : فذكره .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة (٣٦١٢) .

لم أتحدث عن ثقة أبي بكر رضي الله عنه في ربِّهِ سبحانه .

فهل رأيتم بشرًا على وجه الأرض بعد الأنبياء والمرسلين قد حقق الثقة في الله تبارك وتعالى وفي وعده كما حققها الصديق رضي الله عنه ؟ هل فكَّرت في رجل يأمره المصطفى ﷺ بالبذل والإنفاق ؛ فيأتي هذا العملاق بكلِّ ما يملك ؟! أنا أقول بأنه لا يقدر على ذلك إلا أبو بكر ! يأتي بكل ما يملك ويدفعه للنبيِّ ﷺ بطيب نفسٍ ، وسخاوةِ ضمير ؛ فيقول له النبيُّ ﷺ : « مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ » ؛ فَيَقُولُ أَبُو بَكْرٍ : أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ [(١)] .

مواقف نرددها كثيرًا ؛ لكنها تحتاجُ منا إلى وقفات ؛ لنتعامل معها تعاملًا جديدًا ، وأنا لا أسوق هذه المواقف من أجل الثقافة الذهنية الباردة ، ولا من أجل الاستمتاع السالب للمواقف ، إنما من أجل أن تحولها الأمة الآن إلى واقع ؛ فالأمة غنية ، وكثيرة ، وقوية ، لكنها ضعفت وذلَّت يوم أن فقدت الثقة في الله ، وفي منهج الله ، وفي المبلِّغ عن الله ﷺ !!

في الوقت الذي تثق فيه الأمة في هؤلاء المجرمين الظالمين الذين لطخت أيديهم بدماء الأبرياء الأبرار ، تثق في هؤلاء الذين لا يرقبون في مسلم ـ فضلًا عن مؤمن ـ إلًّا ولا ذمة ، تثق في أن تستخرج الماء العذب الزلال من بين نارٍ مشتعلة متأججة ، تثق في أن يلج الجملُ ـ الضخم ـ في سمِّ الخياط ! تثق في أن تتخلَّى الأفاعي عن سُمِّها ! تثق في أن تتخلَّى الكلاب عن نباحها ! تثق في أن تتخلَّى الحمير يومًا عن نهيقها ! وأنا أعجب كيف تثق الأمة في ذلك ؟!!

أمر عجيب يدمي القلب ، ويؤلم الفؤاد !! أن الأمة إلى هذه اللحظة ما زالت تثق في هؤلاء المجرمين ، ولم تحقق الأمة إلى هذه الساعة شيئًا من ثقتها

---

(١) تقدم ، وهو في « صحيح أبي داود والترمذي » لشيخنا الألباني رحمه الله و« المشكاة » (٦٠٢١) .

في الله ربِّ العالمين ـ إلا من رحم الله من أفراد قلائل .

هلَّا قرأتم قول الله تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[البقرة:١٢٠] ؛ لأن الله الذي خلق اليهود ، وهو الذي جسد لنا نفسيات القوم ، وأظهر لنا ما تحمله صدورهم من خيانةٍ وغلٍّ وحقد ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة:١٠٩] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[آل عمران:١١٨] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[المائدة:٥١] .

لذا ؛ فأنا أقولُ : إن الأحداث التي تجري الآن على أرض فلسطين ؛ إنما هي مرحلة من أعظم المراحل التي تمرُّ بها أمتنا في إطار التربية ؛ لأن التربية للأمة ليست على أيدي الحكام ، ولا على أيدي العلماء ؟ إنما هي تربيةٌ سماويةٌ من ربِّ الأرض والسماء بالأحداث والابتلاءات ؛ للتمييز والتمحيص ، وإقامة الفرقان ؛ ليتمايز الناس إلى فُسطاطين لا ثالث لهما : فسطاط إيمان لا نفاق فيه ، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه ؛ لأن حالة الغبش التي تحياها الأمة لا تنصر دينًا ، ولا تنصر قضية ؛ فلابد من إزالة هذا الغبش ؛ فالأمة لا

ينقصها عتاد السلاح ، ولا كثرة الرجال ؛ بل إن في الأمة شبابًا تحترق قلوبهم الآن شوقًا للشهادة ، ووالله لو رُفعت راية الجهاد في سبيل الله لسبقنا أطفالنا وشبابنا ؛ لأن الكلَّ ملَّ حياة الذل والمهانة ، إما أن نكون عظماء فوق الأرض بتوحيد وكرامة ، وإما أن نكون تحت الأرض ؛ فالأمة لا تحتاج إلا إلى الثقة في الله وفي رسوله ﷺ .

فلا كرامة للأمة إلا بالإسلام ؛ هذه هي الراية التي رفعت شأن الأمة ، هذه هي المظلة التي ظللت سماء الأمة ، وجعلتها تحيا حياة العزة والسؤدد والكرامة .

أَبِي الإسلام لا أَبَا لي سواهُ   إذا افتخروا بقيس أو تميم

فالكلُّ يريد أن يخرج للجهاد ليسدَّ بصدره فُوَّهة المدافع ؛ ليعلم هؤلاء اليهود أن محمدًا ما مات ، وما خلَّف بنات ؛ بل خلف رجالًا يشتاقون الآن لصحبة مصعب بن عمير ، وخالد بن الوليد ، ورؤية حبيبهم ﷺ .

أقولُ : فلولا كمال ثقة أمِّ موسى بربها ما ألقت بولدها ، ولولا كمال ثقة هاجر بربها ما قالت لإبراهيم عليه السلام: « إِذَنْ لَنْ يُضَيِّعُنَا » ؛ فالثقة هي سويداء قلب التسليم .

ولو شبهنا « التسليم » بجسد ؛ فإن سويداء قلب هذا الجسد هو « الثقة » في الله سبحانه وتعالى ؛ فإن القلب أشرف ما فيه سويداؤه ، وهي المهجة التي تكون بها الحياة ؛ فلو كان « التفويض » قلبًا لكانت « الثقة » سويداءه ، ولو كان « التفويض » عينًا لكانت « الثقة » سوادها ، ولو كان « التفويض » دائرة لكانت « الثقة » نقطتها ومحور ارتكازها ، وكثير من الناس يفسرون « التوكل » بالثقة ، ومنهم من يفسر « التوكل » بالتفويض ، ومنهم من يفسره

بالتسليم ، ومقام التوكل يجمع كلَّ ذلك[1] ؛ فالتوكل هو جماع الإيمان ، ونهاية تحقيق التوحيد ، وهو : صدق اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب .

ونسبة الثقة إلى التوكل ؛ كنسبة الإحسان إلى الإيمان ، وعنوانها أمن العبد ـ أي : أن يشعر العبد بالأمان ـ من فوت المقدور ، وانتقاض المسطور ، فيظفر بروح الرضا ، وإلا فبعين اليقين ، وإلا فبلطف الصبر .

أي : من تحقق بمعرفة الله تبارك وتعالى على أن ما قضاه ربُّه وقدره لا مردَّ له البتة ، ولو اجتمع أهل الأرض عليه ، فيكون عندك طمأنينة إلى أن ما قضاه ربُّك لك ، وقدَّره عليك لا يفوتك ؛ كما في الحديث[2] : « احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » .

هل يستطيع بشرٌ أن ينقض ما سطر في اللوح المحفوظ عند الملك ؟!! وقد تحدَّثتُ قبل ذلك بالتفصيل عن مراتب الإيمان بالقدر ، وقُلْت : إن أول مرتبة هي : مرتبة العلم ، والمرتبة الثانية : الكتابة ، وفيها خمسة تقادير : التقدير الأول : التقدير الأزلي ، التقدير الثاني : التقدير في يوم الميثاق ، التقدير الثالث : العُمُري ، التقدير الرابع : الحولي ، والتقدير الخامس : اليومي . والمرتبة الثالثة : هي المشيئة والإرادة ، والمرتبة الرابعة : هي مرتبة الخلق .

وحين يشعر العبد بهذا الأمن يظفر بروح الرِّضا في أيِّ وضعٍ كان ، وإلا

---

(١) « المدارج » (٢/ ١٣٨) .

(٢) سبق ، وهو صحيح .

فبعين اليقين ، أي : عنده يقين مطلق إلى أن ما قضاه ربُّه وقدره إنما هو الخير والحق ، ولا يستطيع أحدٌ أن ينقضه أو يدفعه ، أو أن يردَّه ، وإلا فبلطف الصبر ، وذلك إن لم يستطع أن يحقق الرضا ، واختلف علماؤنا : هل الرضا بالمقدور ـ يعني : بالبلاء ـ واجب أو مندوب ؟ فقال المحققون : الراجح أنه مندوب ، وليس واجبًا ؛ فليس كلُّ أحدٍ يستطيع أن يرتقي إلى هذه الدرجة ، ألا وهي : درجة الرضا بالابتلاء ، والمحن ، والفتن ؛ فمن لم يستطع فليرتقِ إلى درجة عين اليقين ، وإلا فبلطف الصبر ؛ فأقل الدرجات : أن يصبر على قدر وبلاء وابتلاء ربِّ العالمين له ، وحينئذٍ يتم التسليم الذي ذكرتُ أنه سويداء الثقة.

والتسليم نوعان [1] : تسليمٌ للحُكْم الشرعي ، وتسليمٌ للحُكْم الكوني القدري .

إنَّ الواثق في الله ـ تبارك وتعالى ـ يسلِّم بحكم الله الشرعي ؛ فيمتثل الأمر ، ويجتنب النهي ، ويقف عند الحدِّ ؛ لأنه واثق في شرعه ، وفي تكليفه ، وأحكامه ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾

[النور: ٥١، ٥٢]

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾

[الأحزاب: ٣٦]

---

(١) « المدارج » (٢/ ١٤٠) .

وقال : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] ؛ فهو تحكيمٌ لله ورسوله ، وشعورٌ بعدم الحرج ، وتسليمٌ لحكم الله وحكم الصادق رسول الله ﷺ ؛ فهناك تسليم للحكم الشرعي ، وهو تسليم المؤمنين الصادقين العارفين العالمين بالله سبحانه وتعالى ، فشعارهم مع أحكام رب العالمين دائمًا فوق أي أرض وتحت أي سماء هو : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥] ، أما شعار المنافقين ؛ فهو : سَمْعٌ وعصيان ؛ سَمْعٌ وإعراض ، سَمْعٌ وصدود ؛ قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾[النساء:٦٠، ٦١] .

أما التسليم للحكم الكوني القدري ؛ فقد زلَّت فيه أقدام ، وضلَّت فيه أفهام ، وحيَّر الأنام ، وأوقع الخِصام ، وقد أخل في هذا الباب كثيرٌ من الأقوام ؛ إنها قضية الرضا والإيمان بالقضاء والقدر ، خيره وشره ، وقد تقدم الكلام على ذلك بما فيه الكفاية .

ولكنني أقول لك : إن غابت عنك الحكمة من الابتلاء ؛ فهي ما غابت عن رب الأرض والسماء ، وما يحدث للأمة الآن من أزمات فبعلم وسمع الحكيم الخبير ، وهنا أقول : ليس أحدٌ أغير على الحق وأهله من الله ، وليس أحدٌ أرحم بالمستضعفين في فلسطين من الله .

فما عرف الثقة في الله ، ولا ذاق طعمها ، ولا حلاوتها مَنِ اعترض على تقديره وقضائه سبحانه وتعالى !

والذي يذوق طعم الثقة في الله يعلم يقينًا أن الله ﷻ ما قضى وقدَّر إلا الخير ؛ فكلُّ شيء يصيبك فاعلم بأنه الخير ، ولا يخفى علينا ما حدث لأمنا عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك ؛ فقد رمي النبيُّ ﷺ في عرضه ، ورميت أم المؤمنين في شرفها ، ورمي الصديق في طهارة بيته ، ورمي صفوان بن المعطل بالخيانة ، وزلَّ فيها عددٌ من الصحابة الأفاضل ؛ ومع كلِّ هذا يذكرهم ربهم بقوله : ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾[النور:١١] ؛ فلقد رُفعت مكانة الصديقة بنت الصديق ، واحتلَّت المكانة الأولى بدون منازع بعد هذه الفتنة العصيبة !!

وظهرت كرامة ومكانة الصديق ، وبَانَ من خلالها أنَّ النبيَّ ﷺ بشر لا يعلم الغيب ؛ فالأمة تتربى الآن بالأحداث من الحكيم الخبير تبارك وتعالى .

وأول التسليم : ألا تطلب على التوحيد دليلًا .

كيف تطلب دليلًا على مَنْ هو دليلٌ لكلِّ شيء ؟

كيف يطلب العقلاء دليلًا على وحدانية الخالق ؟

وفي كلِّ شيء له آية ... تدلُّ على أنه الواحد

وهذا كمن يطلب دليلًا على أن الشمس مضيئة في وسط النهار ! وهي بنورها وإشراقها قد ملأت الأفق .

وليس يصحُّ في الأذهان شيءٌ ... إذا احتاج النهار إلى دليل

ولله درُّ الأعرابيِّ الذي قال [1]: « البعرة تدلُّ على البعير ، وأثر السير يدل

---

(١) تقدم .

على المسير ؛ فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، أفلا يدلُّ كلُّ ذلك على اللطيف الخبير ؟ » .

فأول التسليم : ألا تطلب على التوحيد دليلًا ، اللهُمَّ إلَّا إذا كنت تطلب الدليل الذي يُعَرِّفُك طريق ربك سبحانه وتعالى ؛ لأن كلَّ الطرق مسدودة إلا من طريق المصطفى ﷺ .

لن تستطيع أن تتعرف على ربِّ العزة بأسماء جلاله ، وصفات كماله ، وقدرته وعظمته ، وتوحيده وعبوديته إلا من خلال هدي سيد البشرية محمد ﷺ ؛ لأن أعرف الخلق بربه هو النبيُّ ﷺ ؛ فهو الدليل الذي يدلك على حقيقة التوحيد ، وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران:٣١] .

وتمام التسليم بالخلاص من كلِّ شبهةٍ تُعارض الخبر [(١)] .

إن قيل له : الخمر حرام ، أو الذهب على الرجال حرام ، أو الخنزير حرام ، فشعاره التسليم . إذا أمر بإعفاء لحيته ، لا يحاول أن يتكلَّف المعاذير ! إن قرأ : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء:١١] ، لا يعترض كما اعترضت تلك القائلة : أيكون البوَّاب ضِعْفَ الدكتورة ! في الميراث ؟! ونسيت أو تناست أن هذا شرع ربِّ العالمين وأحكم الحاكمين تبارك وتعالى .

فالمؤمن الذي تم تسليمه لا يعارض الخبر الربانيَّ والنبويَّ بشبهة ، أو شهوة تعارض الأمر ، أو إرادة تعارضُ الإخلاص ، أو اعتراض يعارض القدر والشرع ، وصاحب هذا التخلص ، هو صاحب القلب السليم الذي

---

(١) « المدارج » (٢/ ١٤١) .

لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به ؛ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩] ، وأستطيع بعد هذا التقسيم البديع لابن القيم أن أقسم الثقة بإيجازٍ إلى ثلاثة أقسام : الثقة في الله ؛ الثقة في المنهج ؛ الثقة في المبلغ عن الله تبارك وتعالى .

أولًا : الثقة في الله ـ جَلَّ جلاله ؛ روى البخاريُّ (١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أنه لما انتهت معركة أُحدٍ نَادَى فيهم أبو سفيان وقال : أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ قَالَ : أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : أَمَّا هَؤُلاَءِ فَقَدْ قُتِلُوا ، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ : كَذَبْتَ وَاللهِ يَا عَدُوَّ اللهِ ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوؤُكَ ، قَالَ : يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي الْقَوْمِ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي ، ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ : أُعْلُ هُبَلْ ، أُعْلُ هُبَلْ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَلاَ تُجِيبُوهُ ؟ » ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا نَقُولُ ؟ قَالَ : « قُولُوا : اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ » ، قَالَ : إِنَّ لَنَا الْعُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَلاَ تُجِيبُوهُ ؟ » ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا نَقُولُ ؟ قَالَ : « قُولُوا : اللهُ مَوْلاَنَا وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ » .

إنها الثقة في الله ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨] ، ثقة في وعده لمن آمن به واتقاه ؛ فمن توكل عليه كفاه ، ومن اعتصم به نجاه ، ومن فوض إليه أموره هداه ؛ قال جَلَّ في علاه :

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه (٣٠٣٩) .

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق:٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق:٤] .

ثانيًا : الثقة في المنهج : أن تعلم الأمة أنه لا مخرج لها ، ولا نجاة إلا إذا عادت إلى منهج الله الذي حدَّد لها طريق النجاة في جانب العقيدة ، وفي جانب العبادة ، وفي جانب التشريع ، وفي جانب الأخلاق ، وفي جانب السلوك ، وفي جانب التربية ، وفي كلِّ جوانب الخير في الدنيا والآخرة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] ؛ فهذا القرآن لو تمسكت به الأمة لظلت على الطريق المستقيم ، وسعدت في الدنيا والآخرة بحبل الله المتين ، ونوره المبين ، وذكْرِه الحكيم ، وصراطه المستقيم . .

ثالثًا : الثقة في المبلِّغ ، وهو النبيُّ ﷺ يعني: أن تثق الأمة في رسول الله ﷺ ، وأن كلَّ ما جاء به من عند الله هو الحق الذي لا مراء ولا شك فيه ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣، ٤] ، وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر:٧] ، وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] .

أيها الأفاضل : ما أحوجنا إلى الثقة في الله ، وإلى الثقة في منهج الله ، وإلى الثقة في رسول الله ؛ المبلغ عن الله .

أسأل الله أن يملأ قلوبنا ببرد الثقة فيه ، وحلاوة التوكل عليه ، ولذة اليقين فيه ؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه .

منزلة الصبر

الصبرُ لغةً هو : المنع والحبس [١]، ومنه : قُتل فلان صبرًا ، أي : أمسك وحبس وقتل ؛ كما قال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف:٢٨] ، أي : احبس نفسك على هؤلاء ؛ لأن النبيَّ ﷺ قد تاقت نفسه ليخصَّ سادة قريش بيوم من الأيام ، ليقيم عليهم في هذا اليوم حجة الله جَلَّ وعلا ، ولو دققت النظر في هذه الأمنية النبوية لعلمت يقينًا أن رسول الله ﷺ يكلِّف نفسه ما لا قدرة له به عليه ؛ كما قال له ربه : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر:٨] ؛ فرسول الله ﷺ تتحسر نفسه على هؤلاء السادة ، وهو يعلم علم اليقين أنه لو جلس معهم ، وذاق هؤلاء طعم الإيمان ، وعرفت قلوبهم حلاوة الإيمان ، ونور اليقين ، لذهبوا هم إلى هؤلاء المسلمين من المستضعفين والفقراء ليجالسوهم ، فأراد أن يخصهم بيومٍ حتى يشرح الله صدورهم للإسلام ، ومع ذلك عوتب في ذلك ؛ فنزل عليه قولُ الله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾.

ففي « سنن ابن ماجه » و« مسند » ابن أبي شيبة ، و « معجم الطبراني الكبير » ، و« الصغير » ، والبزار في « مسنده » [٢] بسندٍ صححه شيخنا

---

(١) « المدارج » (٢/ ١٥٠) ، و« اللسان » (٥/ ٢٦٧) لابن منظور .

(٢) أخرجه ابن ماجه ، في الزهد ، باب مجالسة الفقراء (٤١٢٧) ، وابن أبي شيبة في « مسنده » (٤٧٧) ، والطبراني في « الكبير » (٤/ ٧٥) ، و« الصغير » (١٠٧٤) ، والبزار « البحر الزخار » (١٨٨٠) ، وأبو يعلى في « مسنده » كما في « المطالب » (٣٦٩٩) ، وصححه العلامة الألباني في « صحيح ابن ماجه » و« صحيح السيرة » (٢٢٣) و« الصحيحة » (٣٢٩٧) .

الألبانيُّ من حديث خباب بن الأرت ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٥٢] ، قال : جَاءَ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ ، فَوَجَدُوا رَسُولَ الله ﷺ مَعَ صُهَيْبٍ ، وَبِلاَلٍ ، وَعَمَّارٍ ، وَخَبَّابٍ ، قَاعِدًا فِي نَاسٍ مِنَ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ حَقَرُوهُمْ ، فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بِهِ ، وَقَالُوا : إِنَّا نُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا تَعْرِفُ لَنَا بِهِ الْعَرَبُ فَضْلَنَا ، فَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيكَ فَنَسْتَحْيِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَذِهِ الأَعْبُدِ ، فَإِذَا نَحْنُ جِئْنَاكَ فَأَقِمْهُمْ عَنْكَ ، فَإِذَا نَحْنُ فَرَغْنَا فَاقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ ، قَالَ : « نَعَمْ » ، قَالُوا : فَاكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا ، قَالَ : فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ وَدَعَا عَلِيًّا لِيَكْتُبَ وَنَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةٍ ، فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ ﷺ فَقَالَ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٥٢] ، ثُمَّ ذَكَرَ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ ، وَعُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ ، فَقَالَ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام:٥٣] ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ ﴾[الأنعام:٥٤]، قَالَ : فَدَنَوْنَا مِنْهُ حَتَّى وَضَعْنَا رُكَبَنَا عَلَى رُكْبَتِهِ ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَجْلِسُ مَعَنَا فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ قَامَ وَتَرَكَنَا فَأَنْزَلَ الله : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف:٢٨] ، وَلاَ تُجَالِسِ الأَشْرَافَ : ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾[الكهف:٢٨] ، يَعْنِي

عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعَ : ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف:٢٨] ، قَالَ : هَلاَكًا ، قَالَ : أَمْرُ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ ، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الرَّجُلَيْنِ وَمَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، قَالَ خَبَّابٌ : فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ؛ فَإِذَا بَلَغْنَا السَّاعَةَ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا قُمْنَا وَتَرَكْنَاهُ حَتَّى يَقُومَ .

وفي « صحيح مسلم » و « سنن ابن ماجه » (١) واللفظ له من حديث سعد رضي الله عنه قال: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا سِتَّةٍ : فِيَّ ، وَفِي ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَصُهَيْبٍ ، وَعَمَّارٍ ، وَالْمِقْدَادِ ، وَبِلاَلٍ ، قَالَ : قَالَتْ قُرَيْشٌ لِرَسُولِ الله ﷺ : إِنَّا لاَ نَرْضَى أَنْ نَكُونَ أَتْبَاعًا لَهُمْ فَاطْرُدْهُمْ عَنْكَ ، قَالَ : فَدَخَلَ قَلْبَ رَسُولِ الله ﷺ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ الله أَنْ يَدْخُلَ ؛ فَأَنْزَلَ الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام:٥٢] الآيَةَ .

فهؤلاء مَنْ أغضبهم فقد أغضب الله ! كما في « صحيح مسلم » (٢) من حديث عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصُهيبٍ وبلالٍ في نفرٍ . أي : مرَّ يومًا على أصحاب النبيِّ ﷺ من الفقراء ، وفيهم بلال وصهيب وسلمان رضوان الله عليهم جميعًا ، وكان يجلس مع الأكارمِ الأفاضل : سيدُ الأفاضل والأكارم أبو بكر الصديق ـ رضوان الله عليه ـ فلما رأى الصحابة رضوان الله عليهم أبا سفيان قالوا كلمة شديدة في حقه ، قالوا : والله ! مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ الله مَأْخَذَهَا ؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ ؟ قَالَ : فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ ؛ فَقَالَ :

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل سعد بن أبي وقاص (٢٤١٣) ، وابن ماجه (٤١٢٨) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل سلمان وصهيب وبلال رضي الله تعالى عنهم (٢٥٠٤) .

« يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ » ، فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : يَا إِخْوَتَاهُ ! أَغْضَبْتُكُمْ ؟ قَالُوا : لَا، يَغْفِرُ الله لَكَ يَا أَخِي !

انظر إلى مكانة هؤلاء في كتاب رب الأرض والسماء ، وسنة سيد الأنبياء ﷺ ، وقد استشهدت بالآية ـ آنفة الذكر ـ من أجل قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ ، لكنني ما أردتُ أن أترك الآية هكذا إلا بعد أن نأخذ منها هذا الدرس التربوي العظيم ؛ لأنني أعلم يقينًا أن القرآن ما أنزله الله إلا ليربي به أمة ، وإلا ليقيم به دولة ، وإلا لينشئ به عقولًا وقلوبًا تعرف الله ـ جَلَّ وعلا ؛ فلابد من توظيف كلِّ آيةٍ من آيات الله ، لنعالج بها مرضًا من أمراض واقعنا ، ولنربي بها أنفسنا وإخواننا ؛ نسأل الله أن يردَّنا إلى القرآن ردًّا جميلًا بفهم النبيِّ ﷺ وأصحابه ؛ إنه على كلِّ شيء قدير .

تعريفُ الصبر اصطلاحًا[1] : حبس النفس عن الجزع ، وحبس اللسان عن التشكي ، وحبس الجوارح عن المعاصي .

أنواعه: وهو ثلاثة أنواع : صبر على المأمور (أي : على الطاعة) ، وصبر عن المحظور (أي : عن المعصية) ، وصبر على المقدور (أي : على الابتلاء) .

فالأول والثاني : صبر متعلق بالكسب ؛ فأنت تصبر على الطاعة ، وتصبر عن المعاصي باجتهادٍ وكسبٍ منك ، لكن صبرك على المقدور إنما هو صبر على ما لا كسب لك فيه ، ولذا ؛ فإن الصبر على المأمور هو أجلُّ أنواع الصبر باتفاقٍ ، بخلاف الصبر على المقدور ؛ فأنت صابر شِئْتَ أم أبيت !

إذا صبرت في أول الأمر برضيً حقَّقت الأجر ، وإن لم تحقق الصبر والرضا ، فبعد نفاد جهدك وقوتك ستصبر شئت أم أبيت ؛ أسأل الله أن

---

(١) « المدارج » (٢/ ١٥٠) ، و« المفردات » للراغب (٢٧٧ و ٢٧٨) .

يرفع عن الأمة البلاء .

قال شيخنا ابنُ القيم [(١)] : وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى يقول : « كان صبر يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكملَ من صبره على إلقاء إخوته له في الجب ، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه .

فإن هذه أمورٌ جرت عليه بغير اختيار لا كسب له فيها ، ليس للعبد في هذه الأمور القدرية حيلة إلا الصبر ، أما صبره عن المعصية ؛ فصبر اختيار ، وإرادة ، ورضى ، ومحاربة شديدة للنفس ، لاسيما مع الأسباب التي تَقْوى معها دواعي الوقوع في المعصية ؛ فقد كان يوسف عليه السلام شابًّا ، وداعيةُ الشباب والفتوة إلى هذه المعصية أقوى من داعية الشيخ الكبير ، وكان يوسف عزبًا لم يتزوج ، ليس له ما يعوِّضه ، ويردُّ شهوته أي : ليس عنده من النساء ما تعوضه في الحلال ، وكان غريبًا لا يستحي في بلد الغربة بقدر حيائه في بلده الذي هو معروف فيها بين أصحابه ومعارفه وأهله ، وأيضًا هو مملوك ، والمرأة جميلة ، وذات منصب ومكانة وهي سيدته ؛ بل وقد غاب الرقيب ، بل وهي التي دعته لنفسها ، وغلَّقت الأبواب ، وتزينت بأبهى حلة ، وأجمل زينة ، ووفرت كلَّ الدواعي للوقوع في المعصية ، ومع ذلك توعَّدته إن لم يفعل : بالسجن والصغار !!

ومع هذه الدواعي كلِّها : صبر اختيارًا ، وإيثارًا لما عند الله » امتنع يوسف بإرادته واختياره وحبه لربه وخوفه منه سبحانه وتعالى ؛ فكان صبره عن المعصية أكمل وأتم من صبره حين ألقاه إخوته في الجب ؛ لذا أقول ـ أيها

---

(١) « المدارج » (٢/ ١٥٠) ، و« عدة الصابرين » (٢٣) بتصرف .

الأفاضل - إن نبيَّ الله يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام من أعظم الأدلة على براءته وطهره أن الله تبارك وتعالى حكى عن إبليس قوله : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢، ٨٣] ، بهذه الشهادة لا سلطان للشيطان على المخلص من عباد ربِّ العالمين ؛ فمن الذي شهد ليوسف أنه كان من المخلصين؟ إنه ربُّ العالمين ؛ إذ لا داعي لإطالة النفس في الوقوف مع هذه الآية للخوض في تفسيراتٍ لا قدم لها ولا ساق ؛ فبنص القرآن قال الله تبارك وتعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف:٢٤] .

أما مراتب الصبر ؛ فثلاث : صبر بالله ، وصبر لله ، وصبر مع الله .

فلن تستطيع أن تصبر إلا إن أعانك الله وصبَّرك ، وهذا معنى : « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

وفي « مسند أحمد » و « سنن أبي داود والنسائي »[1] بسندٍ صحَّحه شيخنا الألبانيُّ من حديث معاذ بن جبل ﷺ أن النبيَّ ﷺ أخذ بيده يومًا ، ثم قال : « يَا مُعَاذُ ، إِنِّي لأُحِبُّكَ » ، فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله ، وَأَنَا [وَالله][2] أُحِبُّكَ ؛ فَقَالَ:«أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ أَنْ تَقُولَ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» ؛ فلن تذكر الله ، ولن تطيع الله إلا إذا أعانك الله ووفقك ؛ فهو : الذي يرزق العبد الصبر ؛ فصبر العبد بتوفيق ربه لا بنفسه ، فالفضل ابتداءً وانتهاءً لله ؛ قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٤، ٢٤٥) ، وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب في الاستغفار (١٥٢٢) ، والنسائي، كتاب السهو ، باب نوع آخر من الدعاء (٣/ ٦١) ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٧٩٦٩) .

(٢) ليست عند أحمد .

عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[الحجرات:١٧] .

قال أحد السلف في أهل الطاعة : « عزُّو على الله فقرَّبهم ، وأهل المعصية هانوا على الله فأبعدهم » .

قال ابنُ القيم [(١)] : « اعلم أن العبد دائمًا سائر إلى الله بين مطالعة المنة ، ومشاهدة التقصير » .

فيجب على العبد أن يسير إلى الله تبارك وتعالى بين مطالعة مِنَّتين ـ أي : نعمتين : مطالعة منن الله عليك ، ومطالعة عيب نفسك ، فتعلم أن أيَّ خيرٍ أنت فيه ، ليس من نفسك ، فنفسك أمارة ، وإنما كلُّ خير فيك ومنك إنما هو محض فضل الله عليك ، فأنت لا تملك شيئًا .

فالصبر بالله ، هو أول الاستعانة به ، ورؤيته أنه هو المصبر ، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ ﴾ [النحل:١٢٧] ؛ فعليك أن تعلم علم اليقين أنه لا حول لنا ولا طول ولا قوة إلا بحول الله وطوله ومدده ؛ فإن كنت عالمًا فمَنْ علمك ؟ وإن كنت غنيًّا فمن أغناك ؟ وإن كنت قويًّا فمن قوَّاك ؟ إن وفقت إلى طاعة فمن الذي وفقك ؟ وكُنْ على يقين إن لم يصبرك الله فلن تصبر [(٢)] !

ولولا أن الله بفضله ومَنِّه وعظمته وجُوده وكرمه ورحمته يستر عليك ، ويحول بينك وبين الوقوع في المعاصي لهلكت ولضللت !

النوع الثاني : الصبر لله ، وهو أن يكون الباعثُ لك على الصبر على المأمور ،

---

(١) تقدم .

(٢) « المدارج » (١/ ١٥١) ط التوفيقية .

وعن المحظور ، وعلى المقدور ـ أن يكون باعثك على هذا الصبر ـ محبتك وإخلاصك لله تبارك وتعالى ، وإرادتك لوجهه ـ جلَّ وعلا ـ لا لإظهار قوة النفس ، والمحمدة عند الخلق ، وهذا هو الصبر الجميل ؛ قال تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ [المعارج:٥] ، والصبر الجميل هو الصبر الذي يبتغي به صاحبه وجه الله ، لا يريد بذلك محمدة عند الخلق ، ولا يريد بذلك أن يظهر قوة نفسه ، وقوة عزيمته ، ولا من أجل أن تثبت لنفسك أمام نفسك وأمام الناس أنك رجل صَلْب الإرادة ، وهو أيضًا الصبر الخالص الذي لا يصاحبه شكوى .

والشكوى نوعان : شكوى إلى الله ، وشكوى من الله .

أما النوع الأول ؛ فكما قال يعقوب عليه السلام : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف:٨٦] ، مع أنه قال قبل ذلك : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٨] .

والشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل ؛ لأنها شكوى إلى الذي يجبُ أن تشكو إليه حالك ؛ فهو أقرب إليك من حبل وريدك ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦] .

وهذا جبلُ الصبرِ أيوبُ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ؛ يقول تعالى فيه : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٣]، ومع شكره لربه يثني عليه بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٤٤] .

فاشْكُ إلى الله ، لكن لا تشكُ الخالق إلى المخلوق ، كهذا الذي يسيء الأدب مع الله بأنه لا تنزل بلوى في بلده حتى تنزل أول ما تنزل عليه !!
ورحم الله من قال :

وإذا عرتك بليةٌ فاصبر لها ... صبر الكريم فإنه بك أعلم

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

فاجعل باعثك على الصبر وجه الله ، ورضاه ، والقرب منه .

النوع الثالث : الصبر مع الله ؛ فهو أن يدور العبد مع أمر الله حيث كان ، ومع نهي الله حيث نهى ، ومع حدِّ الله حدًّا حدًّا ، وهذه هي العبودية .

قال ابن القيم [(١)] : « الصبر مع الله ، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه ، ومع أحكامه الدينية ، صابرًا نفسه معها ، سائرًا بسيرها ، مقيمًا بإقامتها ، يتوجه معها أين توجهت ركائبها ، وينزل معها أين استقلت مضاربها ؛ فهذا معنى كونه صابرًا مع الله ، أي : قد جعل نفسه وقفًا على أوامره ومحابه ، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها ، وهو صبر الصديقين » .

ونقل رحمه الله تعريفاتٍ للصبر ؛ منها : « أن المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن » .

لأن المؤمن يعلم بأن دنياه مهما طالت فهي قصيرة ، ومهما عظمت فهي حقيرة ، وأن الليل مهما طال لابد من طلوع الفجر ، ولأن العمر مهما طال لابد من دخول القبر ؛ فهو يتعامل مع الدنيا تعامل المؤمنين الأذكياء ؛ كما ورد عن عليٍّ رضي الله عنه [(٢)] : « الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم

---

(١) المصدر السابق (٢/ ١٥٢) .

(٢) سبق تخريجه .

عنها ، ودار غنًى لمن تزود منها ؛ فهي مصلًى أنبياء الله ، ومتجر أولياء الله ، ربحوا فيها الرحمة ، واكتسبوا فيها الجنة » .

هذا هو الفهم الراقي الحقيقي للدنيا .

والنبيُّ ﷺ الذي قال : « مَالِي وَلِلدُّنْيَا ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رَاكِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فِي يَوْمِ صَيْفٍ فَرَاحَ وَتَرَكَهَا »[(١)] .

هو الذي قال : « اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي ، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادِي»[(٢)] .

والصحابة ـ يا شباب ـ لم يعسكروا في المساجد ، وقد تركوا العمل ، ولم يخرجوا للجهاد ! لا ؛ بل حتى أهل الصفة الذين كانوا في مسجد رسول الله ﷺ كانوا يخرجون للجهاد في سبيل الله مع النبيِّ عليه الصلاة والسلام .

إن لله عبـــــادًا فطنـــــا طلقـــوا الـــدنيا وخـــافوا الفتنـــا
نظـــروا فيهـــا فلـــما علمـــوا أنهـــا ليســـت لحـــيٍّ وطنـــا
جعلوهـــا لجـــةً واتخـــذوا صـــالح الأعـــمال فيهـــا ســـفنا

فالسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن ، لكن هجران الخَلْق في جنب الخالق شديدٌ !! والمسير من النفس إلى الله صعب شديد ، والصبر مع الله أشد . نعم ... أمرٌ صعب على النفس أن تنتزع نفسك ممن تحب من أجل حبيبك الأول ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ ﴾ [البقرة:١٦٥] ؛

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٤١) ، والطيالسي في « مسنده » (٢٧٧) ، والترمذي ، كتاب الزهد ، باب (٤٤) ، (٢٣٧٧) ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب مثل الدنيا (٤١٠٩) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، عن ابن مسعود ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٣٥٢) وعبد بن حميد (٥٩٩) ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٣٢٧) عن ابن عباس ، وصحَّحه العلامة الألبانيُّ في «الصحيحة» (٤٣٨، ٤٣٩) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب التعوذ من شر ما عُمل ، ومن شر ما لم يعمل (٢٧٢٠) عن أبي هريرة .

فأمر شديد أن تنتزع نفسك من زوجتك وأولادك ، وتخرج للجهاد من أجل الله ، وهذه من أعلى أنواع العبودية ؛ أن تسلم زمام حياتك للنبيِّ ﷺ ، ليقودك النبيُّ ﷺ إلى بر الأمان والإيمان بوحي الله المعصوم .

فكلُّ الطرق إلى الله مسدودة إلا من طريق محمد ﷺ ؛فامش على أثر النبيِّ ﷺ ودربه ، وحيث ما وضع النبيُّ ﷺ قدمه فضع قدمك مكان قدمه ؛ الزم الأثر ، وسِرْ على نهجه ، لأنك في زمن فتن ؛ نسأل الله أن يثبتنا على الحق والسنة حتى نلقاه .

فإن قدَّر الله عليك بلاءً فتكون على نفس الدرجة من الرضا ، ويُحكى عن امرأة من العابدات [1] : أنها عثرت فانقطعت إصبعها فضحكت ، فقال لها بعض من معها : أتضحكين ، وقد انقطعت إصبعك ؛ فقالت : أخاطبك على قدر عقلك ، حلاوة أجرها أنستني مرارة ذكرها » .

ومن الأقوال التي أوردها العلامة ابن القيم للصبر :

قيل : هو تجرع المرارة من غير تعبُّس ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة .

وقيل : هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .

وقيل : هو تعويد النفس الهجوم على المكاره .

وقيل : المقام مع البلاء بحسن الصحبة ؛ كالمقام مع العافية .

مراتب الصبر :

قيل : مراتب الصبر خمسة : صابر ، ومصطبر ، ومتصبر ، وصبور ، وصبار .

فالصابر أعمُّها [2] ، أما المصطبر ؛ فهو الذي درَّب نفسه على الصبر

---

(١) « المدارج » (٢/ ١٦١) .

(٢) « المدارج » (٢/ ١٥٢ و١٥٣) .

فاكتسبه ، فصار الصبر معه مكتسبًا بتصبره ، وحرصه عليه ، واستعانته بالله تبارك وتعالى .

أما المتصبر ؛ فهو الذي يشعر بكلفةٍ ومشقةٍ في الصبر ؛ لكنه مع ذلك يحمل نفسه على الصبر ، أما الصبور ؛ أي : العظيم الصبر ؛ فصبره أعظم من صبر غيره ، أما الصبار ؛ فهو كثير الصبر في القَدْر والكَمِّ ، أما الصبور ؛ فهو عظيم الصبر في الكيف (يعني : في كيفية صبره) .

وهذه المراتب كلُّها صيغُ مبالغة ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ، وقد قيل في هذا الترتيب المذكور في الآية : إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى ، فالصبر دون المصابرة ، والمصابرة دون المرابطة ، والمرابطة مفاعلة من الربط ، وهو الشدُّ ، وسمِّي المرابط مرابطًا ؛ لأن المرابطين في الجهاد يربطون خيولهم وهم ينتظرون الفزع أو الحرب في أي لحظةٍ من اللحظات ؛ لذا قال النبيُّ ﷺ : « أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو الله بِهِ الخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ » ، قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : « إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إِلَى المَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ . فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ »[(١)] .

وفي رواية[(٢)] زاد ثالثة : « فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ » .

وفي « صحيح البخاري »[(٣)] من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال :

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الطهارة ، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١) .

(٢) عند مالك في « الموطأ » (٣٨٤) والترمذي ، كتاب الطهارة ، باب ما جاء في إسباغ الوضوء (٥٢) ، والنسائي ، كتاب الطهارة ، باب (١٠٧) (١/ ٩٠) ، وأحمد (٢/ ٣٠٣) ، وهو في « صحيح الجامع » (٢٦١٨) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد ، باب فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٨٩٢) .

قال رسول الله ﷺ : « رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » .

وقيل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ ﴾ ، أي : اصبروا بنفوسكم على طاعة الله ﴿ وَصَابِرُواْ ﴾ ، أي : بقلوبكم على البلوى في الله ، ﴿ وَرَابِطُوا ﴾ ، أي : بأسراركم على القرب والشوق إلى الله تبارك وتعالى .

وقيل : ﴿ وَرَابِطُوا ﴾ ، أي : في كل ميدان من ميادين الجهاد ، ومن ميادين الطاعة لله تبارك وتعالى .

وقيل: ﴿ ٱصۡبِرُواْ ﴾ ، على النعماء ، واصبروا على البأساء والضراء ، ﴿ وَرَابِطُوا ﴾ في دار الأعداء ، واتقوا إله الأرض والسماء ، ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ ، في دار البقاء [(١)] .

أيها الأحبة : لقد ذكر الله ﷻ الصبر في القرآن الكريم على ستة عشر نوعًا من الأنواع ، وإن دلَّ ذلك فإنما يدلُّ على مكانة الصبر ؛ فلقد ذكر الإمام أحمد بأن الصبر في القرآن مذكور في تسعين موضعًا [(٢)] .

ولقد أجمعت الأمة على أن الصبر واجب ، وهو نصف الإيمان ؛ قال ابنُ القيم [(٣)] : « الإيمان نصفان : النصف الأول هو الصبر ، والنصف الثاني هو الشكر » [(٤)] ، وحينما يتكلَّم علماؤنا في مثل هذه التقسيمات ؛ فأرجو ألا

---

(١) « المدارج » (٢/ ١٥٣ و١٥٤) .

(٢) « المدارج » (٢/ ١٤٦) .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) قال ابنُ عاشور في « التحرير والتنوير » (١/ ٢٧٣) : « وهو قولٌ حسن ، ومعظم الفضائل ملاكها الصبر ، إذ الفضائل تنبعث عن مكارم الخلال ، والمكارم راجعة إلى قوة الإرادة ، وكبح زمام النفس عن الإسامة في شهواتها بإرجاع القوتين الشهوية والغضبية عما لا يفيد كمالًا ، أو عما يورث نقصانًا ؛ فكان الصبر ملاك الفضائل ؛ فما التحلم والتكرم والتعلُّم والتقوى والشجاعة والعدل والعمل في الأرض ونحوها إلا من ضروب الصبر » ا.هـ .

تتصور أنك تستطيع أن تجزئ هذه التجزئة الحسية المادية ، كما كنا نقسم التوحيد مثلًا إلى ثلاثة أقسام (إلى توحيد ربوبية ، وتوحيد ألوهية ، وتوحيد أسماء وصفات) .

فإن هذا التقسيم للدراسة فقط ، وإلا فإن التوحيد كلٌّ لا يتجزأ ، فالتوحيد شامل متكامل ، لكنَّ علماءنا حينما يقسمون الإيمان إلى صبر وشكر ، فإنما يريدون بذلك التقسيم الدراسي لإظهار حقيقة الصبر وحقيقة الشكر ؛ **فالصبر ذكر على ستة عشر نوعًا في القرآن :**

النوع الأول : الأمر به ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ ﴾ [البقرة:١٥٣] ، إن وقعت في ضيق ، وتعرضت لمحنة أو ضنك أو ابتلاء ؛ فعليك أن تستعين بالله على هذا بالصبر على ما قدَّر الله جلَّ وعلا ، والذي يعينك على تحقيق الصبر أن تقوم لتطرح قلبك بذلٍّ وانكسارٍ بين يدي العزيز الغفار لتُصَلِّي له سبحانه وتعالى ، وهذا كبير ؛ لكنه يسير على من يسره الله تبارك وتعالى له ، وقال جَلَّ وعلا : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ ﴾ [البقرة:٤٥] ، وقال: ﴿ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، وقال الله لنبيه ﷺ : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ [النحل:١٢٧] ، أي : لن تستطيع الصبر إلا إن صبرك الله جَلَّ وعلا ، وهذا هو معنى «الاستعانة» ومعنى « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

فالنوع الأول جاء بصيغة الأمر في آياتٍ كثيرة جدًّا ، وأرجو أن تتصور معي أن حبيبنا ﷺ الذي رباه الله على عينه ، وغفر له ذنبه ، وشرح له صدره ، ورفع له ذكره ، ووضع عنه وزره ، احتاج في يومٍ من الأيام إلى أن يُذَكَّر بالصبر ليقول له ربه : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ [النحل:١٢٧] ، وقال

تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[الأحقاف:٣٥] .

فربُّ العزة يذكِّر نبينا ﷺ بصبر أولي العزم ، وأولهم نبيُّ الله نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾[نوح:٥ ـ ١١] ، فها هو نوح عليه السلام مكث ألف سنة إلا خمسين عامًا (٩٥٠ سنة) صابرًا على هذا البلاء !

ما ترك نبيُّ الله نوحٌ سبيلًا من سبل الدعوة إلا سلكه ، ومع ذلك قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[هود:٤٠] .

ورحم الله من قال : « كم من عمر طالت آماده وقلَّت أمداده ، وكم من عمر قلت آماده وعظمت أمداده »[١] .

انظر إلى فضل الله ﷻ على النبيِّ ﷺ وفي هذه الأعداد التي آمنت به ، وما زالت وستظلُّ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ فالأمة كلُّها إلى يوم القيامة في ميزان المصطفى ﷺ .

فنفْسُ الحبيب ﷺ احتاجت يومًا أن تذكَّر بالصبر ، ولكن ليس بأي صبر ،

---

(١) قال ابن عجيبة في « تفسيره » (٣/ ٣٨٦) (لسورة الكهف : ١٩) : « وفي الحِكَم : « رب عمر اتسعت آماده ، وقلَّتْ أمداده ، ورب عمر قليلةٌ آماده ، كثيرٌ أمداده » ، وقيل : « من بورك له في عمره : أدرك في يسيرٍ من الزمان من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ، ولا تلحقه الإشارة » ا.هـ.

والأمداد : ما يجد القلب من العلوم والمعارف ، فرب قلب استمد في زمان قليل من العلوم ما لم يستمده غيره في أزمنة متطاولة . راجع (« تفسير ابن عجيبة » أيضًا لسورة : فاطر : آية ١١) .

وإنما بالصبر الذي كان عليه أولو العزم من الرسل .

وأنتم تعلمون ما فعل به أهل الطائف ؛ فعلوا به أسوأ ما يمكن أن يفعل بأيِّ إنسان فضلًا عن أفضل إنسان ، ومع ذلك تنزف دماؤه ، والحزن يحطم فؤاده .. دعوةٌ مطارَدةٌ ، وصاحب الدعوة مطارد ؛ بل يؤذى ، ويُرْمى بالحجارة ؛ بل يسبُّ ويشتم ، وأصحابه مشرَّدون مطاردون في الحبشة ، واقع مريرٌ أليم ، وصاحب الدعوة لا يستقبله أحدٌ وهو مَنْ هو ؟ إنه أحب الخلق إلى الله ؛ بل يستقبله سادة الطائف بالسبِّ ، والضرب ، والشتم ، واللعن ، ويرجع وهو مهموم لدرجة أنه لم يستفق من هَوْل الصدمة إلا في مكانٍ يقال له قرن الثعالب ، وهو مكان يبعد عن الطائف خمسة كيلو مترًا .

والله لو كان رسول الله ﷺ ممن ينتقم لذاته ولنفسه لأمر ملك الجبال فلحطم ملك الجبال هذه الرءوس الصلدة ، والجماجم المتعنتة العنيدة ، ولسالت أودية من الدماء يراها أهل مكة بمكة ، وهي تفيض إليهم من الطائف ، ولكن رسول الله ﷺ ما خرج ليثأر لنفسه قط ، وما انتقم لذاته أبدًا ؛ فملك الجبال يقول له : « إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ [1] ؟ » ؛ فقال الرحمة المهداة : « بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ ، وَلاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا » [2] .

هل عشت بقلبك ، وتصورت بفؤادك ما تعرض له النبيُّ ﷺ من أذى ؟!

فاحتاج نبيُّنا ﷺ يومًا إلى أن يقول له ربُّه بصيغة الأمر : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٣٥] .

---

(١) وهما جبلان عظيمان بمكة .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم : آمين (٣٢٣١) ، ومسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب ما لقي النبيُّ ﷺ من أذى المشركين (١٧٩٥) .

النوع الثاني : النهيُّ عن ضد الصبر ؛ كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف:٣٥] .

ولما قال خبَّاب بن الأرت للنبيِّ ﷺ وكان متوسدًا بردةً بظلِّ الكعبة في وقت لقوْا فيه من المشركين شدَّة : ألاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا ، ألاَ تَدْعُو الله لَنَا ؟ قَالَ : « قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ ، مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَالله لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ ، لاَ يَخَافُ إِلاَّ الله أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ »[(١)] .

وهو في مكة في مرحلة الاستضعاف !! والآن نرى كلَّ شبابنا متعجل إلا من رحم الله ، والكلُّ متصور أنه حقٌّ على الله أن ينصر الأمة في هذا الوقت ! وتدبر ـ مني ـ هذه الكلمات : « من تعجَّل الشيء قبل أوانه عُوقب بحرمانه »[(٢)] !!

فلقد جعل الله للنصر أسبابًا ، وجعل له شروطًا ؛ ولما تخلَّى بعض أصحاب النبيِّ ﷺ عن سببٍ واحدٍ من أسباب النصر في غزوة أحد ، كانت الهزيمة للمسلمين جميعًا ، مع أن قائد المعركة هو المصطفى ﷺ ! كما قدمت ذلك مرارًا .

فكيف يكون الحال إن تخلَّت الأمة في جملتها عن جلِّ أوامر رسول الله ﷺ ؟!

فكثير من الشباب في ظلِّ هذا الواقع المر لم يفهموا أسباب وشروط النصر ، ولم يَعُوا سنن الله الربانية في الكون ؛ فأنا أقول : أيها الأحبة ، إن الله لا يعجل

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة (٣٨٥٢) ، ورواه (برقم : ٦٩٤٣) كتاب الإكراه ، باب من اختار الضرب والهوان على الكفر .

(٢) وهذه قاعدة من قواعد السلف ؛ فراجع « الأشباه والنظائر » للسيوطي (١٥٢) ، و« الإقناع في حَلِّ ألفاظ أبي شجاع » (٣/ ١٢٩) .

لعجلة أحد ؛ فهو سبحانه يأمر نبيه ﷺ ويقول له : ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف:٣٥]

وقال تعالى : ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال:١٥] ؛ فتولية الأدبار ضدٌّ الصبر .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٩]

قال ابنُ القيم : « إن الوهن من عدم الصبر »[1] .

والوهن فسَّره النبيُّ ﷺ بقوله : « حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ »[2] .

فالنوع الثاني من أنواع الصبر المذكور في القرآن : النهيُ عن ضد الصبر أي الأمر بعدم العجلة .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ [محمد:٣٣] ؛ فإن إبطال الأعمال من عدم الصبر أيضًا على الإخلاص والمتابعة للنبيِّ ﷺ ؛ فعدم الصبر على الإخلاص ، وعدم الصبر على المتابعة يبطل العمل ؛ لأن الله لا يقبل عملًا إلا إذا كان خالصًا صوابًا .

النوع الثالث : الثناء على أهل الصبر ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٧]

عاهد ربك الآن أن تختبر نفسك عند أول محنة أو ابتلاء تتعرض له أيًّا كان

---

(١) « المدارج » (٢/ ١٤٧) .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب في تداعي الأمم على الإسلام (٤٢٩٧) ، وأحمد في « المسند » (٥/ ٢٧٨) ، والطبراني في « الكبير » (١٤٥٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٨٢) ، وصححه العلامة الألبانيُّ في « الصحيحة » (٩٥٨) .

نوع الابتلاء ! هل ستصبر مع أول صدمة ؟ وما هو ردُّ فعلك عند أول محنة تواجهك ؟

إن صبرت فأنت بفضل الله ﷻ وبشهادة الله لك صادق تقيٌّ ؛ قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٥، ١٥٦] ، وليست هذه الكلمات سهلة النطق ؛ لأنه ليس اللسان هو الذي يتكلم في هذه اللحظات !

فالقلب هو الذي يأمر اللسان بالقول ، ويأمر الجوارح فتتحرك بالطاعة أو بالمعصية ، كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ »[(١)] .

قال أبو هريرة : « القلب ملك الأعضاء ؛ فإن طاب الملك طابت الجنود والرعايا ، وإن خبث الملك خبثت الجنود والرعايا »[(٢)] .

فالملك هو القلب وهو الذي يُصدر الأوامر لهذه الجوارح بالطاعة وبالعصيان ؛ ولذلك قال الحافظ ابنُ رجب في كتابه الماتع « جامع العلوم والحكم »[(٣)] : « وأصل الاستقامة أن يستقيم القلب على التوحيد ؛ فإن استقام

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢) ، ومسلم كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في « مصنفه » (١١/ ٢٢١) ومن طريقه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٩) عن أبي هريرة قوله ، وسنده حسن ، وروي مرفوعًا ؛ كما عند ابن عساكر في « تاريخه » (٥٠/ ١٦٧) ، وانظر : «الزهد» لأبي داود (٤٦٩) ، و«إحياء علوم الدين» (٣/ ١٠) ، و«مجموع الفتاوى » (١٣/ ١١٣) ، و« العظمة » لأبي الشيخ (٥/ ١٦٣٠) و « الكامل » لابن عدي (٢/ ٢١٥) و « الموضوعات » لابن الجوزي (١/ ١٥٠) ، و « الضعيفة » (٣٩٥٦ و٤٠٧٤) و«ضعيف الجامع» (٣٩٠٣) .

(٣) « جامع العلوم والحكم » لابن رجب (٢٠٥) (الحديث الحادي والعشرون) .

القلب على التوحيد استقامت الجوارح كلُّها على طاعة العزيز الحميد » .

وفي « صحيح مسلم »[1] عن حذيفة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا ؛ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ ؛ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ، وَالآخَرُ أَسْوَدَ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا ، لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَراً إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» .

فالله سبحانه يثني على الصابرين في الفتن والمحن والابتلاءات ، ويبشرهم بهذه البشريات ؛ فيقول : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾[البقرة:١٥٧] .

النوع الرابع : حبُّ الله للصابرين ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦] . وحبُّ الله للعبد مسألةٌ قد لا يتصورها العقل البشريُّ بأي حالٍ من الأحوال ! يكاد العقل البشريُّ يقف عاجزًا أمام هذه المنحة الربانية العظيمة ؛ فمن أنت لتنال هذا الشرف ؟ ولتنال هذا الفضل ؟!

نسأل الله ﷻ أن يشرفنا بهذا الشرف ، وأن يكرمنا بهذه الكرامة ؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه .

النوع الخامس : معية الله للصابرين : والمعية نوعان : معية عامة ، ومعية خاصة ، أما المعية العامة ؛ فهي معية العلم والإرادة والإحاطة ، أما المعية الخاصة ؛ فهي معية الحفظ والنصر والمدد والعون والتأييد ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[الأنفال:٤٦] ، وفي آية سورة

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب (١٤٤) .

البقرة أيضًا : ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٤٩] ؛ فهذه محبة الله ، ومعيته ، وصلواته ، ورحمته ، وهدايته للصابرين ؛ نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم الصبر ؛ إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه .

النوع السادس : إخبار الله جلَّ وعلا بأن الصبر خير لأصحابه ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [النحل:١٢٦] ، وقال جلَّ وعلا : ﴿ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النساء:٢٥] .

النوع السابع : إيجاب الله سبحانه وتعالى الجزاء للصابرين بأحسن أعمالهم : تدبر معي قوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٦] .

قال الحافظ ابنُ كثير : « هذا قسمٌ من الربِّ تعالى مؤكَّد باللام : أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم ، أي : ويتجاوز عن سيئها » .

وتدبر معي قوله تعالى في وصف عباد الرحمن : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ ﴾ [الفرقان:٦٨ ـ ٧٠] .

نسأل الله أن يبدل سيئاتنا حسنات ؛ إنه غفور رحيم ؛ فالله سبحانه يجزي الصابرين بأحسن الأعمال ، ويتجاوز بمنه وكرمه عن سيئاتهم وعن أسوأ أعمالهم .

النوع الثامن : أن الله سبحانه وتعالى قد حسم في آيةٍ بليغة أجر الصابرين ،

وبين أنه لا يستطيع أحد أن يحدد أجر الصبر والصابرين ؛ لذا جعل الله سبحانه جزاءهم بغير حساب ؛ فقال جلَّ وعلا : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر:١٠] .

فلا يعلم أجر الصابرين إلا أرحم الراحمين .

قال السديُّ : « أي : في الجنة »[1] ، ووالله إن أول ما يبشر به أهل الجنة من ملائكة الله تعالى أن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بأن جزاءهم ونعيمهم هذا كان بسبب صبرهم في الدنيا ؛ قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴾ [الزمر:٧٣] ، وفي آية أخرى : ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[الرعد:٢٤] .

النوع التاسع : أطلق الله البشرى للصابرين ؛ فقال جلَّ وعلا : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾
[البقرة:١٥٥ ـ ١٥٧]

قال عمر رضي الله عنه : « نِعْم العدلان ، ونعمة العلاوة »[2] .

فقوله : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ ؛ هذان هما العدلان ،

---

(١) أخرجه الطبريُّ في « تفسيره » (٧٠٥٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ معلقًا بصيغة الجزم ، كتاب الجنائز ، باب الصبر عند الصدمة الأولى (رقم : ٤٢) ، والحاكم (٢/ ٢٩٢) ، ووصله البيهقي في « الكبرى » (٤/ ٦٥) ، وصحَّح سنده الحافظ في « التغليق » (١/ ٣٦٢) .

أما العلاوة ؛ ففي قوله : ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ ، والعلاوة هي ما توضع بين العدلين وهي زيادة في الحمل ، وكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضًا .

ولما قرأ الآية سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى قال : أي : « أَمَنَةٌ مِنَ العَذَاب »[1] ، وصلوات الله على عباده : ثناؤه عليهم ، وأصل الصلاة في اللغة : الدعاء ؛ فهذا ثناء من الله ورحمةٌ منه على الصابرين الذين صبروا ، وأعلنوا أنهم عبيدٌ لله في ملكه ، وللمالك أن يتصرف في ملكه كيف يشاء ، وبالقدر الذي يشاء ، وفي الوقت الذي يشاء .

وهنا قَدَّم الله ﷻ في الآية الخوف ؛ لأن الخوف مصيبةٌ كبيرةٌ ، فالخائف لا يأكل ولا يشرب .. الخائف لا يأتي أهله .. الخائف لا يشعر بالراحة .. الخائف لا يشعر بالسعادة ، ولذلك فإن نعمة الأمن نعمةٌ عظيمةٌ ؛ أسأل الله أن يذيقها إخواننا في فلسطين ، وفي أفغانستان ، وفي بلاد الشيشان ، وفي كلِّ مكان ، وأسأل الله ألا يحرمنا في بلادنا منها ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

تصوَّر لو أنك تعلم أن صاروخًا سينزل على بيتك في أيِّ دقيقة ! كيف يكون حالك ؟ يجلس أخوك في فلسطين وهو ينتظر أن يُهدم عليه بيته في أي لحظة ، وبدون مقدمات ! فنعمة الأمن نعمة عظيمة ، والخوف ابتلاء وأيُّ ابتلاء ، من أجل ذلك ؛ قال الله ﷻ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ ﴾ ، ثم يأتي الجوع والنقص في الأموال ، والنقص في الأنفس بالموت ، وفي الثمرات بالضيق ؛ قال الله عند ذلك : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ .

---

(١) انظر « تفسير ابن كثير » عند الآية .

فأنت لا تملك شيئًا ؛ فسبحان الملك الذي يملك كلَّ شيء ، فأنت حينما تُبتلى ، وتقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ؛ فإنما تعلن بذلك عبوديتك الكاملة للملك الحق ، ولذلك لا يغضب العاقل إذا أخذ الله ولده ، أو أخذ أباه أو أخذ أمه ، أو أخذ عزيزًا لديه ، لأنه يعلم أننا جميعًا مِلْكٌ في ملكه ، فإن استرد المالك شيئًا مما يملك ، فلا يُسئل عما يفعل وهم يُسئلون .

وفي « صحيح مسلم »[(١)] من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ : إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي ، وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا ، إلا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا » قالت : فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ ، قُلْتُ : مَنْ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟ ثُمَّ عَزَمَ لِي فَقُلْتُهَا ، فَتَزَوَّجْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ .

فأخذت خيرًا من أبي سلمة ومن ملء الأرض من مثل أبي سلمة ؛ بل رزقها الله خير أهل الأرض قاطبة ، وصارت أمًّا للمؤمنين ـ رضي الله تعالى عنها .

النوع العاشر : أن الله جَلَّ وعلا قد ضمن النصر والمدد للصابرين ؛ قال تعالى : ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[آل عمران:١٢٥] .

أخرج مسلم في « صحيحه »[(٢)] من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ ، نَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ ، وَأَصْحَابُهُ ثَلاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً ؛ فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ :

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الجنائز ، باب ما يقال عند المصيبة (٩١٨) (٤ و ٥) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الجهاد ، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣) .

« اللَّهُمَّ أَنجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ » ، فَمَازَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ ، مَادًّا يَدَيْهِ ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ ، وَقَالَ : يَا نَبِيَّ الله كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، فَأَنْزَلَ الله ﷻ : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[الأنفال:٩] ، فَأَمَدَّهُ الله بِالمَلاَئِكَةِ .

النوع الحادي عشر : الإخبار من الله تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[الشورى:٤٣] .

النوع الثاني عشر : الإخبار بأنه لا يلقى الجزاء العظيم والحظ الوفير الكريم ، إلا أهل الصبر ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[فصلت:٣٥] .

وحينما فُتن من فتن من الجهلاء بقارون وما معه ، فردَّ عليهم أهلُ العلم الذين آتاهم الله ﷻ العلم ، ونوَّر بصائرهم به ، وردُّوهم إلى الحق ، وبينوا لهم أن أصحاب الحظوظ العظيمة ، والمكانة الكريمة هم الصابرون الذين لا يُفتنون بعرضٍ زائل ، ولا بدنيا حقيرة ، قالوا : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾[القصص:٨٠] .

النوع الثالث عشر : الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر ؛ قال الله ﷻ حكايةً عن نبيه موسى عليه السلام : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[إبراهيم:٥] .

والصبار : الكثير الصبر ، والمداوم عليه ، الذي جاهد نفسه فصبَّرها ، فصار صبَّارًا ، هذا الرجل هو الذي ينتفع بالآيات ، والمواعظ ، والعبر .

النوع الرابع عشر : الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب والنجاة من المكروه المرهوب ، ودخول الجنة ، إنما نالوه بالصبر ؛ قال الله ﷻ : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٣، ٢٤]

النوع الخامس عشر : أن الصبر مع اليقين يورث صاحبه درجة الإمامة ؛ قال ابنُ تيمية [1] : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ؛ قال ربُّ العالمين : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤] ؛ فإذا تزوج الصبر باليقين ولد بينهما حصول الإمامة في الدين .

وكما قال المتنبي :

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام

فمن الصعب جدًّا أن تزرع شجرة ليمون حتى إذا حان وقت إثمارها أثمرت لك ثمرة تفاح ! بل لابد أن تثمر لك ليمونًا ؛ فإن اجتهدت وزرعت وبذلت حصدت ، ومن جَدَّ وجد ، هذه حقيقة وقاعدة ؛ قال تعالى : ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[التوبة:١٠٥] .

وقد أجمع عقلاء كلِّ أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم ، وأن من رافق الراحة فارق الراحة ، وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة ؛ فإنه على قدر التعب تكون الراحة .

وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

---

(١)راجع : « المدارج » (٢/ ١٤٩) .

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

والقصد أن ملاحظة حسن العاقبة تُعين على الصبر فيما تتحمله ، باختيارك وغير اختيارك [١] .

وأودُّ أن أخاطب الجميع : أنه لا يمكن على الإطلاق أن نحصِّل النجاح والتوفيق في أي جانب من جوانب الحياة ؛ بل وفي الآخرة إلا بالعناء والمشقة والتعب في هذه الدنيا ، وقد قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[الواقعة:١٠ ـ ١٢] .

قال ابن القيم [٢] : « السابقون في الآخرة إلى الرضوان والجنات هم السابقون في الدنيا إلى الخيرات والطاعات » ؛ فعلى قدر السبق هنا يكون السبق هناك .

فهل يتساوى من نام عن صلاة الفجر وعن قيام الليل مع من قام الليل يتململ تململ العصفور المبلل بماء المطر ، وقد طرح قلبه بذلٍّ وانكسار بين يدي الله العزيز الغفار ؟ كيف يتساوى هذا مع ذاك ؟ !! كيف يتساوى العاصي مع الطائع ، والمحسن مع المسيء ؟ قال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[القلم:٣٥، ٣٦] ، وقال : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾[السجدة:١٨] ؛ فلابد أن تحصد الخير كلَّ الخير إذا رافقت المشقة. والتعب والعناء في سبيل طاعة ربِّ الأرض والسماء .

فالنظر إلى حسن الجزاء في الدنيا والآخرة لمن صبر يدفعك إلى التصبر ، وأن

---

(١) « المدارج » (٢/ ١٦٠) .

(٢) تقدم .

تعلم أن الفرج من عند الله ؛ فأنت في كلِّ طرفة عين تنتظر الفرج ممن هو أرحم بك من أمك ؛ كما قال النبيُّ ﷺ : «للهُ أَرْحَمُ بِعِبادِهِ مِنْ رَحْمَةِ الأُمِّ بِوَلَدِهَا»[1] .

ورحم الله من قال :

يا صاحب الهم إن الهم منفرج	أبشر بخير فإن الفارج الله
وإذا بُليت فثق بالله وارض به	إن الذي يكشف البلوى هو الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة	لا تجزعن فإن الخالق الله
والله مالك غير الله من أحد	فحسبك الله في كلٍّ لك الله

قال تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام:١٧] .

ومما يدفعك إلى الصبر كذلك : تهوين البلية إذا وقع بك ابتلاء ؛ فهوِّن على نفسك ، وذلك بأمرين :

قال ابنُ القيم[2] : « أحدهما : أن يَعُدَّ نعم الله عليه وأياديه عنده ، فإذا عجز عن عَدِّها ، وأيس مِنْ حَصْرِها ، هان عليه ما هو فيه من البلاء ، ورآه ـ بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه ـ كقطرة من بحر .

الثاني : تذكُّر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه ؛ فهذا يتعلق بالماضي ، وتعداد أيادي المنن يتعلق بالحال ، وملاحظة حسن الجزاء ، وانتظار الفرج يتعلق بالمستقبل ، وأحدهما في الدنيا ، والثاني يوم الجزاء » ا.هـ المراد .

فتذكَّر فضل الله ﷻ عليك ؛ أسأل الله سبحانه وتعالى أن يصبرنا لنصبر ، وأن يرزقنا التقوى لنتقي ، وأن يتوب علينا لنتوب إليه ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

---

(١) جزءٌ من حديثٍ صحيحٍ تقدم .

(٢) « المدارج » (٢/ ١٦١) .

منزلة الرضا

ومن بين هذه المنازل العظيمة الجليلة التي لا ينزل منازل الإحسان إلا من نزل فيها «منزلة الرضا» فأعرني قلبك وسمعك - أيها الحبيب الكريم - لتعيش بإذن الله وحوله ومدده مع هذه المنزلة الجليلة الرقراقة كرقة عنوانها وكلماتها.

تعريفُ الرضا لغةً: هو ضدُّ السُّخْط ؛ كما في «اللسان» [1].

واصطلاحًا: قال الجرجانيُّ [2]: « هو سرور القلب بمُرِّ القضاء ».

وقال الراغب [3]: « ورضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو: أن يراه مؤتمرًا لأمره، منتهيًا عن نهيه ؛ قال الله تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [التوبة:١٠٠] و [المجادلة:٢٢] و [البينة:٨]، وقد أجمع العلماء - رحمةً من الله بنا - على أن الرضا مستحبٌّ وليس بواجب، ولو كان الرضا واجبًا لشق علينا جدًّا، لكنه مؤكد استحبابه ؛ كما قرَّر ذلك شيخ الإسلام ابن تيميه وابن القيم وغيرهما من المحققين [4]؛ إذ لم يَجِيءْ الأمر به، وإنما جاء الأمر بالصبر، لكن جاء الثناء والمدح من الله ﷻ لأهل الرضا.

تنبيه: قال شيخ الإسلام [5]: « وأما ما يروى من الأثر: « من لم يصبر على

---

(١) «لسان العرب» مادة رضِي (٤/ ١٦٤ط الحديث).

(٢) «التعريفات» (١١٣).

(٣) «المفردات» (٢٠٣).

(٤) قال ابن القيم - لله درُّه -: « وقد أجمع العلماء على أنه مستحب، مؤكد استحبابه، واختلفوا في وجوبه على قولين ». «المدارج» (٢/ ١٦٤).

(٥) كما في «المدارج» لتلميذه ابن القيم (٢/ ١٦٤).

بلائي ، ولم يرض بقضائي ، فليتخذ ربًّا سواي » ؛ فهذا أثر إسرائيليٌّ ، ليس يصحُّ عن النبيِّ ﷺ .اهـ .

والثابتُ الصحيح هو: ما رواه مسلم في «صحيحه»[(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا ، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا ».

فالرضا ليس كلمة ترددها الألسنة دخانًا يطير في الهواء ، يقول العبد : أنا راضٍ بالله ، وهو بعيدٌ عن الله ؛ فربما ترى أحدهم يشك في الله ولا يثق فيه ، لكنهُ يثق في بعض أسباب الأرض أكثر من ثقته في ربِّ السماء والأرض ، أوْ لا يمتثل لله أمرًا ، ولا يجتنب لله نهيًا ، ولا يقف لله عند حد ؛ فهل يكون هذا رضي بالله ربًا ؟! كيف وربُّه الهوى ، وربُّه المال ، وربُّه الشيطان ، وربُّه الكرسيُّ الذي جلس عليه ، وربُّه المنصب الذي يعبده ، وربُّه العرش والكِرْش والفرج ؟ فهل رضي بالله ربًّا من عاش لعرشه وكرشه وفرجه؟!! قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:٢٣] .

فهناك من يقدم العقل على صحيح وصريح النقل ! فصار العقل طاغوتًا يعبد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وثبت كذلك في «صحيح مسلم»[(٢)] من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ رسولا ؛ فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي الكبائر (٣٤) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبيِّ ﷺ ثم يسأل الله له الوسيلة (٣٨٦) .

ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ :.. رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً ، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا ، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ».

قال ابنُ القيم ـ لله درُّه [(١)]: «وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين ، وإليهما ينتهي ، وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته ، والرضا برسوله ، والانقياد له ، والرضا بدينه ، والتسليم له ، ومن اجتمعت له هذه الأربعة : فهو الصديق حقًّا ، وهي سهلة بالدعوى واللسان ، وهي من أصعب الأمور عند حقيقة الامتحان ، ولاسيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها ، من ذلك : تَبين أنَّ الرضا كان لسانه به ناطقًا ، فهو على لسانه لا على حاله» .

حقيقة الرضا :

إن الرضا : هو آخر التوكل على الله ؛ فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض ، حصل له الرضا ولابد ، لكن لعزته ومشقته على أكثر الناس ، وصعوبته على معظم الخلق لم يوجبه الله تبارك وتعالى على خلقه ؛ رحمةً بهم ، وشفقةً وتخفيفًا عنهم ، ولكن ندب عباده المؤمنين إليه ، وأثنى على أهله ، وأخبر أن ثوابه هو رضاه عنهم الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها وياها ـ والله ـ من ثمرة ؛ فمن رضي عن ربِّه رضي الله عنه ؛ بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه ؛ فما رضيت أنت عن ربك إلا يوم أن رضي عنك ربك ؛ فالرضا محفوفٌ بنوعين من رضاه على عبده : رضا قبله أوجب له أن يرضى عنه ، ورضا بعده هو ثمرة رضاه عنه .

---

(١) «المدارج» (٢/ ١٦٥) .

ولذلك كان الرضا بابَ الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العارفين ، وحياة المحبين ، ونعيم العابدين ، وقرة عيون المشتاقين ، والله لا يشعر العبد بلذةٍ ولا بسعادةٍ إلا إن منَّ الله عليه بالرضا ، تجد هذا الإنسان سعيدًا ولو كان من أفقر الخلق ، أما من لم يذق طعم الرضا فتراه يتقلَّب ويتلوَّى بين ألوان وأشواك الضنك والشقاء ، وحتى لو كان غارقًا في بحار النعيم الدنيوي الظاهر ؛ لأن الله سيحوِّل كلَّ نعيم بين يديه إلى شقوة ؛ قال تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٣، ١٢٤] .

فالرضا الحقيقيُّ : أن تكون راضيًا عن الله تبارك وتعالى ؛ فإنك إن رضيت عن الله رضي الله عنك ورضَّاك بكل شيء ، ومن أعظم أسباب حصول الرضا : أن يَلْزم العبد ما جعل الله رضاه فيه ، فإنه يوصله إلى مقام الرضا ولابد [(١)] ؛ تفسير ذلك : أنَّ الله يرضى عن التوحيد ، فلتكُنْ على عتبة التوحيد ، ويرضى عن الصلاة ؛ فلتكُنْ مع المصلين ، ويرضى عن الصيام؛ فاضرِبْ بسهمٍ مع الصائمين ، ويرضى عن الحجاج والمعتمرين ؛ فاضرب بسهمٍ مع الحجاج والمعتمرين ، ويرضى عن المتقين ؛ فحقِّق التقوى ، ويرضى عن المؤمنين ؛ فحقِّق الإيمان بالله ، ويرضى عن القائمين ؛ فحقِّق القيام لله .

قيل ليحيى بن معاذ رحمه الله [(٢)]: « متى يبلغ العبد مقام الرضا ؟ فقال : إذا أقام العبد نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه : إن أعطيتني قبلت ، وإن

---

(١) «المدارج» (٢/ ١٦٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٦٦) .

منعتني رضيت ، وإن تركتني عبدت ، وإن دعوتني أجبت » .

فأول أَصْل: أن تُسْلم قلبك وعقلك وكيانك وجوارحك كلَّها لله سبحانه ، فأنت عبده وهو ربك ؛ فتقول : يا رب إن أعطيتني قبلت ، سواء كان العطاء قليلاً أو كثيرًا .

الأَصْل الثاني : «وإن منعتني رضيت» وهذا أعلى ؛ لأن المنع أشقُّ على النفس ، فالعبد الراضي عن الله إن منعه الله تبارك وتعالى فهو ملازمٌ لعبودية الرضا لا يفارقها .

الأَصْل الثالث : «وإن تركتني عبدْتُ» أي أنا عابد ملازمٌ لدرب العبودية لن أفارقه ؛ لأن العبودية هي وظيفتي وغايتي التي من أجلها خلقت ؛ كما قال ربي : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٨] .

الأَصْل الرابع : « وإن دعوتني أجبت » فالله له أوامر ، وله نواهٍ ، وله حدود ؛ فالعبد الراضي إن دعاه ربه أجاب ، إذا سمع الله يقول : « ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ » يرعها سمعه ، ويردد قولة السابقين الصادقين الأولين :

﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥] .

ورحم الله الجنيد حين قال : « الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلب ، فإذا باشر القلب العلم الصحيح أدَّاه إلى الرضا » ؛ فصحةُ العلم سبيلٌ للرضا .

قال ابنُ القيم[١] : « وطريق الرضا طريق مختصرة ، قريبة جدًّا ، موصلة إلى أجلِّ غاية ،ولكن فيها مشقة ، ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة ، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها ، وإنما عقبتها : همة عالية ، ونفس زكية ، وتوطين النفس على كل ما يرد عليها من الله » ثم قال : « ويسهِّل ذلك على العبد : علمه بضعفه ، وعجزه ،وفقره ،ورحمته به ، وشفقته عليه ، وبره به ؛ فإذا شهد العبد ضعفه وعجزه وفقره ، وشهد رحمة الله به ، وبر الله به ،وشفقة الله عليه ، وإكرام الله له ، ومع ذلك لم يطرح قلبه بذلٍّ وانكسار بين يديِ الله وابتعد عن الله ؛ فهذا ـ والعياذ بالله ـ صاحب نفسٍ خبيثة مطرودة من الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ بعيدة عنه ، ليست مؤهلة لقربه وموالاته » .

ثم نقل ابنُ القيم أقوالاً في الرضا ؛ فقال[٢] :

« وقد قيل : ثلاثة من علامات الرضا : ترك الاختيار قبل القضاء ، وفقدان المرارة بعد القضاء ، وهيجان الحب في حشو البلاء[٣] .

---

(١) «المدارج» (٢/ ١٦٨).

(٢) «المدارج» (٢/ ١٦٩، ٢١٦)بتصرف يسير.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٤٢) عن ذي النون.

وقيل للحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما : إن أبا ذر رضي الله عنه يقول : « الفقر أحبُّ إليَّ من الغنى ، والسقم أحبُّ إليَّ من الصحة » ؛ فقال : رحم الله أبا ذر ؛ أمَّا أنا ، فأقولُ : « من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمنَّ غير ما اختار الله له »[1].

وهذا حدُّ الوقوف على الرضا بما تصرف به القضاء .

وقال الفضيلُ بن عياض لبشر الحافي : « الرضا أفضلُ من الزهد في الدنيا ؛ لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته » .

وسئل ابن شمعون عن الرضا ؟ فقال : « أن ترضى به مدبراً ومختارًا ، وترضى عنه قاسمًا ومعطيًا ومانعًا ،وترضاه إلهًا ومعبودًا وربًّا » .

وسئل أبو عثمان عن قولِ النبيِّ ﷺ : « وأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ » فقال : لأن الرضا قبل القضاء عَزْمٌ على الرضا . والرضا بعد القضاء هو الرضا [2].

وقيل : الرضا ارتفاع الجزع في أيِّ حكمٍ كان قد قدَّره الملك الديان .

وقيل : رفعُ الاختيار (أي : ألا يكون لك اختيار مع الله تعالى) .

وقيل : الرضا :استقبال أحكام الله الشرعية والقدرية بالفرح .

وقيل : الرضا سكون القلْب تحت مجاري الأحكام ، أي ما يجريه الله من أحكام ، وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري : أما بعد ؛ فإن الخير كلَّه في الرضا ؛ فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر »[3] اهـ. المراد .

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (١٣/ ٢٥٣) .

(٢) أخرجه البيهقيُّ في «الشعب»(١٩٦) ، أما حديث : « أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ» فحديثٌ صحيح ، وقد تقدَّم .

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (١٠/ ٦٨٨) : « هذا كلام حسن ، وإن لم يُعْلم إسناده » .

أقسامه :

والرضا ثلاثة أقسام : الرضا بما قسمه الله وأعطاه ، والرضا بما قدره وقضاه ، والرضا به بدلًا من كلِّ ما سواه .

درجات الرضَا :

الدرجة الأولى : الرضا بالله ربًّا .

أرفع الرضا وأعلاه هو الرضا بالله ؛ وهو ألا يتخذ العبد ربًّا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره ، وينزل به حوائجه ، ويُسلِّم لأمره ، ويرضى بحكمه ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام:١٦٤] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ [الأنعام:١٤] ، وقال تعالى :﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام:١١٤]، وإذا تأملت هذه الآيات حق التأمل وجدتها تمامًا هي الرضا بالله ربًّا ، والرضا بالنبيِّ ﷺ رسولًا ، وبالإسلام دينًا ؛ فكثير من الناس يرضى بالله ربًّا ؛ بتوحيد الربوبية . وتوحيدُ الربوبية معناه : أن يقر المرء بأن الله ربُّ كل شيء ، وهو الخالق ، الرزاق ، المصور ، وهذا التوحيد قد أقر به المشركون ؛ كما قال تعالى :﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف:٨٧]، لكنه لم يرض بالله إلهًا ومعبودًا ؛ لأنه صرف العبادة لغيره ! فمن الناس من يرضى بالله ربًّا ولا يبغي ربًّا سواه ، ولكنه لا يرضى به وحده وليًّا ، ولا ناصرًا ، بل يوالي من دونه أولياء ؛ ظنًّا منه أنهم يقربونه إلى الله ، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك ، وهذا هو عين الشرك ؛ بلْ التوحيد ألا يتخذ العبد من دونه أولياء ، والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء ،

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين به ؛ فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته ؛ فموالاة أوليائه لون ، واتخاذ الولي من دونه لون ؛ قال ابنُ القيم لله درُّه : « ومن لم يفهم الفرق بينهما فليطلب التوحيد من أساسه ؛ فإن هذه المسألة أَصْلُ التوحيدِ وأساسُهُ »[(١)].

وكثيرٌ من الناس يرضى بالله ربًّا ، ولا يرضى به حكمًا يتحاكم إليه ، ويتخاصم إليه ، ويرضى بحكمه ؛ لأن شرعه ـ بزعمه ـ عفا عليه الزمن ، وأكل عليه الدهر وشرب !! ونحن الآن في عصر الذرة ، وعصر الإنترنت ، وعصر أتوبيس الفضاء ديسكفري ! أما الذي يرضى بالله ربًّا ؛ فهو الذي يرضى بالتحاكم إلى الله ، والإذعان لشرع الله سبحانه وتعالى .

الدرجة الثانية : الرضا عن الله وهي ثمرة الرضا بالله ؛ كما قال تبارك وتعالى : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [المائدة:١١٩، البينة :٨]، والرضا عن الله هو الرضا عنه في كلِّ ما قضاه وقدره عليك .

والسُّؤالُ : هل أنت راضٍ عن الله في عطائه ومنعه ، أم أنك ساخط في كلِّ ما يقدره لك ؟!

وفي «صحيح مسلم»[(٢)] من حديث صهيب رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » .

أيها العبد : لو كشف الله سبحانه وتعالى سرَّ حكمته في ابتلائه لك

---

(١) «المدارج» (٢/ ١٧٤).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب المؤمن أمره كلُّه خير (٢٩٩٩) .

لسجدت شكرًا له ، ورضيّ بفضله ؛ فارض بما أنت فيه ، ولا تسخط على ربك ، وكن على يقينٍ أن ما قضاه وقدره لك هو الخير ؛ لأن قضاء الله كلَّه عدل ، كما مرَّ في الحديث ؛ فالرضا عنه هو الرضا عن كلِّ ما قضاه الله وقدره سبحانه وتعالى ، ولكن الرضا بالله أرفع شأنًا ، وأعظم درجة من الرضا عن الله ؛ فالرضا بالله فرضٌ من آكد الفروض باتفاق الأمة ، فمن لم يرض بالله ربًّا لا يصحّ له إسلام ولا عمل ولا حال !!

قال ابنُ القيم [(١)] : « وأما الرضا بقضائه ؛ فأكثر الناس على أنه مستحب ، وليس بواجب ، وقيل : هو واجب ، وهما قولان في مذهب أحمد ؛ فالفرقُ بين الدرجتين فرق ما بين الفرض والندب ؛ وفي الحديث القدسي الصحيح الذي رواه البخاريُّ [(٢)] من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال : قال الله ﷻ : « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ .... ثم قال : وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ » ؛ فدلَّ على أن التقرب إليه سبحانه لأداء فرائضه أفضل وأعلى من التقرب إليه بالنوافل » ، ثم قال : وأيضًا فإن الرضا به ربًّا يتضمن الرضا عنه ويستلزمه ... ومن رضي بالله ربًّا رضيه الله له عبدًا ، ومن رضي عنه في عطائه ومنعه وبلائه وعافيته لم ينل بذلك درجة رضا الرب عنه إن لم يرض به ربًّا ، وبنبيه رسولاً ، وبالإسلام دينًا ؛ فإن العبد قد يرضى عن الله ربه فيما أعطاه وفيما منعه ، ولكن لا يرضى به وحده معبودًا وإلهًا ، ولهذا إنما ضمن رضا العبد يوم القيامة لمن رضي به ربًّا .

الدرجة الثالثة : الرضا برضا الله ؛ فلا يرى العبد لنفسه سخطًا ولا رضا ،

---

(١) «المدراج» (٢/ ١٧٦) .

(٢) تقدَّم .

فيبعثه على ترك التحكم ، وحَسْم الاختيار ، وإسقاط التمييز ولو أدخل النار [(١)].

أي : يترك التحكم على الله بأمرٍ من الأمور ، ويترك التخير عليه ، فتذهب مادة التحكم ، وتنحسم مادة الاختيار وتتلاشى ، وعند ذلك يسقط تمييز العبد ويتلاشى .

ثمرات الرضا :

الثمرة الأولى من ثمرات الرضا : أن يعلم العبد أن رضاه عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضا الربِّ تعالى عنه ، وفي «صحيح مسلم» [(٢)] من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إِنَّ الله لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا ، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا ».

فإذا رضي العبد عنه بالقليل من الرزق : رضي الله تبارك وتعالى منه بالقليل من العمل ، وإذا رضي العبد عن ربه واستوت عنده جميع الحالات رضي الله سبحانه وتعالى عنه ؛ بل وزاد الرضا ؛ فالسخط باب الهمِّ والغمِّ والحزن ، والسخط هو عدم الرضا ، وهو بابٌ لشتات القلب ، وكشف البال ، وسوء الحال ؛ بل ويوقع العبد في الضنك في الدنيا ، والخسران في الآخرة ! والظن بالله خلاف ما هو أهله ، والرضا يخلصه من ذلك كلِّه ، ولقد اجتمع ذات يوم وهيب بن الورد ، وسفيان الثوري ، ويوسف بن أسباط ؛ فقال الثوري : « فقد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم ، أما اليوم : فوددت أنِّي ميت ؛ فقال له يوسف بن أسباط : ولِمَ؟ فقال : لما أتخوف

---

(١) قاله صاحب المنازل («المدارج» ٢/ ٢٣٠) .

(٢) أخرجه مسلم ، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب (٢٧٣٤) .

من الفتنة ، فقال يوسف : لكني لا أكره طول البقاء ، فقال الثوري : ولم تكره الموت ؟ قال : لعلِّي أصادف يومًا أتوب فيه وأعمل صالحًا ، فقيل لوهيب : أيُّ شيء تقول أنت ؟ فقال : أنا لا أختار شيئًا ، أحبُّ ذلك إليَّ أحب إلى الله ، فقبَّل الثوري بين عينيه ، وقال : روحانيةٌ وربّ الكعبة »[1] .

فمن أعظم ثمرات الرضا : أنه يُذهب شتات القلب ، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة ؛ فالرضا يوجبُ للعبد الطمأنينة ، وبَرْد القلب ، وسكونه ، وقراره ، ويذهب انزعاج القلب ، وقلقه ، وتشتته .

ومن ثمرات الرضا :أنه يخلص العبد من مخاصمة الرب في أحكامه وقضائه ؛ فالعبد عبدٌ والربُّ ربٌّ ، ونحن لا نملك أن نتهم رجلاً من العقلاء من أهل العلم إن قال أو سكت : أنه سكت بدون حكمة أو قال بدون حكمة ؛ لأن هذا ليس من الأدب ، فإذا كنت لا تستطيع أن تنفي الحكمة عن رجلٍ من أهل الأرض في عطائه ومنعه ؛ فهل يجوز أن تنفي الحكمة عن ربِّ السماء والأرض في عطائه ومنعه ؟! وهو القائل - جَلَّ شأنه : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة:٢٦٩] .

وأَصْلُ كُلِّ شر ، وأَصْلُ كُلِّ بلاء في هذه الدنيا كان بسبب السخط وعدم الرضا ؛ فإن أول من وقع في هذا الذنب هو إبليس[2] ، حين سخط على الله وقال : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ اعترض ،

---

(١) «الإحياء» (٤/ ٣٥٥) ، و«المدارج» (٢/ ٢٠٦).

(٢) قال ابن القيم : « وأصل مخاصمة إبليس لربه : من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية » . (« المدارج» ٢/ ٢٠٣).

وجادل ، وناقش ، مع أن الله ﷻ أفرده بالأمر المباشر ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾[الأعراف:١٢] ؛ فخاصم ولم يرض ، وسخط على الله ـ جَلَّ وَعَلاَ !! فأول معصية ارتكبت مخاصمة الله في أمره وقضائه بالكبر والعناد والإعراض ، أما الرضا فإنه يخلص العبد من مخاصمة الربِّ ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ في أحكامه ، وفي قضائه وقدره ، ويذهب غيظ القلب وهمه ، ويرضى العبد عن ربه سبحانه وتعالى ؛ كما قال النبيُّ ﷺ : « عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ » [(١)]، لذا لما مات إبراهيم ابن نبينا ﷺ ؛ قال ﷺ : « .. إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرْضَى رَبُّنَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ » [(٢)].

ومن ثمرات الرضا : أن الرضا يجعل العبد سليم القلب نقيًّا من الغش والدغل والحقد والغل .

قال ابنُ القيم [(٣)]: « فلا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم ، كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا ، وكلَّما كان العبد أشد رضًا كان قلبه أسلم ؛ فالخبث والدغل والغش قرين السخط ، وسلامة القلب وبره ونصحه قرين الرضا ، وكذلك الحسد هو من ثمرات السخط ، وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا » .

فالعبد حين يعلم أن الرزاق هو الله ، وأن الله حكيم في عطائه ، حكيم في

---

(١) سبق ، وهو صحيح .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب قول النبي ﷺ : « إنا بك لمحزونون » (١٣٠٣) ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٥) .

(٣) «المدارج»(٢/ ١٩٩) .

منعه ؛ فهو في رضاً ، ولا يتسرب الحقد إلى قلبه .

وكذلك من ثمراته : أن من ملأ قلبه من الرضا ملأ الله صدره غنًى وأمنًا وقناعةً ، وفرَّغ قلبه لمحبته تعالى ، والإنابة ، والتوكل عليه ؛ فالرضا يفرغ القلب لله ، والسخط يفرغ القلب من الله !!

وكذلك الرضا يثمر الشكر ـ الذي هو من أعلى مقامات الإيمان ؛ بل هو حقيقة الإيمان ـ والسخط يثمر ضده ، وهو كفر النعم ، وربما أثمر له كفر المنعم ، فإذا رضي العبد عن ربه في جميع الحالات ، أوجب له ذلك شكره ، فيكون من الراضين الشاكرين ، وإذا فاته الرضا كان من الساخطين ، وسلك سبيل الكافرين [1].

ومن ثمرات الرضا : أن الرضا يخرج الهوى من القلب ؛ فالراضي هواه تبع لمراد سيده ومولاه ، يقول الله : « أمرت ونهيت » والعبد الراضي يقول : بكلِّ حبٍّ : « سمعت وأطعت » فلا يجتمع الرضا واتباع الهوى في القلب أبدًا ؛ فكلُّ ما رضيه الله للعبد الراضي ؛ فهو راضٍ عنه ، لا يحيد عنه يمنة ولا يسرة ، بل هو في غاية الحب لله ، والرضا عن الله .

ومنها : أن الله إذا رضي عن العبد ـ ورضا الله عن العبد أكبر من الجنة ـ وما فيها ـ فإنه في سعادة غامرة لا سعادة بعدها أبدًا .

كما قال الله ﷻ :﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة:٧٢] ، أي : أكبر من الجنة وما فيها من نعيم .

وفي «صحيح البخاري ومسلم»[2] من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبيَّ

---

(١) «المدارج» (٢/ ٢٠٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار (٦٥٤٩) ، ومسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩) .

ﷺ قال : « إِنَّ الله يَقُولُ لأَهْلِ الجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الجُنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ؟! فَيَقُولُ : أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُونَ : يَا رَبِّ ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي ، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا ».

وفي رواية في «صحيح مسلم»[1]من حديث صُهَيْبٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ ـ قَالَ : يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : فَيَكْشِفُ الحِجَابَ ؛ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ ».

قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣] .

وقال سبحانه : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦] ، اللهم ارزقنا الحسنى ولا تحرمنا الزيادة ؛ فالحسنى هي الجنة ، والزيادة هي النظر إلى وَجْهِ الله تبارك وتعالى في الجنة .

إذًا ؛ العبد الراضي له الرضوان من الكريم في جنات النعيم ، واعلم أن العبد الراضي أبدًا هو محبٌّ لله في كلِّ موطن ، وفي كلِّ نَفَسٍ ، وفي كل وقت ، لا يفارق الحبُّ قلبه ؛ فهو في مزيد متصل من الأجر ولو فترت جوارحه عن أيِّ عمل من أعمال الحب .

نسأل الله أن يرزقنا الرضا عنه ، وأن يرضى عنا ؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨١) .

منزلة الشكر

الشُّكْرُ لغةً : قال ابنُ القيم [(١)] : « وأَصْلُ الشُّكْر » في وضع اللسان : ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهورًا بينًا : يقال : شَكَرَتِ الدابة تشكر شكرًا ، على وزن سمنت تسمن سمنًا ، إذا ظهر عليها أثر العلف ، ودابة شكور : إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكل وتُعطى من العلف » .

وقال الراغب في « المفردات » [(٢)] : « الشُّكر : تصور النعمة وإظهارها ... ودابةٌ شكور مُظهرة بِسِمنها إسداء صاحبها إليها .

وقيل : أصله من عَيْنٍ شَكْرى أي : ممتلئة ؛ فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه » .

وقال ابنُ الأثير في « النهاية » [(٣)] : « والشكر مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية ، فيثني على المنعم بلسانه ، ويذيب نفسه في طاعته ، ويعتقد أنه موليها ، وهو من شكرت الإبل تَشْكَر ، وإذا أصابت مرعى فسمنت عليه ، وفي حديث يأجوج ومأجوج [(٤)] : « إنَّ دوابَّ الأرضِ لتَسْمَنُ شَكْرًا مِنْ لُحومِهم ودِمَائهم » ؛ أي : تسمن بالتحريك إذا سمنت وامتلأ ضرعها لبنًا » .

---

(١) « المدارج » (٢/ ٢٣٤) .

(٢) « المفردات » (٢٨٦) .

(٣) « النهاية » (١/ ٨٨٤) ط المعرفة ، و« اللسان » لابن منظور (٧/ ١٧٠) .

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٥١١) ، والترمذيُّ ، كتاب التفسير ، باب ومن سورة الكهف (٣١٥٣) ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج (٤٠٨٠) ، وصححه العلامة الألبانيُّ في « الصحيحة » (١٧٣٥) .

وقال ابنُ منظور [(١)] : « والشكور من الدواب : ما يكفيه العلف القليل ، وقيل : الشكور من الدواب الذي يسمن على قلة العلف ، وإن كان ذلك الإحسان قليلًا ؛ وشكره : ظهور نمائه ، وظهور العلف فيه » .

واصطلاحًا : قال الجرجانيُّ [(٢)] : الشكر عبارة عن معروفٍ يقابل النعمة ؛ سواء كان باللسان أو باليد أو بالقلب .

وقيل : هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه ، فالعبد يشكر الله ، أي : يثني عليه بذكر إحسانه الذي هو نعمة ، والله يشكر العبد ، أي : يثني عليه بقبوله إحسانه الذي هو طاعته » .

وقال ابنُ منظور [(٣)] : « والشكر : الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف » .

وقال ابنُ القيم [(٤)] : « الشكر : ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده : ثناءً واعترافًا ، وعلى قلبه : شهودًا ومحبةً ، وعلى جوارحه : انقيادًا وطاعةً » .

«وقيل : هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع .

وقيل : هو عكوف القلب على محبة المنعم ، والجوارح على طاعته ، وجريان اللسان بذكره ، والثناء عليه » [(٥)] .

وحقيقته ؛ كما قال أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى [(٦)] : « إن حقيقة الشكر

---

(١) « لسان العرب » (٧/ ١٧١) .
(٢) « التعريفات » (١٤٢) .
(٣) « اللسان » (٧/ ١٧٠) .
(٤) « المدارج » (٢/ ٢٣٤) .
(٥) « بصائر ذوي التمييز » (٣/ ٣٣٩) ، و« المدارج » (٢/ ٢٣٤) .
(٦) « الإحياء » (٤/ ١٤٢) ط فياض .

ترجع إلى كون العبد مستَعْملًا في إتمام حكمةِ الله تعالى ، فَأَشْكَرُ العبادِ أحبُّهم إلى الله ، وأقربهم إليه » .

منزلةُ الشكر : « الشكر هو منزلة من أعلى المنازل ، وهو فوق منزلة الرضا وزيادة ، فالرضا مندرج في الشكر ؛ إذ يستحيل وجود الشكر بدونه .

وهو نصف الإيمان ، والإيمان نصفان : نصف شكر [1] ، ونصف صبر » ؛ كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى [2] ، ثم قال : « وقد أمر الله به ، ونهى عن ضده ، وأثنى على أهله ، ووصف به خواص خلقه ، وجعله غاية خلقه وأمره ، ووعد أهله بأحسن جزائه ، وجعله سببًا للمزيد من فضله ، وحارسًا وحافظًا لنعمته ، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته ، واشتق لهم اسمًا من أسمائه ؛ فإنه سبحانه هو «الشكور» ، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره ؛ بل يعيد الشاكر مشكورًا ، وهو غاية الرب من عبده ، وأهله هم قليل من عباده ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة:١٧٢]

وقال : ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥٢] .

وقال عن خليله إبراهيم ﷺ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل:١٢٠، ١٢١] .

وقال عن نوح ﷺ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء:٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ

---

(١) قال الشعبيُّ : « الشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كلُّه » أخرجه ابن أبي الدنيا في « الشكر » (٥٧) والبيهقي في « الشعب » (٤١٣٤) .

(٢) « المدارج » (٢/ ٢٣٢) .

لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨].

وقال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت:١٧].

وقال تعالى: ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [لقمان:٣١].

وسمى نفسه «شاكرًا»، و«شكورًا»، وسمى الشاكرين بهذين الاسمين: فأعطاهم من وصفه، وسماهم باسمه، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلًا.

وإعادته للشاكر مشكورًا؛ كقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان:٢٢].

ورضا الرب عن عبده به؛ كقوله: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣].

وفي «الصحيحين» عن النبيِّ ﷺ أنه قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟» (١).

وقال لمعاذ: «واللهِ يَا مُعَاذُ، إِنِّي لَأُحِبُّكَ؛ فَلَا تَدَعَنَّ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ» (٢).

وفي «المسند» و«سنن» الترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ بالليل حتى ترم قدماه (١١٣٠)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩) عن المغيرة وبرقم (٢٨٢٠) عن عائشة.

(٢) تقدم، وهو صحيح.

الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات : « اللهم أعِنِّي وَلاَ تُعِنْ عَلَيَّ ، وَانْصُرْنِي وَلاَ تَنْصُرْ عَلَيَّ ، وَامْكُرْ لِي وَلاَ تَمْكُرْ عَلَيَّ ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا ، لَكَ ذَكَّارًا ، لَكَ رَهَّابًا ، لَكَ مِطْوَاعًا ، لَكَ مُخْبِتًا ، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا ... الحديث »[1] ا.هـ .

وقرن سبحانه الشكر بالإيمان وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به ؛ فقال : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء:١٤٧] ، أي : إن وفيتم ما خُلقتم له ، وهو الشكر والإيمان ؛ فما أصنع بعذابكم بعد هذا ؟!

وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده ؛ فقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام:٥٣] .

وقسم الناس إلى : شكور وكفور ؛ فأبغضُ الأشياء إليه الكفر وأهله ، وأحبُّ الأشياء إليه الشكر وأهله ؛ قال تعالى في الإنسان : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣] .

وقال نبيه سليمان عليه السلام : ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل:٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧] .

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧) ، والترمذي ، كتاب الدعوات ، باب في دعاء النبيِّ ﷺ (٣٥٥١) ، وقال : « حديث حسن صحيح » ، وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب ما يقول الرجل إذا سلَّم (١٥١٠) وصححه العلامة الألبانيُّ في « صحيح الترمذي » ، والحديث تقدم .

وقال تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[الزمر:٧] .

وهذا كثير في القرآن ، يقابل سبحانه بين الشكر والكفر ؛ فهو ضده ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[آل عمران:١٤٤] .

والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان ، فلم ينقلبوا على أعقابهم .

وعلّق سبحانه المزيد بالشكر ، والمزيد منه لا نهاية له ، كما لا نهاية لشكره .

وقد وقف سبحانه كثيرًا من الجزاء على المشيئة ؛ كقوله : ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ ﴾[التوبة:٢٨] .

وقوله في الإجابة : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ ﴾[الأنعام:٤١] .

وقوله في الرزق : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾[آل عمران:٣٧] .

وقوله في المغفرة : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ﴾[آل عمران:١٢٩] .

وقوله في التوبة : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ ﴾[التوبة:١٥] .

وأطلق جزاء الشكر إطلاقًا حيث ذُكر ؛ كقوله : ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ آل عمران:١٤٤] ، ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾[آل عمران:١٤٥] .

ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر ، وأنه من أجل المقامات وأعلاها ، جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه ؛ فقال : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾[الأعراف:١٧] .

ووصف سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده ؛ فقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ:١٣].

وذكر الإمام أحمد [(١)] عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع رجلًا يقول : اللهم اجعلني من الأقلين ، فقال : ما هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[هود:٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص:٢٤] ؛ فقال عمر : صدقت .

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر ؛ فقال : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[الإسراء:٣] ، وفي تخصيص نوح ههنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به ، فإنه أبوهم الثاني ، فإن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلًا إلا من ذريته ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات:٧٧] ، فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر ، فإنه كان عبدًا شكورًا .

وقد أخبر سبحانه إنما يعبده مَنْ شكره ، فمن لم يشكره لم يكن أهل عبادته ، فقال : ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[البقرة:١٧٢] .

وأمر عبده موسى أن يتلقى ما أتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر ؛ فقال تعالى : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[الأعراف:١٤٤] .

(١) أخرجه أحمد في « الزهد » (ص ١٤٢) من طريق عفان قال : حدثنا جرير بن حازم قال : سمعت الحسن قال : فذكره .

وأول وصية وصَّى الله بها الإنسان بعدما عقل عنه ، بالشكر له وللوالدين ؛ فقال : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان:١٤] .

وأخبر أن رضاه في شكره ؛ فقال تعالى : ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر:٧]

وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه ؛ فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل:١٢٠، ١٢١] ؛ فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة ، أي : قدوة يؤتم به في الخير ، وأنه قانتٌ لله ، والقانت : هو المطيع المقيم على طاعته ، والحنيف : هو المقبل على الله المعرض عمّا سواه ، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه ؛ فجعل الشكر غاية خليله .

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره ؛ بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨] .

فهذه غاية الخلق وغاية الأمر ؛ فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران:١٢٣] .

ويجوز أن يكون قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تعليلًا لقضائه بالنصر ، ولأمره لهم بالتقوى ، ولهما معًا ، وهو الظاهر ؛ فالشكر غاية الخلق والأمر ، وقد صرَّح سبحانه بأن غاية أمره وإرساله الرسول في قوله تعالى : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة:١٥١، ١٥٢] [1] .

قواعد الشكر :

« والشكر مبنيٌّ على خمس قواعد :

١ ـ خضوع الشاكر للمشكور .

٢ ـ وحبه له ، أي : حب الشاكر للمشكور .

٣ ـ واعترافه بنعمته .

٤ ـ وثناؤه عليه بها .

٥ ـ وأن لا يستعملها فيما يكره .

فهذه الخمس هي أساس الشكر ؛ فمتى عُدم منها واحدة : اختل من قواعد الشكر قاعدة ، وكل من تكلَّم في الشكر وحده ؛ فكلامه إليها يرجع ، وعليها يدور » [2] .

فلن تصبح شاكرًا ، إلا إن كنت خاضعًا لله سبحانه وتعالى ، أمَّا لو تمرد العبد وتكبر ، ولم ير نعم الله عليه ، ولم يعترف بها ، فهذا بعيدٌ عن منزلة الشكر ، ثم لابد أن يشكر الله تعالى بحبٍّ ؛ ففرقٌ كبير بين من يشكر على الإكراه وبين من يشكر من منطلق الحب .

وأن يثني الشاكر على الله سبحانه وتعالى بنعمه ، ومن أعظم قواعد الشكر ألا يستعمل العبدُ نعم الشكور في معاصيه ؛ فإذا أنعم الله عليك بنعمة

(١) « عدة الصابرين » (٢٢٠ ـ ٢٢٤) .

(٢) « المدارج » (٢/ ٢٣٤) .

العافية ؛ فلا تستعملها في معصيته ، إذا أنعم الله عليك بنعمة الوجاهة والمنصب وأردت أن تشكره على هذه النعمة ، فلا توظف المنصب في الصدِّ عن سبيل الله وفي ظلم العباد ، وفي التفنن في التضييق على خلق الله ، وفي الحيلولة دون فضل الله سبحانه وتعالى أن يصل إلى أحد من الخلق ، فوظف منصبك ليقربك إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى ، إن منَّ الله عليك بالأولاد؛ فاشكر الله على هذه النعمة ؛ بأن تربي أولادك على ما يرضيه سبحانه وتعالى وعلى منهج نبيه ﷺ ، كذلك إن منَّ الله عليك بنعمة المال ؛ فشُكْرك لله أن توظف هذا المال في محابه وفيما يرضيه بعد أن تجمعه من الحلال ، إن أنعم الله عليك بنعمة العلم الشرعي ؛ فاشكر الله على هذه النعمة بعدم التواني والكسل ، وإنما تُحرِّكْ كلَّ لحظة من لحظات حياتك لتبلِّغ هذا العلم على بصيرة بما كان عليه الحبيب ﷺ ... وهكذا .

قال تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ ﴾ [سبأ:١٣] ؛ فليس الشكر كلمةً ترددها الألسنة أو قُبلاتٍ يطبعها العبد على ظهر يده بعد كلِّ مرتب مُغرٍ ، وبعد كلِّ وجبة شهية ، وبعد كل ثياب جميل ، وفقط ! لا بل لابد أن تعلم أن الشكر حقيقته أن تظهر آثار نعم الله على لسانك بالثناء وبالشكر .

تصور لو أن مسئولًا قدم لك خدمة كبيرة ستظل تتحدث للآخرين عما أسداه لك هذا المسؤول من جميل ، وهو عبدٌ من عباد الله أحسن إليك في أمر من الأمور ؛ فكيف تنسى إحسان المحسن الأول ؟ لو أنك عشت مع الشكر لعلمت أن الذي وجَّه قلب مَنْ أحسن إليك هو الله [1] ؛ فعليك أن تشكر

(١) قال محمد بن المنكدر لأبي حازم : « يا أبا حازم ، ما أكثر من يلقاني فيدعو لي بالخير ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيرًا قط ! فقال أبو حازم : « لا تظن أن ذلك من قبلك ، ولكن انظر إلى=

الملك الذي وجَّه قلب من أعطاك وحَوَّل قلبه لك ، ولَيَّن مفاصله وجوارحه ، فلا تنس المحسن الأول وهو الله الشكور جلَّ جلاله ؛ فلابد أن يظهر أثر النعمة على لسانك : بالثناء على الله ، بالشكر له ، والحمد له سبحانه ، ثم إن وفقك لتشكر ؛ فتوفيقه لك نعمة تستحق الشكر ؛ كما قال الأول :

لك الحمد يا رب على كلِّ نعمة ومن أفضل النعماء قولي لك الحمد

فمن أفضل نعم الله عليك أن وفقك لتحمده ولتشكره ؛ فتقول : الحمد لله ، ثم تحمده على ذلك ، وهكذا ستستمر في حمد الله دائمًا وأبدًا[1] .

وستظلُّ ساجدًا لله ، شاكرًا لأنعمه ، وأنت على يقين أنك لن توفي الله شكره ، وستظلُّ مدينًا ملازمًا لعبودية الشكر .

قال ابنُ القيم[2] : « الشكر على الشكر أتم من الشكر ، وذلك أن ترى شكرك بتوفيقه ، وذلك التوفيق من أَجَلِّ النعم عليك ، تشكر على الشكر ، ثم تشكره على الشكر » .

فأول علامات الشكر : أن يظهر أثر النعمة على لسانك بالثناء والشكر

= الذي ذلك من قبله ؛ فاشكُره » ، كما في (« الشكر » ١٠٨ لابن أبي الدنيا) ، و« الحلية » (٣/ ٢٣٣) .

(١) قال ابن أبي الدنيا : أنشد محمود الوراق :

إذا كان شكري نعمة الله نعمة عليَّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف وقوع الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مسَّ بالسراء عمَّ سرورها وإن مسَّ بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه منَّةٌ تضيق بها الأوهام والبر والبحر

انظر : « الشكر » (٨٣) و« الشعب » (٤٠٩٩) .

(٢) « عدة الصابرين » (٣٠٤) .

والحمد : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى:١١] .

ونعم الله عليك لا تعدُّ ولا تحصى ؛ فهل تفكرت في نعمة « التنفُّس » وفي نعمة «التبوُّل» و«الشم» و«الإحساس» و«الجهاز الهضمي» و«القلب» و«العقل» .. والله لو فكرت في نفسك وفي خلقك لطاش عقلك ، ولازداد حبك لربك .

فقاعدةٌ عظيمة من قواعد الشكر ، ألا وهي : أن تعترف بنعم الله عليك ، وأنَّ فضله عليك عظيم ، ومن تمام ذلك أن ترى أنك لست أهلًا لهذه النعم ؛ كما قال الجنيد رحمه الله : « الشكر : أن لا ترى نفسك أهلًا للنعمة »[1] .

فأنا وأنت من المقصرين في طاعة ربِّ العالمين ، ومع ذلك يتودد الله إليَّ وإليك بالنعم ؛ لذا فأنت تشعر دائمًا بالفقر والعجز ، وأنك ما وفيت الله حقه .

وكان أبو المغيرة إذا قيل له : كيف أصبحت يا أبا محمد ؟ قال : « أصبحنا مغرقين في النعم عاجزين عن الشكر ، يتحبب إلينا ربُّنا وهو غنيٌّ عنا ، ونتمقَّت إليه ونحن إليه محتاجون »[2] .

ومن قواعد الشكر : الثناء على المنعم ؛ فقد قيل : « الشكر هو التلذذ بثنائه على ما لم تستوجبه من عطائه » .

وقيل : « من قصرت يداه عن المكافآت ؛ فليُطِلْ لسانَهُ بالشكر » .

والشكر معه المزيد أبدًا ؛ كما قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧]

فمتى لم تر حالك في مزيد ؛ فاستقبل الشكر .

---

(١) « المدارج » (٢/ ٢٣٥) .

(٢) « المدارج » (٢/ ٢٣٦) ، و« عدة الصابرين » (٣٠٦) .

وقد قيل : « من كتم النعمة فقد كفرها ، ومن أظهرها فقد شكرها » .

ولله درُّ من قال :

ومن الرزية أن شُكري صامتٌ عمَّا فعَلْتَ وأن بِرَّك ناطقُ

وأرَى الصَّنيعةَ مِنْك ثم أُسِرُّها إنِّي إذًا لِنَدى الكريمِ لسارِقُ [(١)]

وهناك أناسٌ كثيرون متخصصون في كتمان النعم ؛ فأذكر أن أحد إخواننا ذهب إلى أحد التُجَّار في دولةٍ من دول الخليج ليطلب منه المساهمة في مساعدة المسلمين في البوسنة ـ في هذه الآونة ـ فماذا ردَّ عليه هذا التاجر الثريُّ ، قال له : مِنْ أين أعطيك ؟! فبدأ الأخ ـ جزاه الله خيرًا ـ يُذَكِّره بالله تعالى وبفضل الله عليه ، وهكذا جعل يذكره مرة ومرتين وثلاثًا ؛ فما كان من هذا التاجر إلا أن سبَّه وطرده ، ثم بصق في وجهه ! والأخ ثابت لا يتزعزع ، بل وتبسم لهذا التاجر ، ومسح البصاق من على وجهه ، ثم قال له : هذه لي وأنا قَبِلْتُها ؛ فماذا تعطي لله ؟!! تدبر أخي كيف صبر هذا الأخ الكريم على هذا الأذى في سبيل الله تعالى ؟!

فكانت هذه الكلمات منه مسار تحوُّل في حياة التاجر ؛ فلقد بكى من هذا الصنيع ، وتأثر من الموقف تأثرًا عجيبًا ؛ فقام على الفور وفتح خزانة الأموال الكثيرة ، وقال لهذا الرجل الصالح : خذ جميع ما ههنا من أموال ، ولا تبق فيها دينارًا واحدًا!!

فنسأل الله أن يرزقنا وإياكم من فضله العظيم .

فمن الرزية أن شُكري صامتٌ عمَّا فعَلْتَ وأن بِرَّك ناطقُ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « الشكر » (٤٥) .

فاشكر الله على نعمه التي أغرقك فيها من رأسك إلى أخمص قدميك .

فقد روى الترمذيُّ في « السنن »[(١)] بسندٍ حسَّنهُ شيخنا الألباني من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ » . وفي رواية[(٢)] : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ » .

ومصداقه الآية التي سيقت قبل ذلك ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى:١١] .

قال ابنُ القيم[(٣)] : «وفي هذا التحديث المأمور به قولان :

أحدهما : أنه ذكر النعمة ، والإخبار بها ، وقوله : أنعم الله عليَّ بكذا وكذا .

قال مقاتل : « يعني : اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة : من جبر اليتم ، والهدى بعد الضلال ، والإغناء بعد العَيْلة » .

والتحدث بنعمة الله شُكْر ؛ كما في حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا[(٤)] : « مَنْ صُنِعَ

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الأدب ، باب ما جاء إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده (٢٨١٩) ، وقال : « هذا حديث حسن ، وفي الباب عن أبي الأحوص عن أبيه ، وعمران بن حصين ، وابن مسعود » ، وصحَّحه من هذه الطرق العلامة الألباني في « الصحيحة » (١٢٩٠ و ١٣٢٠) .

(٢) عند الطحاويِّ في « المشكل » (٤/ ١٥١) ، وابن سعد في « الطبقات » (٤/ ٢٩١) و(٧/ ١٠) ، وراجع « غاية المرام » (٧٥) .

(٣) « المدارج » (٢/ ٢٣٨ و ٢٣٩) .

(٤) أخرجه عبد بن حميد في « المنتخب » (١١٤٧) ، والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (٢١٥ فضل الله الصمد) وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب في شكر المعروف (٤٨١٣) ، والترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في المتشبع بما لم يعطه (٢٠٣٤) ، وابن عدي (١/ ٣٦٤) من حديث جابر رضي الله عنه . قال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب » ، وله شاهد عن عائشة ؛ أخرجه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٧٩) والبزار ؛ كما في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٦٥) ، قال الهيثمي:=

إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ ؛ فَلْيَجْزِ بِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَا يَجْزِي بِهِ ؛ فَلْيُثْنِ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ إِذَا أَثْنَى عَلَيْهِ ، فَقَدْ شَكَرَهُ ، وَإِنْ كَتَمَهُ ، فَقَدْ كَفَرَهُ ، وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَ ، كَانَ كَلابِسِ ثَوْبَيْنِ مِنْ زُورٍ » .

فذكر أقسام الخلق الثلاثة : شاكر النعمة المثني بها ، والجاحد لها والكاتم لها .

والمظهر أنه من أهلها ، وليس من أهلها ؛ فهو متحلٍّ بما لم يعطه .

وفي أثر آخر مرفوع : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ »[1] .

والقول الثاني : أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية : هو الدعوة إلى الله ، وتبليغ رسالته ، وتعليم الأمة ؛ قال مجاهد : « هي النبوة » .

قال الزجاج : « أي : بلِّغ ما أرسلت به ، وحدث بالنبوة التي آتاك الله » .

وقال الكلبي : « هو القرآن ، أمره أن يقرأه » .

قال ابنُ القيم: «والصواب : أنه يعم النوعين ؛ إذ كلٌّ منهما نعمةٌ مأمورٌ بشكرها والتحدث بها ، وإظهار شكرها ».

وقال فضيل بن عياض : « كان يقال : من عرف نعمة الله بقلبه ، وحمده

= « وفيه صالح بن أبي الأخضر وهو ضعيف » ، والحديث صحّحه بشواهده العلامة الألباني في « الصحيحة » (٦١٧) و« صحيح الجامع » (٦٠٥٦) .

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٧٨) ، وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٤/ ٣٧٥) ، وابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٧٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٤/ ١٠٢) ، و(٦/ ٥١٦) ، والبزار كما في « البحر الزخار » (٢٧٩١) . قال الهيثمي في « المجمع » (٥/ ٣٩٢) : « رواه عبد الله بن أحمد والبزار والطبراني ورجالهما ثقات » ، وقال المنذري في « الترغيب » : « إسناده لا بأس به » ، وصححه العلامة الألباني في « الصحيحة » (٦٦٧) ، وحسنه في « صحيح الجامع » (٣٠١٤) ، و« صحيح الترغيب » (٩٧٦) .

بلسانه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة ؛ لقول الله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[إبراهيم:٧] ، وقال : « مِنْ شُكْرِ النعمة أن يُحدِّث بها » [(١)] .

وأعظم نعمة تستحق الشكر ؛ هي نعمة الهداية والإسلام ؛ قال عبد الملك ابن مروان : « ما قال عبد كلمة أحب إلى الله وأبلغ في الشكر عنده من أن يقول : الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا للإسلام » [(٢)] .

وقال سفيان بن عيينة [(٣)] : « ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرَّفهم : لا إله إلا الله ، قال : وأن لا إله إلا الله في الآخرة كما في الدنيا » .

وكان الحسن إذا ابتدأ حديثه يقول [(٤)] : « الحمد لله ربنا لك الحمدُ بما خلقتنا ، ورزقتنا ، وهديتنا ، وعلمتنا ، وأنقذتنا ، وفرَّجتَ عنا ، لك الحمد بالإسلام والقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة ، كَبَتَّ عدونا ، وبسطت رزقنا ، وأظهرت أمننا ، وجمعت فرقتنا ، وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا ؛ فلك الحمد على ذلك حمدًا كثيرًا ، لك الحمد بكلِّ نعمة أنعمت بها علينا في قديم أو حديث ، أو سرٍّ أو علانية ، أو خاصة أو عامة ، أو حي أو ميت ، أو شاهد أو غائب ، لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت » .

وقال سعد بن مسعود الثقفي : « إنما سُمِّي نوحٌ عبدًا شكورًا ؛ لأنه لم يلبس جديدًا ، ولم يأكل طعامًا إلا حمد الله » [(٥)] .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « الشكر » (٥٦) .

(٢) « الشكر » (١٠) .

(٣) « الشكر » (٩٧) ، و « الحلية » لأبي نعيم (٧/ ٢٧٢) ، و« الشعب » للبيهقي (٤١٨١) .

(٤) « الشكر » (١١) .

(٥) « الشكر » (١٤) .

وقد ثبت في « صحيح مسلم »[(١)] من حديث أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسولُ الله ﷺ : « إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا ، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا » .

فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة:٧٢] ، في مقابلة شكره بالحمد .

لذا قال الحسن البصري : « إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء ؛ فإذا لم يشكره عليها قلبها عذابًا »[(٢)] .

ولهذا كانوا يسمون الشكر « الحافظ » ؛ لأنه يحفظ النعم الموجودة ، و«الجالب» ؛ لأنه يجلب النعم المفقودة .

فالنعمةُ موصولةٌ بالشكر ، والشكر يتعلق بالمزيد ، وهما مقرونان في قرن ، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد[(٣)] .

وكان يقال : « قيدوا نعم الله بشكر الله »[(٤)] .

قال الحسن : « أكثروا من ذكر هذه النعم ؛ فإن ذكرها شكر »[(٥)] .

وقد ذم الله سبحانه الكنود ، وهو الذي لا يشكر نعمه ؛ قال الحسن : « ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات:٦] : يعدد المصائب ، وينسى النعم »[(٦)] .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب (٢٧٣٤) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « الشكر » (١٧) .

(٣) روي ذلك عن عليٍّ ﷺ ؛ كما في « الشكر » لابن أبي الدنيا (١٨) .

(٤) « الشكر » (٢٧) .

(٥) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٣٤) .

(٦) « الشكر » (٦٢) ، والطبري في « تفسيره » (٣/ ١٨٠) .

وقد أخبر النبيُّ ﷺ أن النساء أكثر أهل النار بهذا السبب ؛ فقال : « لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ : مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ »[1] .

فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج وهي في الحقيقة من الله ؛ فكيف بمن ترك شكر نعمة الله ؟!

يا أيها الظالم في فعله والظلم مردودٌ على من ظلم

إلى متى أنت وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النعم[2]

لذا كان حبيبنا ﷺ كثير الشكر للنعم ؛ فقد روى النسائيُّ في « الكبرى » ، وابن أبي الدنيا في «الشكر» وابن حبان في «صحيحه» ، والطبرانيُّ في «الكبير» والبيهقي في « الشعب » ، وغيرهم[3] بسندٍ حسن من حديث أبي هريرة ﷺ قال : دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ ، قال : فانطلقنا معه ، فلما طعم وغسل يده ، قال : « الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَ وَلَا يُطْعَمُ ، مَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا ، وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا ، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا ، الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ ، وَكَسَا مِنَ العُرْيِ ، وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ ، وَبَصَّرَ مِنَ العَمَى ، وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا ، الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب « الإيمان » (٢٩) ، ومسلم ، كتاب صلاة الكسوف (٩٠٧) عن ابن عباس .

(٢) « الشكر » لابن أبي الدنيا (٦٣) ، و« الشعب » للبيهقي (٤٣١٠) ، و« عدة الصابرين » لابن القيم (٢٢٦ ـ ٢٣٤ ط ابن عباس) .

(٣) أخرجه النسائيُّ في « الكبرى » (١٠١٣٣) ، وابن أبي الدنيا في « الشكر » (١٥) ، وابن حبان (٥٢١٩) ، والطبراني في « الكبير » (٦/ ٣٨) وفي « الدعاء » (٨٩٦) ، والحاكم (١/ ٥٤٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٠٦٧) وفي « الدعوات » (٤٣٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٤) من طريق : سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعًا .

وفي « سنن » أبي داود والترمذي وابن ماجه [(١)] من حديث أبي بكرة نفيع ابن الحارث ﷺ قال : « كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا جَاءَهُ أَمْرُ سُرُورٍ أَوْ بُشِّرَ بِهِ خَرَّ سَاجِدًا شَاكِرًا لله » .

وفي «صحيح مسلم» [(٢)] من حديث عائشة ﷺ قالت : فَقَدْتُ رَسُولَ الله ﷺ لَيْلَةً مِنَ الفِرَاشِ ، فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي المَسْجِد ، وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ : « اللَّهمَّ ! أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » .

وتقدم حديث تورم قدميه في الصلاة ؛ حتى قال : « أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا » .

ووصى النبيُّ ﷺ معاذ بن جبل ﷺ بالشكر ؛ كما في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي وأحمد [(٣)] من حديث معاذ بن جبل ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال : « يَا مُعَاذُ ، والله إِنِّي لأُحِبُّكَ ، والله إِنِّي لأُحِبُّكَ ، والله إِنِّي لأُحِبُّكَ، فَلا تَدَعَنَّ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ » .

وفي « صحيح مسلم » و « مسند أحمد » [(٤)] ـ واللفظ له ـ من حديث أبي

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الجهاد باب في سجود الشكر (٢٧٧٤) ، والترمذي كتاب السير ، باب سجدة الشكر (١٥٧٨) ، بدون قوله : شاكرًا ـ وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء في الصلاة والسجدة عند الشكر (١٣٩٤) ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب ما يُقال في الركوع والسجود (٤٨٦) .

(٣) تقدم ، وهو صحيح .

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب (٥٣) (٢٩٦٨) ، وأحمد (٢/ ٤٩٢) ، واللفظ له ، وصححه الشيخ الأرناؤوط .

هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ الله عز وجل - يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا ابْنَ آدَمَ حَمَلْتُكَ عَلَى الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ ، وَزَوَّجْتُكَ النِّسَاءَ ، وَجَعَلْتُكَ تَرْبَعُ وَتَرْأَسُ ؛ فَأَيْنَ شُكْرُ ذَلِكَ ؟ » .

ومن قواعد الشكر - كما تقدَّم - ألا يستعمل العبد النعم في معصية الله ؛ قال مخلد بن الحسين : « كان يُقال : الشكر ترك المعاصي » [(١)] .

وفي « الحلية » لأبي نعيم ، و« الشعب » للبيهقي [(٢)] أن رجلًا قال لأبي حازم :

ما شكر العينين يا أبا حازم ؟

قال : « إن رأيت بهما خيرًا أعلنته ، وإن رأيت بهما شرًّا سترته » .

قال : فما شكر الأذنين ؟

قال : « إن سمعت بهما خيرًا وعيته ، وإن سمعت بهما شرًّا أخفيته » .

قال : فما شكر اليدين ؟

قال : « لا تأخذ بهما ما ليس لهما ، ولا تمنع حقًّا لله عزَّ وجلَّ هو فيهما » .

قال : فما شكر البطن ؟ قال : « أن يكون أسفله طعامًا ، وأعلاه علمًا » .

قال : ما شكر الفرج ؟

قال : «كما قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المعارج:٣٠،٣١]» .

قال : فما شكر الرِّجْلَيْنِ ؟

---

(١) « الشكر » لابن أبي الدنيا (٤١) و« شعب الإيمان » للبيهقي (٤٥٤٧) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٥٤٦) ، وابن أبي الدنيا في « الشكر » (١٢٩) .

قال : « إن رأيت حيًّا غبطته استعملت بهما عمله ، وإن رأيت ميتًا مقته كففتهما عن عمله ، وأنت شاكر لله ﷻ ، فأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمَثَلُه كمثلِ رجلٍ له كساء ، فأخذ بطرفه ولم يلبسه ، فلم ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر » .

درجات الشكر :

وهو على ثلاث درجات[1] :

« الدرجة الأولى : الشكر على المحاب ، وهذا شكر تشاركت فيه المسلمون واليهود والنصارى والمجوس ، ومن سعة رحمة الباري سبحانه : أن عَدَّه شكرًا ، ووعد عليه الزيادة ، وأوجب فيه المثوبة » .

فعلَّق ابنُ القيم بقوله :

إذا علمت حقيقة « الشكر » وأن جزء حقيقته : الاستعانة بنعم المنعم على طاعته ومرضاته ، عَلِمْت اختصاص أهل الإسلام بهذه الدرجة ، وأن حقيقة الشكر على المحاب ليست لغيرهم ، نعم لغيرهم منها بعض أركانها وأجزائها ؛ كالاعتراف بالنعمة ، والثناء على المنعم بها ؛ فإن جميع الخلق في نعم الله ، وكل من أقر بالله ربًّا ، وتفرده بالخلق والإحسان ؛ فإنه يضيف نعمته إليه ، لكن الشأن في تمام حقيقة الشكر ، وهو الاستعانة بها على مرضاته ، وقد كتبت عائشة ﵂ إلى معاوية ﵁ : « إن أقل ما يجب للمنعم على من أنعم عليه : « أن لا يجعل ما أنعم عليه سبيلًا إلى معصيته » .

فهذا الجزء من الشكر مشترك ، وقد تكون ثمرته في الدنيا بعاجل الثواب ، وفي الآخرة : بتخفيف العقاب ، فإن النار دركات في العقوبة مختلفة .

---

(١) والتقسيم لصاحب المنازل ؛ كما في « المدارج » (٢/ ٢٤٣ وما بعدها) .

قال : « الدرجة الثانية : الشكر في المكاره ، وهذا ممن تستوي عنده الحالات : إظهارًا للرضا ، وممن يميز بين الأحوال : لكظم الغيظ ، وستر الشكوى ، ورعاية الأدب ، وسلوك مسلك العلم » .

يعني أن الشكر على المكاره : أشد وأصعب من الشكر على المحاب ، ولهذا كان فوقه في الدرجة ، ولا يكون إلا من أحد رجلين :

إما رجل لا يميز بين الحالات ؛ بل يستوي عنده المكروه والمحبوب ؛ فشكر هذا : إظهار للرضا بما نزل به ، وهذا مقام الرضا .

الرجل الثاني : من يميز بين الأحوال ، فهو لا يحب المكروه ، ولا يرضى بنزوله به ، فإذا نزل به مكروه شكر الله تعالى عليه ، فكان شكره كظمًا للغيظ الذي أصابه ، وسترًا للشكوى ، ورعاية منه للأدب ، وسلوكًا لمسلك العلم ، فإن العلم والأدب يأمران بشكر الله على السراء والضراء ، فهو يسلك بهذا الشكر مسلك العلم ؛ لأنه شاكر لله شكر من رضي بقضائه ، كحال الذي قبله ، فالذي قبله : أرفع منه .

قال : « الدرجة الثالثة : أن لا يشهد العبد إلا المنعم ، فإذا شهد المنعم عبودية : استعظم منه النعمة ، وإذا شهده حبًا : استحلى منه الشدة ، وإذا شهده تفريدًا : لم يشهد منه نعمة ، ولا شدة » .

هذه الدرجة يستغرق صاحبها بشهود المنعم عن النعمة ؛ فلا يتسع شهوده للمنعم ولغيره .

فأما شهود العبودية ؛ فهو مشاهدة العبد للسيد بحقيقة العبودية والملك له ، فإن العبيد إذا حضروا بين يدي سيدهم ، فإنهم ينسون ما هم فيه من الجاه والقرب الذي اختصوا به عن غيرهم باستغراقهم في أدب العبودية

وحقها ، وملاحظتهم لسيدهم ؛ خوفًا أن يشير إليهم بأمر ، فيجدهم غافلين عن ملاحظته ، وهذا أمر يعرفه من شاهد أحوال الملوك وخواصهم .

فهذا هو شهود العبد للمنعم بوصف عبوديته له ، واستغراقه عن الإحسان بما حصل له منه من القرب الذي تميز به عن غيره .

فصاحب هذا المشهد : إذا أنعم عليه سيده في هذه الحال ـ مع قيامه في مقام العبودية يوجب عليه أن يستصغر نفسه في حضرة سيده غاية الاستصغار ، مع امتلاء قلبه من محبته ؛ فأيُّ إحسان ناله منه في هذه الحالة رآه عظيمًا ، والواقع شاهد بهذا في حال المحب الكامل المحبة ، المستغرق في مشاهدة محبوبه إذا ناوله شيئًا يسيرًا ؛ فإنه يراه في ذلك المقام عظيمًا جدًّا ، ولا يراه غيره كذلك .

القسم الثاني : يشهد الحق شهود محبة غالبة قاهرة له ، مستغرق في شهوده كذلك ، فإنه يستحلي في هذه الحال الشدة منه ؛ لأن المحب يستحلي فعل المحبوب به .

القسم الثالث: أن يشهده تفريدًا ؛ فإنه لا يشهد معه نعمة ولا شدة». انتهى .

الفرق بين الحمد والشكر :

« وتكلم الناس في الفرق بين « الحمد » و « الشكر » أيهما أعلى وأفضل ؟ وفي الحديث : « الْحَمْدُ رَأْسُ الشُّكْرِ ، فَمَنْ لَمْ يَحْمَدِ الله لَمْ يَشْكُرْهُ » [1] .

والفرق بينهما : أن « الشكر » أعم من جهة أنواعه وأسبابه ، وأخص من جهة متعلقاته ، و « الحمد » أعم من جهة المتعلقات ، وأخص من جهة الأسباب .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (١٩٥٧٤) ، ومن طريقه البيهقيُّ في « الشعب » (٤٣٩٥) ، و« الآداب » (٧١٦) ، وضعفه العلامة الألبانيُّ في « الضعيفة » (١٣٧٢) و « ضعيف الجامع » (٢٧٩٠) .

ومعنى هذا : أن الشكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانة ، وباللسان ثناءً واعترافًا ، وبالجوارح طاعة وانقيادًا ، ومتعلقهُ : النعم ، دون الأوصاف الذاتية ؛ فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه ، وهو المحمود عليها ، كما هو محمود على إحسانه وعدله ، والشكر يكونُ على الإحسان والنعم .

فكلُّ ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس ، وكلُّ ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ؛ فإن الشكر يقع بالجوارح ، والحمد يقع بالقلب واللسان » [١] .

الفرق بين الصبر والشكر :

قال ابن حجر في « الفتح » [٢] : « والحاصل أن الشكر واجب ، وترك الواجب حرام ، وفي شغل النفس بفعل الواجب صبر على فعل الحرام ، والحاصل أن الشكر يتضمن الصبر على الطاعة ، والصبر على المعصية ، قال بعض الأئمة : الصبر يستلزم الشكر لا يتم إلا به ، وبالعكس فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر ، فمن كان في نعمة ففرضه الشكر والصبر [٣] ، أما الشكر فواضحٌ ، وأما الصبر فعن المعصية ، ومن كان في بلية ، ففرضه الصبر والشكر ، أما الصبر فواضح ، وأما الشكر فالقيام بحق الله عليه في تلك البلية ؛ فإن لله على العبد عبودية في البلاء كما له عليه عبودية في النعماء » .

مسألة :

قال الحافظ في « الفتح » [٤] : « اختلف الناسُ في أيهما أفضل : الفقير

---

(١) « المدارج » (٢/ ٢٣٦ و٢٣٧) وانظر « الفروق » لأبي هلال العسكري (٤٥) .

(٢) « فتح الباري » (١١/ ٣١١) ، وتوسع في ذلك العلامة ابن القيم في « عدة الصابرين » (٣٠٧) .

(٣) أي : الواجب عليه .

(٤) « فتح الباري » (٩/ ٤٩٦) .

الصابر أم الغني الشاكر ؟ والتحقيق عند أهل الحِذْقِ أن لا يجاب في ذلك بجواب كُلّيٍّ ؛ بل يختلف الحالُ باختلاف الأشخاص والأحوال » .

وقد عرض هذه المسألة بتوسع العلامة ابن القيم في كتابه القيم « عدة الصابرين » ، وقال : « هذه مسألة كثر فيها النزاع » ثم نقل في الأخير قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ؛ فقال [(١)] : وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ عن هذه المسألة ؛ فقال : « قد تنازع كثير من متأخري المسلمين في « الغني الشاكر ، والفقير الصابر » أيهما أفضل ؟ فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد ، ورجح هذا طائفة من العلماء والعباد ، وقد حكى في ذلك عن الإمام أحمد روايتان ، وأما الصحابة والتابعون ، فلم ينقل عنهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر ، وقالت طائفة ثالثة : ليس لأحدهما على الآخر فضيلة إلا بالتقوى ؛ فأيهما كان أعظم إيمانًا وتقوى كان أفضل ، وإن استويا في ذلك استويا في الفضيلة ، وهذا أصحُّ الأقوال [(٢)] ؛ لأن الكتاب والسنة إنما تُفَضِّل بالإيمان والتقوى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾[النساء:١٣٥] .

وقد كان في الأنبياء والسابقين الأولين من الأغنياء من هو أفضل من أكثر الفقراء ، وكان فيهم من الفقراء من هو أفضل من أكثر الأغنياء ، والكاملون يقومون بالمقامين ، فيقومون بالشكر والصبر على التمام ، كحال نبينا ﷺ وحال أبي بكر وعمر ﷺ ، ولكن قد يكون الفقر لبعض الناس أنفع من الغنى ، والغنى أنفع لآخرين كما تكون الصحة لبعضهم أنفع » .

---

(١) « عدة الصابرين » (٣٤٨ ـ ٣٥٦) ، وانظر « مجموع الفتاوى » (١١/ ١٢٠) .

(٢) وهذا هو الذي رجحه ابن القيم ﷺ في « عدة الصابرين » (٣١٠) ط ابن عباس .

لفتة :

روى أبو نعيم في « الحلية » [1] من طريق : عمرو بن السكن قال : كنت عند سفيان بن عيينة ؛ فقام إليه رجل من أهل بغداد ؛ فقال : يا أبا محمد أخبرني عن قول مطرف : « لأن أعافى فأشكر أحب إليَّ من أن أبتلى فأصبر » ، أهو أحبُّ إليك ، أم قول أخيه أبي العلاء : « اللهم رضيتُ لنفسي ما رضيتَ لي ؟ » ، قال : فسكت سكتة ، ثم قال : قول مطرف أحبُّ إلي ، فقال الرجل : كيف وقد رضي هذا لنفسه ما رضيه الله له ؟ قال سفيان : إني قرأتُ القرآن فوجدتُ صفة سليمان عليه السلام مع العافية التي كان فيها : ﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[ص:٣٠] ، ووجدت صفة أيوب عليه السلام مع البلاء الذي كان فيه : ﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ؛ فاستوت الصفتان ، وهذا معافى وهذا مبتلى ، فوجدت الشكر قد قام مقام الصبر ؛ فلما اعتدلا كانت العافيةُ مع الشكر أحبَّ إليَّ من البلاء مع الصبر » .

والله نسأل أن يرزقنا الشكر ، والاعتراف بنعمه ، اللهم أعنا على ذكرك وشكرك ، وحسن عبادتك ، والله الموفِّق والمعين .

*****

(١)(٢/ ٢١٢) و (٧/ ٢٨٣) ، و « تاريخ ابن عساكر » (٥٨/ ٣١٧) .

منزلة الحياء

الحياء : هو مشتقٌّ من الحياة ، وعلى حسب حياة القلب يكونُ فيه قوة خُلُقِ الحياء ؛ فكلَّما كان القلب أحيا كان الحياء أتم ، وقلَّة الحياء من موت القلب والروح ؛ كما قال ابنُ القيم لله درُّه[(١)] .

ولذا يُسمَّى الغيثُ والمطرُ «حَيا» بالقصر ؛ لأنه بالغيث تحيا الأرض ومَنْ عليها بأمر الله سبحانه ؛ وقد قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠][(٢)] ؛ فمَنْ لا حياء لهُ ميتٌ في الدنيا شقيٌّ في الآخرة !

والحياء هو : «خلقٌ يبعثُ على ترك القبيح ، ويمنع من التقصير في حقِّ ذي الحق »[(٣)] . يعني : صاحبُ الحياء يستحي أن يقصر في حق رجلٍ من أهل الحق .

وقال ابن عَلاَّن بفتح العين وهو من أهل اللغة[(٤)] : « الحياء خلق يبعث صاحبه على اجتناب القبيح من الأقوال والأفعال والأخلاق ، ويمنَع من التقصير في حق ذي الحق » .

ولله درُّ القائل :

إذا رُزق الفتـــى وجهًــا وقاحًـــا تقلَّـــب في الأمــور كـــما يشـــاء

ولم يـــكُ للـــدواء ولا لشيءٍ يعالجـــه بـــه فيـــه غَنـــاءُ

---

(١) «المدارج» (٤/ ٢٤٩) .

(٢) «المفردات للراغب» (١٤٦)، و«اللسان» (٢/ ٦٩٤ مادة حيا) .

(٣) «فتح الباري » (١/ ٩٤) ، و«الآداب الشرعية» (٢/ ٣٢٧) ، و«رياض الصالحين» (٢٩٥) .

(٤) «دليل الفالحين» (٢/ ٣٤) .

فما لك في معاتبة الذي لا ... حياء لوجهه إلا العناء

ورب قبيحة ما حال بيني ... وبين ركوبها إلا الحياء

فكان هو الدواء لها ولكن ... إذا ذهب الحياء فلا دواء[(١)]

قال مالك بن دينار رحمه الله: « ما عاقب الله تعالى قلبًا بأشد من أن يسلب منه الحياء » .

وقد اتفق أهل اللغة ـ تقريبًا ـ على أن الحياء ؛ كما قال ابنُ عَلاَّن [(٢)]: « هو تغيُّر وانكسارٌ يعتري الإنسان من خوف ما يُعاب به ويُذَمُّ عليه، أو انحصارُ النفس خوف ارتكاب القبائح» .

وقال الجرجانيُّ في « التعريفات » [(٣)]: « الحياء : انقباضُ النفس من شيء ، وتركه حذرًا عن اللوم فيه ؛ وهو نوعان : نفسانيٌّ ، وهو الذي خلقه الله تعالى في النفوس كلِّها ؛ كالحياء من كشف العورة ، والجماع بين الناس ، وإيمانيٌّ : وهو أن يمتنع المؤمن من فعل المعاصي خوفًا من الله تعالى » . وتوضيح أنواعِهِ فيما يأتي .

أقسام الحياء :

قال ابنُ القيم رحمه الله [(٤)] : وقد قسم الحياء على عشرة أوجه : حياء جناية ، وحياء تقصير ، وحياء إجلال ، وحياء كرم ، وحَيَاءُ حِشْمَةٍ ، وَحَيَاءُ اسْتِحْقَارِ النَّفْسِ (اسْتِصْغَارِهَا) ، وَحَيَاءُ مَحَبَّةٍ ، وَحَيَاءُ عُبُودِيَّةٍ ، وَحَيَاءُ شَرَفٍ

---

(١) « روضة العقلاء » لابن حبان (٥٨) .

(٢) « دليل الفالحين » (٢/ ٣٤) .

(٣) « التعريفات » (٩٨) وراجع « الآداب الشرعية » لابن مفلح (٢/ ٣٢٧) .

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٥١) باختصار وتصرف يسير .

وَعِزَّةٍ ، وَحَيَاءُ الْمُسْتَحْيِي مِنْ نَفْسِهِ .

١ـ فَأَمَّا حَيَاءُ الجِنَايَةِ ؛ كحياء آدم بعد أكله من الشجرة .

٢ـ وَحَيَاءُ التَّقْصِيرِ : كَحَيَاءِ المَلاَئِكَةِ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ، فإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ قَالُوا : « سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ »[1] .

٣ـ وَحَيَاءُ الإِجْلاَلِ : هُوَ حَيَاءُ المَعْرِفَةِ ، وَعَلَى حَسَبِ مَعْرِفَةِ العَبْدِ بِرَبِّهِ يَكُونُ حَيَاؤُهُ مِنْهُ .

٤ـ وَحَيَاءُ الكَرَمِ : كَحَيَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ دَعَاهُمْ إِلَى وَلِيمَةِ زَيْنَبَ ، وَطَوَّلُوا الجُلُوسَ عِنْدَهُ ، فَقَامَ واسْتَحْيَى أَنْ يَقُولَ لَهُمْ : « انْصَرِفُوا »[2] .

٥ـ وَحَيَاءُ الحِشْمَةِ : كَحَيَاءِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَنْ يَسْأَلَ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الْمَذْيِ لِمَكَانِ ابْنَتِهِ مِنْهُ[3] .

٦ـ وَحَيَاءُ الاسْتِحْقَارِ ، وَاسْتِصْغَارِ النَّفْسِ : كَحَيَاءِ العَبْدِ مِنْ رَبِّهِ ﷻ حِينَ يَسْأَلُهُ حَوَائِجَهُ ، احْتِقَارًا لِشَأْنِ نَفْسِهِ ، واسْتِصْغَارًا لَهَا . وَقَدْ يَكُونُ لِهَذَا النَّوعِ سَبَبَانِ :

أَحَدُهُمَا : اسْتِحْقَارُ السَّائِلِ نَفْسَهُ . وَاسْتِعْظَامُ ذُنُوبِهِ وَخَطَايَاهُ .

الثَّانِي : اسْتِعْظَامُ مَسْئُولِهِ (وَهُوَ المَوْلَى ﷻ) .

٧ـ وَأَمَّا حَيَاءُ المَحَبَّةِ : فَهُوَ حَيَاءُ الْمُحِبِّ مِنْ مَحْبُوبِهِ ، حَتَّى إِنَّهُ إِذَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِهِ فِي غَيْبَتِهِ هَاجَ الحَيَاءُ مِنْ قَلْبِهِ ، وَأَحَسَّ بِهِ فِي وَجْهِهِ وَلاَ يَدْرِي مَا سَبَبُهُ .

---

(١) تقدّم ، وهو في « الصحيحة » (٩٤١) وراجع « الضعيفة » (١٩٨٨) .

(٢) كما في « صحيح البخاري » كتاب التفسير (٤٧٩١ : ٤٧٩٤) ، ومسلم ، كتاب النكاح (١٤٢٨) .

(٣) كما في « صحيح البخاري » كتاب الوضوء (١٧٨) ، ومسلم ، كتاب الحيض (٣٠٣) .

وَكَذَلِكَ يَعْرِضُ لِلْمُحِبِّ عِنْدَ مُلاَقَاتِهِ مَحْبُوبَهُ وَمُفَاجَأَتِهِ لَهُ رَوْعَةٌ شَدِيدَةٌ . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ « جَمَالٌ رَائِعٌ » وَسَبَبُ هَذَا الحَيَاءِ والرَّوْعَةِ مِمَّا لاَ يَعْرِفُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ ، فَإِذَا فَاجَأَ المَحْبُوبُ مُحِبَّهُ ، وَرَآهُ بَغْتَةً ، أَحَسَّ القَلْبُ بِهُجُومِ سُلْطَانِهِ عَلَيْهِ فَاعْتَرَاهُ رَوْعَةٌ وَخَوْفٌ .

٨ـ وَأَمَّا حَيَاءُ العُبُودِيَّةِ : فَهُوَ حَيَاءٌ مُمْتَزِجٌ مِنْ مَحَبَّةٍ وَخَوْفٍ ، وَمُشَاهَدَةِ عَدَمِ صَلاَحِ عُبُودِيَّتِهِ لِمَعْبُودِهِ ، وَأَنَّ قَدْرَهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ مِنْهَا ، فَعُبُودِيَّتُهُ لَهُ تُوجِبُ اسْتِحْيَاءَهُ مِنْهُ لاَ مَحَالَةَ .

٩ـ وأَمَّا حَيَاءُ الشَّرَفِ وَالعِزَّةِ : فَحَيَاءُ النَّفْسِ العَظِيمَةِ الكَبِيرَةِ إِذَا صَدَرَ مِنْهَا مَا هُوَ دُونَ قَدْرِهَا مِنْ بَذْلٍ أَوْ عَطَاءٍ أَوْ إِحْسَانٍ ، فَإِنَّهُ يَسْتَحْيِي مَعَ بَذْلِهِ حَيَاءَ شَرفِ نَفْسٍ وَعِزَّةٍ .

١٠ـ وَأَمَا حَيَاءُ المَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ : فَهُوَ حَيَاءُ النُّفُوسِ الشَّرِيفَةِ الْعَزِيزَةِ الرَّفِيعَةِ مِنْ رِضَاهَا لِنَفْسِهَا بِالنَّقْصِ ، وَقَنَاعَتِهَا بِالدُّونِ ، فَيَجِدُ نَفْسَهُ مُسْتَحيِيًا مِنْ نَفْسِهِ ، حَتَّى كَأَنَّ لَهُ نَفْسَيْنِ ، يَسْتَحيِي بِإِحْدَاهُمَا مِنَ الْأُخْرَى ، وَهَذَا أَكْمَلُ مَا يَكُونُ مِنَ الحَيَاءِ . فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اسْتَحْيَى مِنْ نَفْسِهِ فَهُوَ بِأَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْ غَيرِهِ أَجْدَر » انتهى .

وهو نوعان [1]: **النوع الأول** : حياء جبليٌّ فطريٌّ غريزيٌّ ، وهو الذي فطر الله عليه الناس ؛ كالحياء من كشف العورة ، ومباشرة المرأة بين الناس ـ كما تقدَّم ـ وهذا حياء آدم وحواء عليهما السلام لما خالفا أمر الله ، وأكلا من الشجرة ، وظهرت عوراتها ، فأسرعا إلى ستر العورة بورق من الشجرة ؛ قال تعالى : ﴿ فَأَكَلَا

---

(١) « جامع العلوم والحكم » (حديث ٢٠) (١ ٥٠ ط الرسالة) .

مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾[طه:١٢١]

يعني : يستران العورة .

وفي «مسند أحمد» و«البخاري» في «الأدب المفرد» و«سنن ابن ماجه»(١) : أن النبيَّ ﷺ قال لأشج عبد القيس : « إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله ﷻ » قُلْتُ : مَا هُمَا ؟ قَالَ : « الحِلْمُ وَالحَيَاءُ » ، وفي لفظٍ في «صحيح مسلم» : «الحِلْمُ وَالأَنَاةُ » قَالَ : يَا رَسُولَ الله ، أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمِ الله جَبَلَنِي ـ أي : فطرني ـ عَلَيْهِمَا ؟ قَالَ : « بَلِ الله جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا »قَالَ : الحَمْدُ لله الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله وَرَسُولُهُ» .

إن الحياء الفطريَّ قد أودعه الله الخلق جميعًا ، ومع ذلك ترى كثيرًا من الناس قد انحطوا الآن إلى هذا الدرك الدنيِّ فتجردوا من هذا الحياء الغريزيِّ ؛ وقد ذكرتُ مرةً أن أختًا ألمانية دخلت عليَّ في المركز الإسلامي هنالك في إحدى الزيارات تريد أن تعلن إسلامها ؛ فقلت لها : ما السبب ؟فقالت لي : أنا جئتُ لأدخل الإسلام ؛ لأن الإسلام دين العفة !! فقلت لها : وكيف ذلك ؟! فقالت لي : كنتُ في هولندا ، فرأيتُ جمعًا كبيرًا من الناس في ميدان عام من الرجال والنساء في دائرةٍ ضخمة ، فاقتربتُ لأرى ما بداخل هذه الدائرة ، فرأيتُ رجلًا يزني بامرأة أمام هذا الجمع من الناس ، وهو يُسمَّى عند هؤلاء القوم بالعرض الحيِّ ! تقول : فاتصلتُ مباشرةً على زميلةٍ ألمانية

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٥) ، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٥٨٤) ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الحلم (٤١٨٨) ، والنسائي في « الكبرى » (٧٧٤٦) ، وابن أبي شيبة (٥/ ٢١٢) و (٦/ ٤١٣) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (١٤٨) ، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (١٩٠) ، وأصله في صحيح مسلم (برقم ١٧/ ٢٥) بلفظ : « الحلم والأناه » .

مسلمةٍ بالهاتف ، وأنا في هذا المكان ، وقلتُ لها : هل من الجائز أن تفعل المرأةُ المسلمة هذا في الإسلام ؟ فقالت : أعوذُ بالله ! بل لا يجوزُ للمرأة أن يأتيها زوجها أمام أولادها ، فأثَّرت فيَّ هذه الكلمة ، وعلمتُ أن العفة لا توجد على وجه الأرض إلا في الإسلام . نعم .. رجلٌ يأتي امرأة أمام مرأى ومسمع من الخلق ! وأنا أقسم بالله بأن بعض الحيوانات كالبعير ـ مثلًا ـ لا يمكن على الإطلاق أن يفعل هذا الأمر ، إذا شعر البعير أن عينًا من أعين الناس تنظر إليه ! ولكن انظر إلى هؤلاء الرجال على شواطئ الترع والأنهار ، ينزل الرجل عاريًا كيوم ولدته أمه ؛ فترى مجموعةً من الرجال يغتسلون عراةً !

وترى المرأة الآن في الشوارع والطرقات قد خرجت بالثوبِ الضيق الذي تستحي ـ وربِّ الكعبة ـ المرأةُ العفيفة من أن ترتديه أمام زوجها في الأوقات العادية !

فهذه المرأة التي خرجت بهذا المنظر المقزز أين ذهب حياؤها الغريزي الجبلي الفطري ؟ ثم أين حياءُ أبيها الذي رآها تخرج إلى الشارع بهذا المنظر القبيح الذي لا يرضي الله سبحانه ، ولا يرضي صاحب الفطرة السليمة النقية ؟ أين الحياء الغريزي الجبلي الفطري للبنت التي تخرج إلى الجامعة بهذا المنظر الذي يخلع القلب ؟ صدرٌ عارٍ ، وشعور مرسلة ، وبرفانات عاصفة ، وعريٌ فاضح !! ولله درُّ القائل :

إذا لم تخش عاقبة الليالي ... ولم تستحي فاصنع ما تشاء

فلا والله ما في العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياء[1]

---

(١) «روضة العقلاء» (٥٧) ، و«الإشراف في منازل الأشراف» لابن أبي الدنيا (٣٠٥) ، و«مكارم

فإذا ضاع حياء المرأة ربما يكون ذلك مقدمة حقيقية لضياع الشرف ! فهي تكلِّم هذا ، وتضاحك ذاك ، وتلاعب فلانًا ، وتتصل على فلان ، وأخيرًا سمعنا عن شواطئ العراة ليست للرجال مع الرجال ـ وهى كارثة ـ بل للرجال مع النساء !!!

النوع الثاني من أقسام الحياء : الحياء الإيمانيٌّ ، وهو الحياء الذي يمنع العبد من ارتكاب المعاصي حياءً من الله الذي يسمعه ويراه . وحياؤك من الله هو إيمان في قلبك فلا تجرؤ على المعصية ، وإن عصيت جدَّدت الأوبة والتوبة وعُذت إلى الله حياءً منه سبحانه وتعالى ؛ كما سأبين في أوجه الحياء إن شاء الله تعالى .

والحياء الإيمانيٌّ: يتولَّد من رؤية النعم، ورؤية التقصير في حق المنعم [1]. تدبر معي هذه الكلمات : أنت ما عصيت الله قط إلا بنعمة من نعمهِ ؛ فالبصر نعمة ؛ لكنك استعملت هذه النعمة في النظر إلى الحرام ! وكذلك اللسان ـ نعمة ـ وقد استعملتها في الغيبة والنميمة ! وهكذا .. فنحن نعصي الله بنعمه ؛ وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦] ، نعم ستسأل عنها ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٤] ، وهذا الأسود بن يزيد النخعي لما نام على فراش الموت ؛ ففي لحظة صحوة بين السكرات والكربات بكى بكاءً شديدًا بكاء

الأخلاق» له (٤٠)

(١) «رياض الصالحين» (٢٩٥) ، و«مدارج السالكين» (٢٤٩) .

الثكالى ؛ فقيل له : ما هذا الجزع ؟ فقال : وما لي لا أجزع ؟ ومن أحق بذلك مني ؟ فوالله لو غفر الله لي لاستحييتُ منه مما قد صنعت يداي ، ثم قال : فإن الرجل يكون بينه وبين الرجل ذنبٌ صغير فيعفو عنه ، أي : فيعفو عنه أخوه ؛ فلا يزالُ مستحييًا منه [1] ؛ فكيف بالله ﷻ ؟

يا حسرة العاصين عند معادهم ... هذا وإن قدموا على الجنات

لو لم يكن إلا الحياء مِنَ الذي ... سَتَرَ القبيحَ لكان أعظم الحسرات

ولما دخل أبو حامد الخلقاني على الإمام أحمد إمام أهل السنة ، وأنشد بين يديه هذه الأبيات الجميلة :

إذا ما قال لي ربي ... أما استحييت تعصيني

وتخفي الذنب من خلقي ... وبالعصيان تأتيني

أخذ الإمام أحمد يرددُ هذه الأبيات ، ودخل بيته ، وقد سمع له نحيب من داخل البيت [2] . ولما وقف الفضيلُ بن عياض على جبل عرفات في العام الذي حجَّ فيه بكى ، ورفع رأسه إلى السماء ، وهو قابضٌ على لحيته ، وظلَّ يناجي ربَّه ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ ويقول [3] : « واسوأتاه منك وإن عفوت » . وهذا سليمان بن طرخان التيمي ؛ كما روى ابن أبي الدنيا في كتاب «المحتضرين» [4] ؛ قال : دخلتُ على صاحب لي يشتكي فرأيت من جزعه ووجعه ، فجعلتُ

---

(١) « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٢٧ ، ٢٨) ، (ترجمة الأسود بن يزيد) ، و« العاقبة في ذكر الموت » لابن الخراط (٩٥) ط دار الأقصى بالكويت .

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب الحنبلي (١/ ١١٦) ، و«تلبيس إبليس» (٢٧٨، ٢٧٩) .

(٣) مرَّ عزوه .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (٢١٨) .

أقول : إنك كذا ، إنك كذا أرغبه . قال : وما لي لا أجزع ؟ ومن أحق بالجزع مني ؟ فوالله لو أتتني المغفرة لمنعني الحياء منه لِما أفضيت به إليه ! عش مع أولئك الذين ذاقوا حلاوة الحياء .

يا خجلة [1] العبد من إحسان سيده ... يا حسرة القلب من ألطاف معناه

فكم أسأتُ وبالإحسان قابلني ... وا خجلتي وا حيائي حين ألقاه

يا نفسُ كم بخفيٍّ اللطف عاملني ... وقد رآني على ما ليس يرضاه

يا نفسُ توبي إلى مولاك واجتهدي ... وصابري فيه إيقانًا برؤياه

هذا هو الحياء المكتسب الإيمانيُّ الذي لا يحققه إلا من عرف الله بجلاله .. إلا من عرف قدر الله وعظمته جلَّ في علاه .. إلا من وقف على أسماء الجلال وصفات الكمال .

وفي «سنن الترمذيِّ» و«مسند أحمد» و«مستدرك الحاكم» من حديث ابن مسعود ﷺ قال : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « اسْتَحْيُوا مِنَ الله حَقَّ الْحَيَاءِ » قَالَ : قُلْنَا : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّا لَنَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لله ، قَالَ : « لَيْسَ ذَاكَ ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ الله حَقَّ الْحَيَاءِ : أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى ، وَتَحْفَظَ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى ، وَتَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ وَالْبِلَى ، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا ؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ الله حَقَّ الْحَيَاءِ »[2].

قال ابن حبان في «روضة العقلاء» [3]: « فإذا لزم الحياء كانت أسباب

---

(١) أي : حياء .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب صفة القيامة ، (٢٤٥٨) ، وأحمد (١/ ٣٨٧) ، والحاكم (٤/ ٣٢٣) ، والطبراني في « الصغير » (٤٩٤) ، وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٩٣٥) .

(٣) (ص:٦١) .

الخير منه موجودة كما أن الواقح إذا لزم البذاءة كان وجود الخير منه معدومًا وتواتر الشر منه موجودًا ؛ لأن الحياء هو الحائل بين المرء وبين المزجورات كلِّها ؛ فبقوة الحياء يضعف ارتكابه إياها ، وبضعف الحياء تقوى مباشرته إياها » .

وقال : «إن المرء إذا اشتد حياؤه صان عرضه ، ودفن مساويه ، ونشر محاسنه ، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ، ومن ذهب سروره هان على الناس ومُقِتَ ».

فضل الحياء:

الواجب على العاقل لزوم الحياء ؛ لأنه أصْلُ العقل ، وبَذْرُ الخير ، وتركه أصل الجهل ، وبَذْرُ الشر ، والحياء يدلُّ على العقل ، كما أن عدمه دال على الجهل[1] .

وهو دليلٌ على كرم السجية ، وطيب المنبت ؛ بل هو صفة من صفات أعظم أهل الأرض وهم الأنبياء والمرسلون ؛ بل ويكفي الحياء شرفًا وفضلًا أنه صفةٌ من صفات الله ؛ ففي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود والترمذيُّ وابن ماجه وغيرهم من حديث سلمان الفارسيِّ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ »[2]. يا لها من كرامة ! مَنْ أنا ومَنْ أنت ؟ ومع

(١) «روضة العقلاء» (٥٩) .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٨) ، وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب الدعاء (١٤٨٨) والترمذي ، كتاب الدعوات ، باب (١٠٥) (رقم ٣٥٥٦) وقال : « هذا حديث حسن غريب ، ورواه بعضهم ولم يرفعه » (فرواه أحمد (٥/ ٤٣٨) عن سلمان موقوفًا) . ورواه ابن ماجه على الرفع ، كتاب الدعاء ، باب رفع اليدين في الدعاء (٣٨٦٥) وصححه العلامة الألباني في « صحيح الجامع » (١٧٥٧) .

ذلك ـ مع كثرة الذنوب والعيوب ـ لو رفعَ أحدُنا يديه إلى علام الغيوب وقد طرح قلبه بذلٍّ وانكسارٍ بين يدي العزيز الغفار استحيا الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ من عبده أن يرد يديه صفرًا خائبتين .. أيُّ كرمٍ وأيُّ فضلٍ بعد هذا ؟ لقد قال تعالى : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣].

وقال تعالى في الحديث القدسيِّ الجليل الذي رواه الترمذيُّ وغيره بسندٍ صحيحٍ لغيره أن النبيَّ ﷺ قال : « قَالَ الله : يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً »[1] ؛ فرحمةُ الله سبحانه وتعالى وسعت كلَّ شيء ؛ فمهما عظم ذنبك فلا تيأس .

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمتُ بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن ذا الذي يدعو ويرجو المجرم

أدعوك يا رب كما أمرت تضرعًا ... فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم

ما لي إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم إني مسلم[2]

الجأ إليه سبحانه وأنت على يقين بأنه ﷻ وهو الكريمُ يستحي إن تضرعت إليه ، وتذللت بين يديه أن يردك صفرًا مهما عظم ذنبك ، ومهما عظم جرمك ! ولو وقع صاحب الذنب في جريمة الزنا ! ولو وقع التائب في

---

(١) سبق .

(٢) قاله أبو نواس ؛ أخرجه ابن عساكر في « تاريخه » (١٣/ ٤٦٦،٤٦٥) .

كبيرة القتل ؛ بل ولو وقع في كبيرة الشرك وهي أخطر الكبائر ؛ فلو خلع المشرك رداء الشرك على عتبة الإيمان ، وطرح قلبه بذلٍّ وانكسار بين يدي الرحيم الرحمان ، وجاءه موحِّدًا تائبًا فرح الله بتوبته ، وهو الغنيُّ عن كلِّ خلقه ؛ فهيا عش مع صفة الحياء لرب الأرض والسماء .

يقول شيخنا ابنُ القيم لله درُّه : « وأما حياء الرب تعالى من عبده ؛ فذاك نوعٌ آخر لا تدركه الأفهام ، ولا تكيفه العقول ؛ فإنه حياء كرمٍ وبرٍّ وجُودٍ وجلال ؛ فإنه تبارك وتعالى حييٌّ كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا ، ويستحي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام » ؛ فصفة الحياء نثبتها لله تعالى من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ؛ فكلُّ ما دار ببالك فالله بخلاف ذلك .

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل:٧٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠] .

وقال تعالى :﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣] .

فنحن لا نعطِّلُ صفة الحياء ؛ بل نثبتها على مراد الله وعلى مراد رسول الله ﷺ الذي أثبت هذه الصفة ، وهو أعرف الخلق بربه ﷻ ؛ فالله تعالى وهو الغنيُّ عن كلِّ خلقه يستحي من هتك العاصي وفضيحته ويهيئ له أسباب الستر ؛ لكي يتوب إليه ، ويتحبب إليه بالنعم ؛ فإذا عاهد العاصي ربه مهما عظم ذنبه استحيا الله ﷻ أن يرده ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى

قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦].

ولله درُّ القائل :

بك أستجير ومن يجير سواك فأجِرْ ضعيفًا يحتمي بحماك

إني ضعيف أستعين على قَوِيٍّ ذَنْبي ومعصيتي ببعض قواك

أذنبتُ يا ربي وقادتني ذنوبٌ ما لها من غافر إلاك

دنياي غرتني وعفوك شدني ما حيلتي في هذه أو ذاك

لو أنَّ قلبي شكَّ لم يك مؤمنًا بكريم عفوك ما غوى وعصاك

يا منبت الأزهار عاطرة الشذى هذا الشذا الفواح نفح شذاك

يا مجري الأنهار ما جريانها إلا انفعالة قطرة لنداك

رباه هاأنذا خلَصتُ من الهوى واستقبل القلب الخليُّ هَواك

ربَّاه قلبٌ تائبٌ ناجاك أترده وترُدُّ صادق توبتي

حاشاك ترفض تائبًا حاشاك

فليرض عني الناس أو فليسخطوا أنا لم أعُدْ أسعى لغير رضاك

ولقد أخبرنا نبينا ﷺ أن الحياء شعبة من الإيمان ؛ ففي «الصحيحين» [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شعبة : أَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَأَرْفَعُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب أمور الإيمان (٩) ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان (٣٥) واللفظ له .

وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ».

وفي «الصحيحين»[1] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ سمع رَجُلاً يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ ـ أي: ينهاه ـ فَقَالَ: «الْحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ». وفي لفظ البخاري: «دَعْهُ؛ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ».

وفي «الصحيحين»[2] من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «الْحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ». وفي لفظٍ: «الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ». وفي لفظٍ: «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ».

وفي الحديث الذي رواه أحمد والترمذيُّ وابن حبان[3] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «الْحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ، وَالإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ[4] مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ[5] فِي النَّارِ»؛ لأن العبد إذا ضيَّع الحياء الغريزيَّ الجبليَّ؛ فهو بالطبع لما سواه أضيع! فمن الصعب أن يحقق بعد ذلك الحياء الإيمانيَّ المكتسب وقد ضيع الحياء الذي فطره الله عليه.

وفي «مصنف ابن أبي شيبة» و«الأدب المفرد للبخاريِّ» و«مستدرك

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان (٢٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان (٣٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب الحياء (٦١١٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان (٣٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠١)، وابن أبي شيبة (٨/ ٣٣٥)، والترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الحياء (٢٠٠٩)، وابن حبان (٦٠٨، ٦٠٩)، والحاكم (١/ ٥٢، ٥٣) وله شاهدٌ من حديث أبي بكرة، أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (١٣١٤)، وابن ماجه (٤١٨٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٩٥).

(٤) أي: فحش القول والفعل.

(٥) أي: البعد والإعراض عن الحق.

الحاكم»[1] بسندٍ صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ قال : « الحَيَاءُ والإِيمَانُ قُرِنَا جَمِيعًا ، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الآخَرُ» يعني : إذا رُفع الحياء رُفع الإيمان ، وإذا رفع الإيمان رفع الحياء ؛ لأنهما قد قرنا جميعًا ؛ كما قال النبيُّ ﷺ .

قال الفضيل بنُ عياض[2]: « خمس من علامات الشقاء : قسوة القلب ، وجمود العين ، وقلة الحياء ، والرغبة في الدنيا ، وطول الأمل » .

إنَّ صاحِب القلب القاسي الذي يُذَكَّر بالله فلا يتذكَّر ، ويُذَكَّر بكلام النبيِّ ﷺ فلا يتأثر ، ولا يتعظ بالآيات والعبر والعظات ولا يتخوف .

قال عبد الله بنُ مسعود رضي الله عنه : « اطلب قلبك عند ثلاثة مواطن : عند سماع القرآن ، وفي مجالس العلم ، وفي أوقات الخلوة ؛ فإن لم تجد قلبك في هذه المواطن ، فسل الله أن يمنَّ عليك بقلبٍ ؛ فإنه لا قلب لك »[3]، كيف حال قلبك عندما تسمع القرآن ؟ أو حينما تجلس في مجلس العلم ؟ أو حينما تخلو بنفسك ؟ أو عندما تذهب إلى المقابر ؟ هل تجد في القلب رقة ؟ وهل تجد في القلب انكسارًا ؟ إن كان ذلك كذلك فاسجد لربك شكرًا ، وسل الله أن يزيدك من فضله . أما إن كنت ترى في قلبك قسوة فحينما تسمع القرآن لا يلين القلب ، ولا تخشع الجوارح ، ولا تبكي العين ، ولا يلين الجلد ، ولا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢١٣ مرفوعًا و ٦/ ١٦٥ موقوفًا) ، وفي الإيمان له (٢٠) ، والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (١٣١٣) ، والحاكم (١/ ٧٣) ، والبيهقيُّ في «الشعب» (٦/ ١٤٠)، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٩٧) ، والمروزيُّ في « تعظيم الصلاة » (٢/ ٨٧٠) مرة مرفوعًا ، ومرة موقوفًا على ابن عمر رضي الله عنهما . قال الحافظ العراقي : « حديث صحيح غريب ؛ إلا أنه قد اختلف على جرير بن حازم في رفعه ووقفه » (فيض القدير ٣/ ٤٢٦) ، وصححه الألبانيُّ في « صحيح الأدب المفرد » (٩٩١) ، و« صحيح الجامع » (٣٠٠٢) .

(٢) أخرجه ابن عساكر (٤٨/ ٤١٦) ، ورواه الشجري في «أماليه» (١١٧) عن محمد بن الحنفية .وقد ورد نحوه في حديث ؛ لكنه موضوع ؛ كما في «الضعيفة» (٣٦٩٤) .

(٣) «الفوائد» (١٤٨) .

يقشعر البدن ، وترى نفسك جريئًا على الله بالمعاصي في أوقات الخلوة ، ولا يخشع قلبك حينما تذهب إلى المقابر ؛ فسل الله أن يمنَّ عليك بقلب ؛ فإنه لا قلب لك وإن كنت لا تدري !!

العلامة الثانية :

جمودُ العين : إنَّ البكاء من خشية الله علامةٌ جميلةٌ من علامات الإيمان ، ودليلٌ من أدلة رقة القلب . والحديث في ذلك يطولُ .

العلامة الثالثة والرابعة :

قلة الحياء : فالحياء من الإيمان ، وقلة الحياء من علامات الشقاء . ثم الرغبة في الدنيا ، بمعنى أن تصبح الدنيا غاية لك ، وأن تصبح همك ، فتحول الدنيا بينك وبين عبادة الله تعالى .

العلامة الخامسة من علامات الشقاء :

طول الأمل مع قلة العمل : وهذا هو شأن الجاهلين ؛ أسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الجهل .

فالحياء من أكرم الصفات التي يتصف بها الرجل بشرط ألا يردَّ الحياءُ الرجلَ عن حقه .

الحياء والأمر بالمعروف :

الحَيَاءُ الحَقِيقِيُّ لاَ يَمْنَعُ مِنَ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ أَوِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ :

قَالَ صَاحِبُ « فَضْلِ اللهِ الصَّمَدِ » : « فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ صَاحِبَ الحَيَاءِ قَدْ يَسْتَحْيِي أَنْ يُوَاجِهَ بِالحَقِّ ، فَيَتْرُكَ الأَمْرَ بِالمَعروفِ والنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَقَدْ يَحْمِلُهُ الحَيَاءُ عَلَى الإِخْلَالِ بِبَعْضِ الحُقُوقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي العَادَةِ ، فَأَقُولُ : إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِحَيَاءٍ حَقِيقَةً ؛ بَلْ هُوَ عَجْزٌ وَخَوَرٌ وَمَهَانَةٌ ،

وَإِنَّمَا أَطْلَقُوا عَلَيْهِ حَيَاءً تَشْبِيهًا وَمَجَازًا ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الحَيَاءُ حَقِيقِيًّا حَيْثُ يَكُونُ قُبْحُ المُسْتَحْيَا مِنْهُ حَقِيقِيًّا ، فَلاَ يَدْخُلُ فِيهِ الانْقِبَاضُ عَمَّا يَسْتَقْبِحُهُ النَّاسُ وَهُوَ فِي الحَقِيقَةِ حَسَنٌ ، وَلاَ الانْقِبَاضُ عَمَّا هُوَ فِي الأَصْلِ قَبِيحٌ ، وَلَكِنَّ الانْقِبَاضَ عَنْهُ يُؤَدِّي إِلَى مَا هُوَ أَقْبَحُ مِنْهُ ، مِثَالُ ذَلِكَ : مَا يَقَعُ مِنْ بَعْضِ خَرِعَاتِ النِّسَاءِ يَعْرِضُ لَهَا فَاجِرٌ فِي خَلْوَةٍ يُحَاوِلُ اسْتِكْرَاهَهَا ، فَتَنْقَبِضُ نَفْسُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَغِيثَ وَتَصْرُخَ ، لأَنَّهَا تَسْتَقْبِحُ أَنْ يَشِيعَ عَنْهَا أَنَّ فَاجِرًا تَعَرَّضَ لَهَا ، وَلَوْ عَقَلَتْ لَعَلِمَتْ أَنَّ شُيُوعَ ذَلِكَ لَيْسَ بِقَبِيحٍ إِذَا اقْتُرِنَ بِإِبَائِهَا عَنِ الفَاحِشَةِ ، والنَّاسُ يُثْنُونَ عَلَيْهَا بِالعِفَّةِ والحَزْمِ والثَّبَاتِ إِذَا سَمِعُوا أَنَّهَا انْتَهَرَتْهُ وَصَرَخَتْ بِأَهْلِهَا فَجَاءُوا وَدَفَعُوهُ ، وَعَلَى ذَلِكَ ؛ فَالحَيَاءُ فِي قَوْلِهِ ﷺ : « الحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ » هُوَ الحَيَاءُ الحَقِيقِيُّ .

وَقَدْ ثَبَتَ : « أَنَّهُ ﷺ كَانَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا » وَهُوَ لَنَا فِي ذَلِكَ قُدْوَةٌ ـ لاَ يَقُوم دُونَ غَضَبِهِ شيء إذا انْتُهِكَتْ حرماتُ الله »[1] .

وإذا كان الحياء من أجمل صفات الرجل ؛ فكيف يكون بالنسبة للمرأة المسلمة ؟ إنه أبهى حلةٍ تتحلَّى بها التقية النقية ، وأجمل زينة تتزين بها المؤمنة ، وأرقُّ خصلةٍ للمرأة الحيية التي اكتملت أنوثتها وزادت رقتها .. وشتان شتان بين امرأة حيية وبين امرأة جريئة انكسر عندها حاجزُ الحياء حتى مع الزوج ! إنَّ المسلمة ـ والله ـ لتستحي أن تغير ملابس بيتها إلى ملابس نومها أمام زوجها ؛ فالحياء للمرأة جليل جميل .

ففي الحديث الذي رواه أحمد وعبد الرزاق في «مصنفه» والترمذيُّ ، وابن

(١) « فضل الله الصمد » (٢/ ٥٤، ٢٩١، ٢٩٢) .

ماجه [١] بسندٍ حسن من حديث أنس رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ شَانَهُ ، وَلاَ كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ زَانَهُ ».

ولفظ مسلم [٢]: « إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ » ؛ فالحياء أبهى زينة عند المرأة ؛ بل لقد جعله الإسلام حكمًا شرعيًّا لإذن البكر في تزويجها ، بأن إذنها هو سكوتها وصمتها ؛ لحيائها ؛ كما في «الصحيحين» [٣] من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ الْبِكْرَ تَسْتَحِي ؟ قَالَ : « رِضَاهَا صَمْتُهَا ». وفي رواية مسلم : قالت عائشة : سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الْجَارِيَةِ يُنْكِحُهَا أَهْلُهَا أَتُسْتَأْمَرُ أَمْ لاَ ؟ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ : « نَعَمْ تُسْتَأْمَرُ » فَقَالَتْ عَائِشَةُ : فَقُلْتُ لَهُ : فَإِنَّهَا تَسْتَحْيِي ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « فَذَلِكَ إِذْنُهَا إِذَا هِيَ سَكَتَتْ ».

ولقد مدح الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ من فوق سبع سماوات المرأتين الكريمتين ابنتي الرجل الصالح ؛ فقال تعالى حين جاءت المرأتان إلى نبيِّ الله موسى عليه السلام : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ [القصص:٢٥] .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٦٥) ، والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (٦٠١) ، والترمذيُّ في كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في الفحش والتفحش (١٩٧٤) ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الحياء(٤١٨٥) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ١٤١) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الأدب المفرد » ، و« صحيح الجامع » (٥٦٥٥) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب فضل الرفق (٢٥٩٤) والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (٤٦٩) عن عائشة .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب النكاح ، باب لا يُنكح الأبُ وغيرهُ البكرَ والثيبَ إلا برضاهما (٥١٣٧) ، ومسلم ، كتاب النكاح ، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت (١٤٢٠).

وقف ـ معي ـ أيها الأخ الكريم مع علم الوقف والابتداء حينما أسمع هذه الآية بالذات من الشيخ محمد رفعت رحمه الله ، والله لا أتمالك نفسي ؛ حين يقرأ : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ ويقف عندها ، ثم يبدأ بداية عجيبة جدًّا ويقول : ﴿ عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ ﴾ فنسب الحياء مرةً للمشية ومرةً للقول ؛ إذن فهي حيية في مشيتها ، حييةٌ في قولها ، وقوله : ﴿ عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ للاستعلاء ، والاستحياء مبالغة في الحياء المجازي ، مستعارة للتمكن من الوصف[1] ، والمعنى : أن المشية كلَّها حياء ؛ قال عمر رضي الله عنه يصف لنا حياء هذه المرأة : « ليست بسلفع[2] من النساء خراجة ولَّاجة ، ولكن جاءت مستترة قد وضعت كُمَّ ذراعها على وجهها »[3] ؛ استحياء من نبيِّ الله موسى عليه الصلاة والسلام .

قال السعديُّ في «تفسيره»[4] : « وهذا يدلُّ على كرم عنصرها ، وخلقها الحسن ؛ فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة ، وخصوصًا في النساء » .

فما أجمل الحياء للمرأة ! وأنا أعجب غاية العجب لامرأةٍ تُنسب إلى الإسلام كيف تخرج إلى الشارع بثوبٍ تستحي المرأة الحييةُ أن تخرج به أمام والدها وأمام أخيها الكبير ! وهذا الإعلام الذي تعرَّى من كلِّ مِسْحةِ حياءٍ ، يقوم أساتذةٌ من الرجال والنساء يناقشون في وضوحٍ وجرأةٍ متناهية قضية

---

(١) « التحرير والتنوير » (٣١٣١) .

(٢) قال الجوهريُّ : السلفع من الرجال : الجسور . ومن النساء : الجريئة السليطة (« تفسير ابن كثير » لسورة القصص : ٢٥) .

(٣) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (لسورة القصص : ٢٥) ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في ابن كثير ، وصحَّح سنده الحافظ ابن كثير رحمه الله .

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٥٦٤ ط الرسالة) .

تدريس الجنس لأولادنا وبناتنا في المدارس على شاشة التليفزيون ، وتخرج أستاذة دكتورة لتقول : وما الحرج في أن يتعلم أولادنا هذه القضية في المدارس ؟!!

أنا أسأل وأقول : هل الحيوانات في حاجةٍ إلى مَنْ يعلِّمها هذا ؟ لا ، فالحيوانات التي لا تعقل ولا تعي ليست في حاجة لمن يعلمها ذلك ؛ لأنه أمر فطريٌّ جبليٌّ غريزيٌّ أودعه الله ﷻ في المخلوقات كلِّها ؛ فنحن لا نحتاج ـ ومجتمعنا هذا المفتوح الذي نرى فيه العُرْيَ بكلِّ صورِه في وسائل الإعلام ، وفي الجرائد والمجلات ، وفي الشوارع ، والطرقات ، والإعلانات ، والمدارس ، والجامعات ، والكليات ، والمواصلات ـ لا نحتاج إلى من يشعل النيران ، ولا من يهيج هذه الغرائز ، أو يثير هذه الشهوات التي أقول بأنها ـ والله ـ ليست كامنة ؛ فلا نحتاج إلى نيرانٍ لتأجِّجها أو لتشعلها !!

ومن أجمل ما قال محمد إقبال ـ رحمه الله تعالى : « إن المناهج التعليمية الحديثة في مدارس المسلمين تُحسِن أن تعلِّم أبناءنا المعارف والمعاني والعلوم ، ولكنها لا تعلِّم عيونهم الدموع ولا قلوبهم الخشوع » .

كيف يتعلم الولد الدموع والخشوع وقد حشر حشرًا مع فتاة في غاية الجمال والحسن ، وفي غاية الشباب والصبا ، وقد وضعت البرفان العاصف الذي يعصف بأنفه قبل عينه ليأتي بعينه قبل أنفه إلا من رحم ربك .

قال القرطبيُّ في «تفسيره»[1]: « وقلة الحياء قد غلبت عليهن ، حتى ترى المرأة في القيساريات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينتها ، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا ؛ نعوذ بالله من سخطه » اهـ ، وهذا يقوله القرطبيُّ رحمه الله في زمانه ؛ فكيف

---

(١) « الجامع لأحكام القرآن » (تفسير سورة الفرقان : ٢٠) .

لو رأى زماننا ؟!! نسأل الله السلامة من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

ويا له من شرف أن يجعل النبيُّ ﷺ الحياء في الذروة العليا من أخلاق الإسلام ؛ كما في الحديث الذي رواه مالك في «الموطأ» مرسلاً ووصله ابن ماجه وغيره وصحَّحه الألبانيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ بطرقه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا ، وَخُلُقُ الإِسْلاَمِ الْحَيَاءُ »[1] ؛ فلما كان الإسلام أشرف الأديان ، أعطاه الله تعالى أقوى الأخلاق وأشرفها ، وهو الحياء ؛ فلن تجد في

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٩٤٩) ، ومن طريقه مسدد بن مسرهد في «مسنده» كما في «إتحاف الخيرة» للبوصيري (٥١٨٩) ، والبيهقي في «الشعب» (٧٧١٢)، وهناد في «الزهد» (١٣٤٧) ووكيع في «الزهد» (٣٦٧) من طريق : يزيد بن طلحة بن ركانة مرسلًا (هكذا رواه جمهور الرواة) خالفهم وكيع فرواه متصلًا . أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢١/ ١٤٣) من طريق : يزيد بن طلحة بن ركانة عن أبيه مرفوعًا . ولكن هذا الوجه مرجوح ؛ كما قال غير واحدٍ من الأئمة .

وللمرسل شاهدٌ حسَّنَ إسناده ابن عبد البر في «التمهيد» (٢١/ ١٤٢) من حديث معاذ بن جبل مرفوعًا ، وله شاهدان من حديث أنس وابن عباس .

أما حديث أنس ؛ فله عنه طرق ؛ فأخرجه ابن ماجه في «الزهد» ، باب الحياء (٤١٨١) ، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٩٨) ، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٢٧٧) ، وأبو يعلى في «مسنده » (٣٥٧٣) ، والبغوي في «الجعديات» (٢٨٧٧) ، والطبراني في «الصغير» (١٣) ، و«الأوسط » (١٧٥٨) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠١٨) ، والإسماعيلي في «معجم الشيوخ» (٢٥٥) ، وابن عساكر (٢٦/ ٢٥٢) (٥٩/ ٢٨٤) ، والشجري في «الأمالي» (٤١٠) ، وأبو نعيم في «الحلية » (٥/ ٣٦٣) ، والباغندي في «مسند عمر بن عبد العزيز» (٧٤) ، والخطيب في «تاريخه» (٧/ ٢٣٩) ، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١١٨١) ، وقال : «هذا حديث لا يصح » ، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢١/ ١٤٣) ، والرافعي في «التدوين في أخبار قزوين» (٣١٨) .

وأما حديث ابن عباس ؛ فأخرجه ابن ماجه (٤١٨٢) ، والخرائطي (٢٧٨) ، والطبراني (١٠/ ٣٢٠) ، وابن عدي (٤/ ٥٢) ، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ١٣٦) وضعفه ، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢٠١) وقال : «فيه لين» ، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٢٠) .

وبالجملة ؛ فالحديث بمجموع طريق معاذ ويزيد بن طلحة ، وأنس ـ في وجهٍ حسَّنه العلامة الألباني ـ يكون الحديث صحيحًا لغيره ، وراجع «الصحيحة» (٩٤٠).

الإسلام خلقًا أعظم ولا أكمل ولا أجلَّ من هذا الخلق الكريم .

ويُعلِّق الإمام المُناويُّ تعليقًا رائعًا على هذا الحديث ؛ فيقول[1]: « إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا » أي : طبعًا وسجيةً « وَخُلُقُ الإِسْلاَمِ الحَيَاءُ» أي : طبع هذا الدين وسجيته التي بها قوامه أو مروءة هذا الدين التي بها جماله : الحياء ؛ فالحياء أَصْلُه من الحياة ؛ فإذا حيي القلب بالله تعالى ؛ فكلَّما ازداد حياؤه بالله ازداد منه حياة ، ألا ترى أن المستحي يَعْرق في وقت الحياء ؛ فعرقه من حرارة الحياة التي هاجت من الروح ؛ فمن هيجانه تفور الروح ، فيعرق منه الجسد ، ويعرق منه أعلاه ؛ لأن سلطان الحياة في الوجه والصدر ، وذلك من قوة الإسلام ؛ لأن الإسلام تسليم النفس ، والدين خضوعها وانقيادها ؛ فلذلك صار الحياء خلقًا للإسلام فيتواضع ويستحي . «ذكره الحكيم» يعني : الغالب على أهل كلِّ دين سجية سوى الحياء ، والغالب على أهل ديننا الحياء ؛ لأنه متمم لمكارم الأخلاق ، وإنما بعث المصطفى ﷺ لإتمامها ، ولما كان الإسلام أشرف الأديان أعطاه الله أسنى الأخلاق وأشرفها وهو الحياء » انتهى.

أيها الأحبة : تعالوا بنا لندخل بستان الحياء ، ونصعد إلى هذه القمم الشامخة ، ثم نهبط بكم هبوطًا اضطراريًّا بعد ذلك ؛ لنقف على البون الشاسع بين ما كان عليه هؤلاء وبين ما نحن عليه ؛ نسأل الله أن يردنا إلى الحياء ردًّا جميلًا .

ومن الجفاء أن ندخل هذا البستان اليانع الماتع دون أن نبدأ الحديث بإمام الأنبياء محمدٍ ﷺ الذي كان أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها ؛ كما في

(١) « فيض القدير » (٢/ ٥٠٨) .

«الصحيحين»[(١)] من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال : « كَانَ النبيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ» .

والعذراء هي : البكر ، وقوله في «خدرها» أي : في سترها ؛ فالعذراء في الخلوة يشتد حياؤها أكثر مما تكون خارجة عنه ؛ فالنبيُّ ﷺ كان أشد حياءً من هذه البكر ، ولذا كان إذا كره شيئًا رآه يتغير وجهه ؛ فلا يواجه أحدًا بما يكرهه ، فيفهم أصحابه عنه ذلك [(٢)].

وفي «الصحيحين»[(٣)] من حديث عائشة ﷺ قالت : سَأَلَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ ﷺ كَيْفَ تَغْتَسِلُ مِنْ حَيْضَتِهَا ؟ قَالَ : فَذَكَرَتْ أَنَّهُ عَلَّمَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مِنْ مِسْكٍ فَتَطَهَّرُ بِهَا ، قَالَتْ : كَيْفَ أَتَطَهَّرُ بِهَا ؟ قَالَ : « تَطَهَّرِي بِهَا، سُبْحَانَ اللهِ! » وَاسْتَتَرَ - وَأَشَارَ لَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ بِيَدِهِ عَلَى وَجْهِهِ - قَالَ : قَالَتْ عَائِشَةُ : وَاجْتَذَبْتُهَا إِلَيَّ وَعَرَفْتُ مَا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَقُلْتُ : تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ ، وَقَالَ ابْنُ أَبِي عُمَرَ فِي رِوَايَتِهِ: فَقُلْتُ : تَتَبَّعِي بِهَا آثَارَ الدَّمِ.

ومن الأنبياء الكرام الذين اشتهروا بالحياء : نبيُّ الله موسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - ففي «الصحيحين»[(٤)] من حديث أبي هريرة ﷺ أن

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٦٢)ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب كثرة حيائه (٢٣٢٠) .

(٢) راجع « فتح الباري » (٦/ ٦٦٧) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحيض ، باب دلك المرأة نفسها إذا تطهرت من المحيض (٣١٤) ، ومسلم ، كتاب استحباب استعمال المغتسلة من المحيض فرصة من مسك في موضع الدم (٣٣٢) واللفظ له .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب (٢٨) (٣٤٠٤) ، ومسلم ، كتاب الحيض ، باب جواز الاغتسال عريانًا في الخلوة (٣٣٩) واللفظ للبخاريِّ ، ورواه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب من فضائل موسى (٣٣٩/ ١٥٦) عن أبي هريرة موقوفًا .

النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلاً حَيِيًّا سِتِّيرًا ، لاَ يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَقَالُوا : مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلاَّ مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ ، إِمَّا بَرَصٌ ، وَإِمَّا أُدْرَةٌ ، وَإِمَّا آفَةٌ ، وَإِنَّ الله أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى ، فَخَلاَ يَوْمًا وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الْحَجَرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا ، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ ، فَجَعَلَ يَقُولُ : ثَوْبِي حَجَرُ ثَوْبِي حَجَرُ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ الله وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ ، وَقَامَ الْحَجَرُ ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ ، فَلَبِسَهُ وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ ، فَوَالله إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلاَثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾

[الأحزاب:٦٩]

فالحياء كان من أخلاق الأنبياء والمرسلين ؛ كما في «صحيح البخاري»[١] من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ ، إِذَا لَمْ تَسْتَحِي فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ ».

وفيه قولان : أحدهما : أنه أمر تهديد ، ومعناه الخبر ، أي : من لم يستح صنع ما شاء من القبائح . والثاني : أنه أمر إباحة ، أي : انظر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله ، فإن كان مما لا يستحى منه فافعله .

قال ابنُ القيم : «والأول أصح ، وهو قول الأكثرين»[٢]

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) (٣٤٨٤) .

(٢) «المدارج» (٢/ ٢٤٨) .

خلق الحياء عند الصحابة :

« ونتقل إلى الصديق الأكبر أبي بكر ﷺ الذي خطب يومًا في المسلمين وقال : « أيها الناس استحيوا من الله ؛ فوالله ما خرجتُ لحاجة منذ بايعتُ رسول الله ﷺ أريد الغائط إلا وأنا مُقَنّع رأسي حياء من الله »[(١)].

وهذا الفاروق عمر ﷺ يقول : « من قلَّ حياؤه قلَّ ورعه ، ومن قلَّ ورعه مات قلبه »[(٢)].

وهذا الحييُّ عثمان بن عفان ﷺ ؛ ففي «صحيح مسلم»[(٣)] عن عائشة ﷺ قالت : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي ، كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقَيْهِ ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَتَحَدَّثَ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ فَتَحَدَّثَ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ ؛ فَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ وَسَوَّى ثِيَابَهُ ـ قَالَ مُحَمَّدٌ : وَلاَ أَقُولُ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ـ فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ ، فَلَمَّا خَرَجَ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ ، فَقَالَ : « أَلاَ أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلاَئِكَةُ ».

وهذا الحييُّ الكريمُ عليٌّ ﷺ ؛ ففي «الصحيحين»[(٤)] يقول عَلِيٌّ : كُنْتُ رَجُلاً مَذَّاءً ـ كثير المذي ـ وَكُنْتُ أَسْتَحْيِي أَنْ أَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ لِمَكَانِ ابْنَتِهِ ، فَأَمَرْتُ الْمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ فَسَأَلَهُ ؟ فَقَالَ : « يَغْسِلُ ذَكَرَهُ وَيَتَوَضَّأُ ». وفي

---

(١) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (٥٧) ، والمروزي في «تعظيم الصلاة» (٨٢٨) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٢٧) ، وعبد الرزاق ؛ كما في « تاريخ الخلفاء » (٨٧) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٩٣)، والبيهقي في « الشعب » (٤/ ٢٥٧، ٢٦٣) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب «فضائل الصحابة» ، باب من فضائل عثمان بن عفان (٢٤٠١) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الوضوء ، باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين (١٧٨) ، ومسلم ، كتاب الحيض ، باب المذي (٣٠٣) .

رواية : « فِيهِ الْوُضُوءُ ». أي : ليس عليه الغسل .

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه حين أسلم : «وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، وَلاَ أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلاَلاً لَهُ ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ ؛ لأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ »[(١)].

وكان كذلك أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه : «لا ينام أبدًا إلا أشدَّ عليه سرواله »[(٢)]؛ خشية أن تنكشف عورته .

وهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يستحي من أصحاب النبيِّ ﷺ؛ كما في «الصحيحين »[(٣)] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبيُّ ﷺ: « إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا ، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ »، فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي ، قَالَ عَبْدُ الله : وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ ، فَاسْتَحْيَيْتُ ، ثُمَّ قَالُوا : حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « هِيَ النَّخْلَةُ »، قَالَ : فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ ، قَالَ : لأَنْ تَكُونَ قُلْتَ : هِيَ النَّخْلَةُ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا. يعني : من أمور الدنيا ! يريد أن يدعو له رسول الله ﷺ بدعوة مباركة .

وهذه أم المؤمنين حبيبة رسول الله ﷺ الحَصَانُ الرزان الصدِّيقة بنت الصديق ، الزهرة الحيية التي تفتحت في أرض الإسلام ، وسقيت بماء الوحي على يدي رسول الله ﷺ تقول عائشة : « كُنْتُ أَدْخُلُ بَيْتِي الَّذِي دُفِنَ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب كون الإسلام يهدم ما قبله ، وكذا الهجرة والحج (١٢١) .

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ١١١) ، والبيهقيُّ في «الشعب» (٦/ ١٥٤) ، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/ ٩١) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب قول المحدث : (حدثنا) أو (أخبرنا) أو (أنبأنا)(٦١) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة ، باب مثل المؤمن مثل النخلة (٢٨١١) .

فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ وَأَبِي ، فَأَضَعُ ثَوْبِي ، فَأَقُولُ : إِنَّمَا هُوَ زَوْجِي وَأَبِي ، فَلَمَّا دُفِنَ عُمَرُ مَعَهُمْ ، فَوَالله مَا دَخَلْتُ إِلاَّ وَأَنَا مَشْدُودَةٌ عَلَيَّ ثِيَابِي حَيَاءً مِنْ عُمَرَ »[(١)].

يا للعجب !! ليس حياءً من الأحياء فحسب ؛ وإنما هو أيضًا حياء من الأموات !! وهذا لا يكون إلا من أم المؤمنين أمِّنا عائشة ﵂.

وفي «مسند أحمد» و«مصنف عبد الرزاق» بسندٍ صحيح [(٢)]من حديث عائشة ﵂ قَالَتْ : جَاءَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ تُبَايِعُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخَذَ عَلَيْهَا : ﴿ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ﴾[الممتحنة:١٢] الآيَةَ ، قَالَتْ : فَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا حَيَاءً ، فَأَعْجَبَ رَسُولَ الله ﷺ مَا رَأَى مِنْهَا ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : أَقِرِّي أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ ؛ فَوَالله مَا بَايَعْنَا إِلاَّ عَلَى هَذَا ، قَالَتْ : فَنَعَمْ إِذاً. فَبَايَعَهَا بِالآيَةِ .

ويجدر بي ـ في هذا المقام ـ أن أطرح هذا السؤال : كيف نحقق الحياء ؟

أيها الأحبة : لو كانت الأخلاق صفاتٍ لازمةً يُطبع عليها الإنسان ولا يملك أبدًا أن يغيرها ؛ كالصفات الجسدية من طولٍ وقِصَرٍ ولون العين وغير ذلك ، لو كان الأمر كذلك لما أمر الله ﷻ بالتخلق بالأخلاق الكريمة ؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها ، لأنك جبلت عليها ، وفطرت عليها ، فلا يأمرك الله بتغييرها ؛ لأن الله لا يكلف إلا بما كان في مقدور المكلف أن يأتيه وأن يفعله ؛ فالحياءُ خلقٌ كريمٌ منه ما هو فطريٌّ ، ومنه ما هو مكتسب ، وهو الحياء الإيمانيُّ الذي يمنع صاحبه من الوقوع في المعاصي حياءً من الله

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠٢) ، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٦٣) ، وصححه على شرط الشيخين ، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (٨/ ٥٧) : «رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ».

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٥١) ، وعبد الرزاق (٦/ ٧) و (١١/ ٤٦٤) .

سبحانه وتعالى .

وهذا النوع يحتاج إلى تعهد وإلى ريٍّ بماء الإخلاص ، وماء المتابعة ، وماء صحبة الصالحين من أهل الحياء ، وأهل الخلق ، وأهل المروءة والدين .

ومن الوسائل التي تعين على تقوية الحياء الإيمانيِّ ما يلي :

أولاً : تقوية الإيمان في القلب ؛ لأن الحياء من الإيمان ، وذكرنا قبل ذلك أن الإيمان يزيد وينقص ؛ يزيد بالطاعات ، وينقص بالمعاصي والزلات ؛ قال تعالى :﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ [الفتح:٤] ؛ بالابتعاد عن بيئة الفتن والشهوات قدر الطاقة ، وأَنْ تُعَرِّضَ قلبك لمواد الإيمان من قراءة القرآن ، وذكرٍ ، واستغفار ، وصلاةٍ على النبيِّ ﷺ ، ونفقةٍ ، وقيام بالليل ، ودروس علم ، وأمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عن منكرٍ ، ودعوةٍ إلى الله ، وزيارةٍ للمقابر ، وزيارةٍ للمرضى ؛ كلُّ هذه الأعمال تجدد بها الإيمان في قلبك .

ثانيًا : المواظبة على الصلاة في جماعة ؛ لأن الصلاة تطهر العبد من المعاصي ، وتنهى العبد عن الفحشاء والمنكر الذي هو من البذاء ، والبذاء هوِ فحش القول والفعل ، وهو ضد الحياء ، والحياء في الجنة ، والجفاء في النار .

فواظب على الصلوات ؛ فهذه سفينة نوح وسْطَ هذه الأمواج المتلاطمة من أمواج الفتن ؛ أعاذنا الله وإياكم من الفتن .

ثالثًا : مراقبة الله ﷻ في السر والعلانية ؛ فلقد روى الطبرانيُّ[1] ـ بسندٍ

---

(١) أخرجه الطبرانيُّ في «الكبير» (١٢/ ٢٦٣) ، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ٣٨٦) ، ومن طريقه ابن عساكر (٣١/ ١٣١) ، من طريق زيد بن أسلم عن ابن عمر . وأبو داود في «الزهد» (٢٩٣) ، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٣٢٩) ، وابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (١٨٧) ، وابن عساكر

رجاله رجال الصحيح باستثناء عبد الله بن الحارث الحاطبي وهو ثقة ـ من طريق : زيد بن أسلم قال : « مَرَّ ابن عمر براعي غنم ؛ فقال : يا راعي الغنم ، هل من جزرة ؟ قال الراعي : ليس ها هنا ربها ؛ فقال ابن عمر : تقول أكلها الذئب ؟ فرفع الراعي رأسه إلى السماء ، ثم قال : فأين الله ؟ قال ابن عمر : فأنا والله أحق أن أقول : فأين الله ؟ فاشترى ابن عمر الراعي ، واشترى الغنم ، فأعتقه وأعطاه الغنم » .

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قُلْ عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفي عليه يغيب

وَقَدْ أَشَارَ ابْنُ القَيِّمِ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ فِي مَطْلَعِ حَدِيثِهِ عَنِ الحَيَاءِ عِنْدَمَا ذَكَرَ الآيَاتِ الكَرِيمَةَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى رُؤْيَةِ المَوْلَى ﷻ لِعِبَادِهِ ظَوَاهِرِهِمْ وَبَوَاطِنِهِمْ وَعَلَى كَوْنِهِ رَقِيبًا عَلَيْهِمْ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق:١٤]

وَقَوْلُهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر:١٩] .

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١] [(١)].

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ المَشْهُورِ : مَا الإِحْسَانُ ؟ قَالَ : « أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » [(٢)].

(٣١/ ١٣١ و ١٣٢) من طريق نافع عن ابن عمر ، وابن عساكر كذلك (٣١/ ١٣٤) عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر .

(١) « مدارج السالكين » (٢/ ٢٦٧) .

(٢) تقدم .

وَقَالَ ابْنُ القَيِّمِ فِي شَرْحِ العِبَارَةِ السَّابِقَةِ(١) : يَعْنِي أَنَّ العَبْدَ مَتَى عَلِمَ أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى نَاظِرٌ إِلَيْهِ أَوْرَثَهُ هَذَا العِلْمُ حَيَاءً مِنْهُ سُبْحَانَهُ ، فَيَجْذِبُهُ إِلى احْتِمَالِ أَعْبَاءِ الطَّاعَةِ ، وَذَلِكَ كَمَثَلِ العَبْدِ إِذَا عَمِلَ الشُّغْلَ بَيْنَ يَدَيْ سَيِّدِهِ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ نَشِيطًا فِيهِ ، مُحْتَمِلاً لأَعْبَائِهِ ، وَلاَ سِيَّمَا مَعَ الإِحْسَانِ مِنْ سَيِّدِهِ ، وَاللهُ ﷻ لاَ يَغِيبُ نَظَرُهُ عَنْ عَبْدِهِ ، فَإِذَا مَا غَابَ نَظَرُ العَبْدِ عَنْ كَوْنِ المَوْلَى نَاظِرًا إِلَيْهِ تَوَلَّدَ مِنْ ذَلِكَ قِلَّةُ الحَيَاءِ وَالقِحَةُ ، هَذَا وَلاسْتِقْبَاحِ الجِنَايَةِ النَّاشِئِ عَنِ الحَيَاءِ دَرَجَتَانِ أُخْرَيَانِ ، دُنْيَا وَهِيَ الاسْتِقْبَاحُ الحَاصِلُ عَنْ مُلاَحَظَةِ الوَعِيدِ ، وَعُلْيَا : وَهِيَ الاسْتِقْبَاحُ الحَاصِلُ عَنِ المَحَبَّةِ .

وَمِنَ الحَيَاءِ ما يَتَوَلَّدُ مِنْ تَحَقُّقِ القَلْبِ بِالْمَعِيَّةِ الخَاصَّةِ مَعَ اللهِ ﷻ ؛ قَالَ ابْنُ القَيِّمِ : « وَالمَعِيَّةُ مَعَ اللهِ نَوْعَانِ :

عَامَّةٌ : وَهِيَ مَعِيَّةُ العِلْمِ وَالإِحَاطَةِ الْمُسْتَفَادَةُ مِنْ قَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤] ، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق:١٦] .

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [الشورى:١١] .

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة:٧] .

---

(١) « مدارج السالكين » (٢/ ٢٧٥ ـ ٢٧٩ باختصار) وراجع : « نضرة النعيم » (باب الحياء) .

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣] .

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ [الجن:٢٨] .

خَاصَّةٌ : وَهِيَ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا سُبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨] .

وَقَوْلِهِ ـ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣] .

وَقَوْلِهِ ـ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

وَهَذِهِ الْمَعِيَّةُ مَعِيَّةُ قُرْبٍ تَتَضَمَّنُ الْمُوالاَةَ والنَّصْرَ والحِفْظَ وَكِلاَ الْمَعِيَّتَيْنِ مُصَاحَبَةٌ مِنْهُ لِلْعَبْدِ ، لَكِنِ الأُولَى مُصَاحَبَةُ اطِّلاَعٍ وَإِحَاطَةٍ ، والثَّانِيَةُ مُصَاحَبَةُ مُوَالاَةٍ ونَصْرٍ وَإِعَانَةٍ .

وَقُرْبُ الله ﷻ مِنَ العَبْدِ فَهُوَ ـ أَيْضًا ـ نَوْعَانِ :

الأَوَّلُ : قُرْبُهُ مِنْ دَاعِيهِ بِالإِجَابَةِ ، وَذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦] .

وَلِهَذَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ جَوَابًا للصَّحَابَةِ ﷺ عِنْدَمَا سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ : «رَبُّنَا قَرِيبٌ فَنُنَاجِيَهُ أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيَهُ ؟ »(١) .

وَالثَّانِي : قُرْبُهُ مِنْ عَابِدِهِ بِالإِثَابَةِ ، وَشَاهِدُهُ قَوْلُهُ ﷺ : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ

---

(١) تقدم .

الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ، وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ وَهُوَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ »[(١)].

وَهَذَا الْقُرْبُ لاَ يُنَافِي كَمَالَ مُبَايَنَةِ الرَّبِّ لِخَلْقِهِ ، وَاسْتِوَاءَهُ عَلَى عَرْشِهِ ، إِذْ هُوَ لَيْسَ كَقُرْبِ الأَجْسَامِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ ، تَعَالَى الله عَنْ ذَلِكَ عُلوًّا كبيرًا .

وَمِنْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَهُمْ أَوْلِيَاءُ رَسُولِ الله ﷺ وَأَحِبَّاؤُهُ ، الَّذِينَ هُوَ عِنْدَهُمْ أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْهَا ، يَجِدُونَ نُفُوسَهُمْ أَقْرَبَ إِلَيْهِ ، وَهُمْ فِي الأَقْطَارِ النَّائِيَةِ عَنْهُ مِنْ بَعْضِ جِيرَانِ حُجْرَتِهِ فِي المَدِينَةِ (المُنَوَّرَةِ) » انتهى بإيجاز.

رابعًا : تحرِّي الصدق في القول والعمل ، وترك الكذب في القول والعمل ؛ فالصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، والبر من الحياء .

خامسًا : النظر دومًا إلى حياء القدوة الطيبة والمثل الأعلى محمدٍ ﷺ والصحابة من بعده ؛ قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١] .

سادسًا : مصاحبةُ الصالحين والإكثار من النظر إليهم والسماع لهم ؛ فإن الحياء يحيا بمجالسة من يُستحى منه .

قال ابنُ الأعرابيِّ : «كان يقال : أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيى منه »[(٢)].

وفي الحديث الذي رواه أحمد في «الزهد» والخرائطيُّ في «مكارم الأخلاق» والبيهقي في «الشعب»[(٣)] بسندٍ جيد من حديث سعيد بن يزيد الأنصاري أن

---

(١) تقدم .

(٢) أخرجه البيهقيُّ في «الشعب» (٦/ ٥٠٦) .

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (٤٦) ، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ١٤٥) ، والخرائطي (ص٥٠) ، والمروزي في « تعظيم الصلاة » (٨٢٦) وقال الألباني : «وهذا إسنادٌ جيد رجاله كلهم ثقات » كما في «الصحيحة» (٧٤١) .

رجلًا قال : يا رسول الله ! أوصني ؟ قال : « أُوْصِيكَ أَنْ تَسْتَحْيِي مِنَ الله كَمَا تَسْتَحْيِي رَجُلًا مِنْ صَالِحِي قَوْمِكَ » ؛ فخير الناس من تذكرك رؤيتهم بالله ، ومن تذكرك وجوههم بالله ؛ نسأل الله أن نكون منهم بمنه و كرمه .

قال مجاهد : « لو أن المسلم لم يستفد من أخيه إلا أن حياءَهُ منه يمنعه المعاصي لكفاه »[1]. يكفي أن تحرص على هذه الجلسة التي تمنعك من الوقوع في معصية الله ـ جَلَّ وَعَلاَ.

سابعًا : اعتزال البيئات الراكدة والفاسدة ، والتنزه عن معاشرة قليلي الحياء ؛ ابتعد عن هذا الصنف ، ولا يخفى حديث الرجل الذي قتل مائة نفس ، حين قال له العالم : « انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا ؛ وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ الله فَاعْبُدِ الله مَعَهُمْ ، وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ»[2] ؛ فاحرص على البيئة الصالحة التي تذكرك بالله ﷻ .

ثامنًا وأخيرًا : الإمساك عن فحش القول والعمل ؛ حياءً من الله ، وحياءً من الناس .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقني وإياكم الحياء ، وأن يرزق نساءنا وبناتنا وأخواتنا الحياء ، وأن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال .

*****

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧/ ٢١٥) ، ومن طريقه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٨٠) ، والبيهقيُّ في « الشعب » (٦/ ٥٠٤) .

(٢) سبق ؛ وهو في « صحيح البخاري » (٣٤٧٠) ، ومسلم (٢٧٦٦) .



فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ما هي الغاية من العبادة؟	٥
مقام اليقظة	٢١
الفكر والبصيرة	٤٩
منزلة العزم	٦٣
منزلة المحاسبة	٦٥
منزلة التوبة	٩٤
حقائق التوبة	١٠٨
لطائف أسرار التوبة	١٢٩
اللطيفة الأولى	١٢٩
اللطيفة الثانية	١٣٧
اللطيفة الثالثة	١٤٩
عقبات على طريق التوبة	١٥٧
منزلة الإنابة	١٧٦
أنواع الإنابة	١٨٢

الموضوع	الصفحة
التذكر والتفكر	٢٠٢
منزلة الاعتصام	٢٤٣
كيف نحقق الاعتصام؟	٢٥٣
منزلة الفرار إلى الله	٢٥٧
منزلة الخوف من الله	٢٧٤
درجات الخوف من الله	٢٨٤
منزلة الخشوع	٢٩٣
منزلة الإخبات	٣١٠
درجات الإخبات	٣١٤
منزلة الإشفاق	٣٢٦
منزلة المراقبة	٣٣٩
منزلة الإخلاص	٣٥٥
منزلة الاستقامة	٣٧٢
منزلة التوكل	٣٨٩
درجات التوكل	٣٩٥
منزلة الثقة والتسليم	٤٠٦

الموضوع	الصفحة
أنواع التسليم	٤١٤
منزلة الصبر	٤٢٠
أنواع الصبر	٤٢٣
مراتب الصبر	٤٢٥
منزلة الرضا	٤٤٨
حقيقة الرضا	٤٥٠
أقسام الرضا	٤٥٥
ثمرات الرضا	٤٥٨
منزلة الشكر	٤٦٣
قواعد الشكر	٤٧١
درجات الشكر	٤٨٣
الفرق بين الحمد والشكر	٤٨٦
الفرق بين الصبر والشكر	٤٨٦
لفتة	٤٨٨
منزلة الحياء	٤٨٩
أقسام الحياء	٤٩٠

الموضوع	الصفحة
أنواع الحياء	٤٩٢
فضل الحياء	٤٩٨
الوسائل التي تعين على تقوية الحياء	٥١٦
الفهرس	٥٢٣

*****


مجلة
الابتسامة
www.ibtesama.com


حصريات
مجلة
الابتسامة
www.ibtesama.com